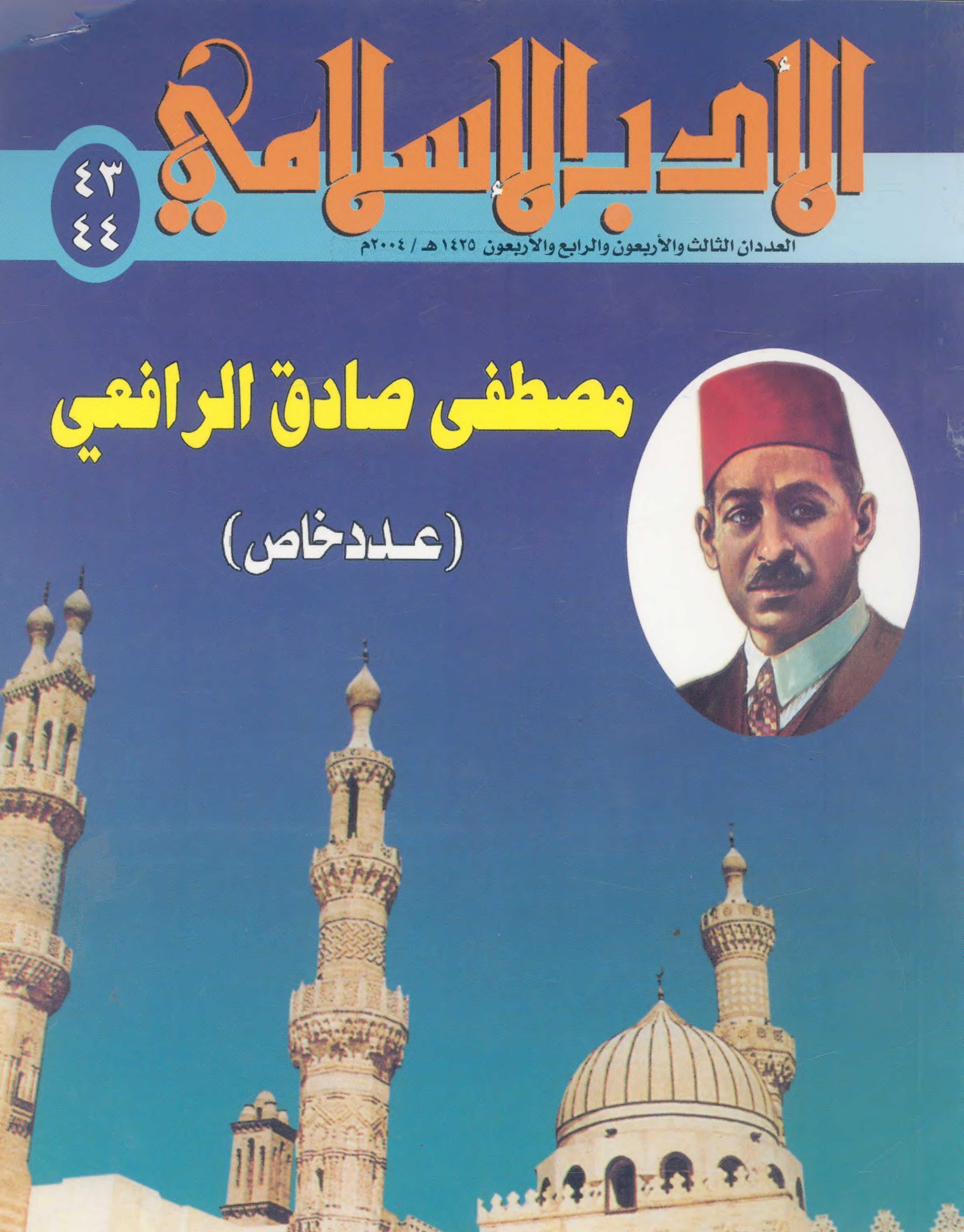
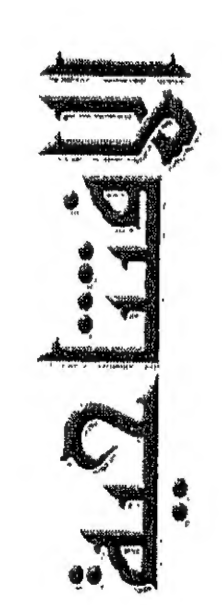


الأدب الإسلامي
٤٣
٤٤
العددان الثالث والأربعون والرابع والأربعون ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م
مصطفى صادق الرافعي
(عـددخاص)

أديب الإسلام الأكبر



ليس من المستغرب أن تصدر رابطة الأدب الإسلامي العالمية عددا مزدوجا خاصا بأديب الإسلام الأكبر في العصر الحديث وهو الأستاذ مصطفى صادق الرافعي -رحمه الله - ، بالإضافة إلى الندوة التي أقامها عنه مكتب الرابطة في القاهرة. وذلك أقل ما يُنصف به هذا الرجل العظيم الذي ظلم في حياته ، ولم ينصف بعد مماته .. مع ما كان له من دور كبير في الذود عن حمى الإسلام وحمى التراث ، وحماية حصوننا المهددة أو المهدمة من داخلها ، والمتربِّص بها من خارجها .

ولقد كان الرافعي أمة وحده ، حين وقف أمام تيار التغريب الذي ما تزال الأمة تعاني من آثاره في حياتها الاجتماعية والسياسية والثقافية ، بما في ذلك الأدب العربي الذي كاد أن يستعجم بتأثير المذاهب الفكرية والأدبية الدخيلة التي أقبل عليها دعاة التغريب بكل ما فيها من إيجابيات وسلبيات ، وبكل ما فيها مما يصادم عقيدة الأمة ويتنكر لتراثها ، ويفسد لغتها وذائقتها ، ويهدد هويتها وأصالتها. ولنستمع إلى الرافعي يخاطب هؤلاء المستغربين فيقول:

« علم الله ما فتن المغرورين من شبابنا إلا ما يأخذهم من هذه الحضارة ، فإن لها في زينتها ورونقها أخذةً كالسحر ، فلا يميزون بين خيرها وشرها ، ولا يفرّقون بين مبادئها وعواقبها، ثم لا يفتنهم منها إلا ما يدعوهم إلى ما يميت ، ويصدهم عما يُحيي ، وما يحول بينهم وبين قلوبهم ، فليس إلا المتابعة والتقليد » .

وكان الرافعي رائدا لأمته ، والرائد لا يكذب أهله ، فهو يبين لهم حقيقة الحضارة الغربية ، ويقرر أن هذه الحضارة أطلقت حرية العقل فتقدمت ، وأطلقت حرية الغرائز والأهواء فضلت وأضلت، وذلك حيث يقول : « فالحضارة الغربية أطلقت حرية العقول تجدد وتبتدع ، وأطلقت من ورائها الأهواء تلذ وتستمتع وتشتهي ، فضربت الخير بالشر ضربة لم تقتل ، ولكنها تركت الآثار التي هي سبب القتل ، إذ لا تزال تمد مدها حتى تنتهي إلى غايتها ، وذلك هو السر في أنه كلما تقادمت الأزمنة على هذه الحضارة ضج أهلها ، وأحسوا عللا اجتماعية لم تكن فيهم من قبل ».

لقد كان الرافعي أمة وحده ، حيث وقف « تحت راية القرآن » يخوض معارك كثيرة لفضح التقليد الذي سمي بالتجديد ، وليكشف ما يدعو إليه بعض المجددين من حرية التكفير باسم حرية التفكير ، وليصحح مسيرة الأدب العربي حتى لا تنقطع صلة هذا الأدب بتراثه ولا يفقد أصالته ، ولا تشوَّه لغته تحت شعار تسهيل اللغة وقواعدها ، أو يدعى إلى العامية بحجة صعوبة الفصحى وعدم صلاحيتها للحياة .

وكان الرافعي أمة وحده بفكره العميق، و بأسلوبه العُلوي الرصين الذي يكاد يصل إلى حد الإعجاز على ما فيه من بعض الغموض ، وبكتبه التي كان يسابق بها عمره القصير بما فيها من أفانين الإبداع والنقد، وبأشعاره التي غطى عليها نثره الرفيع ، وكل ذلك رفعه بجدارة إلى أن يكون « أديب الإسلام الأكبر في العصر الحديث».

رئيس التحرير

الأدب الإسلامي

مجلة فصلية

تصدر عن :

رابطة الأدب الإسلامي العالمية

المجلد الحادي عشر

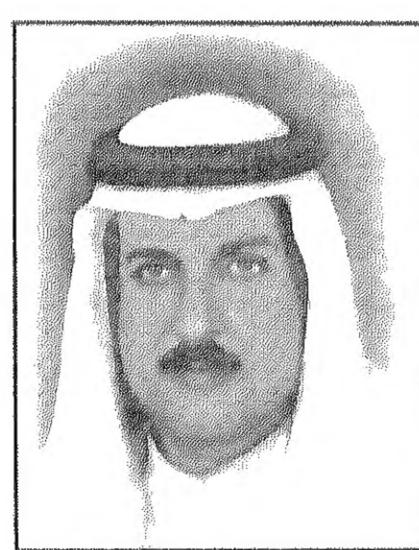
العددان الثالث والأربعون والرابع والأربعون

١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م





أصالة التجديد وتجديد الأصالة





شخصية الأديب المسلم في حياة الرافعي ورسالته



بين الرافعي وطه حسين تحت راية القرآن

المراسلات والإعلانات : السعودية - الرياض ١١٥٣٤ ص ب ٥٥٤٤٦

هاتف ٤٦٢٧٤٨٢ - ٤٦٣٤٣٨٨ / فاكس ٤٦٤٩٧٠٦ جوال ٠٥٣٤٧٧٠٩٤

Web page address :www.adabislami.org

E-mail:info@.adabislami.org



في هذا العدد

شروط النشر في المجلة

- تستبعد المجلة ما سبق نشره.
- موضوعات المجلة تنشر في حلقة واحدة.
- يرجى كتابة الموضوع على الآلة الكاتبة أو بخط واضح مع ضبط الشعر والشواهد وألا يزيد عن خمس عشرة صفحة.
- يرجى ذكر الاسم ثلاثياً مع العنوان المفصل.
- ترسل نبذة قصيرة عن الكاتب.
- توثيق البحوث توثيقاً علمياً كاملاً.
- الموضوع الذي لاينشر لايعاد إلى صاحبه.
- إرسال صورة غلاف الكتاب،موضوع الدراسة أو العرض، أو صورة الشخصية التي تدور حولها الدراسة أو المجرى معها الحوار.

الاشتراكات

- **للأفراد في البلاد العربية : ما يعادل ١٥ دولاراً - خارج البلاد العربية: ٢٥ دولاراً.**
- **للمؤسسات والدوائر الحكومية : ٣٠ دولاراً.**

أسعار بيع المجلة

دول الخليج ١٥ ريالا سعوديا أو مايعادلها، الأردن دينار ونصف، مصر ٤,٥ جنيهات، لبنان ٣٧٥٠ ليرة، المغرب العربي ١٣,٥ درهما مغربيا أو مايعادلها، اليمن ٢٢٥ ريالاً، السودان ٣٧٥ دينار، الدول الأوربية ما يعادل ٤,٥ دولارات.

أصالة التجديد وتجديد الأصالة

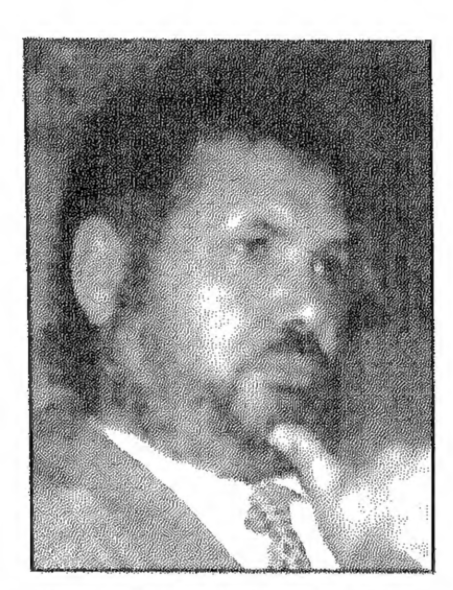
كل أديب عظيم يثير حوله من المعارك ما لا يكاد ينطفئ أواره، وينقسم الناس حوله ما بين مغال في المدح ومغال في القدح وطالب التوسط. هكذا كان حال أبي تمام والمتنبي وأبي حيان من القدماء. وهكذا كان حال شوقي وحافظ، والعقاد وطه حسين، ونازك والسياب من المحدثين.



وقد كان مصطفى صادق الرافعي -رحمه الله- من هؤلاء العظماء العباقرة الذين وقعت حولهم الخصومة ولم تنطفئ. ولكني أحسب أنه ما من أحد من أولئك أصابه الظلم والعنت من مشايعيه وخصومه على السواء مثل ما حدث مع الرافعي. فأما من خصومه فالأمر بين ، فهم يتهمونه بالتقليد وعدم الإبداع أو بالتعقيد الكتابي، كما فعل طه حسين، أو بكونه أسير الجملة القرآنية، مما رد عليه الرافعي في كتابه: «تحت راية القرآن» وما ذلك إلا لأن هؤلاء ربطوا ربطا فجا بين التشبث بخصائص الأمة وثوابتها وبين التقليد والجمود، ولأن كثيرا منهم ربط ربطا غير جميل بين الدفاع عن هوية الأمة وبين معاداة الجديد . وأما المشايعون والأنصار فكانوا كالذي يريد الدفاع عن قضية عادلة فلا يأتي من بابها، ولا يختار للدفاع عنها من يملك أدوات الحجاج والقدرة على التأثير والإقناع، فتضيع القضية لا لأنها باطلة، ولكن لأنها لم تؤت من يحسن عرضها وتجليتها للناس، ولو تم ذلك لما احتاجت إلى الدفاع لأن الحق إذا تجلى وتبين واتضح ملك من قوة الذات وركب منه لسان لسن بيِّن لا يحتاج معه إلى دفاع، فكثير من مناصريه انطلقت عليهم حيلة الخصوم وسلموا بأن الرافعي حصر نفسه في أساليب القدماء ومنهجهم دفاعا عن الحق، وما علموا أن الذي يملك حظا كبيرا من التجديد لا يثير انتباه أحد، وتمر عليه الأيام وهو مهمل في ركن ركين، وما كان أمر الرافعي كذلك، فلقد كان -رحمه الله- من كبار المجددين، ومن التجديد



ــــة عند الرافعي



بقلم: حسن الأمراني
المغرب

عنده تحديد مفهوم التجديد، بما يناسب التطور الأدبي، وقد كشف الرافعي زيف دعاة التجديد الذين ينفخون في التزوير باسم التنوير، ويزعمون لأنفسهم التجديد وهم أئمة في التقليد لأنهم انصرفوا عن ذواتهم إلى تقليد ذوات سواهم من الغربيين فكان ذلك أسوأ صور التقليد.

هل يمكن أن يقال: إن هنالك مؤامرة لطمس أدب الرافعي، لأن نشره من شأنه أن يزلزل كثيرا من القواعد، وأن يذهب بأوتاد دعاة التزوير باسم التنوير، ويهتك طيلسان مدعي النبوة في الأدب والفكر؟

ولعل أهم سؤال يفرض نفسه على من يعيد قراءة الرافعي، مبدعا ومنظرا، وإعادة قراءة الرافعي أمر مشروع ومطلوب، هو: كيف نقرأ الرافعي؟ إنني أزعم أننا لم نقرأ الرافعي بعد كما ينبغي أن يقرأ، وكثير من الناس يقرؤونه بعيون الآخرين لا بأعينهم، ولقد صدق شوقي حين قال:

صور العمى شتى وأقبحها إذا
نظرت بغير عيونهن الهام

فالذي يريد أن يجلي علاقة الأصالة بالتجديد عند الرافعي مطالب بأن يقرأ إنتاجه كله، ويقف على ما فيه من صور التنظير والتطبيق، وذلك مما لا ينهض به بحث واحد أو دراسة واحدة، مهما زعمت لنفسها من الشمول، فضلا عن أن تحصر أطرافه في بحث محدود وفي وقت محدود، ولقد تطلعت الهمة إلى شيء من الإحاطة، ثم إلى النظر في نموذج تنظيري وآخر تطبيقي، ثم وجدتني مدعواً إلى الاقتصار على أثر واحد من آثار الرافعي العديدة والمتنوعة، وهو كتاب " «وحي القلم»، بل لقد انتهيت إلى عدم تقصي الكتاب كله، مقتصرا على بعض ما ينطق جهارا بالمراد، وأنا أعلم من نفسي العجز والتقصير. وأنا بين يدي علم شامخ كالرافعي، لا يلقي الكلام على عواهنه، ولا ينقض اليوم ما أبرمه في الأمس، بل هو كالبناء الحذق الماهر الذي يسعى إلى الإتقان في رفع بناء يحتاج إحكامه إلى أن يرفع لبنة لبنة وحجرا حجرا.

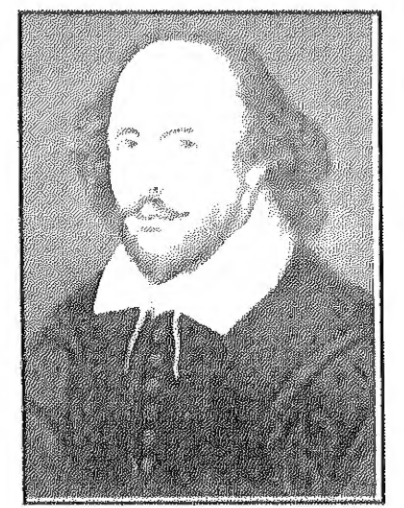
وأول ما يلفت نظر الدارس أن الرافعي ليس منغلقا على نفسه ولا منكفئا على ذاته كما يزعم الزاعمون، ولا هو مقتصر في اطلاعه على تراثنا الإسلامي، بل هو رجل موسوعي مطلع اطلاع خبير على الثقافات الإنسانية، ومنها الثقافة الغربية التي كان يرى فيها بعض التغريبيين الوجه الأوحد للتحرر والتجديد، والرافعي لا يدعي ولا يزعم ولا يريد أن يتعالى على الناس فيحدثنا عن ذلك الفكر الإنساني وأعلامه، ومنه الفكر والأدب الغربي بل هو يأتيه هونا، مستشهدا أو ملمحا أو مستفيدا، في غير ما فخر ولا ادعاء، ولا تضاؤل للذات أو انسحاق أمام ذلك الفكر والأدب، فلذلك يطالعك في أدبه أعلام من الغربيين أفذاذ لا ينتقص منهم الرافعي ولا يحتقرهم، كما يزعم أولئك الذين يرونه خصما لكل جديد، وعدوا لدودا لما كل ما وفد من الغرب، وهكذا يتجاور في تراث الرافعي أعلام الغرب وعباقرته مع أعلام العرب وعباقرتهم،

● الرافعي منفتح على عصره، متتبع لما ينتجه المنتجون ويحبره المحبرون ويبدعه المبدعون.

ويتحدث عن شكسبير وأناتول فرانس ولامرتين وفكتور هيجو، بالإعجاب نفسه الذي يتحدث به عن امرئ القيس والمتنبي وغيرهما من فحول العرب، بل ربما قرن على صعيد واحد بين عبقري عربي وعبقري غربي، كما فعل مع المتنبي وشكسبير، حين تحدث عن العبقريات الملهمة فقال:(ولقد يخطر لي وأنا أقرأ بعض المعاني الجميلة لذهن من الأذهان الملهمة كشكسبير والمتنبي وغيرهما ...[1] .

والرافعي منفتح على عصره، متتبع لما ينتجه المنتجون ويحبره المحبرون ويبدعه المبدعون، ثم هو مقبل على ذلك إقبال الدارس الحصيف، وينقده فعل الناقد البصير، لا يجور به الهوى، ولا يثنيه تعصب عن الحق، وهو يقول للمحسن أحسنت وللمسيء أسأت، ولعل بعضا مما لا يكوّن صورة عن الرافعي إلا من خلال ما يقرأ لغيره، يذهب به الظن إلى أنه كان خصما للتجديد وأعلامه، فهو يعجب إذا سمع أن الرافعي كان معجبا بتوفيق الحكيم، على سبيل المثال، في مسرحية ما يزال بعض (المحافظين) حتى اليوم يرى أن توفيق الحكيم أساء فيها كل الإساءة ولم يوقر ما ينبغي توقيره، وأعني مسرحية (محمد) التي استقاها من سيرة الرسول ﷺ، والرافعي يقول عن المسرحية

المتنبي



شكسبير

وصاحبها: «عمل الأستاذ توفيق الحكيم في تصنيف هذا الكتاب أشبه شيء بعمل كريستوف كولب. في الكشف عن أمريكا وإظهارها من الدنيا للدنيا: لم يخلق وجودها، ولكنه أوجدها في التاريخ البشري، وذهب إليها، فقيل: جاء بها إلى العالم . وكانت معجزته أنه رآها بالعين في عقله، ثم وضع بينه وبين الصبر والمعاناة والحذق والعلم حتى انتهى إليها حقيقة ماثلة .

قرأ الأستاذ كتب السيرة وما تناولها من كتب التاريخ والطبقات والحديث والشمائل، بقريحة غير قريحة المؤرخ، وفكرة غير فكرة الفقيه، وطريقة غير طريقة المحدث، وخيال غير خيال القاص، وعقل غير عقل الزندقة، وطبيعة غير طبيعة الرأي، وقصد غير قصد الجدل، فخلص له الفن الجميل الذي فيها، إذ قرأها بقريحته الفنية المشبوبة، وأمرها على إحساسه الشاعر المتوثب، واستلها من التاريخ بهذه القريحة وهذا الإحساس كما هي في طبيعتها السامية متجهة إلى غرضها الإلهي محققة عجائبها الروحية المعجزة».

وانتهى الرافعي إلى القول:«وحسب المؤلف أن يقال بعد اليوم في تاريخ الأدب العربي: إن ابن هشام كان أول من هذب السيرة تهذيبا تاريخيا على نظم التاريخ، وأن توفيق الحكيم كان أول من هذبها تهذيبا فنيا على نسق الفن»[2].

وما أظن أن توفيق الحكيم نال، حتى من المغالين في الإعجاب به، شرفا أعظم من هذا ولا وساما أعلى من هذا .

وعندما يتحدث الرافعي عن الشاعر المهندس علي محمود طه في ديوانه: الملاح التائه ، يبرز لك الأديب الناقد المتحمس للتجديد

، فمعلوم أن المهندس علي محمود طه من زعماء التجديد الشعري، وأنه إذا قيس إلى زمانه، كان بتعبير اليوم ممن ثار على أنماط الشعر التقليدية، وذهب في التجديد شوطا بعيدا، فهو ابتدع طريقة جديدة في التعبير لا صلة بينها وبين مدرسة شوقي، وهو في الشكل لم يبق حبيس القصيدة الخليلية الموحدة القافية، بل نوع وبدل،، وأبدع وجدد، ومع ذلك يقف منه الرافعي موقفا أراه أكثر انتصارا للتجديد ممن كانوا يرفعون لواء التجديد آنذاك من أمثال العقاد وطه حسين، ولم يكد الرافعي ينكر من ديوان الملاح التائه، إلا بعضا من قصيدة "الله والشاعر" وهو إنكار لم يمس الفن بقدر ما مس التصور العقدي الذي جعل الشاعر يتيه في غيابة الشك والقلق، ومع ذلك وجد للشاعر مخرجا، وإن لم يكن له عذرا، بأن جعله في شكه ذاك امتدادا راسخا لشاعر عربي قديم، فقال مميزا بين الشعراء والمتشاعرين: «أما فريق المتشاعرين فليمثل له القارئ بمن شاء وهو في سعة ... وأما فريق الشعراء ففي أوائل أمثلته عندي الشاعر المهندس علي محمود طه . أشهد: أني أكتب عنه الآن بنوع من الإعجاب الذي كتبت به في المقتطف عن أصدقائي القدماء: محمود باشا البارودي وإسماعيل باشا صبري وحافظ وشوقي، رحمهم الله وأطال بقاء صاحبنا .. فليس من الشرط عندي أن يكون الشاعر وبيئته في شعره، وإنما الشرط أن تكون هناك نفسه الشاعرة على طريقتها في الفهم والتصوير .. وليس في شعر علي طه من عصرياتنا غير القليل ... أما سائر أغراضه فإنسانية عامة، تتغنى النفس في بعضها، وتمرح في بعضها، وتصلي في بعضها، وليس فيها طيش ولا فجور ولا زندقة إلا .. ظلالا من الحيرة والشك، كتلك التي في قصيدة "الله والشاعر" وأظنه شايع فيها المعري، ولست أدري كم ينخدع الناس بالمعري هذا، وهو في رأيي شاعر عظيم، غير أن له بضاعة من التلفيق تعدل ما تخرجه "لانكشير" من بضائعها إلى أسواق الدنيا» [٣] .

● كان الرافعي أكثر سماحة وأوسع صدرا بقبول التجديد من أكثر معاصريه.

توفيق الحكيم

فهل ترى من سماحة، وسعة صدر، وقبول للتجديد، وإقبال عليه، مثلما ترى في رأي الرافعي هذا ؟ إنك ترى أن الإعجاب بالقديم لا يمنعه من نقد هذا القديم إن رأى فيه انحرافا، حتى وإن كان ذلك الانحراف من شاعر عظيم، كما قال، كالمعري .

ونحن نعلم كيف تراجع العقاد عن بعض دعواته التحررية في الشعر في أواخر عمره، حتى إنه كان يكتفي بأن يعلق على كل نص شعري حديث في لجنة الشعر بجملة واحدة: «يحال على لجنة النثر "، أما الرافعي فقد كان في أواخر عمره يوم كتب ما كتب، ولعله - فيما أزعم - كان سيكون أكثر سماحة من العقاد من حركة الشعر الحديث لو قيض له أن يدركها .

التجديد عند الرافعي

اتخذ التجديد عند الرافعي صورا شتى، وتجلى في أمور كثيرة، نجتزئ منها بعضا مما تضمنه كتابه الفذ: «وحي القلم»، ويمكن إجمالا تقسيم مظاهر التجديد وصوره إلى شطرين: الأول تنظيري والآخر إبداعي .

الشطر التنظيري:

كانت المعركة محتدمة زمن الرافعي بين القديم والجديد، وما كان لأديب كبير مثل الرافعي أن يظل بمنأى عن تلك المعارك ونارها وغبارها، ولقد كان موقفه واضحا جليا يعتمد سمة التوازن التي هي سمة جوهرية في التصور الإسلامي، وكان للرافعي مشاركات تنظيرية وأخرى عملية تطبيقية في هذا المجال، وهو ذو رأي خاص متميز، فلا هو عبد للقديم والقدماء، ولا هو تبع للحديث والمحدثين .. ولم يكن يعني أن الرافعي كان يطلب التوسط فرارا مما عسى أن يورثه التشيع لفريق دون فريق من الخصومة والعداء فهو خاض معاركه على اقتدار، ولكنه ذا رأي متفرد يرفض الإمعية، وأول ملحظ نلحظه أن الناس كانوا يتحدثون عن الصراع بين القديم والحديث، كما هو الشأن عند طه حسين مثلا، وأن الرافعي كان يتحدث عن الصراع بين التجديد والتقليد، وهذا رأي حصيف، إذ من القديم ما يظل على الزمن لا يبلى، فلا يجوز إذن أن نسمه بالتقليد لمجرد القدم، ومن الحديث ما يفقد الأصالة والجدة ويكون في أقصى درجات التقليد، ولذلك يرى الرافعي أن من أسس التجديد الحق التواصل بين القديم والجديد، حتى كأنهما بمثل حلقتين مترابطتين في سلسلة، ومن هنا كان يرى أن التجديد الحق يرتكز على القديم» فلا جديد، إلا مع القديم (٤) .

والرافعي لا يرى الإعجاز نفسه إلا في الجديد، وهكذا كانت نظرته إلى القرآن الكريم منطلقة من هذا التصور، فهو يقول: «نعتقد أن أكثر ما جاء في القرآن الكريم كان جديدا في اللغة، لم يوضع من قبله ذلك الوضع ولم يجر في استعمال العرب كما أجراه، فهو يصب اللغة صبا في أوضاعه لأهلها لا في أوضاع أهلها، وبذلك يحقق من نحو ألف وأربعمئة سنة ما لا نظن فلسفة الفن قد بلغت إليه في هذا العصر، إذ حقيقة الفن على ما نرى أن تكون الأشياء كأنها ناقصة في ذات أنفسها

● **الرافعي لا يرى الإعجاز إلا في الجديد، وهكذا كانت نظرته إلى القرآن الكريم منطلقة من هذا التصور.**

ليس في تركيبها إلا القوة التي بنيت عليها، فإذا تناولها الصَّنع الحاذق الملهم أضاف إليها من تعبيره ما يشعرك أنه خلق فيها الجمال العقلي، فكأنها كانت في الخلقة ناقصة حتى أتمها»(٥) .

ومن هنا ينبع الإنصاف عند الرافعي، ونفهم موقفه الصحيح من القديم والقدماء، فليس قديم عنده جديرا بالتمجيد ولا حتى بالبقاء، بل ليس كل أديب قديم من الفحول يؤخذ كلامه كله، بل يؤخذ منه ويرد، وهكذا لم يكن الإعجاب بعلم من الأعلام بمانع الرافعي من أن ينتقده أو يوجه إليه اللوم إن كان بذلك جديرا، وحسبنا أن نعلم موقفه من الباقلاني -رحمه الله تعالى- وهو من خدم الدراسات الإعجازية خدمة جليلة، إلا أن تجربة الباقلاني التي زل فيها، وهي زلة عالم جعلت الرافعي يتتبعه فيها ويؤاخذه عليها، فيقول: «وعرض الباقلاني في كتابه طويلة امرئ القيس فانتقد منها أبياتا كثيرة، ليدل بذلك على أن أجود الشعر وأبدعه وأفصحه وما أجمعوا على تقدمه في الصناعة والبيان، هو قبيل آخر غير نظم القرآن لن يمتنع عن آفات البشرية ونقصها وعوارها، فركب في ذلك رأسه ورجليه معا .. فأصاب وأخطأ، وتعسف وتهدى، وأنصف وتحامل، وكل ذلك لمكانة امرئ القيس في ابتكاره البياني الذي لا يمكن أن يدفع عنه»(٦) .

ويزيد الأمر بيانا حين يقول: «ولما انتقد قوله، يعني امرئ القيس:

وبيضةِ خِدْرٍ لا يرام خباؤها
تمتعت من لهو بها غير معجل

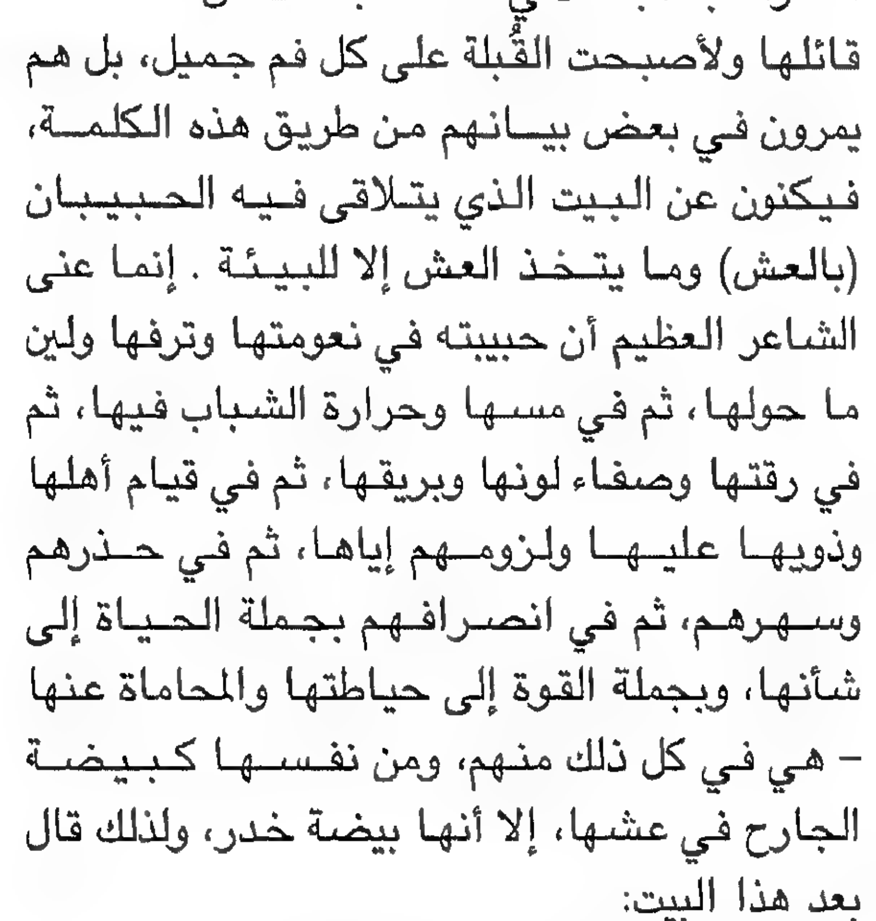
قال، يعني الباقلاني: فقد قالوا عنى بذلك أنها كبيضة خدر في صفائها ورقتها، وهذه كلمة حسنة، ولكن لم يَسْبَق إليها، بل هي دائرة في أفواه العرب»، قال الرافعي معلقا: «ألا ليت شعري هل كان الباقلاني يسمع من أفواه العرب في عصر امرئ القيس قبل أن يقول: وبيضة خدر ؟» .

ولا يقف الرافعي مع الباقلاني عند هذا الحد، ولكنه يتقدم خطوات ليضع يدنا على موطن الجمال في قول امرئ القيس، مما هو جديد ولم يذكره القدماء، فيقول: «على أن الكناية عن الحبيبة (ببيضة الخدر) من أبدع الكلام وأحسن ما يؤتى العقل الشعري، ولو قالها اليوم شاعر في لندن أو باريس بالمعنى الذي أراد امرؤ القيس – لا بما فسرها به الباقلاني – لاستبدعت من قائلها ولأصبحت القُبلة على كل فم جميل، بل هم يمرون في بعض بيانهم من طريق هذه الكلمة، فيكنون عن البيت الذي يتلاقى فيه الحبيبان (بالعش) وما يتخذ العش إلا للبيئة . إنما عنى الشاعر العظيم أن حبيبته في نعومتها وترفها ولين ما حولها، ثم في مسها وحرارة الشباب فيها، ثم في رقتها وصفاء لونها وبريقها، ثم في قيام أهلها وذويها عليها ولزومهم إياها، ثم في حذرهم وسهرهم، ثم في انصرافهم بجملة الحياة إلى شأنها، وبجملة القوة إلى حياطتها والمحاماة عنها – هي في كل ذلك منهم، ومن نفسها كبيضة الجارح في عشها، إلا أنها بيضة خدر، ولذلك قال بعد هذا البيت:

تجاوزت أحراسا إليها ومعشرا
علي حراصا لو يسرون مقتلي

فتلك بعض معاني الكلمة وهي كما ترى، وكذلك ينبغي أن يفسر البيان ...»(7) .

فلك أن تتصور هذا الذي فتقه الرافعي واستخرجه واستنبطه من عبارة واحدة في شعر امرئ القيس، انتصارا لامرئ القيس، ونحن نرى كيف كان الرافعي مستجيبا لروح العصر في تحليله هذا، وكاشفا عن روح الفن المتجدد في قول امرئ القيس، فهذا الذي سبقت الإشارة إليه من أن من القديم ما هو بريء من سطوة التقليد، قادر على تجاوز الأعصار والأمصار ومنه ما لا يموت بموت صاحبه، كما أن من الحديث ما هو غارق في التقليد لا يقنع معاصريه فضلا عن أن يتجاوز عصره . ولا يهاجم الرافعي شيئا مثلما يهاجم التقليد، وذلك مبثوث في كتاباته، ومن ذلك قوله من المقدمة التي كتبها لشرح الجواليقي على أدب الكاتب لابن قتيبة، بعدما أورد كلمة ابن خلدون المشهورة عن أصول فن الأدب وأركانه ودواوينه الأربعة: «قد يظن أدباء عصرنا أن كلمة ابن خلدون هذه كانت تصلح لزمنه وقومه .. ولكنه لا تستقيم في آدابنا ولا تعد من آلاتنا ولا تقع من معارفنا، بل يكاد يذهب من يتغرر منهم بالآراء الأوربية التي يسميها علمه .. ومن يسترسل إلى التقليد الذي يسميه مذهبه .. إلا أن تلك الكتب وما جرى في طريقتها هي أموات من الكتب، وهي قبور من الأوراق، وأنه يجب أن يكون بيننا وبينها الإهمال أكثر مما بينها وبيننا من الزمن، وأن بعث الكتاب منها وإحياءه يوشك أن يكون كبعث الموتى: علامة على خراب الدنيا .


ابن خلدون

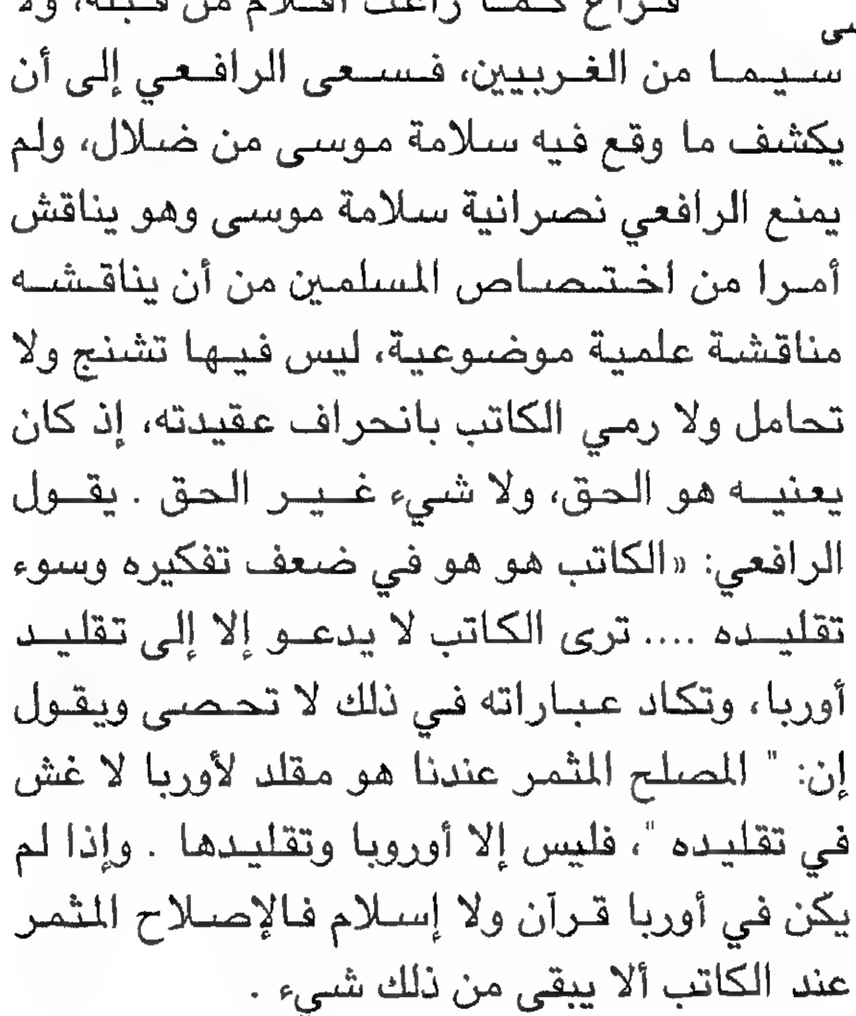
... وأما تلك الكتب فأنا أحسبها لم توضع إلا لزماننا هذا ولأدبائه وكتابه خاصة ... فإن هذه المادة الحافلة من المعاني تحيي آداب الأمم في أوروبا وأمريكا، ولكنها تكاد تطمس آدابنا وتمحقنا محقا تذهب فيه خصائصنا ومقوماتنا، وتحيلنا عن أوضاعنا التاريخية، وتفسد عقولنا ونزعاتنا ....

ومن ذلك ابتلي أكثر كتابنا بالانحراف ... ومنهم المقلد الذي لا يدري أعلى قصد هو أم جور ... وقلما تنبه أحد إلى السبب في هذا ... السبب أن أولئك الأدباء ثم من تشيع لهم أو أخذ برأيهم، ليس فيهم واحد ترى في أساسه الأدبي تلك الأصول العربية .. حتى إذا نشأ بها واستحكم فيها أحسن العمل لها وزاد في مادتها وأخذ لها من غيرها، وكان خليقا أن يمد فيها ويحسن الملاءمة بينها وبين الآداب الأخرى، ويجعل ذلك نسجا واحدا وبيانا بعضه على بعض»[٨] .

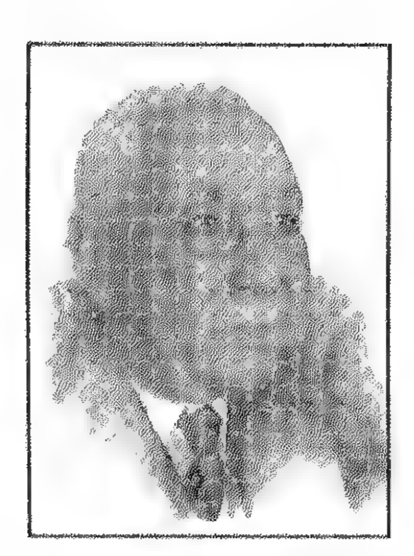
ويقف الرافعي مع الجديد مهاجما التقليد والتقليد المركب، ويراه استعبادا ما من ورائه استعباد، فيقول ساخرا غاضبا في الوقت ذاته: «أكتب علينا أن نظل دهرنا نبحث في التقليد الأعمى، وألا يحيا الشرق إلا مستعبدا ينتظر في كل أموره من يقول له: اشرع لي ..؟ إن بحثنا فلنبحث في أي جديد نتميز به، فتكون القوى الكامنة فينا وفي طبيعة أرضنا وجونا هي التي اخترعت لظاهرها ما يجعله ظاهرها، كما يخرج زور الأسد لبدة الأسد، غاية في المنفعة والجمال والملاءمة» [٩] .

فالذي ينكره الرافعي ليس هو التجديد أبدا، بل هو ألا ينبع التجديد من أرضنا وطبيعتنا ومقوماتنا، وأن يظل مستجلبا كما نستجلب البضاعة التي تفسد إن هي نقلت من أرضنا إلى أرض أخرى، أو كالذي يريد أن يمارس رياضة التزلج في صحراء الجزيرة العربية، وفي ذكاء لماح يشعرك الرافعي بأن كل جديد لا يهدي إلى التوفيق بين المنفعة والجمال والملاءمة هو تجديد كاذب . وقد انقسم الأدباء والنقاد منذ أرسطو ما بين منتصر للجمال في الفن ومنتصر للمنفعة، فلم يوفق إلا فئة قليلة منهم إلى أن سر الفن يكمن في التلاؤم والتوازن بين المنفعة والجمال.

• الذي ينكره الرافعي ليس هو التجديد بل استيراد التجديد الذي لا ينبع من تراثنا وأصالتنا وعقيدتنا.



وكثير ممن يزعمون التجديد ويعتبرون أنفسهم أنصاره ليسوا عند الرافعي غير نموذج بئيس للتجديد، ويقدم سلامة موسى نموذجا لهذه الفئة، وإذا كان سلامة موسى في اندفاعه لا يقف عند مهاجمة من يراهم زعماء القديم، بل هو يهاجم أمثال طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم، باعتبارهم لا يحملون رسالة، وأن ما يكتبونه فارغ، ويزعم نفسه داعية الإصلاح . فإن الرافعي يهتك ستره ويرى أن سلامة موسى أسوأ المقلدين، وقد عرض سلامة موسى لقضية المرأة والميراث في الإسلام، فزاغ كما زاغت أقلام من قبله، ولا سيما من الغربيين، فسعى الرافعي إلى أن يكشف ما وقع فيه سلامة موسى من ضلال، ولم يمنع الرافعي نصرانية سلامة موسى وهو يناقش أمرا من اختصاص المسلمين من أن يناقشه مناقشة علمية موضوعية، ليس فيها تشنج ولا تحامل ولا رمي الكاتب بانحراف عقيدته، إذ كان يعنيه هو الحق، ولا شيء غير الحق . يقول الرافعي: «الكاتب هو هو في ضعف تفكيره وسوء تقليده .... ترى الكاتب لا يدعو إلا إلى تقليد أوربا، وتكاد عباراته في ذلك لا تحصى ويقول إن: " المصلح المثمر عندنا هو مقلد لأوربا لا غش في تقليده "، فليس إلا أوروبا وتقليدها . وإذا لم يكن في أوربا قرآن ولا إسلام فالإصلاح المثمر عند الكاتب ألا يبقى من ذلك شيء .



سلامة موسى

«مقلد أوربا لا غش في تقليده»، وما هو الغش في التقليد ؟ هو أن تستعمل رأيك وفكرك فتدع وتأخذ على بينة في الحالين، وأن تأبى أن تحمل طبيعتك الشرقية ما لا تصلح عليه ولا تقوم به، وإذا انقلبت أوربا شيوعية أو إباحية وجب ألا تغش في التقليد ... وإن كانت الشمس لا تطلع ستة أشهر في بعض جهات أوربا وتطلع في مصر كل يوم، وجب أن يكون المصري أعمى ستة أشهر ... والظاهر أن الكاتب يقول بالتقليد لأنه طبيعي فيه ... ورأيه في الميراث إنما هو ترجمة ... لعمل مصطفى كمال»[١٠] .

هكذا إذن يكشف الرافعي تهافت رأي سلامة موسى في اللباب والقشور، والتقليد والتجديد، وينقل هذا الرأي الغريب لسلامة موسى، وهو قوله إنه: «معتقد أن الأمة التي تشرع في اتخاذ المدنية الحديثة يجب أن تبدأ بالقشور ... !! لأنها أسهل عليها من اللباب؛ بل هي لا تستطيع غير ذلك»!!

ومن هنا يقف الرافعي بالمرصاد لمدعي التجديد وليس لهم حظ من التجديد إلا التخريف الباطل . فهو يقول: «أما أن الحماقة الجديدة، والرذيلة الجديدة، والخطأ الجديد، كل ذلك إن كان جديدا من صاحبه فهو قديم في الدنيا، وليس عندنا أبدا من جديد إلا إطلاق الحرية في استعمال كل أديب حقه في الوقاحة والجهل والخطأ والغرور والمكابرة»[١١]، وعلى هذا فلا يصلح الاحتفاء بكل جديد ولا بكل مجدد، إذ هناك من كان (مجددا على مذهب إبليس الذي رد على الله والملائكة وظن لحمقه أن قوة المنطق تغير ما لا يتغير» [١٢]، ومن هنا لا يهاجم الرافعي التجديد بغير ما يهاجم التجديد غير المنضبط، حين يصير: (كل مجدد يريد أن يضع في كل شيء قاعدة نفسه هو، فلو أطعناهم لم تبق لشيء قاعدة)[١٣]، فالتجديد إما أن يقوم على قواعد راسخة وإما ألا يقوم أصلا، (هذه هي المسألة، لا مسألة الجديد والقديم)[١٤]، وعلى هذا فالباطل يظل باطلا ولو حاول المرء أن يكسوه شيئا من الجمال، لأنه يظل من زخرف القول، ومن هنا يهاجم في مواطن كثيرا ما أسماه بعضهم «الأدب المكشوف» بدءا من التسمية نفسها، إذ هذا ليس أدبا أصلا حتى نضيف إليه صفة مكشوف أو مستور، وإلا «ما الذي يمنع الفجور المتوقح أن يسمي نفسه الأدب المكشوف ...؟ وإذا أنت ذهبت تعترض على هذه التسمية زعموا لك أن للفن وقاحة مقدسة ...»[١٥] .

إن تجديد الأدب عند الرافعي مقترن بتجديد الإسلام نفسه، وتجديد الإسلام هو رسالة الأزهر، ومن هنا يدعو إلى أن تكون الدعوة العالمية اليوم «في ألسنة أزهرية مرهفة مصقولة، لها بيان الأدب، ودقة العلم، وإحاطة الفلسفة، وإلهام الشعر، وبصيرة الحكمة، وقدرة السياسة، ألسنة لا يوجد الآن منها لسان واحد في الأزهر، ولكنها لن توجد إلا في الأزهر»[١٦] .

ولما كان تحديد مفهوم الأدب ورسالته من ضرورات المذهب عني الرافعي بذلك كثيرا، وانتهى إلى نتائج حري بنا أن نتدبرها ونحن نسعى إلى تأصيل الأدب الإسلامي .

لماذا يكتب الكاتب ؟ ولماذا ينشئ الأديب أدبه؟ سؤال قديم جديد حير الأدباء والفلاسفة، وذهبوا فيه طرائق قددا، ويجيب عنه الرافعي في يسر وبساطة وعمق وصدق وشفافية، بأسلوبه الفني البديع، فهو ليس من أنصار الفن للفن، ولكنه في الوقت ذاته لا يكتفي بالقول إنه من أنصار الفن للحياة، حتى لا يقع فيما وقعت فيه بعض المذاهب المعاصرة، كالواقعية الاشتراكية التي بالغت في الاحتفاء بالمضمون مبالغة ضللت الأدباء، فغاض ينبوع الفن وتحولت كتاباتهم إلى شعارات حزبية ليس لها من رواء الفن حظ، ولا من شفافية الإبداع نصيب . يرى الرافعي الفن رسالة مقدسة باعتبار مصدرها العلوي الذي هو الله عز وجل، الرقيب على كل شيء «فالكاتب الحق لا يكتب ليكتب، ولكنه أداة في يد القوة

المصورة لهذا الوجود، تصور بها شيئا من أعمالها فنا من التصوير»[١٧] .

هل يريد الكاتب أن يعيد النظرية الأفلاطونية القديمة ويجعل الكاتب مجرد متلق من الغيب، ومن هنا يترتب عن ذلك إعفاؤه من المسؤولية، لأنه ليس غير مرآة تنعكس عليها حقائق الأشياء كما صاغتها آلهة الفن ؟ كلا ! فمسؤولية الأديب عند الرافعي لا تنتفي، إذ ليس عمله عبثا، وهو ليس مجرد مرآة عاكسة للأشياء والوجود في الكلمات .. ذلك بأنه «لا يُخلق الملهم أبدا إلا وفيه أعصابه الكهربائية، وله في قلبه الرقيق مواضع مهيأة للاحتراق تنفذ إليها الأشعة الروحانية وتتساقط منها المعاني»[١٨]، وهذا التهيؤ إنما هو أداة مساعدة على نقل حقائق الدنيا نقلا صحيحا على الكتابة أو الشعر، ثم إن الكاتب مدعو بعد على المجاهدة والمكابدة من أجل انتزاع تلك الحقائق من الحياة في أسلوب، وإظهارها للحياة «في أسلوب آخر يكون أوفى وأدق وأجمل»[١٩] .

وهذا من صلب التجديد ، إذ ليست الكتابة نسجا على منوال سابق ، ولا محاكاة لنموذج معروف ، ولذلك فإن الحقائق لا تنتزع من بطون الكتب بقدر ما تنتزع من الحياة «في أسلوب آخر يكون أوفى وأدق وأجمل» . وكلمة أوفى دالة على ما بعض مما ذهب إليه أرسطو من أن الشعر أوفى من الفلسفة ومن التاريخ وأدق، وأما قوله «أجمل» فهي كلمة فاصلة في أمر الجمال بين الطبيعة والفن، وكأن الرافعي ينتصر هنا للفن على الطبيعة، إذ ليس الفن مجرد محاكاة للطبيعة، بل هو إبداع لها وإعادة للإنشاء والتكوين .

ومادة الأدب عند الرافعي دائما ليست هي الكتب، بل هي النفس والآفاق التي يرينا الله عز وجل من خلالها آياته: «وأشواق النفس هي مادة الأدب، فليس يكون أدبا إلا إذا وضع المعنى في الحياة التي ليس لها معنى، أو كان متصلا بسر هذه الحياة»[٢٠] . وأما الأديب فهو عنده: «الإنسان

● مادة الأدب عند الرافعي دائما ليست الكتب وحدها، بل في النفس والآفاق التي يرينا الله عز وجل من خلالها آياته.

الكوني»[٢١]، وغيره الإنسان فقط . والأدب كالدين: «كلاهما يعين الإنسانية على الاستمرار في عملها .. والدين يوجه الإنسان إلى ربه، والأدب يوجهه إلى نفسه، وذلك من وحي الله إلى الملك إلى نبي مختار، وهذا وحي من الله إلى البصيرة إلى إنسان مختار»[٢٢] .

ولنا أن نلاحظ دائما كيف أن الرافعي يحدد مصدر الأدب، كما يحدد مفهومه ورسالته، وتلك هي العناصر الجوهرية في كل نظرية أدبية، ومصدر الأدب دائما علوي متصل بروح الله، إلا أن الأديب ملتزم بتسخير هذا العطاء الرباني لما فيه خير الإنسانية كلها .

ويلفت الرافعي النظر إلى أعلى درجات البيان البشري، متمثلة في البيان النبوي، حتى تشرئب أعناق أدباء الإسلام إلى هذا الينبوع المتدفق فيتحرروا من ربقة الغرب، دون أن يعني ذلك الانكفاء على الذات أو سد الآذان عن بدائع الأدب العالمي، ومن هنا يعمل الرافعي بإزميله على هدم الأصنام واسترجاع الشرقي ثقته بنفسه في غير مواربة ولا ادعاء، من أجل أن يزن المسلم عمله كله، بما في ذلك عمله الأدبي، بميزان السماء، الذي هو القسطاس المستقيم، لا بميزان الأرض المغشوش .

والاقتباس من روح النبوة يعطي الأدب قدرة فائقة وتأثيرا عجيبا، بل إن ذلك القبس ليس وقفا على الأدباء دون العلماء ، «لو أن هؤلاء العلماء

• يلفت الرافعي النظر إلى أعلى درجات البيان البشري، متمثلة في البيان النبوي.

كانت فيهم كهرباء النبوة لكهربوا الأمم الإسلامية في أقطارها المختلفة، إذن لقام في وجه الاستعمار الأوربي أربعمائة مليون مسلم – هذا عدد المسلمين في عهده رحمه الله – جلد صارم شديد، متظاهرين متعاونين، قد أعدوا كل ما استطاعوا من قوة العمل، وقوة النفس، وهم لو قذف كل منهم بحجر لردموا البحر» (٢٣) .

ويلفت النظر إلى شيء دقيق من خصائص العربية، مما له صلة بجوهر الأدب، فيقول:«والعجب الذي لم ينتبه له أحد إلى اليوم من كل من درسوا الأدب العربي قديما وحديثا، أنك لا تجد تقرير المعنى الفلسفي الاجتماعي للأديب في أسمى معانيه إلا في اللغة العربية وحدها، ولم يغفل عنه مع ذلك إلا أهل هذه اللغة وحدهم !»(٢٤)، وبقية النص شارحة للمراد، فليراجع، وليقارن بما يسميه النورسي: الأدب القرآني، في رسائل النور، وبيان ذلك في كتابنا: النورسي أديب الإنسانية، دار سلمى للنشر، تطوان ٢٠٠٤».

أما مفهوم الأدب، والأدب الإسلامي منه بخاصة، فلن تجد أوفى وأشمل من تعريف الرافعي رحمه الله، إذ يقول:« .... إذا أردت الأدب على هذه الوجوه من الاعتبار وجدت القرآن الحكيم قد وضع الأصل الحي في ذلك كله، وأعجب ما فيه أنه جعل هذا الأصل مقدسا، وفرض هذا التقديس عقيدة، واعتبر هذه العقيدة ثابتة لن تتغير، ومع ذلك كله لم ينتبه له الأدباء ولم يحذوا بالأدب حذوه، وحسبوه دينا فقط، وذهبوا بأدبهم إلى العبث والمجون والنفاق، كأنه ليس منهم إلا بقايا تاريخ محتضر بالعلل القاتلة، ذاهب على الفناء والحتم .

والقرآن بأسلوبه ومعانيه وأغراضه لا يستخرج منه للأدب إلا تعريف واحد هو هذا: إن الأدب هو السمو بضمير الأمة .

ولا يستخرج منه للأديب إلا تعريف واحد هو هذا: إن الأديب هو من كان لأمته وللغتها في مواهب قلمه لقب من ألقاب التاريخ (٢٥) .

وهذا من أعجب العجب، وكأنه فلتة من فلتات التاريخ التي لم تستثمر حتى الآن بالرغم من مرور ما يزيد على نصف قرن من نشر هذا الكلام . والقرآن الكريم حتى الآن لم يستثمر أدبيا وبيانيا، لا في القديم ولا في الحديث، ولو استثمر كما ينبغي لتحرر أدبنا من عقابيل شتى قيدته بأوهام التكلف والصنعة والزخرف الباطل، ولاستحدثت فيه فنون أدبية لا عهد للناس بها، ولبرز المسلمون في فنون أخرى صاروا اليوم كأنهم فيها عالة على الناس، وأنى كان لأمة أن تسبقنا إلى فن السرد والقص والرواية لو أننا تدبرنا وتأملنا قوله تعالى: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ ؟ وهل كنا سننتظر قرونا حتى يستوي هذا الفن الأدبي في الغرب لنستورده بإيجابياته، وما لها من تصوير للنفس والمجتمع، ولكن أيضا بسلبياته، وما بها من غلو وولع بالتفاصيل فيما لا ضرورة له، بالإضافة إلى الاستثمار السيىء لهذا الفن واستغلاله في إثارة الغرائز وتأجيج الشهوات . وهناك فن قرآني فريد لم يستطع أدباء الإسلام أن يحولوه إلى أن يتخذ موقعه ضمن الفنون الأدبية العالمية هو فن ضرب الأمثال ... وهكذا .

الشطر الإبداعي:

وهذا بحث طويل وعريض في أدب الرافعي، لا يمكن الإحاطة به في مثل هذا المقام، ولذلك يكتفى هنا بالتلميح إلى بعض مظاهر ذلك، على أمل التوسع فيه مستقبلا إن شاء الله.

والتجديد الإبداعي يبرز عند الرافعي في صور شتى، من ذلك الإبداع في الأدب الوجداني، والإبداع في توليد المصطلحات، ولو وسع المجال لفصلنا ولكنا نكتفي باللمحة العابرة .

لقد قرر الرافعي، في تنظيراته، موقع الخيال من الأدب، وأن الخيال الذي هو سمة من سمات الأدب وعنصر من عناصره، لا يعني الكذب ولا التزوير ولا الادعاء، وأن الأدب الفذ لا بد فيه من خيال . وهو حين جاء إلى مجال الإبداع أبدع فيه وجدد ما شاء الله له أن يجدد ويبدع، وربما استنكر بعض ضيقي الأفق بعضا مما سال به قلم الرافعي المبدع تحرجا وتأثما، ولكن الرافعي يعرف أن الأدب الإسلامي سباحة لا حدود لها إلا بما حدد الشرع الحكيم، وأن الإسلام لم يضيق على الأدباء، كما يزعم الزاعمون، بل فجر الطاقات ووسع الخيال، وإذا كانت آداب الأمم محصورة بما هو أرضي، وبعالم الشهادة خاصة، وأن الخيال تبعا لذلك يجيء محدودا، فإن الإسلام فتح باب الإبداع المحلق على مصراعيه عندما شد بصيرة الإنسان إلى الآفاق وإلى المستقبل، ثم أضاف إلى عالم الشهادة عالم الغيب الذي لا يتم معتقد الإنسان ولا يصلح إيمانه إلا به، فوسع أدب الإسلام بذلك الدنيا والآخرة، وذلك أمر استفاد منه بعض أسلافنا، مثل ما صنع المحاسبي في كتاب التوهم، إلا أن ذلك محصور في عدد محدود من الأدباء . وقد جاء الرافعي ليطلق أجنحة من هذا المنطلق، وليكون الرائد المعاصر في هذا الباب عسى أن يحذو حذوه الأدباء، ويسير سيره المبدعون، وهو في بعض تعبيراته ذو جرأة أدبية يكاد يفسرها العيي بأنها جرأة تمس العقيدة .

ومن صور الإبداع أن الرافعي يبدع لك أدبا، ثم هو يزعم لك زعما على بصيرتك أن تتبين أنه من باب الفن لا من باب الواقع، دون أن يجافي الحق، فينسب ذلك الأدب إلى غيره من المبدعين الوهميين، مثلما صنع مع قطعته المتميزة: «نشيد اليمامة»، الذي نسبها إلى امرأة تدعى مارية القبطية نقلته عنها أرمانوسة بنت المقوقس التي كانت مارية وصيفة لها. وهذه القطعة من أجمل الشعر المنثور، ومن أعذب القطع الأدبية [٢٦] .

وصنيع الرافعي هذا شبيه بما كان يصنعه بعض كبار أدباء الغرب، كالذي صنعه توماس كارلايل حين وضع كتابا عن فلسفة الملابس، سماه «الخياط يرفو»، ونسبه إلى أديب ألماني مزعوم في قرية ألمانية سماها، وقد نبه العقاد إلى أنه ما من أديب ألماني هناك، ولا من مدينة ألمانية، ولا سيما حين كشف أن الاسم الذي اختاره كارلايل لتلك المدينة معناه: «الأرض التي لا وجود لها» .

وللرافعي قطع أخرى من باب الخيال، ولكن هذه المرة ينسبها إلى من لا نشك أنها من وضع الرافعي لا من وضع هؤلاء الذين ينسب إليهم، لأنه ينسب بعض ذلك إلى الشيطان، وبعضه إلى الملائكة، انظر على سبيل المثال قصيدة: لحوم البحر التي يزعم أنها مترجمة عن الشيطان [٢٧]، وقصيدة احذري، التي يزعم أنها مترجمة عن ملك من الملائكة [٢٨] . أما قطعة «الجمال البائس» التي جاءت في خمس حلقات[٢٩]، فهي قطعة فنية نادرة، وهي من أعذب الغزل وأعفه وأرقه، وهي تعدل دواوين بكاملها، والرافعي يتحدث عن الحب في غير ما تحرج حديث العاشق الولهان، إلا أنه حديث تعفف واضح وتسام جلي، لا يضير الفتاة الحيي أن تنشده أو تقرأه .

هذا، ومما جدد فيه الرافعي وأبدع المصطلح النقدي، مثل جهاز التوليد وجهاز التلقي، فليس ذلك من مبتدعات المدارس الغربية الحديثة، بل لقد سبق إليه الرافعي سبقا عجيبا، مستنبطا إياها ومطبقا على أدبنا العربي القديم، مع تقديم شواهد له من الأدب الغربي، مما يدل على تفتح الرافعي

وسعة علمه واطلاعه . يقول عن التوليد مثلا، وهو يتحدث عن سر النبوغ: «فسرّ النبوغ في الأدب وفي غيره هو التوليد، وسر التوليد في نضج الذهن المهيأ بأدواته العصبية، المتجه إلى المجهول ومعانيه، كما تتجه كل آلات الرصد الفلكي إلى السماء وأجرامها»(٣٠).

التوليد، والاتجاه إلى المجهول، والاختراق إلى عالم الغيب، أين ما يزعمه دعاة الحداثة من السبق، وهذا الرافعي يثور على التقليد، ولا يرى العبقرية إلا في التوليد، ويميز تمييزا واضحا بين الذكي والعبقري فيقول: «والذهن العبقري لا يتخذ المعاني موضوع بحث ونظر وتعقيب يستخرج منها أو يتعلق عليها، فهذا عمل الذكي وحده، وهو غاية الغايات فيه يبحث وينظر ويتصفح ويجمع من هنا ويأخذ من ثم، ويعترض ويصحح، ويأتيك بالمقالة يحسب فيها كل شيء وما فيها إلاّ أشياؤه هو وأمثاله . أما الذهن العبقري فليس له من المعاني إلا مادة عمل فلا تكاد تلابسه حتى تتحول فيه وتنمو وتتنوع وتتساقط له أشكال وصور في مثل خطرات البرق، وربما غمر بالمعنى الواحد في جماله وسموه وقوة تأثيره مقالات عدة لأولئك الأذكياء فنسخها نسخا وجعلها منه كالشموع الموقدة بإزاء الشمس) (٣١).

ويقول أيضا، وهو نص غني ودال، وبه نأتي إلى ختام هذه الكلمة المركزة: «وقد عرف الأدباء جميعا أن كاتب فرنسا أناتول فرانس كان يكتب الجملة ثم ينقحها ... ويحتسبون هذا تحكيكا وتهذيبا وما هو منها .. ... وإنما سرها من جهاز التوليد ... فجهاز التوليد متى استمر واستحكم في إنسان أصبح له بمقام ملك الوحي من النبي، وهو عندنا دليل من أقوى الأدلة على صحة النبوة وحدوث الوحي وإمكانه، إذ لا تتصرف به إلا قوة غيبية لا عمل للإنسان فيها، بل هي تبدع إبداعها وتلقي عليه إلقاء ... فسر النبوغ من سر الوحي، لا ريب في ذلك، وما أسهل سر الوحي وأيسر أمره، ولكن في الأنبياء وحدهم، وهنا كل الصعوبة ... أن نكون أو لا نكون، هذه هي المسألة»(٣٢). ■

الهوامش:

(١) وحي القلم، ٣/٢٢١ .
(٢) وحي القلم: محمد، ٣ / ٣٧٢-٣٧٣ .
(٣) نفسه .
(٤) ٣ / ٣٥٥ .
(٥) نفسه ٣٥٧ .
(٦) نفسه ٣٥٨ .
(٧) نفسه ٣٥٨ -٣٥٩ .
(٨) نفسه ٣٤٨ .
(٩) ٢/ ٣٠١ .
(١٠) ٣/ ٣٩٣ .
(١١) ٣ / ٧٤ .
(١٢) ٣ / ٧٠ .
(١٣) ٣ / ٦٩ .
(١٤) نفسه ٧٠ .
(١٥) انظر على سبيل المثال وحي القلم: ٣ / ٧٤ .
(١٦) نفسه: ٤٢ .
(١٧) نفسه ١ / ١٥ .
(١٨) نفسه .
(١٩) نفسه.
(٢٠) ٣ / ٢١٢ .
(٢١) نفسه ٢١٤ .
(٢٢) نفسه ٢١٧ .
(٢٣) نفسه ٢ / ٢٨٢ .
(٢٤) نفسه ٢١٩ .
(٢٥) نفسه ٢٢٠ .
(٢٦) انظر اليمامتان، وحي القلم: ١ / ٢٧ .
(٢٧) ١ / ٢٥٦ .
(٢٨) ١ / ٢٦٢ .
(٢٩) ١ / ٢٦٨ وما بعده .
(٣٠) ٣ / ٢٣١ .
(٣١) ٢٣٢ .
(٣٢) ٢٣٣ .

يا نفس ويحك مافي السهل من قمم … وإنما شمخت في طودها القمم
من كان في نفسه أرضا موطأة … تطأه من كل شيء حوله قدم
ومن تكن نفسه بحرا - ترجرجه … أمواجه - لم يزل يدوي ويلتطم
ومن يكن طامي البركان منفجرا … فوّاره طاش منه الجمر والحمم

مصطفى صادق الرافعي

الرافعي
وقضية الإعجاز في القرآن الكريم

بقلم: أ. د صلاح الدين عبدالتواب
مصر

يعد الأديب العالم والناقد المتذوق الرافعي واحداً من أفذاذ العلماء العرب والمسلمين في عصرنا الحديث الذين أسهموا بقسط وافر من الدراسات الأدبية والنقدية التي قامت حول قضية الإعجاز في القرآن الكريم.

ولم يكن غريباً من الرافعي أن يتصدى لهذا المجال العميق والدقيق من مجالات الدراسات الأدبية والنقدية التي دارت حول البيان القرآني المعجز، فهو الذي أمضى حياة حافلة في خدمة العربية وآدابها، والكتاب المبين الذي أنزل بلسانها، وهو الذي آلى على نفسه أن يكون لهما الدرع وكنانة للحرب حارسه وحاميه.

وقد حدث أن نشرت إحدى الصحف مقالا لأحد الكتاب تناول فيه القرآن بسوء التأويل، فقال يخاطب صديقا له : من تراه يا بني يقوم لهذا الأمر إن سكت الرافعي ؟ ثم جهر برده معلنا (تحت راية القرآن) بأن العربية لغة دين قائم على أصل خالد هو القرآن الكريم، وقد أجمع الأولون والآخرون على إعجازه بفصاحته، وأن فصاحة هذه اللغة ليست فقط في ألفاظها، ولكن في تركيب ألفاظها، كما أن الهزة والطرب ليست في النغمات ولكن في وجوه تأليفها، وهذا هو الفن كل الفن في الأسلوب، لأنه يرجع إلى الذوق الموسيقي في حروف هذه اللغة وأجراس حروفها ... ومن ثم أخذ في إيضاح تلك النظرية الفنية الأسلوبية، التي تتميز بها العربية، والتي اختارها الله سبحانه لتكون خطابه إلى العالمين متمثلا في هذا القرآن العظيم.

وواضح أن كتاب الرافعي (إعجاز القرآن) لم يكن هو كل ما كتبه في مجال الدراسات الأدبية والنقدية التي قامت حول هذا الإعجاز، فقد بذل جهدا ليس بالقليل لكتابة مؤلفه في (أسرار الإعجاز) الذي أتم فصوله متحدثا فيه عن البلاغة العربية وعن بلاغة القرآن وأسرار إعجازه، كما تناول في الفصل الأخير منه آيات من القرآن الكريم على أسلوب من التفسير، يبين سر إعجازها في اللفظ والمعنى والفكرة العامة، وقد نشر منها بعض الآيات المفسرة في (الرسالة) وانتشر بعضها الآخر في تضاعيف كتابه (وحي القلم) . أما كتابه (أسرار الإعجاز) فلم يقدر له أن يطبع بعد أن عاجلت صاحبه يد المنون قبل أن يخرج الكتاب إلى الوجود [1] .

منهج الرافعي في (إعجاز القرآن)

لم يشأ الرافعي منذ أن بدأ كتابه (إعجاز القرآن) أن يطلق القول في هذا الإعجاز دون تحديد لمنهجه فيه، لذلك أشار في مقدمته إلى هذا المنهج الذي اتبعه، وكان مما قاله : « وبعد ... فإننا سنقول في القرآن الكريم ما يتعلق بلغته ويتصل ببلاغته ويكشف من أوجه الإعجاز في ذلك، فإن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، وإن القول فيه ما برح كثير المذاهب متعدد الجهات متصل الحدود، يفضي بعضها إلى بعض، إذ هو كتاب السماء إلى الأرض مستقرا ومستودعا، وقد جاء بالإعجاز الأبدي الذي يشهد على الدهر ويشد عليه ... بيد أنه لا بد لنا من صدر نبتدئ به القول في تاريخه وجمعه وتدوينه وقراءاته، حتى تكون هذه سببا إلى الكلام في لغته وبلاغته ثم إعجازه في اللغة والبلاغة، لأن بعض ذلك يريد بعضه، ونحن نستعين الله ونستمده ونستكفيه »[2] . ومن ثم خرج كتاب (إعجاز القرآن) للرافعي في ترتيب منظم، وتبويب منطقي، التزم به منذ المقدمة حتى نهاية الحديث عن الإعجاز، وما دخل بابا وانتهى منه إلا ليسلمه للذي يليه، حتى وصل إلى فكرته الأساسية في الإعجاز، وهي متمثلة في نظم القرآن، وإعجاز تأليفه، ثم أخذ يتدرج مع فكرة النظم هذه متتبعا الحروف وأصواتها إلى الكلمات وحروفها، إلى الجمل وكلماتها، حتى تأكد له بعد هذه الدراسات المتصلة : غرابة الأوضاع التركيبية في القرآن الكريم بعد أن تجلت فيه تلك الروح التي أودعها الله آياته المحكمات، والتي لا يمكن أن يدرك كنهها أحد إلا الله وحده منزل القرآن ..

إعجاز القرآن
والبلاغة النبوية
تأليف
مصطفى صادق الرافعي
مؤسسة الرسالة

معنى الإعجاز في نظر الرافعي

وكان على الرافعي .. بعد أن استعرض ما قيل في وجوه الإعجاز من المتكلمين وغيرهم من العلماء – أن يحدد حقيقة الإعجاز التي ارتضاها واطمأن إليها فقال: « أما الذي عندنا في وجه إعجاز القرآن

وما حققناه بعد البحث .. أن القرآن معجزة بالمعنى الذي يفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه .. فالقرآن معجز في تاريخه دون سائر الكتب، ومعجز في أثره الإنساني، ومعجز كذلك في حقائقه، وهذه وجوه عامة لا تخالف الفطرة الإنسانية في شيء، فهي باقية ما بقيت، .. وإنما مذهبنا بيان إعجازه في نفسه، من حيث هو كلام عربي، لأننا إنما نكتب في هذه الجهة من تاريخ الأدب دون جهة التأويل والتفسير [٣].

من هنا يبدو واضحا تعريف الرافعي لوجهته في محاولة منه للوقوف على حقيقة الإعجاز بما يتلاءم مع اتجاهه الأدبي، ولذا كانت مقدماته من قبل تمهيدا للحديث عن الأسلوب القرآني، وأن هذا الأسلوب هو مادة الإعجاز العربي في كلام العرب كله، وأن العرب لما ورد عليهم أسلوب القرآن رأوا ألفاظهم بعينها متساوقة فيما ألفوه من طرق الخطاب وألوان المنطق، غير أنهم ورد عليهم من طرق نظمه ووجوه تركيبه ونسق حروفه في كلماته، وكلماته في جملها، ونسق هذه الجمل في جملته ما أذهلهم عن أنفسهم من هيبة رائعة وروعة مخوفة، وخوف تقشعر منه الجلود [٤].

فالنظم - ليس غير - هو مناط الإعجاز الذي اعتد به الرافعي، لأنه آية الجمال والجلال في هذا القرآن الكريم . وكذلك تناول موضوع النظم بالشرح والتحليل وجعله الفكرة الأساسية التي دار حولها في كتابه (إعجاز القرآن) .

فكرة النظم في دراسة الرافعي

مع اعتراف الرافعي بأنه ليس أول من قال بفكرة النظم في إعجاز القرآن، إلا أنه كان حريصا على أن يتناول هذه الفكرة من وجهة نظره ومن

● يعد الرافعي أول من أثار فكرة الإعجاز بالنظم من طريق الإيقاع الصوتي للآيات المحكمات.

حيث أدركها وتذوقها، ولذلك نجده يقول : «والكلام بالطبع يتركب من ثلاثة: حروف هي من الأصوات، وكلمات هي من الحروف، وجمل هي من الكلم .. وقد رأينا سر الإعجاز في نظم القرآن يتناول هذه كلها بحيث خرجت من جميعها تلك الطريقة المعجزة التي قامت به، فليس لنا بد في صفته من الكلام في ثلاثيتها جميعا» [٥] .

ومن هذا المنطلق بدأ الرافعي في شرح حقيقة الإعجاز في البيان القرآني من وجهة نظره، وبالشكل الذي حدد به طريقته، بما يخالف طرائق السابقين الذين رأوا في دقة النظم - بشكل عام - المظهر الرائع في الإعجاز، وبخاصة ما رآه عبدالقاهر الجرجاني من قبله في هذا المجال.

ولعله من هنا يتضح أن الرافعي قد عالج فكرة النظم على أساس أن له فيها فهما خاصا أدق وأشمل مما كان يراه عبدالقاهر.

فالرافعي مثلا لم يحصر فكرة النظم في توخي قواعد النحو مثل عبدالقاهر الذي قال : « واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها » [٦] .

كذلك عني الرافعي كبير العناية بالعلاقة بين الحروف أنفسها وما قد تدل عليه من المعاني، بينما لم يولها عبدالقاهر العناية نفسها، وقد تجلى ذلك عندما أشار عبدالقاهر إلى أن نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط من غير أن يكون هذا النظم ناشئا عن معنى اقتضاه، فلا صلة عنده إذن بين الكلمة الواحدة ومعناها، فضلا عن أن يكون للحرف نفسه صلة بالمعنى، فلو أن واضع اللغة كان قد قال (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد ... وأما نظم الكلام فليس الأمر

فيه كذلك، لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتيبها على حساب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيفما جاء واتفق»(٧).

لذلك كانت نظرة الرافعي إلى النظم أدق وأشمل، حيث نظر مبتدئا من الحروف وأصواتها، وما قد تدل عليه هذه الحروف ذاتها من معنى متصل بها، ثم تنقل الرافعي مع هذا النظم إلى الكلمات وحروفها، ثم إلى الجمل وكلماتها، ليصل من وراء ذلك كله إلى غرابة الأوضاع التركيبية في نظم القرآن كله .

ولعله من الإنصاف هنا أن نقول : « إن ابن سنان الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ هـ كان قد سبق بالحديث عن الحروف وأصواتها، والكلمات وحروفها ثم عن الكلام المؤلف وموسيقى التركيب .. إلا أنه قد أخذ عليه تداخل المعلومات فيما يتصل بهذا الموضوع إضافة إلى عدم ترتيب الأفكار فيه، فهو يتكلم مثلا عن الحروف ثم يعقبها بالكلمات ثم يعود إلى تقسيم الحروف، وفي الحديث عن تآلف الكلمات يدخل فيها الحديث عن الصور البيانية كحسن الاستعارة وحسن الكناية وغير ذلك (٨) .

أما تناول الرافعي لفكرة النظم كما رآها، فقد كان تناولا مرتبا وموضوعيا ومنطقيا، ممزوجا بدراسة تطبيقية على نماذج متنوعة من التعبير البياني في القرآن الكريم، في محاولة لإبراز معالم الجمال والكمال المعجز في آيات الله المحكمات.

كذلك إذا كان عبدالقاهر قد عني في نظريته بالكلمة المفردة قبل أن تدخل في تركيب إلا بقدر ما تكون مألوفة غير مبتذلة ولا ثقيلة في اللسان، فلعله رأى ذلك لأن الإعجاز في نظره لا يرجع إلى تلك الكلمة المفردة، لأن جميع مافي القرآن من ألفاظ قد نطق بها العرب، وأن القرآن لم يأت منها بجديد يجهلونه، وإنما الجديد الذي أعجزهم هو تأليفها ونظمها، ولهذا انصرف إلى النظم بمعناه الذي ارتضاه.

أما الرافعي، فقد عني أيضا بالكلمة المفردة في النظم، ولعل منشأ تلك العناية ماكان يستشعره من أن القرآن الكريم كما هو معجز في نظمه وتركيبه، فهو معجز أيضا في إيحائه وتصويره، وقد تكون الكلمة الواحدة من الجملة، أو الحرف الواحد من الكلمة أبلغ في الإيحاء والتصوير من تركيب متعدد الكلمات والجمل، وتلك هي الروعة البالغة في الإعجاز.

من هنا كانت عناية الرافعي بالنظم في مفهومه الأدق والأشمل عنده عندما رأى في الكلمة الواحدة، وما قد يوحي به الجرس في تركيب حروفها من دلالات متصلة بحكاياتها للمعنى من قوة أو ضعف، الأمر الذي يعطيها إيحاء معينا وبريقا خاصا له أثره البالغ في النفوس، ومن أجل ذلك قامت دراسته لهذه الفكرة على أساس تلك الأمور الثلاثة معا:

أ- الحروف وأصواتها.

ب - الكلمات وحروفها.

ج - الجمل وكلماتها.

وكانت تلك الدراسة الواعية الدقيقة التي تنم عن مدى التذوق الأدبي والفهم الذكي من جانب الرافعي لهذه العربية بحروفها وأصواتها وجمالها وروعة إيحائها ودقة تصويرها..تلك العربية التي اختارها الله تعالى لتكون لسان كتابه المحكم والحكيم..

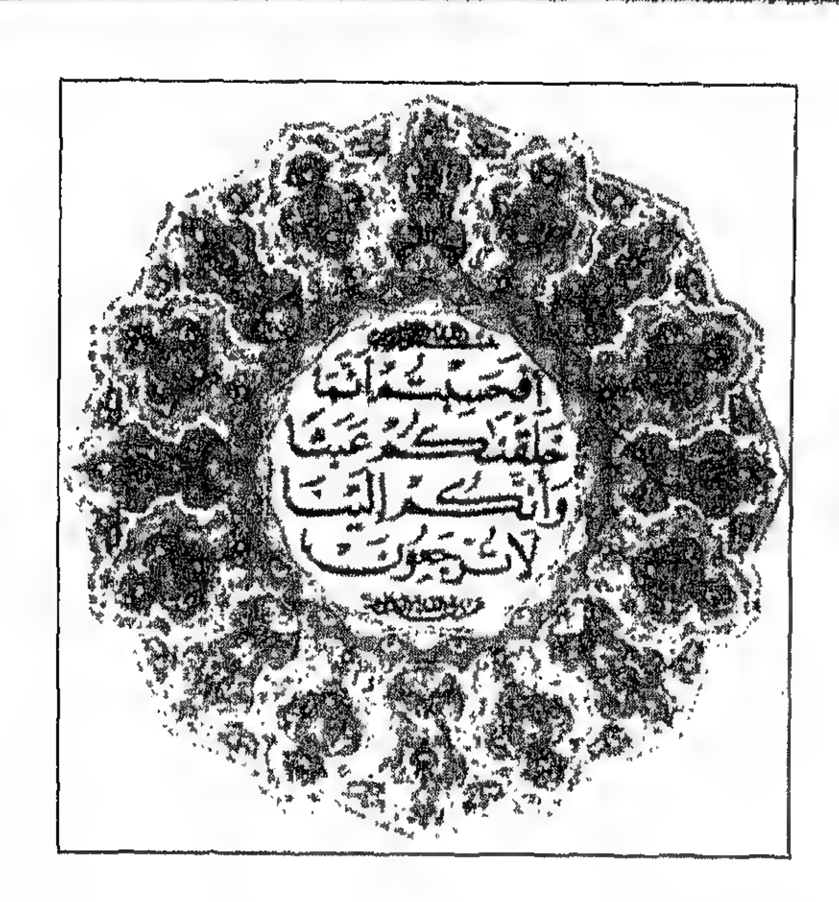
(أ) الجانب التطبيقي على فكرة النظم عند الرافعي:

أما عن الجانب التطبيقي، فقد بدأ الرافعي تفصيله كتوضيح فكرته بدراسة هذا النظم أولا في

الحروف وأصواتها، ذلك لأن الحروف بما يصدر عنها من أصوات تعد المادة الأولى للتركيب اللغوي، ومن ثم نراه يبين أن وضع الحروف ذاتها في كلماتها قد استلفت أذهان العرب - إذ إنهم لما قرئ عليهم القرآن رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله ألحانا لغوية رائعة، كأنه لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها وإيقاعها، فلم يفهم هذا المعنى، وأنه أمر لا قبل لهم به، وكان ذلك أبين في عجزهم، حتى إن من عارضه منهم - كمسيلمة - جنح في خرافاته إلى ما حسبه نظما موسيقيا أو بابا منه، وكأنه فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية إنما هي في أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها، وليس يتفق ذلك في شيء من كلام إلا بأن يكون وزنا من الشعر أو السجع .

وللتأكد من صحة هذه الدعوى يضع الرافعي بين أيدينا ميزانا دقيقا وعلميا في الوقت ذاته، إذ يدعو إلى تناول أي قطعة مما أبدعه فصحاء العرب في نثرهم وترتيلها على طريقة التلاوة في القرآن مما تراعى فيه أحكام القراءة وطرق الأداء، فلا بد والحالة هذه من الإحساس بالفارق الكبير بين النظم والنظم، بل لا بد من الشعور بالنقص الكبير في كلام البلغاء وانحطاطه في ذلك عن مرتبة القرآن، بل وأكثر من هذا، فإن محاولة الترتيل والتحسين لما يتناول من كلام البلغاء تذهب رونقه وجماله - وحسبك بهذا اعتبارا في إعجاز النظم الموسيقي في القرآن، وأنه مما لا يتعلق به أحد، ولا يتفق على ذلك الوجه الذي هو فيه إلا فيه .. لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر والشدة والرخاوة والتفخيم والترقيق وغير ذلك من صفات الحروف .

وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت بما يخرجه فيه مدا أو غنّة أو لينا أو شدة، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في



النفس من أصولها، ثم هو يجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع، أو الإطناب والبسط بمقدار ما يكسبه من الحدة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى.

وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صورة تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقا عجيبا، يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب . وهذه هي طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة وأثرها طبيعي في كل نفس .. ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضربا من الكلام البليغ الذي يطمع فيه أو في أكثره . ولكنه انفرد بهذا الوجه المعجز فتألفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أبدل بغيره أو أقحم معه حرف آخر لكان ذلك خللا بينا أو ضعفا ظاهرا في نسق الوزن وجرس النغمة وفي حس السمع وذوق اللسان (٩).

ولعل الرافعي بهذا الكلام يعد أول من أثار فكرة الإعجاز بالنظم من طريق الإيقاع الصوتي للآيات المحكمات، وهو ذلك الإعجاز النابع من دقة الالتئام والتناسق بين كل من الحروف في كلماتها، والكلمات في جملها، والجمل في تراكيبها على نحو لا شبيه له ولا نظير .

(ب) الكلمات وحروفها (في دراسة الرافعي التطبيقية):

ومع انتقال الرافعي إلى هذه المرحلة في النظم نجده لا يزال على صلة بالتركيب الحرفي للكلمة، ومن ثم يشير إلى الإيقاع الصوتي للحروف وماقد يوحي به من معان ويشير إليه من دلالات لها في النفس والحس معا أعظم التأثير، ويقرر أنه لما كان الأصل في نظم القرآن أن تعبر الحروف بأصواتها وحركاتها ومواقعها من الدلالة المعنوية، استحال أن يقع في تركيبه ما يسوغ الحكم في كلمة زائدة أو حرف مضطرب أو ما تجري مجرى الحشو والاعتراض كما تجد من كل ذلك في أساليب البلغاء (١٠) .

ثم يتحدث عن العلاقة الدقيقة بين المعنى ولفظه بما يصدر عنه من صوت الحروف فيه، فيقول: « لا جرم أن المعنى الواحد يعبر عنه بألفاظ لا يجزئ واحد منها في موضعه عن الآخر إن أريد به شرط الفصاحة، لأن لكل لفظ صوتا ربما أشبه موقعه من الكلام ومن طبيعة المعنى الذي هو فيه، والذي تساق له الجملة، وربما اختلف وكان غيره بذلك أشبه(١١) .

وبهذا يمهد الرافعي لبيان أهمية الكلمة القرآنية ووضعها في محلها اللائق بها، بعد أن بين الدقة في وضع الحروف فيها بما يتناسب والمعنى المراد .

ويجيء دور الأمثلة التي يوضح بها الرافعي ما يريد تقريره فيقول : « ولو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجيء في الوضع والتركيب مجيء الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة، ويهيئ بعضها لبعض، ويساند بعضها بعضا، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف مساوقة لها في النظم الموسيقي، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل، فلا تعذب ولا تستساغ، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنا عجيبا، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقا في اللسان واكتنفتها بضروب النغم الموسيقي حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقه، وجاءت متمكنة في موضعها وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة.

من ذلك لفظة "النُّذُر "جمع نذير، فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معا فضلا عن جسأة هذا الحرف ونبوِّه في اللسان وخاصة إذا جاء فاصلة الكلام، لكل ذلك مما يكشف عنه ويفصح عنه موضع الثقل فيه، ولكنه جاء في القرآن على العكس وانتفى من طبيعته في قوله تعالى: ﴿ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر﴾ فتأمل هذا التركيب وتذوق مواقع الحروف، وأجر حركاتها في حسن السمع، وتأمل مواضع القلقلة في دال (لقد) وفي الطاء من (بطشتنا) وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو (تماروا) مع الفصل بالمد كأنه تثقيل لخفة التتابع في الفتحات إذا هي جريت على اللسان ليكون ثقل الضمة عليه مستخفا بعد، ولتكون هذه الضمة قد أصابت موضعها، ثم ردد نظرك في الراء من (تماروا) فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء (النذر) حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه، انتهى إليها من مثلها، فلا تجف عليه ولا تغلظ ولا تنبو فيه، ثم اعجب لهذه الغنة التي سبقت الطاء في نون(أنذرهم) وفي ميمها، وللغنة الأخرى التي سبقت الذال في (النذر)(١٢).

● **القرآن جنسية لغوية تجمع أطراف النسبة إلى العربية ، فلا يزال أهله مستعربين به ، متميزين بهذه الجنسية... معجز في تاريخه دون سائر الكتب ، ومعجز في أثره الإنساني ، ومعجز في حقائقه ، وهذه وجوه عامة لا تخالف الفطرة الإنسانية في شيء ، فهي باقية ما بقيت .**

وقد وردت في القرآن ألفاظ هي أطول الكلام عدد حروف ومقاطع مما يكون مستقلا بطبيعة وضعه أو تركيبه، ولكنا بتلك الطريقة التي أومأنا إليها قد خرجت في نظمه مخرجا سويا، فكانت من أحضر الألفاظ حلاوة وأعذبها منطقا وأخفها تركيبا، وإذ تراه قد هيأ لها أسبابا عجيبة من تكرار الحروف وتنوع الحركات، فلم يجرها في نظمه إلا وقد وجد ذلك فيها كقوله تعالى : ﴿ **ليستخلفنهم في الأرض** ﴾ فهي كلمة واحدة من عشرة أحرف وقد جاءت عذوبتها من تنوع مخارج الحروف ومن نظم حركاتها، فإنها بذلك صارت في النطق كأنها أربع كلمات، إذ تنطق على أربعة مقاطع، وقوله تعالى : « فسيكفيكهم الله » فإنها كلمة من تسعة أحرف وهي ثلاثة مقاطع وقد تكررت فيها الياء والكاف، وتوسط بين الكافين هذا المد الذي هو سر الفصاحة في الكلمة كلها.

وفي القرآن لفظة غريبة هي أغرب ما فيه، وما حسنت في كلام قط إلا في موقعها منه، وهي كلمة (ضيزى) – أي جائرة – من قوله تعالى : ﴿ **تلك إذا قسمة ضيزى** ﴾ ومع ذلك فإن حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه، ولو أدرت اللغة عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها، فإن السورة التي هي منها وهي سورة النجم مفصلة كلها على الياء، (والتي تنطق ألفا مقصورة) فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل، ثم هي في معرض الإنكار على العرب، إذ وردت في ذكر الأصنام وزعمهم في قسمة الأولاد، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات لله، مع وأدهم البنات . فقال تعالى : ﴿ **ألكم الذكر وله الأنثى* تلك إذا قسمة ضيزى** ﴾ فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة الجائرة التي أنكرها القرآن عليهم، وكانت الجملة كلها كأنها تصور في هيئة النطق بها الإنكار في الأولى والتهكم في الأخرى، وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكنت في موضعها من الفصل ووصفت حال المتهكم في إنكاره، وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية .

وإن تعجب فعجب نظم هذه الكلمة الغريبة وائتلافها على ما قبلها إذ هي مقطعان، أحدهما جدّ ثقيل والآخر خفيف، وقد جاءت عقب غنتين في «إذن» و «قسمة» وإحداهما خفيفة حادة، والأخرى ثقيلة متفشية فكأنها بذلك ليست إلا مجاوبة صوتية لتقطيع موسيقي[١٣].

وبهذا يبين الرافعي أهمية الكلمة القرآنية في ذاتها لدقة التركيب الحرفي فيها من ناحية، ولدورها الذي تؤديه في المعنى العام من ناحية أخرى. ولعل من أهم ما تناوله في هذا التحليل ذلك الجانب التأثيري للألفاظ القرآنية، وحتى ما قد يبدو منها غريبا، فإن هذه الغرابة لا تحسن إلا في موضعها، ولا يكون حسنها على غرابتها إلا لأنها تؤكد المعنى الذي سبقت له كما تصوره بلفظها وهيئة منطقها، فكأن في تأليف حروفها معنى حسيا، وفي تأليف أصواتها معنى مثله في النفس .

(ج) الجمل وكلماتها:

وتأتي ثالثة المراحل في دراسة الرافعي التطبيقية، وهي المرحلة الأخيرة من مراحل النظم عنده، والتي تتمثل في الجمل وكلماتها . ويقدم الرافعي لتلك المرحلة بحديث عام عن الجملة . فيشير إلى أنها هي مظهر الكلام، وهي الصورة النفسية للتأليف الطبيعي، إذ يحيل بها الإنسان هذه المادة المخلوقة في الطبيعة إلى معاني تصورها في نفسه، أو تصفها حتى ترى النفس هذه المادة المصورة وتحسها[١٤] .

ثم يأخذ الرافعي في عرض مراتب النظم في الكلام البليغ حتى يصل إلى مرتبة النظم في القرآن الكريم قائلا:«فإذا بعد الكلام وأمعن حتى يكون بدقائق تركيبه وطرق تصويره كأنما يفيض النفس على الحواس إفاضة، ويترك هذا الإنسان من الإحساس به كأنه قلب كله، ثم يبلغ من ذلك إلى أن

● « لله ما أثمر أدبك ، ولله ما ضمن لي قلبك ، لا أقارضك ثناء بثناء ، فليس ذلك شأن الآباء مع الأبناء ، ولكن أعُدُّك من خُلَّص الأولياء ، وأقدم صفك على صف الأقرباء ، وأسأل الله أن يجعل الحق على لسانك سيفا يمحق الباطل، وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الأوائل».

الإمام محمد عبده

يكون روح لغة كاملة،وبيان أمة برمتها لا يحيله الزمن عن موضعه، ولا يقلبه عن جهته، وإلى أن يجعل البلغاء على تفاوتهم فيما بينهم، وعلى اختلاف عصورهم وأسبابهم المتلاحقة، كأنهم معه طبقة واحدة وفي طوق واحد من العجز، يعنيهم طلبه، ويعنتهم إدراكه، ويعرفون تركيبه، ثم لايجدون له مأتى من النفس ولا وجها من القدرة:فذلك هو الكلام المعجز.

وإنما اطرد ذلك للقرآن من جهة تركيبه الذي انتظم أسباب الإعجاز من الصوت في الحرف إلى الحرف في الكلمة إلى الكلمة في الجملة، حتى يكون الأمر مقدرا على تركيب الحواس النفسية في الإنسان تقديرا يطابق وضعها وقواها وتصرفها، وذلك إيجاد خلقي لا قبل للناس به، ولم يتهيأ إلا في هذه العربية على طريق المعجزة التي لاتكون معجزة حتى تخرق العادة وتفوت المألوف وتعجز الطوق»[١٥].

أما عن هذا الوضع العجيب للألفاظ القرآنية في جملها إلى أن اكتملت الآيات كلها على هذا النمط من النظم فيقول الرافعي:«فأنت مادمت في القرآن حتى تفرغ منه لا ترى غير صورة واحدة من الكمال وإن اختلفت أجزاؤها في جهات التركيب ومواضع التأليف وألوان التصوير وأغراض الكلام، كأنها تفضي إليك جملة واحدة حتى تؤخذ بها.. وذلك أمر متحقق في القرآن: يقرأ الإنسان طائفة من آياته، فلا يلبث أن يعرف لها جهة من الحسن ترافد ما بعدها وتمده،لاتزال هذه الصفة في لسانه ولو استوعب القرآن كله»[١٦].

على أن الرافعي بعد جهده في إبراز هذا النظم القرآني الذي يجري على استواء واحد في تركيب الحروف باعتبار من أصواتها ومخارجها، والذي يتجلى كذلك في تمكينه للمعنى بحس الكلمة وصفتها، ثم الافتنان فيه بوضعه من الكلام،.. يقرر بعد هذا كله أن للنظم القرآني روحا خاصا انفرد به وجعل له ذلك الطابع الذي إذا التمس في غير القرآن لم يعثر عليه، وهي روح التركيب التي لم تعرف قط في كلام عربي غير القرآن، وبها انفرد نظمه وخرج مما يطيقه الناس..ولولا تلك الروح لخرج أجزاء متفاوتة في مقدار مابين المعاني التي اشتمل عليها ومواقعها في النفوس.

وإذا كان العرب قد أوجدوا اللغة مفردات فانية – على قول الرافعي – فقد أوجدها القرآن تراكيب خالدة، وأن لهذه اللغة معاجم كثيرة تجمع مفرداتها وأبنيتها، ولكن ليس لها معجم تركيبي غير القرآن[١٧].

وبالوصول إلى غرابة هذا الوضع التركيبي بما أضفى إليه من روح إلهي ينهي الرافعي دراسته لإعجاز القرآن في نظمه بعد أن رأى في القرآن الكريم – من وجهة نظره – المعجم التركيبي من الوجهة البلاغية حين عده الأصل في فنون البلاغة كلها، فما يكون في المنطق العربي نوع بليغ إلا هو فيه على أحسن ما يمكن أن يتفق على جهته في

الكلام حتى إنك لو قابلت ما فيه من أمثلتها بأحسن ما استخرجه العلماء من جملة كلام العرب لأصبت فرق ما بين ذلك في سمو الطبيعة اللغوية وإحكام البيان وانتظام محاسنه، كالفرق الذي تكشفه المقابلة ما بين النبوغ والتقليد .. ولله المثل الأعلى .

وإذا كان القرآن الكريم قد أنزله الله آيات محكمات تخاطب العقول لتدرك، والقلوب لتستيقن، فإنه لم يسق تلك الآيات مساق المنطق في إثبات الحجج والبراهين، وإنما هي الطريقة النفسية المؤثرة التي تكمن دائما وراء روعة الأسلوب في القرآن .

ولعل هذا ما أراد الرافعي أن يختم به رأيه في ذلك الإعجاز عندما قال : « وبقي سر من أسرار هذه البلاغة لا على طريقة المنطق - لأن هذه الطريقة المنطقية، تأتي على أوضاع وأقيسة معروفة مكررة يسترسل بعضها إلى بعض، يراد بها إلزام المخاطب ليتحقق المعنى الذي قام به الخطاب إلزاما بالعقل لا بالشعور، والسياق لا بطبيعة المعنى، ومن أجل ذلك تدخلها المكابرة وتتسع لها المغالطة، فرارا من الإلزام، وإن كان المعنى في نفسه واضحا مكشوفا والبرهان من طبيعته قائما معروفا.

أما طريقة البلاغة، والتي أوفى على الغاية منه القرآن، فإنما يراد بها تحقيق المعنى وأخذ الوجوه والمذاهب على النفس من أجزائه التي يتألف منها بعد أن تستوفي على جهتها في الكلام استيفاء يقابل ما يمكن أن تشعر به النفس من هذه الأجزاء حتى لا تصدف عنه، ولا تجد لها وجها غير القصد إليه، فيكون من ذلك الإلزام البياني الذي توحيه طبيعة المعنى البليغ وكان حتما مقضيا»[١٨].

من الدراسات التطبيقية حول الإعجاز البياني في مجال القصة القرآنية:

كان من الملاحظ أن كتاب (إعجاز القرآن) للرافعي لم يحفل بالأمثلة التطبيقية على غرار ما عهد في الدراسات القرآنية عند السابقين، ويبدو أن الرافعي كان قد خصص هذا الكتاب للدراسات النظرية الدالة على الإعجاز، ثم أعد كتابه الآخر الذي سبقت الإشارة إليه ليكون تطبيقا على ما قدمه في كتابه (إعجاز القرآن) ومن ثم حشد في اللفظ والمعنى والفكرة العامة وسماء (أسرار الإعجاز) تماما كما حاول عبد القاهر الجرجاني من قبل في كتابيه (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) ولكن شاء الله ألا يبرز كتاب الرافعي في (أسرار الإعجاز) إلى الوجود . ومع أنها أمنية للرافعي لم يقدر لها أن تتحقق، إلا أننا وجدنا في تضاعيف كتبه ورسائله بعض ما كان ينوي إتمامه، ما يعد نموذجا لدراسة أدبية وافية يتغلغل من خلالها أعماق الأسلوب القرآني متتبعا أسراره وروائعه ودقائق الإعجاز فيه .

ولقد كانت مجلة(الرسالة) حقلا خصبا لمثل هذا النشاط الأدبي الذي قام به الرافعي فيما يختص بدراسته الفاحصة في أسرار الإعجاز، كما كان له مثل هذه الدراسات في موضوعات متميزة من كتابه (وحي القلم) وفي بعض رسائله الأخرى .

ومما هو جدير بالملاحظة أن الرافعي كان له فهم خاص لبعض المعاني القرآنية لم يصدر فيه عن متابعة أو تقليد، وإنما ينم عن شفافيته الخاصة وروحانيته الخالصة، كما ينم عن عظم إيمانه وقوة يقينه، وكان من وسائله فيما يتناول من آيات القرآن بالشرح والتحليل : أنه كان يمهد للمعاني القرآنية حتى يشاركه قارئه روحانيته وشفافيته، ويعيش معه في ظل هذا الإيمان العميق.

وإذا كانت تلك النماذج التطبيقية في دراسة الرافعي في مجال الإعجاز القرآني الكريم وأسرار بلاغته أكثر من أن نحصيها في هذا المقام .. فإنه يمكن الاستشهاد بنموذج واحد من نماذج تناوله لبعض آيات القصص القرآني حيث أفاض الرافعي في العرض والشرح بعد استلهامه روح النص واستشفافه إياه .. ومن تعليقه على أحد المواقف في قصة يوسف عليه السلام وفي قول الله تعالى :



﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ .(يوسف).

فيقول .. عجبا للحب .. هذه ملكة تعشق فتاها الذي ابتاعه زوجها بثمن بخس، ولكن أين ملكها وسطوة ملكها في تصوير الآية الكريمة ؟ لم تزد الآية على أن قالت : « وراودته التي هو في بيتها » إلخ ... و«التي» هذه الكلمة تدل على امرأة أيا كانت فلم يبق على الحب ملك ولا منزلة .. وزالت الملكة من الأنثى .. وأعجب من هذا كله كلمة « راودته» وهي بصفتها المفردة حكاية طويلة تشير إلى أن هذه المرأة تعترض يوسف بألوان من أنوثتها لون بعد لون، ذاهبة إلى فن راجعة من فن، لأن الكلمة مأخوذة من رودان الإبل في مشيتها، تذهب وتجيء في رفق، وهذا يصور حيرة المرأة العاشقة ومحاولتها أن تنفذ إلى غايتها، كما يصور كبرياء الأنثى إذ تختال وتترقق في عرض ضعفها الطبيعي، كأنما الكبرياء شيء آخر غير طبيعتها، فمهما تتهالك على من تحب وجب أن يكون لهذا الشيء مظهر امتناع أو مظهر تحير أو مظهر اضطراب، وإن كانت الطبيعة من وراء ذلك مندفعة ماضية مصممة، ثم قال «عن نفسه» ليدل على أنها لا تطمع فيه، ولكن في طبيعته البشرية، فهي تعرض ما تعرض لهذه الطبيعة وحدها، وكل الآية مصرحة في أدب سام كل السمو منزه غاية التنزيه، ثم قال : « وغلقت الأبواب » ولم يقل أغلقت وهذا يشعر أنها لما

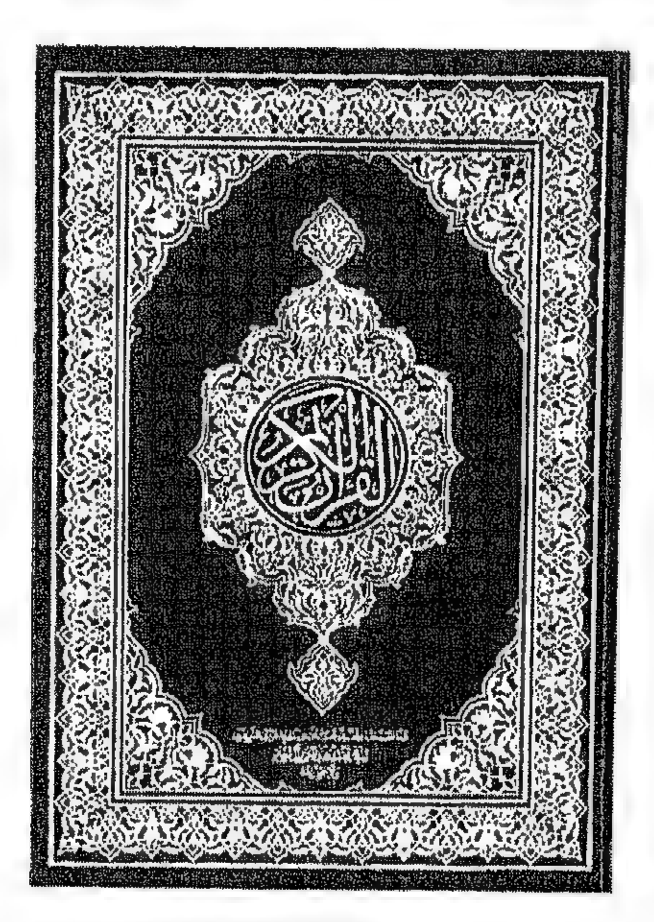


يئست ورأت منه محاولة الانصراف أسرعت في ثورة نفسها مهتاجة تتخيل القفل الواحد أقفالا عدة، وتجري من باب، وتضطرب يدها في الإغلاق كأنما تحاول سد الأبواب لا إغلاقها فقط «وقالت هيت لك » ومعناها في هذا الموقف أن اليأس قد دفع بهذه المرأة إلى آخر حدوده، فانتهت إلى حالة من الجنون بفكرتها الشهوانية، ولم تعد ملكة ولا امرأة، بل أنوثة حيوانية صرفة متكشفة مصرحة.

هذه ثلاثة أطوار يترقى بعضها من بعض، وفيها طبيعة الأنثى نازلة من أعلاها إلى أسفلها، فإذا انتهت المرأة إلى نهايتها ولم يبق وراء ذلك شيء تستطيعه أو تعرضه بدأت من ثم عظمة الرجولة السامية المتمكنة في معانيها، فقال يوسف «معاذ الله» ثم قال:« إنه ربى أحسن مثواى» ثم قال:«إنه لايفلح الظالمون»، وهذه أسمى طريقة إلى تنبيه ضمير المرأة في المرأة، إذا كان أساس ضميرها في كل عصر هو اليقين بالله، ومعرفة الجميل، وكراهة الظلم، ولكن هذا التنبيه المترادف ثلاث مرات لم يكسر من نزوتها، ولم يفتأ تلك الحدة، فإن حبها كان قد انحصر في فكرة واحدة، اجتمعت في كل أسبابها في زمن ..في مكان..في رجل..فهي فكرة محتبسة، كأن الأبواب منغلقة عليها أيضا، ولذا بقيت المرأة ثائرة في نفسها، وهنا يعود الأدب الإلهي السامي إلى تعبيره المعجز فيقول:«ولقد همت به» كأنما يومئ بهذه العبارة إلى أنها ترامت عليه وتعلقت به والتجأت إلى وسيلتها الأخيرة.

جاءت العاشقة في قضيتها ببرهان الشيطان الذي يقذف به في آخر محاولاته، وهنا يقع ليوسف

عليه السلام برهان ربه، كما وقع لها برهان شيطانها، فلولا برهان ربه لكان هم بها. وهنا المعجزة الكبرى لأن الآية الكريمة تريد أن لا تنفي عن يوسف عليه السلام فحولة الرجولة حتى لا يظن به، ثم هي - أي الآية الكريمة - تريد من ذلك أن يتعلم الرجال وخاصة الشباب منهم كيف يتسامون بهذه الرجولة فوق الشهوات حتى في الحالة التي هي نهاية قدرة الطبيعة.. حالة ملكة فاتنة عاشقة متكشفة متهالكة.. هنا لاينبغي أن ييأس الرجل - أو يستسلم - فإن الوسيلة التي تجعله لايرى شيئا من هذا، هي أن يرى برهان ربه، وهذا البرهان يؤوله أي إنسان بما شاء، فهو كالمفتاح الذي يوضع في الأقفال كلها فيفضها كلها، فإذا مثل الرجل لنفسه في تلك الساعة أنه هو وهذه المرأة منتصبان أمام الله يراهما، وأن أماني القلب تهجس فيه ويظنها خافية إنما هي صوت عال يسمعه الله، وإذا تذكر أنه سيموت ويقبر، وفكر فيما يصنع الثرى في جسمه هذا، أو فكر في موقفه يوم تشهد عليه أعضاؤه بما كان يعمل، أو فكر في هذا الإثم الذي يقترفه الآن يكون مرده ومرجعه عليه في أخته أو ابنته - إذا فكر في ذلك كله أو نحوه رأى برهان ربه يطالعه فجأة فيرى برهان عينه، أترونه يتردى في الهاوية حينئذ أم يقف دونها وينجو؟ احفظا هذه الكلمة الواحدة التي فيها أكثر الكلام، وأكثر العظة، وأكثر التربية، والتي هي كالدرع في المعركة، بين الرجل والمرأة والشيطان كلمة «رأى برهان ربه»(١٩).



وسواء ما تحدث فيه الرافعي مباشرة عن إعجاز القرآن، أو ما بثه متفرقا في كتاباته الأدبية حول هذا الإعجاز، فقد كان له في كل ذلك فهم العالم وإخلاص المؤمن وتذوق الأديب، وكان هذا الذوق الفني الذي مُنحه هو الذي هيأه إلى فهم القرآن الكريم ومحاولة الوقوف على أسرار إعجازه في كل آية، وكل كلمة من آية، وكل حرف من كلمة، كما سبق القول في فكرة النظم عنده. ■

الهوامش:

(١) راجع : حياة الرافعي لمحمد سعيد العريان ، ط٣ ، ص٢٣ - ٣٣ ، ومصطفى صادق الرافعي للدكتور كمال نشأت ، ص٧، تحت راية القرآن للرافعي ص١٦ - ١٨ ، رسائل الرافعي جمع وترتيب محمود أبو رية ، النقد الأدبي دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن للدكتور صلاح الدين محمد عبدالتواب ، ج٢ ، ص٣٩-٦٦ .

(٢) إعجاز القرآن ، ص ١٢ .

(٣) إعجاز القرآن ، ص ١٥٨ .

(٤) المرجع السابق ، ص١٤٩-١٩٠ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٢١٩ .

(٦) دلائل الإعجاز ، ص٥٥ .

(٧) المرجع السابق ، ص ٣٥ ، وراجع : عبدالقاهر الجرجاني للدكتور أحمد بدوي ، ص١٠١ ، والنقد الأدبي ، د . صلاح عبدالتواب ، ج٢ ، ص٤٤ .

(٨) راجع الفصاحة لابن سنان الخفاجي ، ص١٩ - ٢٤ ، ٤٨ - ٨٦ ، ١٠٨ - ١٥٥ .

(٩) إعجاز القرآن ، ص٢٢٢ - ٢٢٩ .

(١٠) المرجع السابق ، ص ٢٣٥ .

(١١) المرجع السابق ، ص ٢٤٠ .

(١٢) المرجع السابق ، ص ٢٤٠ .

(١٣) سورة النجم ، الآيتان ٢١ - ٢٢ ، وراجع إعجاز القرآن ، ص٢٤٠ .

(١٤) المرجع السابق ، ص ٢٤٩ .

(١٥) المرجع السابق ، ص ٢٤٩ .

(١٦) المرجع السابق ، ص ٢٥٥ .

(١٧) المرجع السابق ، ص ٢٥٦-٢٥٨ .

(١٨) المرجع السابق ، ص ٢٨٢ .

(١٩) وحي القلم ، ج١ ، ص ١١٥ - ١١٨ ، ط المكتبة التجارية الكبرى بمصر.



بمناسبة صدور طبعة جديدة «لديوان الرافعي»

وما يزال شعر الرافعي يحتاج إلى تحقيق



بقلم: د. حلمي القاعود
مصر

في عام ١٩٨٦م، أسهمت مع زملائي في جامعة طنطا، في إقامة أول مؤتمر علمي عن عملاق العربية في العصر الحديث «مصطفى صادق الرافعي» (١٨٨٠-١٩٣٧)، على مدى ثلاثة أيام وشارك في هذا المؤتمر نخبة كبيرة من الأدباء والعلماء على امتداد العالم العربي، وألقيت فيه مجموعة كبيرة من الأبحاث التي دارت حول الرافعي وجوانب أدبه المتعددة، كما أثيرت قضايا عديدة امتدت إلى الصحافة وأجهزة الإعلام

وأتيح لهيئة المؤتمر أن تعثر على نسخة من ديوان الرافعي التي نشرها «محمد كامل الرافعي» في ثلاثة أجزاء، قدم لها، وقام بشرح مناسبات بعض القصائد، مع التعليق على بعضها وشرح بعضها الآخر، في إسهاب أو إيجاز، وفقا لرؤية ذاتية قامت أساسا على الاحتفاء بالشاعر وشعره .

وبعد سنوات، تفضل صديقي الدكتور «محمد أبو بكر حميد» وأهداني نسخة من شعر مجموع للرافعي بعنوان «الأغاريد» تضم الأناشيد والقصائد القصيرة التي تشبهها، وكانت من جمع وتحقيق الأديب العراقي « مصطفى نعمان البدري» أول من كتب رسالة علمية عن الرافعي فيما أعلم، وقد قابلته في القاهرة فترة السبعينات، وهو من عائلة عراقية تحب الرافعي وتحتفي به، وقد سماه أبوه «مصطفى» تيمنا باسم أديبنا الكبير .

عزمت حينئذ أن أكمل المشوار، وأسعى إلى تحقيق شعر الرافعي من خلال مراجعة الدوريات الأدبية وغيرها التي صدرت منذ مطلع القرن العشرين حتى وفاة الرافعي، لأرى ما نشر فيها من شعره، وأقارنه بما نشره محمد كامل الرافعي ومصطفى البدري، وأضيف ما لم ينشر إلى التحقيق المقترح أو المنتظر .

بيد أن مشاغلي العديدة لم تترك لي فرصة البدء في هذا العمل، حتى فوجئت بتحقيق جديد أصدرته المكتبة العصرية (صيدا - بيروت) عام ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، في طبعة فاخرة أعدها الدكتور «ياسين الأيوبي» الذي سبق اسمه بعبارة «حققه وشرحه وقدم له » !

في البداية كانت فرحتي كبيرة، لأن هناك من تفرغ للمهمة الكبيرة، وأظهر ديوان الرافعي كاملا فيما تصورت، وحين اطلعت على الديوان والدراسة التي تسبقه تراجعت فرحتي، بل تلاشت، وحل مكانها حزن كظيم، فقد وجدت الديوان مجرد إعادة لنشر ما طبعه محمد كامل الرافعي دون زيادة أو نقصان، فضلا عن رؤية حادة وقاسية لم تبرز قيمة شعر الرافعي أو شاعريته، بقدر ما أجهدت نفسها في تتبع هنات الرافعي الشعرية من خلال فصل كامل عنوانه: « مسيرة التعثر الشعري» وللقارئ الكريم أن يتأمل لفظة مسيرة ودلالاتها وإيحاءاتها إذا أضيف إليها التعثر والسقوط أو الضلال !

من حق أي دارس أو باحث أو محقق، أن يذهب المذهب الذي يريد، ويرى الرأي الذي يعتقد، ولكن هناك أصولا وأسسا وقواعد منهجية لإبداء الرأي والحكم . لست من الذين يقدسون الكاتب المحبوب أو الأديب المفضل، فهو في البداية والنهاية إنسان، ينسحب عليه ما ينسحب على الإنسان من كمال ونقصان، ومد وجزر، ولا يوجد مخلوق - أيا كان - بلغ حد الكمال، فالكمال لله وحده، والعصمة لنبيه ﷺ .

يثير الأيوبي مجموعة من النقاط خاصة بتحقيقه ودراسته، نوافقه على بعضها، ونختلف معه حول بعضها الآخر .

النقطة الأولى تتعلق بالتحقيق الذي قام به أسامة محمد السيد، تحت عنوان « إيوان الألمعي في شرح ديوان مصطفى صادق الرافعي » وصدر عن مؤسسة الكتب الثقافية في بيروت عام ١٩٩٣، وهذا العمل يضم جزأين فقط من ديوان الرافعي دون الجزء الثالث، وأجرى ناشر العمل تغييرا وتبديلا ما بين ألفاظ مفردة وجمل، وشطور شعرية وأبيات كثيرة في القصيدة الواحدة، وصولا إلى قصائد ومقطعات بكاملها، لم يرد لها ذكر في هذا العمل، مما يمثل عدوانا بشعا على شعر الرافعي، وخروجا شنيعا على أصول التحقيق والنشر، وتجاوزا فاضحا للأمانة العلمية التي تفرض الالتزام بالنص أيا كانت وجهة نظر ناشره .. وقد أورد الأيوبي نماذج عديدة للتغيير والتبديل والحذف الذي قام به الرجل، ومنها مثلا حذف قصيدة المديح التي مدح بها الرافعي الإمام محمد عبده :

مولاي أمسى الدين مما بدلوا
فيه كمرقعة من الأديان

لقد انطلق صاحب هذه النشرة من رؤية فقهية ضيقة الأفق، جرمت «الرافعي دينيا » لموقفه من بعض الناس أو إعادة بعض الصور الشعرية، وهو ما دفعه إلى حذف نصف الديوان تقريبا، وتقديم نصفه الآخر في صورة مشوهة!

نحن مع «الأيوبي» في موقفه من نشرة « أسامة محمد السيد » حرصا على الأمانة العلمية التي تقضي بتقديم النص كما هو، مع إعطاء الحق للناشر أن يعلق بما يشاء وفق رؤية موضوعية تتفق مع المنهج العلمي وأصوله .

وهذا يقودنا إلى **النقطة الثانية** وتخص «الأيوبي» الذي سمح لنفسه أن يضع صفة التحقيق على نشرته، مع أنه لم يقدم جديدا ذا قيمة يضاف إلى ما قام به «محمد كامل الرافعي»، من نشر الأجزاء الثلاثة في مطلع القرن على النحو التالي:

الجزء الأول : المطبعة العمومية بمصر ١٣١٩-١٣٢٠هـ (١٩٠٢م)، (١٥٤ صفحة) .

الجزء الثاني : مطبعة الجامعة بالإسكندرية ١٣٢٢هـ ١٩٠٤م (١٢٥ صفحة) .

الجزء الثالث : مطبعة الأخبار بالفجالة بمصر ١٣٢٣هـ، ١٩٠٥م (١٥١ صفحة) .

وإعادة نشر هذا الأجزاء بمعرفة «الأيوبي » لا يمثل تحقيقا ولا إضافة، حتى لو زعم الرجل أنه «كابد كل المكابدة» للتحقق من سلامة القصائد، والأبيات، والألفاظ، التي اشتمل عليها الديوان بطبعتيه المصرية (محمد كامل الرافعي) والبيروتية، (أسامة محمد السيد) .

فالطبعة المصرية هي طبعة الرافعي الشاعر بحق، فقد نشرت في شبابه، وخرجت على يديه حتى لو كان شقيقه محمد كامل الرافعي هو شارحها والمعلق عليها، وهي تنفي جملة وتفصيلا الطبعة البيروتية التي تعرضت للعدوان، ومع ذلك فالأيوبي يقدم لنا جهده الذي أضافه متمثلا في:

١- تغيير بعض عناوين القصائد ومقدماتها، حين يجد بعداً عن موضوع الشعر أو عدم الوفاء بالعنوان الصحيح (؟!).

٢- اختصار شروح محمد الرافعي لطولها وإسهابها، أو لبعدها عن جوهر الشعر المشروح.

٣- بسط القول في التقديمات للنصوص الشعرية التي لم يقدم لها، فضلا عن وضع عناوين قصائد الديوان بأجزائه الثلاثة بصورة شبه تامة .

٤ - تذييل الحواشي للنصوص الشعرية بشروح لغوية وبعض النقود اللغوية والبلاغية والأسلوبية، مما كانت (الملكة النقدية) تلحظه في المتن وترى (ضرورة) إثباته هنا وهناك!

وأعتقد أن هذا الجهد في مجمله يحسب على «الأيوبي »لا له، فهو ينشر نصا لشاعر وشارح يجب أن يتقيد به ويلتزم بتقديم كل ما ورد فيه، ثم له بعدئذ أن يعلق عليه بما يشاء وفق المعايير العلمية والمنهجية، ولكنه قارف ما فعله «أسامة محمد السيد» وخاصة فيما يتعلق بشروح وتعليقات «محمد الرافعي» وسمح لنفسه بتغيير بعض العناوين، وهو ما لا يجوز، لأن صاحب الديوان هو الذي وضع العناوين، ولا يعنينا إن كانت قريبة من موضوع الشعر أو بعيدة عنه، فتغيير العنوان يسمح بتغيير الأبيات وتبديلها وتعديلها، وقد اتفقنا على أن ذلك لا يجوز .. والأمر كذلك بالنسبة لشروح وتعليقات «محمد الرافعي » يجب أن نطلع عليها كما هي، سواء كانت متعلقة بالقصيدة أو بعيدة عنها .

لقد بذل محمد الرافعي جهدا كبيرا وحقيقيا في شرح ديوان الرافعي، وقد أنبأنا « الأيوبي» أنه اختصر شروحه وأضاف من عنده شروحا لغوية ونقدية، وهذا يقودنا إلى **النقطة الثالثة** مما سماه مسيرة التعثر الشعري، وأفرد له نصف الفصل الثاني في مقدمته البحثية، فضلا عما بثه من عثرات موهومة على امتداد هوامش الديوان . لقد حصر هذه العثرات تحت عناوين: نثرية النظم، المغالاة والتطرف، التعقيد اللفظي والتباس المعنى، الخلل العروضي، الخلل اللغوي، ويحتاج كل عنوان من هذه العناوين إلى مناقشة مستفيضة،

لأنها في أحسن الأحوال وجهة نظر يعبر عنها قارئ لا يعجبه شعر الرافعي، ومع ذلك حققه، كما يزعم، وقدمه إلى الناس من خلال ذم وقدح وإساءة تقوم على ذوق شخصي، وتوحي للقارئ العادي أن كل شعر الرافعي نثر منظوم نشأ عن ذاتية مفرطة يتشبث فيها الشاعر بكل ما يصدر عنه من كلام منظوم »، أو هو تعقيد في الكلام والتباس بسبب فجاجة(!) التجربة الشعرية وهشاشة المعاناة الذاتية، أو لعدم التمرس الطويل في التعبير عن أغراض بعيدة عن دائرة الواقع، أو يمكن رده إلى شعور دفين في قلب الشاعر أنه قادر على ركوب أي موجة من أمواج التركيب الشعري، أضف إلى ذلك ما ساقه الأيوبي في مجال الخلل العروضي واللغوي ليبين عن أخطاء فادحة منسوبة إلى الرافعي وشعره، يراها مما لا يغتفر له، مع أنها قابلة للتأويل أو الجواز عروضيا ولغويا ومنها :

(....) فإن تعط طفلك للخادمين
فما زدت إلا عديد الخدم

ويرى أن الرافعي حذف ياء المخاطبة من فعل تعطين المجزومة بإن الشرطية، فعلا للشرط، للضرورة الشعرية .. وهذا - يقول الأيوبي - خطأ بين، غير مغفور، فالجواز الشعري لا يسمح بخطأ نحوي من هذا النوع ! ولو أن الرجل الذي يدعي أنه تعب وأجهد نفسه في تصحيح الأبيات ومراجعتها وقرأ البيت على هذا النحو:

(....) فإن يُعْطَ طفلك للخادمين .... إلخ .

لعرف أن المسألة لا تستدعي اتهام الرافعي بالوقوع في خطأ لا يغتفر . ومنها :

ما جاء في مقطع نوني من بيتين اثنين، يذكر فيهما غدر الهوى والخمر معا:

رأيت الهوى والخمر سيَّين غدرة
وليسا على قلبي الحزين بسيَّين
إذا أتوارى يطلبان فضيحتي
فتظهر في وجهي ويظهر في عيني

الخطأ اللغوي - كما يقول الأيوبي - في دخول «إذا» الشرطية غير الجازمة على مضارع، وحقه إدخال إن الشرطية مكانها، لكنه عدل إلى «إذا» ليستقيم له (النظم) الشعري المؤاتي .

وينقل عن الشيخ «مصطفى الغلاييني » ضرورة وجوب دخول «إذا» على الماضي لأنها تفيد التحقيق، بعكس إن التي تفيد الشك والإبهام.

ويعرف طلاب اللغة العربية أن «إذا» الشرطية غير الجازمة يجوز دخولها على المضارع، وهو نفسه يقول : وقد جوز بعضهم - نقلا عن ابن هشام في « مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» دخول إذا على المضارع في حال الظرفية للمستقبل، وتضمينها معنى الشرط، كقوله تعالى : ﴿ **فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون**﴾ (الروم : ٤٨) .

فإذا كان دخول «إذا» على المضارع جائزا فلماذا هذا التهويل في استعراض « مسيرة التعثر الشعري » للرافعي؟ ويمكن قول ذلك في كثير من الأمثلة التي أوردها «الأيوبي » ليقدم لنا «الرافعي» متمردا على اللغة، أو ضاربا بالقياس عرض الحائط، ولكننا نسأل: أليس كل الشعراء أو معظمهم لديه مثل هذه الهنات؟

لقد عالج «عمر الدسوقي» مثلا، شعر البارودي، فجلاه، وقدم لنا صور تأثره بالقدماء، وما صنعه خاصا به، وشكل جديدا لديه، وفي النهاية سجل «الهنات» التي وردت في شعره ولكنه لم يهول من أمرها ويجعلها « مسيرة تعثر شعري» كما فعل الأيوبي .

ديوان مصطفى صادق الرافعي

وهذا يقودنا إلى **النقطة الرابعة**، وهي تتعلق بجلاء شاعرية الرافعي وقيمته الشعرية حتى سن الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين، مع أنه عاش قرابة الستين عاما، وأنتج تراثا أدبيا وشعريا يستحق الالتفات والاحتفاء .

إن «الأيوبي» لم يسع إلى جلاء شاعرية الرافعي وقيمته الشعرية، ولكنه اكتفى بالحديث عن المادة الشعرية : نسيجها وإطارها البلاغي العام، من خلال توقفه عند «التشبيه» والمدى الذي بلغه التشبيه في ديوان الرافعي، وتحدث عن نمطين من أنماطه : نمط تقليدي متأصل في تربة الشعر العربي، وآخر متجدد على درجة ملحوظة من الإبداع.

وما أظن شاعرية الرافعي تقف عند التشبيه بنمطية، ولكنها - فيما أعتقد - تتجاوز ذلك إلى أبعاد أخرى يعبر فيها «الأيوبي»، سواء ما يتعلق بالمضمون أو التشكيل أو البناء، وفي إطار العصر الذي عاشه الرافعي، وبالمقارنة مع نظرائه وأشباهه، ولكن الرجل آثر أن يقنعنا بتهالك الرافعي على التشبيه إلى درجة الافتعال غالبا .

والحق أن ظاهرة التشبيه عند الرافعي تحتاج إلى دراسة علمية مستقلة تكشف قدرة هذا الرجل على تدوير شعره استجابة لهذه الظاهرة التي يبدو أنه انفرد بها دون جيله، ولم تتوقف عند حدود شعره المنظوم، بل امتدت إلى شعره المنثور في حديث القمر، ورسائل الأحزان والسحاب الأحمر، وأوراق الورد، وكتاب المساكين، والعديد من فصول «وحي القلم».

وكما تطلب شاعرية الرافعي في المنظوم فإنها تطلب بإلحاح في المنثور، وهو ما فطن إليه بعض اللصوص من كبار «أدعياء الحداثة» في بلادنا العربية، فسرقوا كتاباته ونسبوها إلى أنفسهم بعد شيء من التغيير القليل، ومع ذلك اتهموه بالاتباعية والتقليدية والسلفية!

كنت أتمنى أن يتوقف الأيوبي عند الشاعرية النثرية للرافعي بوصفها امتدادا لشاعرية الناظم الكبير الذي لا يعترف بالشعر المنثور، مع أنه قاله وقدمه وأغدق في عطائه .

ويقودنا كل ما سبق إلى **النقطة الخامسة** التي أود أن أختم بها هذه السطور فقد وصف الأيوبي آثار الرافعي المتنوعة بأنها حصاد ثر، وقطوف شهية ترضي الأذواق، وتغني النفوس، وتزرع فيها نوازع البحث عن حقائق الحياة ودقائق العصر، أو توقظ فيها الحنين إلى معانقة الشرفات المطلة على السفوح المترامية الأطراف، المتناهية الألق.

وهذا كلام طيب من رجل بدا كأنه ضد الرافعي من خلال « مسيرة التعثر الشعري» و «الذاتية المفرطة»، وكنت أتمنى أن يكون إنصافه للرافعي شاملا من خلال الظروف والسياقات التي عاش فيها، وخاصة في ظل «**الغلو العلماني**» الذي ساد الحياة الأدبية والثقافية، ضد الإسلام والحضارة الإسلامية، لحساب الثقافة الاستعمارية الغازية التي قللت من شأن الإسلاميين وهمشتهم ورفعت الأقل منهم شأنا بسبب ميولهم غير الإسلامية .

يبقى القول: إن ديوان الرافعي يحتاج إلى تحقيق لا يتوقف عند حدود الأجزاء الثلاثة التي نشرها محمد كامل الرافعي في مطلع القرن العشرين، فقد علمت مؤخرا أن إحدى المكتبات في المنصورة، قد أعادت نشره في مجلد واحد، وإن كنت لم أطلع عليه، وهو ما يعني أن هذه النشرة تكرار لنشرة الأيوبي، الذي لن أتهمه بالذاتية المفرطة أو كما اتهم الرافعي بسمة «التعظيم الذاتي» حين تحدث عن «معالم صنيعي في هذا الديوان» أو الجهد « الذي قمت به في صنيعي الأدبي» أو غير ذلك من حديث عن النفس يأباه العلماء المتواضعون ..

إن ما آمله حقا، هو البحث عن أشعار أخرى لم تنشر في الأجزاء الثلاثة أو الأغاريد للرافعي، كما أتمنى دراسة تبرز شاعرية الرجل في إطار زمنه وجيله، وتتحدث عن إيجابيات شعره وسلبياته في حدود علمية ومنهجية، لا تجعل مسيرته انطلاقا ولا تعثرا . ■



صدر مصطفى الرافعي في جميع ماكتبه عن رؤية إسلامية عميقة للكون والإنسان والحياة، فكان واضحاً لكل من يتتبع إنتاج هذا الأديب الكبير أن العقيدة تتسرب في أقطار نفسه، وتتغلغل في نسيج شخصيته، وتملي عليه جميع مايأخذ وما يذر.

الرافعي أديب إسلامي من طراز فريد، ولا شك أنه كان معنيا - إلى جانب كتاباته الأدبية والإبداعية - بالتنظير النقدي للأدب الإسلامي، وهو - وإن لم يذكر هذا المصطلح أو يستعمله - كان ينطلق من خلاله ويبدع وينقد من وحيه، فهو – من ثم – أحد رواده، والمنظرين له والداعين إليه.

وقد وقف الرجل – رحمه الله – جميع ما كتبه إبداعا ونقدا على ترسيخ أقدام «إسلامية» الأدب من ناحية، وعلى الرد على دعاة التغريب والعلمانية والمقلدين العُشْي لآداب الغرب – من غير تمييز ولا استبصار – من ناحية أخرى .

والرافعي أمة في واحد، والخوض في عالمه الأدبي والنقدي مثل الخوض في بحر متلاطم زخار، وهو يشبه الغوص في أعماق مليئة باللؤلؤ والمرجان، ومهما جهد المبحر في غوصة أو غوصتين فهل يستطيع أن يحمل إلا أقل القليل من هذا البحر الغني؟

يجتهد هذا المقال أن يتوقف عند وجه واحد من وجوه الرافعي الناقد، فيتحدث عن بعض ملامح الرؤية الإسلامية في نقده الأدبي.

ولأن هذه الملامح كثيرة وغنية، وقد يصلح استقصاؤها أن يكون موضوع أطروحة علمية جامعية، يتوقف هذا المقال – كما ذكرنا – عند بعض منها يدل بها على غيرها، ويشير بها إلى سواها، وذلك من خلال اختيار ثلاث قضايا نقدية، وبيان رؤية الرافعي الإسلامية لها، وهذه القضايا هي:

١- وظيفة الأدب

٢- الشكل والمضمون

٣ – القديم والجديد





بقلم: د. وليد قصاب



١ - وظيفة الأدب

لسنا في موطن تفصيل القول في كثير من الدعوات التي أرادت أن تجرد الآداب والفنون من أية وظائف دينية، أو خلقية، أو تربوية، وأن تجعلها فنا للفن، أو أدبا للأدب، لا تتوخى غير الإمتاع والإطراب ونشدان اللذة والجمال من غير غاية ولا هدف، إذ هي غاية في حد ذاتها.

ولا يمكن لواحد مثل الرافعي أن يتبنى هذا التصور وهو الأديب صاحب الرسالة، الذي يؤمن أن الكلمة مسؤولية، بل هي أمانة يحملها المؤمنون .

مضى الرافعي – مع إبداعه الأدبي – يؤكد في كتاباته النقدية على أنه لا يكتب إلا من وحي دين هذه الأمة ومثلها وأخلاقها، وهو – في إيمانه برسالة الأدب النبيلة –لا يكتب إلا ما يربي النفس، ويسمو بها إلى الفضائل، ويرفعها عن السفاسف والدنايا.

إن تعريف الأدب الذي يفهمه الرافعي – مستمدا من أسلوب القرآن الكريم، وأغراضه – ولا يرى تعريفا سواه، هو : **«أن الأدب هو السمو بضمير الأمة»**[١].

وكان الرافعي يتجه في إبداعه الأدبي هذه الوجهة، وجهة السمو بضمير الأمة كما ذكر، ولذلك نجده يقول :

«القبلة التي أتجه إليها في الأدب إنما هي النفس الشرقية في دينها وفضائلها، فلا أكتب إلا ما يبعثها حية ويزيد في حياتها وسمو غايتها، ويمكن لفضائلها وخصائصها في الحياة، ولذا لا أمس من الآداب كلها إلا نواحيها العليا، ثم إنه يخيّل إليّ دائما أني رسول لغوي بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه..»[٢].

إن الأدب لا بد أن تكون له رسالة عليا يأرب بتحقيقها، وإن مصداقيته لتتوقف على عظمة هذه الرسالة ونبلها . يقول الرافعي :

«الغرض الأول للأدب المبين أن يخلق للنفس دنيا المعاني الملائمة لتلك النزعة الثابتة فيها إلى المجهول، وإلى مجاز الحقيقة، وأن يلقي الأسرار في الأمور المكشوفة بما يتخيل فيها، ويرد القليل من الحياة كثيرا وافيا بما يضاعف من معانيه...»[٣].

إن وظيفة الأدب إذن هي الكشف عن أسرار الحياة، وبيان الفلسفة التي تقوم عليها، والحكمة التي وجدت من أجلها، فليس يكون الكلام أدبا : « **إلا إذا وضع المعنى في الحياة التي ليس لها معنى، أو كان متصلا بسر هذه الحياة فيكشف عنه، أو يومئ إليه من قريب ...»**[٤].

الأديب إنسان كوني

إن الأديب إنسان متصل بأسرار الكون، وجمال الأشياء فيه، وهو يحس بالموجودات إحساسا عارما يميزه من غيره . وفي ضوء هذا السمو الذي يرقى إليه الأديب، ويحاول أن يرقى بالمتلقي إليه، لا يبدو هذا الأديب إنسانا عاديا،

يمارس صنعة الكتابة فحسب، ولكنه - بتسمية الرافعي - «إنسان كوني» إنه ليس مثل الآخرين . يقول الرافعي :

« لو أردت أن تعرف الأديب من هو، لما وجدت أجمع ولا أدق في معناه من أن تسميه الإنسان الكوني، وغيره هو الإنسان فقط، ومن ذلك ما يبلغ من عمق تأثره بجمال الأشياء ومعانيها، ثم ما يقع من اتصال الموجودات به بآلامها وأفراحها، إذ كانت فيه مع خاصية الإنسان خاصية الكون الشامل، فالطبيعة تثبت بجمال فنه البديع أنه منها، وتدل السماء بما في صناعته من الوحي والأسرار أنه كذلك منها، وتبرهن الحياة بفلسفته وآرائه أنه هو أيضا منها، وهذا وذاك وذلك هو الشمول الذي لا حد له، والاتساع الذي كل آخرَ فيه لشيء، أولٌ فيه لشيء.

وهو إنسان يدله الجمال على نفسه ليدل غيره عليه، وبذلك زيد على معناه معنى، وأضيف إليه في إحساسه قوة إنشاء الإحساس في غيره، فأساس عمله دائما أن يزيد على كلِّ فكرة صورة لها، ويزيد على كل صورة فكرة فيها، فهو يبدع المعاني للأشكال الجامدة فيوجد الحياة فيها، ويبدع الأشكال للمعاني المجردة فيوجدها هي في الحياة، فكأنه خلق ليتلقى الحقيقة ويعطيها للناس ويزيدهم فيها الشعور بجمالها الفني، وبالأدباء والعلماء تنمو معاني الحياة، كأنما أوجدتهم الحكمة لتنقل بهم الدنيا من حالة إلى حالة، وكأن هذا الكون العظيم يمر في أدمغتهم ليحقق نفسه ...»[٥].

فالأديب - الإنسان الكوني - وقاد المشاعر، حارُّ الأحاسيس، وهو - كما رأيت - أبعد رؤية للأشياء، وأعمق بصيرة في تعرفها وإدراك أسرارها، وفي تلمس جمالها وروعتها .

إن الجمال موجود، ولكن الإحساس به عند الأديب أكبر وأعمق، فأنت **«ترى الجمال حيث أصبته شيئا واحدا لا يكبر ولا يصغر، ولكن الحس به يكبر في أناس ويصغر في أناس ...»**[٦].

ولعل الرافعي كان ينظر إلى ما قالته العرب عن الشاعر من أنه سمي بذلك لأنه «يشعر بما لا يشعر به الآخرون».

والأديب الذي يرى الأشياء، ويرى الجمال أكبر مما يراه غيره، ممكِّن للآخرين من إدراك الأساليب التي تعين على الإحاطة بها، وتبيُّن صفاتها ومعانيها :

« وإذا كان الأمر في الأدب على ذلك، فباضطرار أن تتهذب فيه الحياة وتتأدب، وأن يكون تسلطه على بواعث النفس دُرْبَة لإصلاحها وإقامتها، لا لإفسادها والانحراف بها إلى الزيغ والضلالة، وباضطرار أن يكون الأديب مكلفا تصحيح النفس الإنسانية، ونفي التزوير عنها، وإخلاصها مما يلتبس بها على تتابع الضرورات، ثم تصحيح الفكرة الإنسانية في الوجود، ونفي الوثنية عن هذه الفكرة، والسمو بها إلى فوق، ثم إلى فوق، ودائما إلى فوق !..»[٧].

وهذا الأديب - إذا كان عبقريا ملهما - يجيء في أدبه **« من حقائق الفكر وبيانه، وأسرار الطبائع وأوصافها، بما يغطي على فلسفة الفلاسفة وعلم العلماء ...»**[٨] .

الأدب والدين :

من إدراك هذه الوظيفة السامية للأدب، وبصيرة الأديب وحكمته، يبدو الأدب - من أحد وجوهه - ملتقيا مع الدين في السمو بالنفس البشرية، والارتقاء بها إلى معارج الخير والفضيلة.

يقول الرافعي : **« الأدب - من هذه الناحية - يشبه الدين، كلاهما يعين الإنسانية على الاستمرار في عملها، وكلاهما قريب من قريب ...»**[٩].

ومن ثم **« إن لم يكن للأديب مثل أعلى يجهد في تحقيقه، ويعمل في سبيله، فهو أديب حالة من الحالات، لا أديب عصر، ولا أديب جيل . وبذلك وحده كان أهل المثل الأعلى في كل عصر هم**





الأرقام الإنسانية التي يلقيها العصر في آخر أيامه ليحسب ربحه وخسارته ...»(١٠).

اللذة والمتعة في الأدب

لا شك أن الأدب فن ممتع لذيذ، يبعث النشوة في النفس، ويثير فيها الطرب والسرور، ويملؤها بالبهجة والحبور، ولكن هذا لا يعني على الإطلاق أنه نشاط غير جاد، أو أنه لا وظيفة له ولاهدف .

إن اللذة التي يتحدَّث عنها في الأدب لا تعني اللهو أو العبث، لا تعني إضاعة الوقت به، أو التلهي بالباطل والإثم، بل إن للذة الأدبية عند الرافعي مفهوما غير هذا .

يقول الرافعي : « **اللذة بالأدب غير التلهي به واتخاذه للعبث والبطالة، فيجيء موضوعا على ذلك، فيخرج إلى أن يكون ملهاة وسخفا ومضيعة، فإن اللذة آتية من جمال أسلوبه، وبلاغة معانيه، وتناوله الكون والحياة بالأساليب الشعرية التي في النفس ...»**(١١).

اللذة بالأدب إذن من طبيعته، وهي لا تجرده من الوظيفة السامية، ولا تذهب بما فيه من نفع وفائدة، لأنها ليست لذة العبث والباطل، بل لذة الأسلوب الباهر الجميل، والأفكار العظيمة، لذة حسن العرض وسمو المعروض، وهذا الأدب عندئذ كالسوار الرائع النفيس، ولكنه -في الوقت نفسه- السوار المصنوع من الذهب الإبريز .

هذا الأدب عندئذ خير كله : « **ثم هو بعد هذه اللذة منفعة كله كسائر ما ركب في طبيعة الحي، إذ يحس الذوق لذة الطعام مثلا على أن يكون من فعلها الطبيعي استمراء التغذية لبناء الجسم وحفظ القوة وزيادتها، أما التلهي فيجيئ من سخف الأدب، وفراغ معانيه، ومؤاتاته الشهوات الخسيسة، والتماسه الجوانب الضيقة من الحياة، وذلك حين لا يكون أدب الشعب ولا الإنسانية بل أدب فئة بعينها ...»**(١٢) .

٢ - الشكل والمضمون

لا ينهض الأدب العظيم باللفظ وحده كما ذهب إلى ذلك أصحاب اللفظ، ولا ينهض بالمعاني الشريفة، والقيم النبيلة فحسب، كما ذهب إلى ذلك أصحاب المعنى، ولكنه ينهض بالأسلوب الرفيع، والمضمون الرفيع، وكأن الرافعي وهو يتبنى ذلك ينظر إلى قول ابن قتيبة وطائفة من نقادنا القدامى في أن أجود الشعر ضرب حسن لفظه وجاد معناه (١٣).

إن الأدب ليس تعبيرا عاديا عن المعاني والأفكار السامية، ولكنه تعبير جمالي متميز .

ولا يفتأ الرافعي يلح على أهمية الأدوات التعبيرية، وجودة الصياغة. وهو يفهم البلاغة على نحو ما فهمها الجاحظ من قبل عندما بيَّن أنها ليست مجرد الإفهام، بل الإفهام بالأسلوب الجميل، والتعبير الفني المعْجِب (١٤).

وعلى هذه الشاكلة يقول الرافعي في بيان أهمية الأسلوب في الأدب:

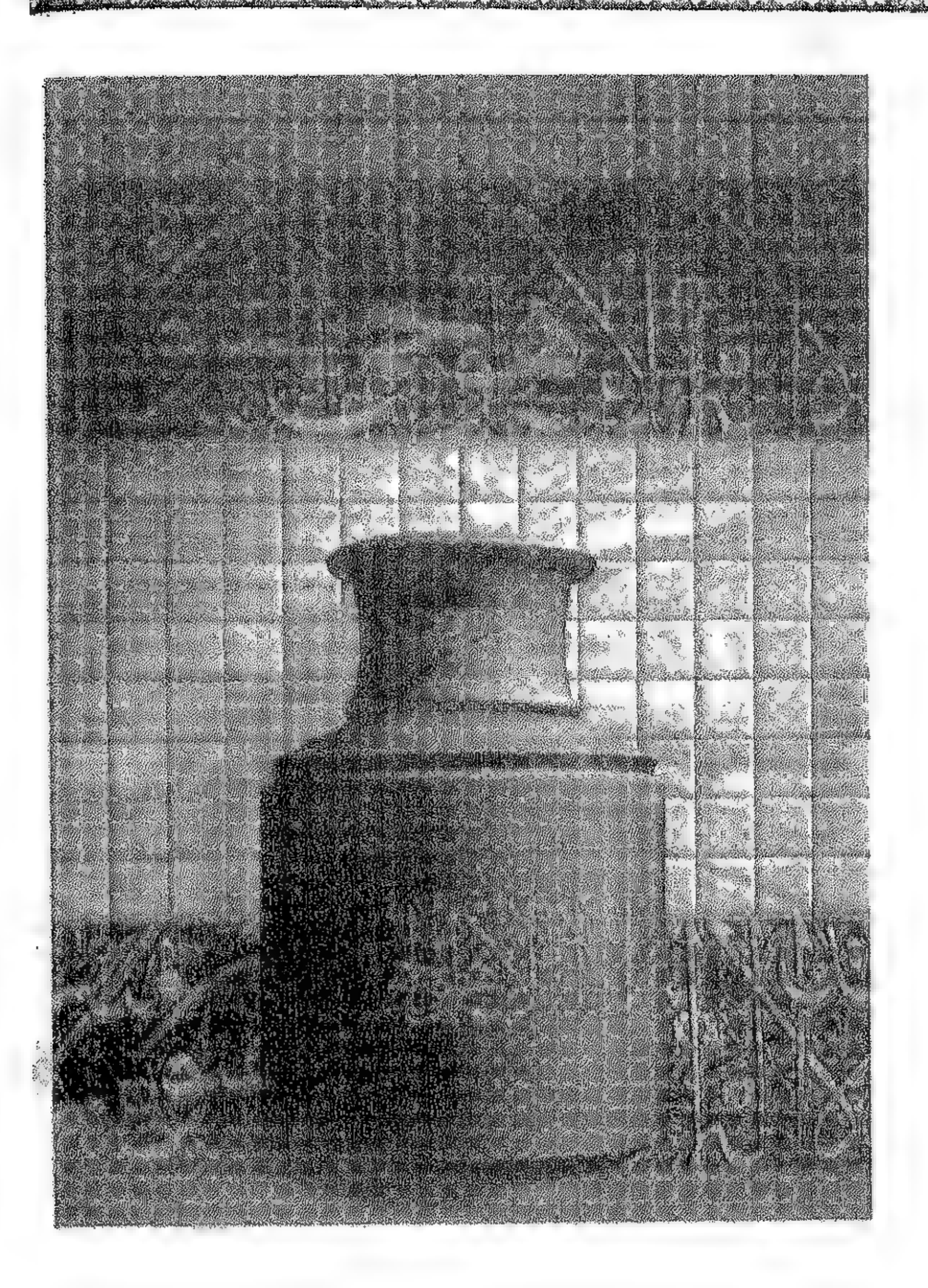
« إن الإفهام ونقل الخاطر والإحساس ليست هي البلاغة وإن كانت منها، وإلا فكتابة الصحف كلها آيات بينات في الأدب، إذ هي من هذه الناحية لا يقدح فيها ولا يغض منها، وما قصرت قط في نقل خاطر ولا استغلقت دون إفهام...»[١٥] .

والأسلوب الأدبي فن في حد ذاته، وهو ذو خصائص وجماليات لا يؤتاها إلا البلغاء والفصحاء، خصائص تقوم على التخييل والتصوير وأساليب البلاغة المختلفة، وهذه جميعها من طبيعته الفنية، ولا يسمى أدبا بغيرها، فهي ليست مجرد زخارف شكلية تزيد المعنى جمالا، وتضيف إليه، وتهيئ النفس لاستقباله . يقول الرافعي :

« وما المجازات والاستعارات والكنايات ونحوها من أساليب البلاغة إلا أسلوب طبيعي لا مذهب عنه للنفس الفنية، إذ هي بطبيعتها تريد دائما ما هو أعظم، وما هو أجمل، وما هو أدق، وربما ظهر ذلك لغير هذه النفس تكلفا وتعسفا ووضعا للأشياء في غير مواضعها، ويخرج من هذا أنه عمل فارغ وإساءة في التأدية وتمحل لا عبرة به، ولكن فنية النفس الشاعرة تأبى إلا زيادة معانيها، فتصنع ألفاظها صناعة توليها من القوة ما ينفذ إلى النفس ويضاعف إحساسها، فمن ثم لا تكون الزيادة في صور الكلام وتقليب ألفاظه وإدارة معانيه إلا تهيئة لهذه الزيادة في شعور النفس، ومن ذلك يأتي الشعر دائما زائدا بالصناعة البيانية، لتخرجه هذه الصناعة من أن يكون طبيعيا في الطبيعة إلى أن يكون روحانيا في الإنسانية، والشعور المهتاج المتفزز غير الساكن المتبلد، والبيان في صناعة اللغة يقابل هذا النحو، فتجد من التعبير ما هو حي متحرك، وما هو جامد مستلق كالنائم أو كالميت ...»[١٦].

وهكذا يبدو الأسلوب أساس الفن الأدبي، وإن اللذة به هي علامة الحياة فيه [١٧] .

ولكن الأدب العظيم يتشكل – كما ذكرنا – من



شكل ومضمون راقيين، والأديب البليغ التام **« هو صاحب الفكر والأسلوب والذهن الملهم، وإنك تقف على المعنى من معانيه يملأ نفسك، ويتمدد فيها، ويهتز بها طربا وإعجابا ...»[١٨]** .

ومقياس الكلام الفني العظيم هو تأثيره في النفس، وقدرته على الانسراب في أعماقها حتى تهتز له وتطرب .

يقول الرافعي :

« والفن كله إنما هو التأثير، والاحتيال على رجة النفس له واهتزازها بألفاظ الشعر ووزنه وإدارة معانيه وطريقة تأديتها إلى النفس، وتأليف مادة الشعور من كل ذلك تأليفا متلائما مستويا في نسجه لا يقع فيه تفاوت ولا اختلال، ولا يحمل عليه تعسف ولا استكراه، فيأتي الشعر من دقته وتركيبه الحي، ونسقه الطبيعي كأنما يقرع به على القلب الإنساني ليفتح لمعانيه إلى الروح ...»[١٩] .

الناقد يعنى بجميع العناصر

وما دام الأدب العظيم يُصنع من الأسلوب

الفني الجميل، والمعاني الرفيعة، والعواطف النبيلة،وسواها ، فإن الناقد لهذا الأدب لا بد أن يكون معنيا كذلك بعناصره جميعها، وهو عند نقده نصا لا بد أن يتوقف عنده : شكلا ومضمونا وعاطفة، أسلوبا ورؤية وشعورا، لا يقف عند جانب واحد ويهمل الجوانب الأخرى كما يفعل بعض النقاد، لأن العمل الأدبي كل متكامل .

يقول الرافعي : «

إذا كان من نقد الشعر علم فهو علم تشريح الأفكار، وإذا كان منه فن فهو فن درس العاطفة، وإذا كان منه صناعة فهي صناعة إظهار الجمال البياني في اللغة ...» [٢٠] .

ولا ينتهي الناقد إلى درس متكامل للعمل الأدبي، والوقوف على موهبة الأديب، ومعرفة مدى عبقريته وإبداعه إلا كما يقول الرافعي: «**بالبحث في الأغراض أي "المواضيع" التي نظم فيها الشاعر وما يصله بها من أمور عيشه وأحوال زمنه وكيف تناولها من ناحيته ومن ناحيتها، وماذا أبدع، ثم في أي المنازل يقع شعره من شعر غيره في تاريخ لغته وآدابها، ثم نظرته الفلسفية إلى الحياة ومسائلها واتساعه لأفراحها وآلامها وقوة أمواجه الروحية في هذا البحر الإنساني الرجاف المتضرب الذي يبلغ في نفوس بعض الشعراء أن يكون كالأقيانوس، وفي بعضها أن يكون كالمستنقع ... ثم دقة فهمه عن وحي الطبيعة والإشراف على جلية معناها بالهمسة واللمسة »**[٢١] .

القرآن نبع الأدب العظيم:

والرافعي الذي تشرب حب القرآن الكريم منذ نعومة أظفاره، وتشبع به عقيدة وفكرا وأسلوبا تشبعا ملك أقطار نفسه، لا يرى في هذا الكتاب الجليل كتاب دين وتشريع فحسب، ولكنه يرى فيه الوجه الآخر الذي غفل عنه بعض الكتاب والأدباء، وهو جانبه الأدبي البلاغي الرفيع، بل إن الرافعي يرى أن القرآن الكريم هو الذي وضع الأصل الأصيل لكل أدب عظيم، إذ هو نبع غني، ومصدر ثري، يغترف منه الأدباء ما لا ينضب من الأساليب والأفكار، من الصور التعبيرية، والقيم العالية والمشاعر الخيرة .

ومع ذلك فإن مما يؤسف له أن قليلا أو كثيرا من الأدباء لم يصدروا عن هذا الكنز النفيس الصدور العميق المطلوب .

ومن يرجعْ إلى هذا الكنز العظيم يقعْ على دلالات كثيرة تتعلق بوظيفة الأدب، وشخصية الأديب، وأساليب القول، وطرائق البيان، وضوابط الفكر الذي ينبغي أن ينهض عليه الأدب الرفيع . يقول الرافعي:

« فإذا أردت الأدب الذي يقرر الأسلوب شرطا فيه، ويأتي بقوة اللغة صورة لقوة الطباع، وبعظمة الأداء صورة لعظمة الأخلاق، وبرقة البيان صورة لرقة النفس، وبدقته المتناهية في العمق صورة لدقة النظرة إلى الحياة، ويريك أن الكلام أمة من الألفاظ عاملة في حياة أمة من الناس، ضابطة لها المقاييس التاريخية، محكمة لها الأوضاع الإنسانية، مشترطة فيها المثل الأعلى، حاملة لها النور الإلهي على الأرض ...

... وإذا أردت الأدب الذي ينشئ الأمة إنشاء ساميا، ويدفعها إلى المعالي دفعا، ويردها عن سفاسف الحياة، ويوجهها بدقة الإبرة المغناطيسية إلى الآفاق الواسعة، ويسددها في أغراضها التاريخية العالية تسديد القنبلة خرجت من مدفعها الضخم المحرر المحكم، ويملأ سرائرها يقينا، ونفوسها حزما، وأبصارها نظرا ، وعقولها حكمة، وينفذ بها من مظاهر الكون إلى أسرار الألوهية ...

... إذا أردت الأدب على كل هذه الوجوه من الاعتبار – وجدت القرآن الحكيم قد وضع الأصل الحي في ذلك كله، وأعجب ما فيه أنه جعل هذا الأصل مقدسا، وفرض هذا التقديس عقيدة، واعتبر هذه العقيدة ثابتة لا تتغير، ومع ذلك كله لم ينتبه له الأدباء ولم يحذوا بالأدب حذوه، وحسبوه دينا فقط،

وذهبوا بأدبهم إلى العبث والمجون والنفاق ...

والقرآن بأسلوبه ومعانيه وأغراضه لا يستخرج منه للأدب إلا تعريف واحد هو هذا : إن الأدب هو السمو بضمير الأمة ...»[٢٢] .

٣ - القديم والجديد

من القضايا النقدية التي شهدت خصومات عنيفة في أيام الرافعي « قضية القديم والجديد » هذه القضية الأزلية التي يعرفها كل عصر، حيث ينشب الصراع بين أنصار جديد يأتي به عصرهم، وأنصار قديم موروث يرون في الجديد خروجا على العرف، وانتهاكا للمألوف، وإفسادا لبعض القيم والمواضعات السائدة، وقد تشتد الخصومة بين الفريقين وتعنف عنفا شديدا، وقد تخرج عن جادة الموضوعية، فيأخذ كل فريق يكيل للآخر اتهامات يختلط فيها الحق بالباطل، والصحيح بالزائف ..

عصر الرافعي إذن - ككل عصر - شهد خصومات فكرية عنيفة بين من دُعُوا بأنصار الجديد، ومن دُعُوا بأنصار القديم، وصُنّف الرافعي في الفريق الثاني، المدافعين عن الأصالة والتراث، الواقفين كالطود في وجه المجددين أو مدعي التجديد في عصره .

ولكن هل كان الرافعي حقا من الرافضين للتحديث ؟ بل أي تحديث هذا الذي تصدى له، ووقف بيانه السامي الرفيع على فضحه وبيان الزيف فيه ؟..

من ينظرْ فيما كتبه الرافعي - رحمه الله - يرَ بوضوح أن الرجل لم يكن ضد التجديد، ولا كان عدوا - كما صوره خصومه - للابتداع والتحديث، بل هو يعد التوليد سرا من أسرار النبوغ في الأدب وفي غيره . يقول : « **سر النبوغ في الأدب وفي غيره هو التوليد، وسر التوليد في نضج الذهن المهيأ بأدواته العصبية، المتجه إلى المجهول ومعانيه كما تتجه كل آلات المرصد الفلكي إلى السماء وأجرامها..»**[٢٣].

ولكن التجديد لا يعني عند الرافعي الحرية المطلقة، والانفلات التام من الأنظمة والضوابط، حتى يصل إلى الهدم والاعتداء على الأصول والقواعد .

والرجل - في تفريقه بين ما هو تجديد وما هو تبديد، بين ما هو حرية وما هو هدم واعتداء - يعتمد على أصل شرعي يفهمه من حديث رسول الله ﷺ، المشهور :« **إن قوما ركبوا في سفينة، فاقتسموا، فصار لكل رجل منهم موضع، فنقر رجل منهم موضعه بفأس، فقالوا له : ما تصنع ؟ قال : هو مكاني أصنع فيه ما شئت، فلو أخذوا على يده نجا ونجوا، وإن تركوه هلك وهلكوا** ».

فقوم من الذين يدعون التجديد - وتحت هذه الدعوى يهدمون الدين والأخلاق واللغة - يشبهون هذا الذي ينقر موضعه في السفينة، فهو مفسد لا مصلح، مبدّد لا مجدّد، معرض نفسه والآخرين معه للهلاك .

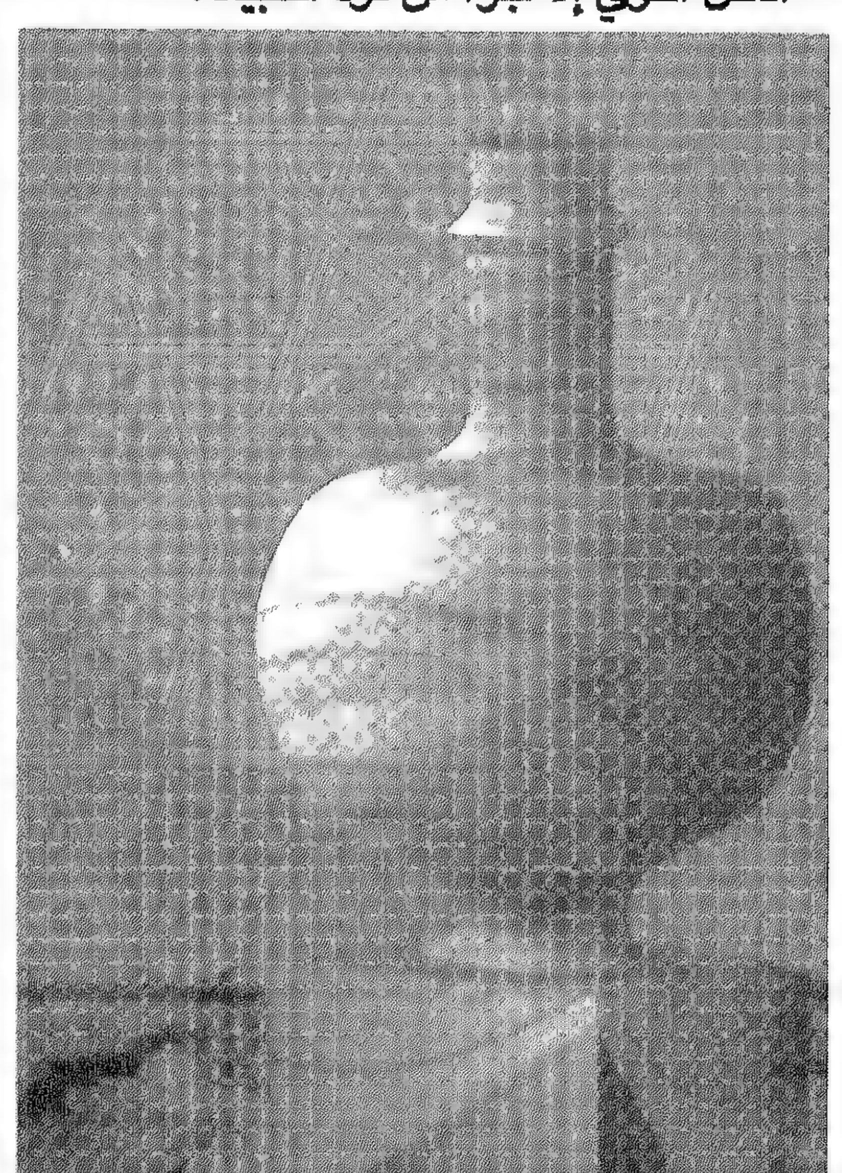
يقول الرافعي : « **كان لهذا الحديث في نفسي كلام طويل عن هؤلاء الذين يخوضون معنا البحر، ويسمون أنفسهم بالمجددين، وينتحلون ضروبا من الأوصاف : كحرية الفكر، والغيرة، والإصلاح، ولا يزال أحدهم ينقر موضعه من سفينة ديننا وأخلاقنا وآدابنا بفأسه، أي بقلمه، زاعما أنه موضعه من الحياة الاجتماعية يصنع فيه ما يشاء، ويتولاه كيف أراد .. فلا حرية هنا في عمل يفسد خشب السفينة، أو يمسه من قرب أو بعد، ما دامت ملجِّجة في بحرها، سائرة إلى غايتها، إذ كلمة (الخرق) لا تحمل في السفينة معناها الأرضي، وهناك لفظة (أصغر خرق) ليس لها إلا معنى واحد وهو (أوسع قبر) ...»**[٢٤] .

وإن الانفتاح على المدنية الغربية، والاقتباس منها، لما هو مطلوب ولكنه ينبغي أن يقوم على «الاختيار » لا على «التقليد »، أن يقوم على «اقتباس التحقيق » لا « اقتباس التقليد »، وشتان بينهما .

الجديد المطلوب، والطريف المنشود، ما كان متفقا

مع دين الأمة وقيمها ومثلها، ما كان فيه الخير، وليس لمجرد تقليد الآخرين ومحاكاة ما عندهم، فليس كل مافي هذه المدنية الغربية يؤخذ، ولا كله يترك . يقول الرافعي مبينا ضوابط الأخذ والترك :

« **وإني أرى أنه لا ينبغي لأهل الأقطار العربية أن يقتبسوا من عناصر المدنية الغربية اقتباس التقليد، بل اقتباس التحقيق، بعد أن يعطوا كل شيء حقه من التمحيص، ويقلبوه على حالتيه الشرقية والغربية، فإن التقليد لا يكون طبيعة إلا في الطبقات المنحطة، وصناعة التقليد وصناعة المسخ فرعان من أصل واحد، وما قلد المقلد بلا بحث ولا روية إلا أتى على شيء في نفسه من ملكة الابتكار وذهب ببعض خاصيته العقلية، على أننا لا نريد من ذلك ألا نأخذ من القوم شيئا، فإن الفرق بعيد بين الأخذ في المخترعات والعلوم، وبين الأخذ من زخرف المدنية وأهواء النفس وفنون الخيال وورنق الخبيث والطيب، إذ الفكر الإنساني إنما ينتج الإنسانية كلها، فليس هو ملكا لأمة دون أخرى، وما العقل القوي إلا جزء من قوة الطبيعة.**



فإن نحن أخذنا من النظامات السياسية فنأخذ ما يتفق مع الأصل الراسخ في آدابنا من الشورى والحرية الاجتماعية عند الحد الذي لا يجوز على أخلاق الأمة ولا يفسد مزاجها ولا يضعف قوتها .

وإذا نقلنا من الأدب والشعر فلندع خرافات القوم وسخافاتهم الروائية إلى لب الفكر وروائع الخيال وصميم الحكمة، ولنتتبع طريقتهم في الاستقصاء والتحقيق، وأسلوبهم في النقد والجدل، وتأتيهم إلى النفس الإنسانية بتلك الأساليب البيانية الجميلة التي هي الحكمة بعينها.

وأما في العادات الاجتماعية فلنذكر أن الشرق شرق والغرب غرب ، وما أرى هذه الكلمة تصدق إلا في هذا المعنى وحده ، والقوم في نصف الأرض ونحن في نصفها الآخر، ولهم مزاج وإقليم وطبيعة وميراث من كل ذلك، ولنا ما يتفق ولا يختلف، وإن أول الأدلة على استقلالنا أن نتسلخ من عادات القوم، فإن هذا يؤدي بلا ريب إلى إبطال صفة التقليد فينا، ويحملنا على أن نتخذ لأنفسنا ما يلائم طبائعنا، وينمي أذواقنا الخاصة بنا، ويطلق لنا الحرية في الاستقلال الشخصي ...»(٢٥) .

التجديد ينهض على التراث

لا تقوم للأدب الأصيل قائمة، ولا يكون للتجديد قيمة إلا إذا استند إلى تراث عريق يقوم عليه، وجذور ضاربة في أعماق الأرض يسمق من خلالها، إذ « **ليس يكون الأدب أدبا إلا إذا ذهب يستحدث ويخترع على ما يصرفه النوابغ من أهله، حتى يؤرخ بهم، فيقال : أدب فلان، وطريقة فلان، ومذهب فلان، إذ لا يجري الأمر فيما علا وتوسط ونزل إلا على إبداع غير تقليد، وتقليد غير اتباع، واتباع غير تسليم ...**»(٢٦) .

وإن التجديد في الشعر العربي ينطلق أولا من فهم طبيعة هذا الشعر ومزاجه الخاص «**وخصائص فيه لا بد من مراعاتها، والنزول على**

حكمها، وتلقيها بما يوافقها ....»[٢٧].

ولكن قوما ممن يدعون التجديد في الشعر العربي لا يزيد تجديدهم على تقليد الشعر الأوربي متجاهلين تراثهم الشعري، ومزاج هذا الشعر وخصائصه البيانية خارجين إلى مزاج غريب وأسلوب هجين، حتى : « **تراهم يخلون بقوانين صناعته البيانية، وينزلون ألفاظه دون منازلها، ويرسلون معانيه على غير طريقتها الشعرية، ويبتلونه بفضول كثيرة هي كالآفات والأمراض، فيأتون بنظم تقرؤه إذا قرأته وأنت تتلوى كأنما يقرع على قلبك بقبضة يد أو يدق عليه بحجر .. وقد فشا هذا النوع من الشعر في هذه الأيام وأصبح لما فسد من ذوق الأدب، وما التاث من أمر اللغة، وما اعوجّ من طرق الفلسفة، وما عمت به البلوى من التقليد الأوروبي، وكثيرا ما رأيت القصيدة من هذا الشعر كامرأة سلخ وجهها ووضعت لها جلدة وجه ميت ....»**[٢٨] .

وهكذا بدأ يصيب الشعر العربي على أيدي هؤلاء المقلدين في تجديدهم للشعر الأوربي كثير من الفساد في أساليبه ومعانيه، وهو فساد يشبه ذاك الذي أصابه في القديم على أيدي أصحاب الصنعة الزائفة، غير أن **«القديم كان فسادا في الألفاظ بجعلها كلها أو أكثرها محالا في الصنعة، والحديث جاء فسادا في المعاني بجعلها كلّها أو أكثرها محالا في البيان ...»**[٢٩] .

تجديد أم فساد؟

والأمر في جملته – كما يراه الرافعي – ليس في حقيقته أمر تجديد وتقليد، ولا أمر ابتداع واتباع، فالتجديد – كما ذكر – مطلوب، وهو من صلب الفن، وهو سر النبوغ والعبقرية، ولكن طائفة من مدّعي التجديد عنى التجديد عندهم الخروج على الدين والأخلاق، والدعوة إلى الفساد والانحلال .

يقول الرافعي : « **الذي بيننا وبينهم ليس الجديدَ والقديمَ، ولا التأخرَ والتقدمَ، ولا الجمودَ والتحولَ، ولكن أخلاقنا وتجردهم منها، وديننا وإلحادهم فيه، وكمالنا ونقصهم، وتوثقنا وانحلالهم، واعتصامنا بما يمكننا وتراخيهم تراخي الحبل لا يجد ما يشده ...»**[٣٠] .

بل إن فريقا آخر من هؤلاء المجددين الذين يحسبون أنفسهم من جبابرة العقول، ليبلغ إفسادهم – بدعوى التجديد وحرية الكلمة – مبلغا لا يكاد يتصور، يعبر عنه الرافعي بقوله:

لقد قلنا من قبل إن جبابرة العقول هؤلاء الذين يأبون إلا أن يكونوا علماءنا وسادتنا ليصرفوا عقولنا ويغيروا عقائدنا ويصلحوا آدابنا ويدخلونا في مساخط الله ويهجموا بنا على محارمه ويركبونا معاصيه – إن هم في أنفسهم إلا عامة وجهلة وحمقى إذا وزنوا بعلماء الأمم وقيسوا إلى حكماء الدنيا، وما يكتبون للأمة في نصيحتها وتعليمها إلا ما يتحول من كلمات وجمل في الصحف والكتب إلى أن يصيروا في الواقع فساقا وفجرة وملحدين وساخرين ومفسدين، فالمصيبة فيهم من ناحية العلم الناقص في وزن المصيبة بهم من ناحية الخلق الفاسد، وهاتان معا في وزن المصيبة الكبرى التي يجنون بها على الأمة لتهديمها فيما يعملون، وتجديدها فيما يزعمون ....»[٣١].

ويسخر الرافعي مما ساد عصره – بدعوى التجديد والانفتاح – من فوضى النشر، واستهلاك الكتابة، حتى أصبح كل من يكتب ينشر له، وكل من ينشر له يعد نفسه أديبا، وكل من عد نفسه أديبا جاز له أن يكون صاحب مذهب، وأن يقول في مذهبه، ويرد على مذهب غيره .. حتى شاعت كلمات ضخمة تدور في الصحف بين الأدباء .. منها قولهم : أدب الشيوخ وأدب الشباب، ودكتاتورية الأدب وديمقراطية الأدب، وأدب الألفاظ، وأدب الحياة، والجمود والتحول، والقديم والجديد، ثم ماذا وراء ذلك من أصحاب هذه

المذاهب ؟ وراء ذلك أن منهم أبا حنيفة ولكن بغير فقه، والشافعي ولكن بغير اجتهاد، ومالكا ولكن بغير رواية ....»[٣٢] .

لقد كان الرافعي - رحمه الله - حريصا على تجديد أصيل، يصون للأدب العربي شخصيته، ويحفظ عليه خصائصه في البيان والفكر، لا تجديدٍ يزهق روحه، ويغيب أصالته وملامح وجهه، تجديدٍ لا يعتدي على عقيدة الأمة وأخلاقها، ولغتها، بل ينطلق منها ليحلق بعد ذلك في سماء الإبداع والتجديد ما شاء أن يحلق، بل هو لن يحلق أصلا بغير ذلك، لأن المقلد لا يحلق، لأنه تابع غير متبوع، ولاحق غير ملحوق، والتقليد **«لا يكون إلا في الطبقات المنحطة، وصناعة التقليد وصناعة المسخ فرعان من أصل واحد »**[٣٣].

رحم الله الرافعي رائداً عظيما من رواد الأدب الإسلامي في الإبداع والتنظير النقدي، وفي الدفاع الحار عن أصالة الكلمة ونبل الفكر، وشرف التعبير. ■

الهوامش:

(١) وحي القلم ٢١٠/٣، طبعة المكتبة العصرية، لبنان، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
(٢) السابق : ٢٤٣/٣ .
(٣) السابق : ٢٠٣/٣ .
(٤) السابق نفسه .
(٥) السابق : ٢٠٥/٣ .
(٦) السابق : ٢٠٦/٣ .
(٧) السابق نفسه .
(٨) السابق : ٢١٦/٣ .
(٩) السابق : ٢٠٧/٣ .
(١٠) السابق نفسه .
(١١) السابق : ٢٠٩/٣ .
(١٢) السابق نفسه .
(١٣) انظر الشعر والشعراء : ٦٥/١ .
(١٤) انظر البيان والتبيين : ١١٣/٢ .
(١٥) وحي القلم : ١٧٣/٣ .
(١٦) السابق : ١٧٥/٣ .
(١٧) السابق : ٢٠٩/٣ .
(١٨) السابق : ٢١٥/٣ .
(١٩) السابق : ٢٢٨/٣ .
(٢٠) السابق : ٢٣٣/٣ .
(٢١) السابق : ٢٣٢/٣ .
(٢٢) السابق : ٢١٠/٣ .
(٢٣) السابق : ٢٢٠/٣ .
(٢٤) السابق : ٧/٢ .
(٢٥) السابق : ١٦٧/٣ .
(٢٦) السابق : ١٩٧/٣ .
(٢٧) السابق : ٢٢٩/٩ .
(٢٨) السابق نفسه .
(٢٩) السابق نفسه .
(٣٠) السابق : ٢٣٧/٣ .
(٣١) السابق : ٢٣٦/٣ .
(٣٢) السابق : ١٩٧/٣ .
(٣٣) السابق : ١٦٧/٣ .

يا شباب العرب

مصطفى صادق الرافعي

يا شباب العرب، لم يكن العسير يعسر على أسلافكم الأولين، غلبوا الدنيا لما غلبوا في أنفسهم معنى الفقر، ومعنى الخوف، ومعنى المستحيل، وقد اخترعهم الإيمان اختراعا نفسيا علامته على كل منهم:

لا تذل.

يا شباب العرب، كانت حكمة العرب التي يعملون عليها: اطلب الموت توهب لك الحياة، والنفس إذا لم تخش الموت كانت غريزة الكفاح أول غرائزها تعمل .

أيها المسلمون، نهضت فلسطين تحل العقدة التي عقدت لها بين السيف والمكر والذهب . عقدة سياسية خبيثة فيها لذلك الشعب الحر قتل وتخريب وفقر .

عقدة الحكم الذي يحكم بثلاثة أساليب، الوعد الكذب، والفناء البطيء، ومطامع يهود المتوحشة .

ليست هذه محنة فلسطين، ولكنها محنة الإسلام، يريدون أن لا تثبت شخصيته العزيزة الحرة .

كل قرش يدفع لفلسطين يذهب إلى هناك ليجاهد أيضا.

أولئك إخواننا المجاهدون، ومعنى ذلك أن أحلافنا هي حلفاؤهم في الجهاد .

ابتلوهم باليهود يمرون فيهم مرور الدنانير بالربا الفاحش في أيدي الفقراء!!

لو صام العالم الإسلامي كله يوما واحدا، وبذل نفقات ذلك اليوم لفلسطين لأغناها.

أسلوب الرافعي الأدبي في تناول التاريخ الإسلامي

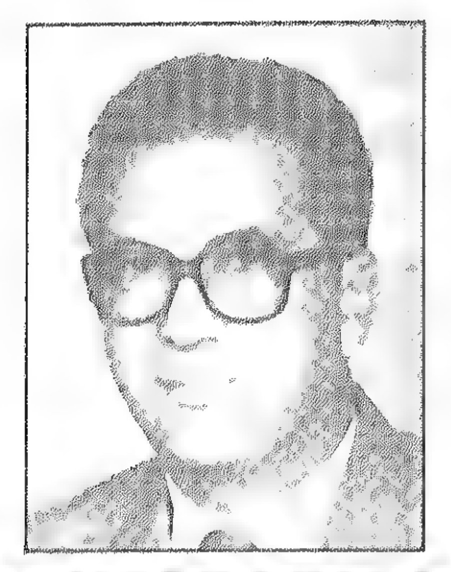
كان لنا أن نتوقع أن يكون التركيز عند مصطفى صادق الرافعي منصبا على تاريخ الأدب العربي، وهو لون من الأدب، كما أنه لون من التاريخ، لكننا لا نستطيع أن نعالجه على أنه طريق كاف للاستدلال به على مفهوم الرافعي للتاريخ، وعلى منهجه في تناوله.

بيد أن ذلك لا يعني أن تراث الرافعي قد خلا من التعامل مع التاريخ، بمعناه المعروف لدى أصحابه، ولا سيما في مفهومه الحديث، وهو أنه التاريخ الحضاري الذي يرصد التاريخ السياسي والعسكري، لكنه لا يغفل تاريخ الأفكار ولا المذاهب، ولا النشاطات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.





لكن شيئا أساسيا يجب أن نشير إليه في تعامل الرافعي مع وقائع التاريخ، فالرافعي لم يستطع قط أن يتخلص من بيانه المشرق، وقدرته البلاغية، وأسلوبه المتميز، الذي يكاد يعرف به دون أن يذكر اسمه إلى جانبه، وهو بحق - كما قال سعد زغلول : " بيان كأنه تنزيل من التنزيل، أو قبس من نور الذكر الحكيم " .



بقلم: د عبدالحليم عويس
مصر

صياغة الوقائع بيانيا وتربويا

وقد اهتم الرافعي بالتاريخ من جوانب عدة على رأسها : إعادة صياغة الوقائع بطريقة بيانية تربوية، تترك تأثيرها في القلب والعقل معا، وثانيها: الدفاع عن التراث العربي الأصيل، الذي تقوم عليه النهضة الإسلامية، وثالثها : رصد النهضة العلمية في التاريخ الإسلامي، بدءا من زمن بني أمية، ومرورا بعصور التاريخ الإسلامي التالية، ورابعها : معالجة القصص القرآني، الذي كان الرافعي يرى أن جهودا كثيرة قد بذلت فيه، وأن هذه الجهود قد ضاعت، وهو يضرب مثلا على ذلك بما ورد في بعض الروايات من التاريخ من أن أبا علي الأسواري القاص البليغ، فسر القرآن بالسير والتواريخ ووجوه التأويلات، فابتدأ في تفسير سورة البقرة، ثم ما لبث يقص ستا وثلاثين سنة، ومات ولم يختمه، وكان ربما فسر الآية الواحدة في عدة أسابيع، لا يني ولا يتخلف، وليس في هذا الخبر شيء من المبالغة أو التزيد، بل عسى أن يكون الأمر مع أهل التحقيق والاطلاع أبلغ منه، وهذه كتب التفسير التي عدها صاحب (كشف الظنون) وسرد أسماءها في كتابه، تبلغ ثلثمئة ونيفا، والرجل إنما عد بعضها كما يقول (....). وذكر الفيلسوف (أرنست رنان) أنه وقف على ثبت يدل على أنه قد كان في إحدى مكتبات الأندلس التي أحرقت تفسير للقرآن في ثلثمئة مجلد . وذكر الشعراني في كتابه (المنن) تفسيرا قال: إنه في ألف مجلد [1] ... وهو يرى أن حظ التاريخ من هذه المجلدات كبير .

ومن المعروف أن كثيرًا من الباحثين في إعجاز القرآن قد جعلوا حديث القرآن عن قصص الأنبياء والأمم السابقة من وجوه الإعجاز، التي يتحدى بها، لكن الرافعي مع اهتمامه بالجانب القصصي في القرآن، ضمن الوجوه التي عرض لها، لم يذهب إلى أنه وجه من وجوه التحدي، فالقرآن لم يهدف إلى أن يكون كتاب تاريخ، كما لم تكن المعاني التاريخية مقصدًا من مقاصده، مع أن ما جاء فيه من التاريخ حق وصدق، لا يتطرق إليه شك، كما أن القرآن عني بالقضايا الكلية، والحقائق الثابتة، والنظريات العامة، التي لا تحتمل اختلافًا ولا افتراقًا[2]، وهو الأمر الذي وقع فيه كتاب العهد القديم، مما عرضه لكثير من النقد والتجريح[3].

وعلى الرغم من أن الرافعي لم يعد الجانب القصصي ضمن الوجوه التي رد الإعجاز إليها، فإنه بسط القول في ظاهرة التكرار في القرآن الكريم.

وقد ناقش الرافعي رأي القدامى، كالجاحظ وأبي هلال العسكري، حول ظاهرة التكرار، مبينًا أن ما ذهبوا إليه من أن التكرار في القصص القرآني لم يكن يصار إليه إلا مع بني إسرائيل لضعف أفهامهم وقلة بصيرتهم، بينما لم يستعمل في خطاب العرب لذكائهم وفطنتهم وعدم احتياجهم إلى ذلك، حُكمٌ فيه قصور، ورأيٌ يحتاج إلى توضيح، لأن اليهود كان منهم البلغاء، وفيهم الفصحاء، ولم يكونوا من العي والغباوة كما يتصور، ثم يقرر الرافعي أن هذا التكرار الوارد في القرآن إنما هو في الحقيقة سر من أسرار

الأدب العبراني، جرى القرآن عليه في أكثر خطابهم خاصة ليعلموا أنه وضع غير إنساني، وليحسوا معنى من معاني إعجازه فيما هم بسبيله، كما أحس العرب فيما هو من أمرهم[٤].

فالرافعي إذن لا يخالف الجاحظ فيما قرره من وجود التكرار في الآيات التي خوطب بها بنو إسرائيل، ولكنه يخالفه في التعليل لذلك، فالجاحظ يرده إلى قلة أفهامهم، والرافعي يعلل -كما رأينا- بأن القرآن خاطبهم بما يعرفون، فالتكرار ضرب من ضروب بلاغتهم، ولون من ألوان أدبهم، ولم يكونوا من الغفلة والسذاجة كما يظن، وإن فيهم لمتكلمين وإن منهم لشعراء، والخطاب في القرآن كله يسمعه العرب واليهود جميعًا، فلا هؤلاء ينكرون من أمره ولا أولئك[٥].



الجاحظ

أما بالنسبة للجانب الأول الذي يعد -بالنسبة لبحثنا- معلماً أساسًا في تقويم منهجية الرافعي في تعامله مع التاريخ، فالحق أن الرافعي لم يستطع إلا أن يكون الرافعي في بيانه وبلاغته، وإضفائه على الواقعة التاريخية كثيرًا من إشراقات نفسه، وفقهه بالبيئة الإسلامية وبالمناخ الإسلامي بصفة عامة.

توقيت ظهور الرافعي

والحقيقة أن الرافعي جاء في وقته المناسب، فقد كانت السنوات التي تألق فيها فكره سنوات مضطربة، يقوم فيها الصراع على أشده بين دول عربية وإسلامية ابتعدت عن القرآن، وابتعدت عن الحقيقة الإسلامية، وبين قوى صهيونية كانت قد أقامت الجامعة العبرية في فلسطين، وبدأت تضع الأسس التوراتية موضع التطبيق، لتقيم دولة يعقوب (إسرائيل) على أساس الفكر التوراتي التلمودي، وبينما كان محمد أحمد خلف الله يطعن في القصص القرآني، في أطروحته التي قدمها إلى جامعة فؤاد الأول (القاهرة) تحت عنوان : الفن القصصي في القرآن، ويجد مؤيدين ومدافعين عن مزاعمه التي يذهب فيها إلى أن الأحداث التاريخية في القرآن، التي وردت عن أحوال الأمم الماضية، لم تكن جديدة، وأن معظمها كان معروفا لأهل الكتاب، وأنها جاءت مخالفة لوثائق التاريخ ... وفي الوقت نفسه كان طه حسين يطعن في قصة إبراهيم وإسماعيل وبناء الكعبة، في التوراة والقرآن معا (والقرآن هو المقصود) ..

في هذا الوقت ظهر مصطفى صادق الرافعي مزودا بأسلحة قوية، زوده الله بها، ليتمكن من الوقوف في وجه هذا الزحف، الذي يحاول مسخ القديم كله، وضرب الثوابت كلها، ونسف التاريخ العربي والإسلامي ..

ومن هنا لجأ الرافعي إلى الوقائع التاريخية، التي تمتلئ بصفحات رائعة، وأخذ يبرزها، وكأنه يكشف لنا بعض جوانب فلسفة التاريخ الإسلامي العظيم، وهو ذلك التاريخ الذي يمتزج فيه عمل الدين بالدنيا . ورشح الإيمان على الحياة .

وبينما كان جورجي زيدان يحاول تشويه تاريخ الإسلام من خلال سلسلته المعروفة « روايات تاريخ الإسلام» القائمة على التدليس وتحريف الوقائع، وتفسير التاريخ الإسلامي تفسيرا اقتصاديا ودنيويا، بعيدا عن الغايات الإيمانية، كان الرافعي من خلال ما أورده في كتابه (وحي القلم) بخاصة يعيد الأمور إلى نصابها، ويكشف الأعماق الإيمانية في حركة المسلمين في التاريخ، وكيف أنها كانت الدافع الأساس، والهدف الأسمى، وأن ما أفاء الله به على المسلمين إنما كانت نتيجة لا سببا، وثمرة لا جذرا، ومنحة ربانية للذين خلصت نياتهم، وقدموا أعمالهم خالصة لوجهه تعالى .

وكانت الوسائل عندهم كالغايات، فهي شرفها وأبعادها الإنسانية، ولم تكن الغاية عندهم تبرر الوسيلة .. فلحروبهم آداب لا يستطيع المحارب المسلم أن يخرج عليها، والكلمة عندهم عهد وميثاق، وجزء من دينهم، والحياة الاجتماعية عندهم تقوم على التراحم، وتقوم على الغايات الإسلامية كما طبقها إمام المتقين، صاحب السيرة العطرة، رسول الله، محمد ﷺ.

● عجيب أن يجهل المسلمون حكمة ذكر النبي العظيم خمس مرات في الأذان.

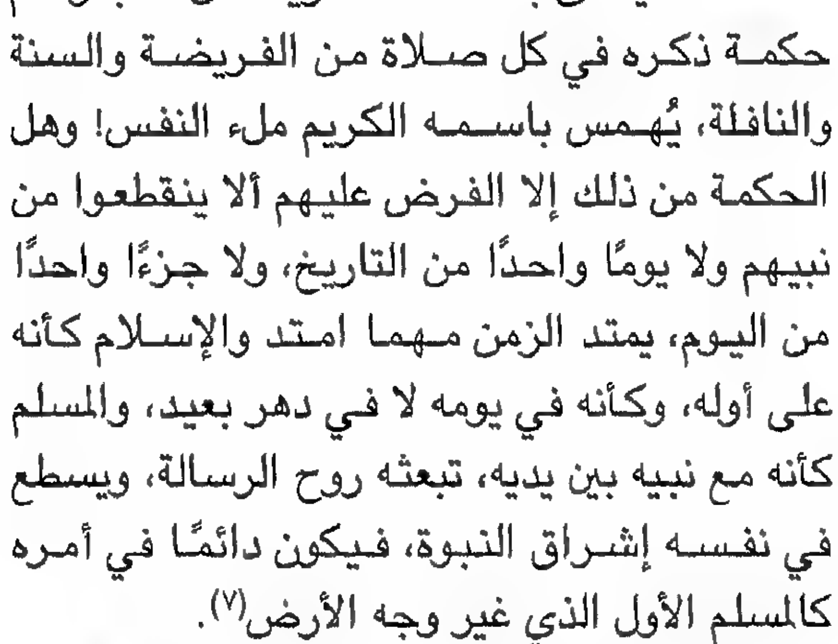
الرافعي والسيرة النبوية

إن الرافعي لا يتحدث عن النبي محمد ﷺ، ولا عن ظهور الإسلام وفلسفته كما يتحدث أساتذة التاريخ، وكتاب السير، بل يتحدث مازجا بين ظاهرة الوحي والظواهر الكونية الكبرى، واضعا النبي في موضعه الصحيح، فمحمد وجد في الإنسانية ينبوعا للنور المسمى بالدين، كما تطلع الشمس بأنوارها، فتفجر ينبوع الضوء المسمى بالنهار، وليس النهار إلا يقظة الحياة تحقق أعمالها، وليس الدين إلا يقظة النفس تحقق فضائلها، وليس النبي إنسانا من العظماء يقرأ تاريخه بالفكر معه المنطق، ومع المنطق الشك، ثم يدرس بكل ذلك على أصول الطبيعة البشرية العامة، ولكنه إنسان نجمي يقرأ بمثل «التلسكوب» في الدقة، معه العلم، ومع العلم الإيمان، ثم يدرس بكل ذلك على أصول طبيعته النورانية وحدها .

والحياة تنشئ علم التاريخ، ولكن هذه الطريقة في درس الأنبياء صلوات الله عليهم تجعل التاريخ هو ينشئ علم الحياة، فإنما النبي إشراق إلهي على الإنسانية، يقومها في فلكها الأخلاقي، ويجذبها إلى الكمال في نظام هو بعينه صورة لقانون الجاذبية في الكواكب (٦) .

وينتقل الرافعي من الحديث العام عن ظاهرة النبوة، وعملها في الحياة، إلى الحديث عن نبي الإسلام، محمد ﷺ وهو يرى أن الإنسانية، عندما ظهر محمد، كانت تريد امتدادًا غير امتدادها التجاري في الأرض، وتحتاج إلى معنى، يقود إنسانها غيرُ الحيوان، الذي فيه، وما كان لإنسانية العالم أن تصل إلى ذلك، إلا إذا عاشت مع نبيها الطبيعي، نبي أخلاقها الصحيحة، وآدابها العالية، ونظامها الدقيق، وأين تجد هذا المحبوب الأعظمَ إلا في محمد ، ودين محمد؟!. وعجيب أن يجهل المسلمون حكمة ذكر النبي العظيم خمس مرات في الأذان، كل يوم ينادى باسمه الشريف ملء الجو، ثم


جورجي زيدان


حكمة ذكره في كل صلاة من الفريضة والسنة والنافلة، يُهمس باسمه الكريم ملء النفس! وهل الحكمة من ذلك إلا الفرض عليهم ألا ينقطعوا من نبيهم ولا يومًا واحدًا من التاريخ، ولا جزءًا واحدًا من اليوم، يمتد الزمن مهما امتد والإسلام كأنه على أوله، وكأنه في يومه لا في دهر بعيد، والمسلم كأنه مع نبيه بين يديه، تبعثه روح الرسالة، ويسطع في نفسه إشراق النبوة، فيكون دائمًا في أمره كالمسلم الأول الذي غير وجه الأرض(٧).

ويتتبع الرافعي شخصية الرسول ﷺ من جوانبها المختلفة مازجًا بينها وبين حقيقة الإسلام، ولهذا جمع المسلمون بين كلام الله في كتابه وكلام رسوله، كما يتلقون الحكم النافذ المقضي، وحققوا في كماله ﷺ وجودهم النفسي، فكانوا من زخارف الحياة وباطلها، في موضوع الحقيقة الذي يُرى فيه الشيء لا شيء، ورأوا في إرادته ﷺ النقطة

الثابتة فيما يتضارب من خيالات النفس، فكانوا أكبر علماء الأخلاق على الأرض، لا من كتب ولا علم ولا فلسفة، بل من قلب نبيهم وحده[8].

ويقف الرافعي عند موت خديجة، زوج النبي ﷺ مع إلماعة إلى الدور الذي قامت به في فترة المحنة المكية، وكيف أنها كانت قلبًا مع قلبه، كما كانت لنفسه كقول "نعم" للكلمة الصادقة التي يقول لها كل الناس "لا"، وبموتها خرج النبي من أيام الاستقرار في أرضه إلى الأيام المتحركة في هجرته، مرة يذهب إلى الطائف فيناله منها ما هو معروف، ومرة يلتقي بالأشراف الوافدين وسفهائهم فلا يجد منهم إلا معاني الظلم والشر، أو يلتقي بالأشراف الذين يذهب إليهم في رحالهم، عارضًا نفسه عليهم، فلا يجد -غالبًا- إلا الصدّ نفسه.

وهنا يأتي "الإسراء والمعراج"، أو حسب تسمية الرافعي "فوق الآدمية" وهي من خصائص نبينا محمد ﷺ، هذا النجم الإنساني العظيم، وهذا النور المتجسد لهداية العالم في حيرة ظلماته النفسية، فالنبي لا يكون نبيًا حتى يكون في إنسانه إنسان آخر بنواميس تجعله أقرب إلى الملائكة في روحانيتها، وما ينزل إنسانه الظاهر من الإنسان الباطن فيه إلا منزلة من يتلقى ممن يُعطي، فذاك الباطن هو للحقائق التي لا تحملها الدنيا، وهذا الظاهر لما يمكن أن يبلغ إليه الكمال في المثل الإنساني الأعلى، ولولا ذلك الباطن ما استطاع نبي من الأنبياء أن يحمل هموم أمة كاملة، لا تضنيه، ولا تغيره، ولا تعجزه[9].

ولاشك أن الرافعي كتب في "الإسراء والمعراج" بدافع من إيمانه، وإن كان التسليم بالمعجزات لا يحتاج إلى العلم، فالمعجزة قدرة ربانية عليا تستعصي على قدرة البشر، ويجب أن تقبل كجزء من الإيمان قبل كل شيء، ولئن كان


د. مصطفى الشكعة

قد ظهر في عصرنا من يفكر في الصعود إلى القمر، ومن يعمل للمخاطبة مع الأفلاك، فذلك شيء خاضع للوسائل والأسباب، وبينه وبين المعجزة ما بين السماء والأرض، ولاسيما أن المعجزة حصلت في عصر، لا وسائل فيه ولا أسباب، ولهذا صح تعليق أستاذنا الدكتور مصطفى الشكعة عندما اختلف مع الرافعي حين حاول أن يقارن بين معجزة الإسراء والمعراج وبين المنهج العلمي، وما وصل إليه البشر حديثًا[10].

وتحت عنوان (الإنسانية العليا) يواصل الرافعي حديثه عن شخصية النبي ﷺ فيصفه بأنه كان متواصل الأحزان دائم الفكرة، ليست له راحة، طويل السكت، لا يتكلم في غير حاجة، ليس بالجافي ولا المهين، يعظم النعمة وإن دقت، لا يذم منها شيئًا، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها، فإذا تعدي الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، وكان خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه.

ولو جمعت كل أوصافه ﷺ ونظمتها بعضها إلى بعض، واعتبرتها بأسرارها العلمية - لرأيت منها كونا معنويًا دقيقًا قائمًا بهذا الإنسان الأعظم[11].

وهل ينبئك مجموع صفاته ﷺ إلا أنه يعيش معيشة القلب إذا اختلف ما حوله، وفجأته بغتات الوجود، فتجاوز أن يكون منبعًا للحياة إلى أن يكون حافظاً للحياة في منبعها.

وفي النهاية يرى الرافعي أنه: على هذا النمط يجب أن تفسر كل أوصافه ﷺ فهي بمجموعها طابع إلهي على حياته الشريفة، يثبت للدنيا بكل برهانات العلم والفلسفة: أنه الإنسان الأفضل،

وأنه الأقـــدر، وأنه الأقوى[١٢].

حسن العرض والاختيار

وحول سمو الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم محمدﷺ يقول الرافعي: "كان النبيﷺ على ما يصف التاريخ من الفقر والقلة، ولكنه كان بطبيعته فوق الاستغناء، فهو فقير لا يجوز أن يوصف بالفقر، ولا تناله المعاني النفسية التي تعلو بعرض من الدنيا وتنزل بعرض، فما كانت به خلة تحدث هدمًا في الحياة فيرممها بالمال.

إن فقره ﷺ كان من أنه يتسع في الكون لا في المال، فهو فقر يعد من معجزاته الكبرى التي لم يتنبه إليها أحدٌ إلى الآن، وهو خاص به، ومن أين تدبرته رأيته في حقيقته معجزة تواضعت وغيرت اسمها، معجزة فيها الحقائق النفسية والاجتماعية الكبرى، وقد سبقت زمنها بأربعة عشر قرنًا، وهي اليوم تثبت بالبرهان معنى قولهﷺ في نفسه: "إنما أنا رحمة مهداة"[١٣].

وهذا المصلح الاجتماعي الأعظم يلقي فقرُه اليوم درسًا على الدنيا العلمية الفلسفية، لا من كتاب ولا فكر، ولكن بأخلاقه وعمله وسيرته، إذ ليس المصلح من فكر وكتب، ووعظ وخطب، ولكنه الحي العظيم الذي تلتمسه الفكرة العظيمة لتحيا فيه.

ويعلق على هذه الكلمات أستاذنا الدكتور الشكعة بقوله: "لكأني بالرافعي يريد أن يغمز بعض المذاهب الاجتماعية المعاصرة، المنبثقة من أفكار مكتوبة، لها بريق يجلب الأنظار، ولكنها عند التطبيق لا تؤتي الثمرة التي أرادت الفكرة أن تتمخض عنها، ذلك أنها أرضية، أما فلسفة محمد وإصلاحه الاجتماعي فمستمدة من السماء»[١٤].

وإذا كانت هذه الومضات التي أشرنا إليها

● **لاشك أن الرافعي كتب في "الإسراء والمعراج" بدافع من إيمانه القوي بالله ورسالة نبيه ﷺ.**

كافية في الدلالة على رؤية الرافعي ومنهجيته في معالجة الباب الأول والأهم والأعلى من أبواب التاريخ الإسلامي، وهو السيرة النبوية، -على صاحبها أفضل الصلاة والسلام- فإن هناك جهودًا مبثوثة في أثناء (وحي القلم) وغيره تتصل برؤية الرافعي ومنهجيته في معالجة قضايا التاريخ الإسلامي في عصوره المختلفة، "فاليمامتان"[١٥] التي صدّر بها (أجزاء وحي القلم الثلاثة) تتصل بموقف من مواقف فتح عمرو بن العاص لمصر، اعتمد فيها الرافعي على خبر جاء في تاريخ الواقدي، ولئن كان الخبر الذي أثبته الرافعي عن الواقدي لا يخلو من مأخذ عند بعض المؤرخين، إلا أن الرافعي اعتمد عليه في استنتاج قصة يؤكد فيها وقوف جيش عمرو بن العاص احترامًا ليمامتين جثمتا



على فسطاط عمرو، فأوقف عمرو الجيش حتى لا يروع اليمامتين، مستنتجًا من هذه القصة الرائعة، التي دار فيها الحوار بين أرمانوسة بنت المقوقس عظيم القبط في مصر، ومارية القبطية وصيفتها أروع المعاني الدالة على رحمة الفاتحين المسلمين وسمو إنسانيتهم!!.



سعيد العريان

وقد ذكر الأستاذ سعيد العريان أن قسيسًا في المغرب أسلم بسبب هذه القصة.

ومن التاريخ الأموي يلتقط الرافعي ثلاث قصص بالغة الروعة: أولاها عن ذلك المفتي الأسود، الأعور، الأفطس، الأشل، الأعرج، المفلفل الشعر الذي كان خلفاء بني أمية لا يأتمنون غيره على الفتوى في مواسم الحج وهو عطاء بن أبي رباح، الذي ولد سنة ٧٢هـ، ومات سنة ١١٥هـ، وهو عند الناس أرضى أهل الدنيا، ومن أزهدهم.

وأما حديث القصة الثانية فهو الحديث المعروف، الذي يتصل بسعيد بن المسيب، فقيه أهل المدينة الذي رفض أن يزوج ابنته لولي عهد عبدالملك بن مروان، الوليد وتحمل في ذلك غضب بني أمية، وزوجها لتلميذه الفقير أبي وداعة.

وقد بسط الرافعي القصة بأروع أسلوب في أكثر من عشرين صفحة [١٦]، وقد ختمها بقوله على لسان سعيد بن المسيب:أف! أف! أتريدون أن أزوج ابنتي من ابن أمير المؤمنين فيخزيها الله على يدي.. أزوجها رجلا تعرف من فضيلة نفسها سقوط نفسه، فتكون زوجة جسمه ومطلقة روحه في وقت معا؟ ألا كم من قصر هو في معناه مقبرة، ليس فيه من هؤلاء الأغنياء، رجالهم ونسائهم – إلا جيف، يبلي بعضها بعضا !»[١٧] .

ومن هذا التاريخ الاجتماعي أيضا قصة زوجة إمام، وتدور حول علاقة الزوجة سيئة الخلق بزوجها الذي يحلم عليها، فلا تزداد إلا تماديا !!

ونحن نلحظ أن هذه القصص تتصل بالحياة الاجتماعية والتربوية التي تكشف عن معدن النفوس الكريمة التي سيطرت عليها قيم الإسلام، فوقفت بقيمها في وجه تقلبات الزمان .

ومن الدولة الطولونية، التابعة للعصر العباسي يضع الرافعي يده على قصة تتصل بأحمد بن أيمن، كاتب ابن طولون مع مسلم بن عمران، التاجر الأديب، ومن هذه القصة يتضح أن المرأة الدميمة تستطيع أن تكون أفضل زوج عندما تصبح ملائكية الأخلاق، ولهذا جاءت القصة تحت عنوان « قبح جميل » [١٨] .

ومن العصر العباسي المتصل بالدولة الطولونية يرصد الرافعي قصة أبي الحسن بنان الحمال الواسطي، شيخ الديار المصرية المتوفى سنة ٢١٦ هـ، والذي ذهب في تعنيف أحمد بن طولون، وهو يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر لدرجة طاش معها عقل ابن طولون فأمر بإلقائه إلى الأسد ليبتلعه، واجتمع الناس ليروا هذا المشهد الرهيب، لكن الأسد الجائع أقبل على الشيخ يحتك به، يلحظه، ويشمه، كما يصنع الكلب مع صاحبه الذي يأنس به، وكأن الأسد يعلن أن هذه ليست مصاولة، بين الرجل التقي وبينه، ولكنها مبارزة بين إرادة ابن طولون وإرادة الله .

وبعد أن انصرف الأسد سأل ابن طولون الشيخ " ما الذي كان في قلبك، وفيم كنت تفكر ؟ فقال الشيخ [١٩] لم يكن عليّ بأس، وإنما كنت أفكر في لعاب الأسد، أهو طاهر أم نجس ؟!!!

وأخيرا نشير إلى قصة من العصر المملوكي، تناولها الرافعي بأسلوبه الأدبي الرائع وهي القصة المعروفة، والتي قام فيها سلطان العلماء عزالدين بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٦٠هـ ببيع أمراء المماليك والوقوف ضدهم، وأخذ فائض أموالهم منهم قبل الدخول في موقعة عين جالوت، فكان ذلك من أكبر أسباب النصر، وقد وضع لها الرافعي عنوانا هو : « أمراء للبيع» [٢٠] .

القرآن الكريم سرّ النهضة الإسلامية

وفي تحليله وعرضه للنهضة العلمية الإسلامية في شتى فروعها عبر التاريخ، يعزو الرافعي هذه النهضة إلى القرآن الكريم، مؤكدا أن القرآن الكريم كان سبب العلوم الإسلامية ومرجعها كلها، وأنه ما من علم إلا وقد نظر أهله في القرآن الكريم، وأخذوا منه مادة علمهم، أو مادة الحياة له، معللا ذلك بأن سطوة الناس في الأجيال الأولى – من العامة وأشباه العامة – كانت شديدة على أهل العلوم النظرية، إلا أن يجعلوا بينها وبين القرآن نسبا [٢١] .


شكيب ارسلان

وكما تكلم المفسرون في القرآن، وتكلم الأصوليون، وتكلم البلاغيون، فكذلك تلمحت طائفة ما في القرآن من قصص القرون السالفة والأمم الخالية، ونقلوا أخبارهم، ودونوا وقائعهم، حتى ذكروا بدء الدنيا، وأول الأشياء وسموا ذلك بالتاريخ والقصص [٢٢] .

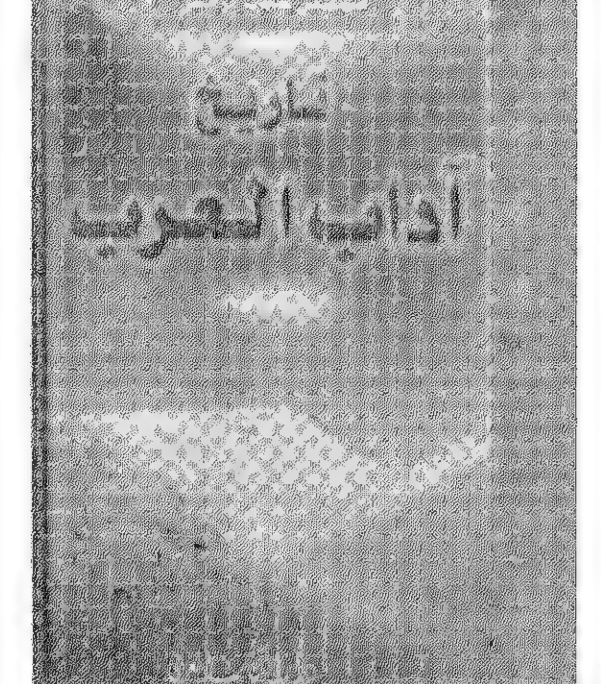
ويذكر الرافعي أن النهضة العلمية كانت قائمة بأكثر العلوم الإسلامية في عهد بني أمية، حتى امتهد أبو جعفر المنصور، ثم الرشيد من بعده للنهضة العباسية الكبرى، التي نشأت من جمع كلمة أهل الفقه والحديث بعد انشقاقهم زمنا، وافتراق الكلمة بينهم – ومن إقبال الناس على الطلب والاستيعاب، فكان ذلك تهيئة لانشقاق علوم الفلسفة والكلام وما إليها، وظهور أهلها، وانحياز السنة عنها جانبا، ثم اجتماعها على مناظرتها [٢٣].

وبالنسبة لجهود الرافعي في تاريخه لسيرة الأدب العربي، فإننا نتفق مع أستاذنا الدكتور محمد رجب البيومي في أن جهود الرافعي في التأريخ للأدب العربي، تعدل جهود محمود سامي البارودي في بعث الشعر المعاصر، حين أنقذ البارودي هذا الشعر من هوة الركاكة والسطحية، وتنسيق المحسنات، وارتفع به إلى مستوى الشعر العباسي، حيث عارض الفحول من السابقين ولم يكد يختلف عنهم في إبداعه الرائع.

ولئن جاءنا اليوم من يقول لنا " « إن الرافعي في كتابه " تاريخ آداب العرب" قد خرج عن حدود هذا التاريخ إلى بحوث أخرى، ثم يقرنه بباحث أتى بعده بستين عاما فإن ردنا عليه أن هذا هو غبن جائر متعمد مقصود، لأن المسألة بهذا الفارق الزمني، من الوضوح بحيث لا تحتمل اللجاج .

على أن بعض الذين يضيقون بالكتاب الآن، إنما يضيقون به لأسلوبه البياني، فالرافعي في كتابته جاحظي في أسلوبه، يهتم بالديباجة العربية، اهتماما يرتفع بقارئه، ولا يحاول أن يهبط إلى مستوى الأسلوب الصحافي العام [٢٤] .

وفي رأينا أن هذا لا يحسب على الرافعي، بل يحسب له، فهذا أسلوبه الذي تميز به في كل كتاباته، ما يتصل منها بتاريخ السيرة، أو التاريخ العام، أو تاريخ العلوم، فضلا عن تاريخ الأدب، وكما كان للرافعي أسلوبه، كذلك كان لعباس العقاد أسلوبه، ولأحمد حسن الزيات أسلوبه، ولمصطفى لطفي المنفلوطي أسلوبه، وكلهم حاولوا أن يعيدوا للبيان العربي رونقه وعظمته في وجه العجمة الزاحفة، والأسلوب الصحفي الضعيف .



وأخيرا

ها هوذا (مصطفى صادق الرافعي) يعتمد ضمن كتابه (تحت راية القرآن) مقالة لأمير البيان شكيب أرسلان مدارها أن

(التاريخ لا يكون بالافتراض) (لأنها توافق رأيه في معالجة التاريخ) ... يقول أرسلان فيها :

« لقد ولع بعض الأدباء باتهام التاريخ الإسلامي الذي لدينا، وسلوك طريقة في التعليل لم يسلكها الأولون، ارتياء لوجوه جديدة وأسباب للحوادث لم تكن معروفة بحيث يقال إنهم كشفوا حقائق تاريخية لم يعرفها غيرهم، أو عرفوا أسرارا أعماها التاريخ الديني أو أعمتها السياسة وأهواؤها على الجمهور، ويسمون ذلك تمحيصا وتحقيقا، ويظنون أن التمحيص والتحقيق هما بمجرد المخالفة والخروج عما عليه الرأي العام، ولكننا نعرف التاريخ بالأدلة العقلية والنقلية، وملاحظة ما سبق وما لحق واستنباط النتائج من المقدمات، ولا نعرفه تخرصات، وافتراضات، وأبنية على غير أساس، فإن كان هذا هو التمحيص التاريخي، الذي يتوخى بعض العصريين أن يقلد به الإفرنج، فلا كان هذا التمحيص الذي هو عبارة عن قلب الحقائق لأجل الإتيان بالبدع، ويجل علماء الإفرنج عن أن يكون تمحيصهم من هذا النمط، وقد خلط منهم من خلط في معرض التمحيص ولكن نبه المتدققون منهم على أنهم خلطوا .

فعندما يقوم واحد فيذهب إلى أن تاريخ حرب اليمامة محاط بالغموض، وأن مقاتلة أبي بكر لأهل الردة لم تكن من أجل إقامة الدين، بل من أجل تأسيس الملك، وما أشبه ذلك من التوجيهات التي لم يقم عليها أدنى دليل، نعلم أنه حاول أن ينهج مناهج المحصين فظن التمحيص مجرد الخروج عن الإجماع ولو كان الإجماع صحيحا، فلم يصب المرمى .

وفي النهاية يلتقي أرسلان والرافعي في توجيه هذا النداء إلى هؤلاء المتجرمين على التاريخ .. قائلين لهم :

– يا إخواننا : إن التاريخ لا يكون بالظن، وإن الظن لا يغني من الحق شيئا . فإن كنتم مع هذا تصرون على المخالفة لأجل المخالفة، فليس هذا مما يزيد الثقة بعلمكم، بل هو مما ينقصها، وبدلا من أن يضع العلم على قواعد اليقين، يضعه على قواعد أوهى من بيت العنكبوت [٢٥] . ■

الهوامش:

(١) مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، المكتبة التوفيقية، مصر، عام ١٩٩٧م، ص ١٢٦، ١٢٧ .
(٢) د . فتحي عبد القادر فريد، بلاغة القرآن في أدب الرافعي، ص ١٠٦، ط دار المنارة بالقاهرة، ١٩٨٥ .
(٣) انظر موريس بوكاي، الكتب المقدسة في ضوء العلم الحديث، نشر دار المعارف بمصر .
(٤) بلاغة القرآن في أدب الرافعي، مرجع سابق، ص ١٠٦، ١٠٧ .
(٥) المرجع السابق، ص١٠٨ .
(٦) مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، الجزء الثاني، ص٣ .
(٧) وحي القلم، مرجع سابق ، الجزء الثاني، ص١٠ .
(٨) الرافعي، وحي القلم، ج٢ ، ص١٤ – ١٥ .
(٩) الرافعي، وحي القلم، ج٢، ص٣٣ .
(١٠) د . مصطفى الشكعة، مصطفى صادق الرافعي، كاتبا عربيا ومفكرا إسلاميا، ط٣، ص١٢١، الدار المصرية اللبنانية عام ١٤١٩هـ، (وانظر الرافعي : وحي القلم٣٤/٢ .
(١١) الرافعي، وحي القلم، ج٢، ص٣٩ – ٤٠ .
(١٢) المرجع السابق، ج٢، ص٤٢–٤٨ .
(١٣) المرجع السابق، ج٢، ص٤٨–٤٩ .
(١٤) مصطفى صادق الرافعي، كاتبا عربيا ومفكرا إسلاميا، ص١١٩، مرجع سابق.
(١٥) الرافعي، وحي القلم، ج١، ص١٧–٢٩ .
(١٦) المرجع السابق، ج١، ص١٢٦ – ١٤٨ .
(١٧) المرجع السابق، ج٢، ص١٤٧–١٤٨ .
(١٨) المرجع السابق، ج١، ص١٦٨– ١٧٩ .
(١٩) المرجع السابق، ج٣، ص٥٨ .
(٢٠) المرجع السابق، ج٣، ص٥٨ – ٦٦ .
(٢١) الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص١٢٢ .
(٢٢) المرجع السابق، ص١٢٨ .
(٢٣) المرجع السابق، ص١٢٠ .
(٢٤) محمد رجب البيومي، تاريخ الأدب العربي للرافعي، دراسة في مجلة الأدب الإسلامي، العدد ١٣، رجب ١٤١٧هـ .
(٢٥) مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن الكريم، المكتبة التجارية، ص٩٦ .

الخصائص الأسلوبية للرافعي في وحي القلم

بقلم : د . مكارم الديري*
مصر

ينتمي الرافعي إلى الاتجاه البياني المحافظ في الأدب، والذي اعتمد على استلهام النماذج الجيدة التي خلفتها عصور الازدهار الأدبي وجعل هذه النماذج قلبا للتعبير، وكان أساس هذا الاتجاه (اعتماد الفصحى في التعبير، ورفض العامية، وضرورة المحافظة على قوانين اللغة ومميزاتها الخاصة، ورفض التقليد والجمود والتكلف والتعقيد، وتطوير القيم التعبيرية المختلفة ..)(1).

وكان أصحاب هذه المدرسة يعتقدون كغيرهم من أدباء هذه المرحلة أنهم أصحاب حضارة عريقة، وأن الحضارة الغربية فرضت على المجتمع في صورة غزوٍ استعماري وكان أمراً طبيعيا أن ترفض فكرة الذوبان في هذه الحضارة محافظة على الهوية العربية والإسلامية . وتناولت موضوعاتهم مواجهة الدعوة إلى العامية والتصدي لعوامل التغريب المختلفة والدفاع عن اللغة العربية والدين الإسلامي والتراث الثقافي ومن أهم أعلام هذه المدرسة مصطفى لطفي المنفلوطي ومصطفى صادق الرافعي وعبدالعزيز البشري.

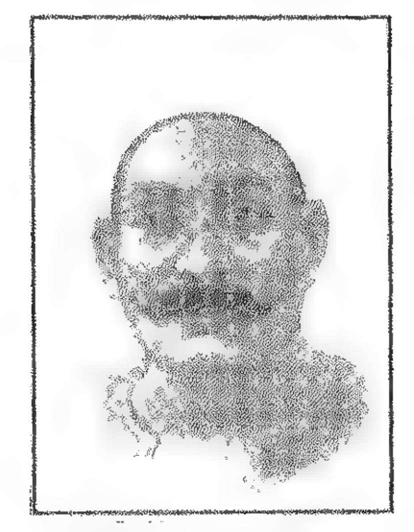
* أستاذ مساعد ، قسم الأدب والبلاغة ، كلية دار العلوم ، جامعة الأزهر، القاهرة

والرافعي من الذين نشؤوا في بيئة إسلامية خالصة تحفل بالدين وتقدس القرآن وتحفظه مما كان له أثر واضح في تشكيل فكره وتقويم أسلوبه وأصبح لديه بفضل حفظه للقرآن الكريم والحديث الشريف قدرة تعبيرية جيدة تبدو في دراسته لنظم القرآن الكريم بجانب الحديث الشريف بالإضافة إلى أنه خصص جانبا كبيرا من كتابه «تاريخ آداب العرب» لدراسة أساليب الحديث الشريف وبلاغته . بالإضافة إلى مقالاته في وحي القلم وخاصة مقاله «السمو الروحي الأعظم والجمال الفني في البلاغة النبوية» .

وأهم هذه الخصائص :

١ - المعجم اللغوي:

يضم المعجم اللغوي للرافعي حصيلة متنوعة من الألفاظ الجزلة التي تتميز بسلامة الجرس وجمال الإيقاع وقوة الإيحاء والتنوع في استخدام الدلالات المختلفة للألفاظ، وهي حصيلة لا بأس بها تطلعنا على ثقافة لغوية واسعة ومقدرة فائقة على استخدامها، كما يضم معجمه اللغوي أيضا بعض الألفاظ الشعبية التي التقطها من العامة وجاءت على لسان أولاد البلد في مقالاته . والكاتب في تناوله لألفاظ اللغة العربية أكثر حرصا على استخدامها استخداما لغويا سليما وصياغتها صياغة أدبية رفيعة متحديا بها دعاة العامية في اللغة والأدب، وقد جاءت ألفاظه وتعبيراته موحية بدلالتها المعنوية والجمالية فمثلا مقالته «الإشراق الإلهي» [٢]، تضم العديد من الألفاظ الموحية المعبرة عن أثر الدين في حياة البشر كلفظ «الإشراق» الحركة والنشاط والتحول بفضل أشعة الشمس . وتضم المقالة أيضا ألفاظا موحية بالبعث والتحول والتغيير وهي قريبة من لفظ الإشراق مثل الشمس تفجر - ينبوع - التحول - الترقي - السمو .



مصطفى لطفي المنفلوطي

وفي مقالة «حقيقة المسلم» [٣]، يوحي لفظ «أفرغ» بالتحول والانصهار للعنصر الكريم وإفراغه جميعا في النفس البشرية للتحول به نحو الأفضل .

ويتحول الكاتب بدلالات الألفاظ الموحية بالكآبة كألفاظ «السواد» و«التراب» إلى معنى آخر يوحي بالتفاؤل والحياة كما في قوله عن رسول الله ﷺ «فالسواد الذي تراه في فقره ﷺ هو السواد الحي سواد الليل حول الروح النجمية الساطعة، والتراب : تراب الزرع تحت النضرة والخضرة» [٤].

وهو حين يعبر عن الروح الشاعرة يمنحها رشاقة الألفاظ وانطلاقها فهي «طفل ملائكي فرح بالطبيعة يرى الكون في سمائه وأرضه انسجاما واحدا جمالا وسحرا وفتنة» .

وحين يعبر عن الحقيقة العلمية يعبر عنها بالألفاظ الوعرة المقيدة بألفاظ مثل: الخف والحافر، وأيضا قوله :«فمدى العقل قطعة من الحجر أو عظمة من حيوان أو نسيجة من نبات أو فلذة من معدن» [٥].

وتتراشق ألفاظ الرافعي معبرة عن معاني الفرح أو الحزن وهو يكاد يستوفي لكل معنى من هذه المعاني ما يناسبها من ألفاظ .

ففرحة العيد تبدو في مرح الأطفال وانطلاقهم فيوحي للتعبير عنها بالوجوه النضرة والعيون الحالمة والأجسام الغضة والفجر المشرق على وجوههم [٦] .

وهناك من الألفاظ الموحية بميلاد الجمال في الربيع :فالرياض منورة بأزهارها والطيور مغردة بألحانها والأشجار مصفقة بأغصانها .... وهذه المظاهر جميعا تبدو في وجوه الأطفال في العيد [٧] .

أما سطوره عن «وحي القبور» فتعبر عن أحاسيس نفس حزينة «فالعيون تأتي بدموعها» ،

«والنفوس تمشي بأحزانها»، «القلوب تجيء على بقاياها» وحديث من الكاتب عن الحياة الدنيا والآخرة فيه معنى الحكمة والاتعاظ [٨] .

وسطور الرافعي تتخللها العبارات الموحية بالحكمة وهي كثيرة في كتابه، وتتسم بالعمق ونفاذ البصيرة والاتجاه نحو الفلسفة المستمدة من نواميس الطبيعة وواقع الأشياء . وهو يسعى بها دائما نحو المثالية المنشودة، فهو يؤمن برسالة الأديب التهذيبية والتربوية نحو سمو المشاعر ورقيها ومن هذه العبارات الموحية :الثبات وهو : «قانون ضبط القوة وتصريفها على مقتضى الحكمة»[٩] .

والإنسان فرد اجتماعي :«الفرد مقيد في ذات نفسه بمجموع هو للمجموع الكلي، وليس له وحده» [١٠] .

وصغائر الحياة :«أحاطت بمجد الحياة لتثبت الصغائر أنها الصغائر وليثبت المجد أنه المجد»[١١] .

«وحيف الغريزة على العقل إفساد لهذا العقل»[١٢] .

والإيمان الصحيح :«هو بشاشة الروح وإعطاء الله الرضى من القلب ثقة بوعده ورجاء لما عنده»[١٣] .

وكما نفذ الرافعي إلى جوانب الألفاظ واخترق مدلولها المعجمي إلى إيحاءات ودلالات متنوعة نراه أيضا كلفا بتقليب اللفظ على وجوه مختلفة واستعمال التضاد، والاشتقاق اللغوي الطريف .

ومن أمثلة ذلك قوله :«ذهبت أزور أمواتي الأعزاء وأتصل منهم بأطراف نفسي لأحيا معهم الموت ساعة أعرض فيها أمر الدنيا على الآخرة فأنسى وأذكر، ثم أنظر وأعتبر، ثم أتعرف وأتوسم، ثم أستبطن مما في بطن الأرض وأستظهر مما على ظهرها»[١٤] .

وقوله عن رسول الله ﷺ: «فليس له إلا قوة أمر نافذ لا يتخلف، وأن له مع ذلك نسقا هادئا هدوء اليقين مبينا بيان الحكمة خالصا خلوص السر


عبدالعزيز البشري

واقعا من النفس المؤمنة موقع النعمة من شاكرها» [١٥].

ومن الاشتقاق عنده أيضا قوله : تُحتقب في حقيبته، أو تُصندق في صندوق الأسفار [١٦] .

ويأتي الرافعي أحيانا ببعض الأسماء الشائعة على لسان العامة في قصصه وموضوعاته فيسمي أولاد البلد مثلا في موضوعه عن «الطفولتان» باسم بعطيطي وبقلظ [١٧] .

ويضم أيضا إلى معجمه بعض ما ورد على لسان العامة في موضوعه «السطر الأخير من القصة» ألفاظ :أبويا، وما رضيتش، وعاون، وليه ما طرتش [١٨] . ولكن استخدامه لهذا النوع من الألفاظ كان نادرا . وأحيانا يرتقي باللفظ الفصيح إلى درجة الإغراب والصعوبة ويستخدم الأوزان الثقيلة لكلماته كقوله :استوفزت [١٩] وخبيصا والبزازين [٢٠] .

ويتعامل مع بعض الكلمات الأجنبية :كالسيما والتلفون ويأتي ببعضها على سبيل السخرية من المتشدقين بها كقولهم :سكالنس أو الفلير أو النيرفز[٢١].

ويقوم بتعريب بعض الألفاظ الأجنبية على طريقته الخاصة كقوله عن السيجارة «الدخينة» والمايوه «التبان» في قوله :وطاف به الأسواق عاريا في تبان من الشعر وقد ذكره الجاحظ بسروال قصير يلبسه الملاحون [٢٢] . وأطلق أيضا على الروب «المطرف» [٢٣] .

ومعجمه اللغوي في مجمله يعتمد على اللفظ الجزل والصياغة المحكمة وهو من الذين يملكون ناصية اللغة الفصحى فينتقون من الحديث أطيبه ومن التعبير أسماه.

٢ - التنوع الأسلوبي :

يتميز أسلوب الرافعي بالخصوبة والتنوع معتمدا على أسس ثرية من الأصول التراثية

والبلاغية السليمة، وثقافته اللغوية والأدبية شاملة مغترفة من ينابيع ثرية في محاولته الوصول بها إلى أداء بنائي متكامل متحديا بهذا الأسلوب دعاة العامية مبينا لهم جمال اللغة وقوتها ومرونتها وسعة اشتقاقاتها، والكتابة بها في شتى الموضوعات الثقافية تراثية كانت أم عصرية، واعية بعيدة عن كل ما يمس الذات القومية أو يمس الهوية العربية السليمة .

> ● حيف الغريزة على العقل إفساد لهذا العقل.
>
> الرافعي

وأهم ما يميز أسلوب الرافعي هو اتجاهه نحو «التوليد» مما جعل القدرة على التعبير عن الفكرة الواحدة بمعان وأساليب متعددة وتبدو هذه القدرة في استخدام مفردات اللغة من اشتقاقاتها وتضادات ومقابلات معنوية ولفظية وإيحاءات مجازية ويأتي ذلك في معظم مقالاته فمثلا في «وحي الهجرة» يقدم فكرته باستهلال رائع عن رؤيته لحقائق التاريخ بقوله :«إن التاريخ ليتكلم بلغة أوسع من ألفاظه إذا قرأه من يقرؤه على أنه بعض نواميس الوجود، صورت فيها النفس الإنسانية كيف اعتورت أغراضها، وكيف مدت في نسقها، وكيف تغلغلت في مسالكها، وما تأتي لها فجرت به مجراها وما دفعها فانحدرت منه إلى مقارها»[٢٤] .

فهو تتبع واستقصى واعتمد على مفردات اللغة المختلفة لتأدية فكرته في محاولة لتوليد معان جديدة، منها أن التاريخ فنان بارع في تصويره للنفس البشرية :كيف اعتورت أغراضها ... وكيف مدت في نسقها .. وكيف ...؟ فهو يأتي بوسائل تعبيرية مختلفة من الاستفهام والتعليل في سبيل تمهيده للموضوع .

ويحاول أيضا تقرير فكرته بالنفي والإثبات لتقديم صورة للجلد والثبات عند رسول الله ﷺ في قوله :«إنه دائب يطلب ثم لا يجد، يعرض ثم لا يقبل منه، يخفق ثم لا يعتريه اليأس ...»[٢٥] .

ويبدو أيضا اتجاهه نحو التوليد في قوله عن النوابغ :«وإذا كان الجمال يستعلن في كلام هؤلاء النوابغ والخيال يظهر في تعبيرهم والحكمة تهبط إلى الدنيا في تفكيرهم والمثل الأعلى هم الداعون إليه والأشواق النفسية هم موقظوها ...» فهذا كله إنما هو توكيد لاتصالهم بالقوة الأزلية المدبرة...[٢٦] .

والتوليد يدفع الكاتب إلى التغلغل في دقائق المعاني وبواطن النفوس، ومنه ما يدفع به إلى معالجة قضاياه برؤية فلسفية ويبدو ذلك في قوله عن الشاعر :«والإنسان من يعيش في عمر واحد، ولكن الشاعر يبدو كأنه في أعمار كثيرة من عواطفه، وكأنما ينطوي على نفوس مختلفة يجمع الإنسانية من أطرافها» [٢٧] .

أما نظرته للإنسان فهي نظرة تدعو للمثالية والارتقاء :«فالإنسان ذات تعمل أعمالها فإذا انتهت الحياة انقلبت أعمال الإنسان ذاتا يخلد هو فيها فهو من الخير خالد في الخير ومن الشر خالد في الشر فكأن الموت إن هو إلا ميلاد للروح من أعمالها تولد مرتين آتية وراجعة»[٢٨] .

وهذا الاتجاه الفلسفي للكاتب في معالجة موضوعاته قد يتخذ أحيانا شكلا غامضا معقدا كقوله عن الإرادة :«الإرادة شيء بين الروح والعقل فهي وجودان، ولهذا يكون بهذا الإنسان بين وجودين أيضا، فيستطيع أن يعيش وهو في الدنيا كالمنفصل عنها، إذ يكون في وجوده الأقوى وجود روحه وأكبر همه نجاحه في هذا الوجود»[٢٩].

والاتجاه بالأسلوب نحو الفلسفة جعله يميل نحو الغموض مما جعل بعض الدارسين يعيبونه حتى قال عنه د . طه حسين في كثير من التحامل:

في أنه يلد ولادة لا نتائج لها[٣٠] . واتهمه أيضا د.أحمد هيكل في أسلوبه بالصعوبة والغموض الذي يصل أحيانا إلى حد الإلغاز [٣١].

ويدفع أيضا اتجاه الرافعي نحو التوليد إلى توازن العبارات ليسودها نوع من الإيقاع والجرس الذي يمنح الأسلوب جمالا، ويأتي ذلك عن طريق التضاد والفواصل بين الفقرات وتقليب اللفظ على وجوه مختلفة . مثل قوله عن أسلوب الرسولﷺ: «وأن له مع ذلك نسقا هادئا هدوء اليقين، مبينا بيان الحكمة، خالصا خلوص السر، واقعا من النفس المؤمنة موقع نعمة من شاكرها»[٣٢].

كما أن الكون في نظرهﷺ ﴿ **آية الحكمة لا آية الفن، ومنظر المستيقن لا منظر المتخيل، ومادة العبودية لله لا مادة التأله للإنسان** ﴾ [٣٣] .

وهذا الاتجاه في توازن العبارات والإيقاع عن طريق الفواصل كثير في كتابات الرافعي وسمة من سمات أسلوبه.

٣ - الصور الوصفية:

يتميز أسلوب الرافعي بالقدرة على الوصف فهو يتمتع ببصر عميق وإدراك واع ودقة ملاحظة في نقل انطباعاته وأحاسيسه عن الناس والأشياء، ويعكس مقاله عن «قرآن الفجر» قدرة نافذة على وصف تلك اللحظات الأسيرة لله سبحانه وتعالى في المسجد وسماع القرآن، ويفوح أريجها بطلٍّ عطر مصدره حب الله وطاعته، فينقل هذه الانطباعات بقلم أديب نافذ البصيرة فيقول :«وأقبل الناس ينتابون المسجد فانحدرنا من تلك العلية التي يسمونها الدكة وجلسنا ننتظر الصلاة، وكانت المساجد في ذلك العهد تضاء بقناديل الزيت لكل قنديل زبالة يرتعش النور فيها خافتا ضئيلا، يبص بصيصا كأنه بعض معاني الضوء لا الضوء نفسه، فكانت هذه القناديل والظلام يرتج حولها تلوح كأنها شقوق مضيئة في الجو فلا تكشف الليل ولكن تكشف أسراره الجميلة»[٣٤] .

فالرافعي في وصف صورته السابقة يطبعها بمفهوم فلسفي رابطا بينها وبين ما هو معلوم للنفس من خفايا هذا العالم المتناهي في الغموض. وما هذه الشقوق المضيئة إلا تفسير ضعيف لبعض ما نعرفه من أسرار هذا العالم اللامنظور .

ومعاني الكاتب في الوصف موحية بالشاعرية فمنظر الضوء المشع من هذه القناديل «كمنظر النجوم يتم جماله في الليل بإلقائه الشعل في أطرافه العليا وإلباس الظلام زينته النورانية» والمسجد في وقت السحر «يشعر بالحياة مخبوءة، ويحس في المكان بقايا أحلام» وحين تتحلل خيوط الظلام بضوء النهار «يشعر بالفجر في ذلك الغبش عند اختلاط آخر الظلام بأول الضوء شعورا نديا كأن الملائكة قد هبطت تحمل سحابة رقيقة تمسح بها على قلبه لينتصر من يبس ويرق من غلظة»[٣٥] .

وهذه المشاعر الرقيقة هي انطباع عن جمال الطبيعة من خلال أحاسيس أديب مرهف صافي النفس غزير العاطفة بالإيمان الصادق . وهي أحاسيس تنساب في سهولة ولين كرقة كلماته ونفاذها إلى النفس .

ويتميز الرافعي أيضا بالقدرة على وصف الشخصيات وصفا دقيقا كقوله عن الجاحظ في مقاله «صعاليك الصحافة» :«رجل مربوع مشوه الخلق صغير الرأس دقيق العنق جاحظ العينين، تدوران في محجريهما دورة وحشية كأنما رعبته الحياة منذ كان جنينا في بطن أمه»[٣٦].

والكاتب في وصفه لعيني الجاحظ متأثر بوصف طرفة بن العبد لعيني ناقته وتصويرها بعيني البقرة الوحشية المذعورة من القناصة الذين أصابوا ولدها، ومن ثم فهم يطاردونها وذلك في قوله :

وعينان كالماويّتين استكنَّتا
بكهفي حِجاجَيْ صخرة قَلْتِ موردِ
طحوران عُوّار القذى فتراهما
كمكحولتي مذعورة أم فرقدِ[٣٧] .

وفي وصفه للفتى المترف في مقال «الطفولتان» باللين والرقة في قوله :«عصمت بن فلان باشا طفل مترف، يكاد ينعصر لينا، وتراه يرف رفيفا مما نشأ في ظلال العز، لروحه من الرقة مثل الشجرة وهو بين لداته من الصبيان كالشوكة الخضراء في أملودها الريان لها منظر الشوكة على مجسة لينة ....» (٣٨) .

والقدرة على وصف الشخصيات عند الرافعي نجدها تتلون أحيانا بين السخرية كمقاله السابق وبين الجد كمقاله عن عروس تزف إلى قبرها«٣٩» .

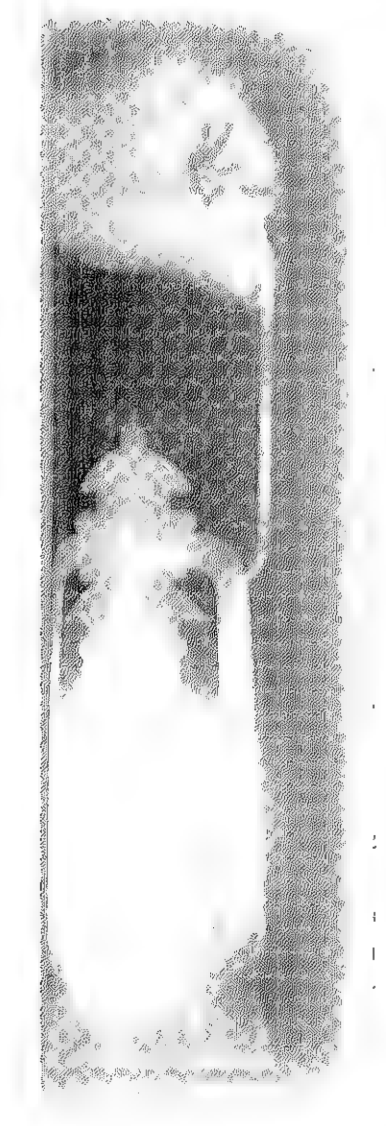
ومن أساليبه عن المقلدين للغرب وملاحدة الفكر: «لم أنخدع قط في هؤلاء من فلاسفة أو دكاترة أو جبابرة . ولست أضع أمرهم إلا على حقه، فإني لأعرف أن الهر من قبيلة الأسد ولكن أسديته على الفأرية وحدها»(٤٠).

ويتهكم أيضا تهكما مرا على هؤلاء المغتربين في قوله :«ولكن طاغور شاعر فيلسوف، وهم أنفسهم من لصوص كتبه وآرائه، ويقعون منه موقع السفسطة الفارغة من البرهان القائم ،وإذا قيسوا إليه كانوا كالذباب تزعم أنفسها نسور المزابل، ولكنها لا تكابر في أن من الهزؤ بها قياسها بنسور الجو»(٤١) .

ويتحدث عن لسان شيطان طه حسين هازئا بأن طه حسين يرى أنه من الخير أن لا يعرف هذا الهندي «طاغور» العربية لأنه لو عرفها لما أرضته(٤٢) .

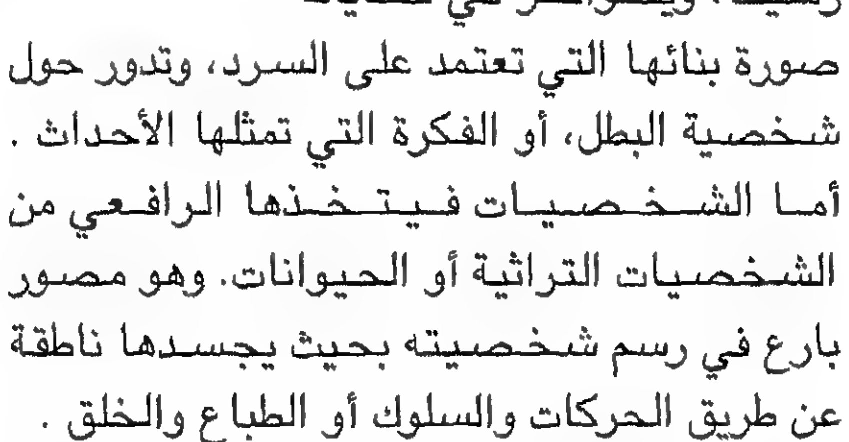
ويسخر أيضا من مدعي التجديد فهم «مزورون وجملة عملهم كوضع الزنجي الذرور الأبيض «البودرة» على وجهه ثم يذهب يدعي أنه خرج أبيض من أمه لا من العلبة»(٤٣).

وهذا الأسلوب الساخر يتخذه الرافعي دائما في هجومه على خصومه، وهو يتميز بالسخرية المرة واللهجة الشديدة التعنيف والتوبيخ، فهو لا يعرف القصد في التعبير عندما يحاول الانتصار للدين أو اللغة أو الحضارة الإسلامية فيكون مندفعا بعاطفة إسلامية جارفة لا يقف في سبيلها شيء، وهي تعد تحديا صارخا في وجه الاندفاع الأعمى نحو كل ما هو غربي في ذلك الوقت.



٤ - الاتجاه القصصي:

اتجه الرافعي في أسلوبه إلى الشكل القصصي ليذهب الرتابة والملل عن القارئ ويقدم الفكرة بطريق غير مباشر، وهو راو مليح ومحدث ظريف، تتوافر في حكاياته بعض عناصر القصة الناضجة وتفتقد بعض هذه العناصر، فتتوافر في حكاياته عنصر الحكاية وهي مجموعة الأحداث مرتبة ترتيبا زمنيا، ويتوافر في حكاياته صورة بنائها التي تعتمد على السرد، وتدور حول شخصية البطل، أو الفكرة التي تمثلها الأحداث . أما الشخصيات فيتخذها الرافعي من الشخصيات التراثية أو الحيوانات. وهو مصور بارع في رسم شخصيته بحيث يجسدها ناطقة عن طريق الحركات والسلوك أو الطباع والخلق .



أما الحبكة القصصية لدى الرافعي فهي واهية، وأحيانا تكون مفتعلة أو مفتقدة، وتكون الأحداث والأشخاص مجرد دور يؤدى من خلال السرد أو الحوار بلا أدنى غموض أو مشاكل أو مواقف في حاجة للتفسير . وهذا العنصر الأخير هو أهم عامل نجاح في القصة المكتملة العناصر. أما الفكرة عند الرافعي فهي متوافرة وهي هدف الرافعي الأول من حكايته وغالبا ما تعالج مشاكل اجتماعية أو ثقافية ... ويبدو هذا الاتجاه في العديد من كتاباته في وحي القلم فيتوافر عنصر الحكاية والشخصيات في جميع ما كتبه على شكل قصص مثل مقاله عن «سمو الحب»(٤٤) . وفيه التفات إلى التراث واستلهام قيمه ومبادئه ليجعلها نموذجا حيا في علاج بعض

المشاكل الاجتماعية فينقد بعض العلاقات الإنسانية بين الرجل والمرأة من مفهوم إسلامي، وفي اختيار الزوج على أساس ديني كما في مقاله «قصة زواج وفلسفة المهر» [٤٥] .

فالبطل هو :المسيب بن رافع هو شخصية تراثية، والحوار كان بينه وبين العديد من مريديه . ومن خلال الحوار يصف الكاتب الشخصيات وحركاتها وطباعها وذلك في قوله :«قال مجاهد: هذا ليس بشيء في تنادر شيخنا وما يتفق له، أخبرني أن رجلا جاءه في مسألة فدخل عليه البيت وهو جالس مع امرأته فقال الرجل : أيكما الشعبي؟ فأومأ الشيخ إلى امرأته وقال :هذه ...!.

قال المسيب :وضحكنا جميعا، وأخذ نظري الغلام فإذا هو ناكس حزنا وهما، وكأنه لا يستطيع النظر إلينا ...»[٤٦].

ومن خلال حكاياته يصل أحيانا إلى مرحلة العقدة أو المشكلة التي تعتمد عليها القصة كما في قوله :«ففتحت عيني وقلبي معا، ورمقت الطفل المسكين الذي لا يملك إلا يديه الضعيفتين، ونظرت إلى مجرى السكين من حلقه وإلى محزها في رقبته، ورأيته كأنما تفرق بصره من الفزع على كل جهة، ورأيته يتضرع لي بعينيه الباكيتين ألا أذبحه، ورأيته يتوسل بيديه الصغيرتين كأنه عرف مني أنه أمام قاتله، ثم خيل إليّ أنه يتلوى وينتفض ويصرخ من ألم الذبح تحت يد أبيه»[٤٧].

ولكن هذه الحبكة سريعا ما تضعف وتفقد تأثيرها لخوضه كثيرا في الوعظ المباشر والاستغراق في الوصف والتفسير والتحليل فيخرج بها من جنس القصة إلى الحكاية والملح والنوادر .

ومن حكاياته الطريفة حوار أجراه بين خروفين، يحكي فيه على لسان الخروف الكبير قصة من وحي خياله عن طريق تواتر الرواية بالسند على غرار رواية الحديث النبوي والأحداث التاريخية كقوله : «حدثتني أمي عن أبيها عن أبيه قالت :إن فخر جنسنا من الغنم يرجع إلى كبش الفداء الذي فدى الله به إسماعيل، وكان كبشا أبيض أقرن أعين اسمه حرير»[٤٨].

وللرافعي قدرة فائقة على وصف حركة شخصياته بدقة والتعبير عنها كما في قوله :«فتقلقل الضرير في مجلسه، وتنحنح، وهمهم أصواتا بينه وبين نفسه».

وقوله :«فأسفر وجه أبي معاوية، وسري عنه، واهتز عطفاه، وأقبل عليهم بعفو القادر، وأنشأ يحدثهم»[٤٩].

ومقالاته التي تأخذ شكل القصة عديدة مثل «بين خروفين، والطفولتان، وأحلام في الشارع، وأحلام في قصر، وسمو الحب، وقصة زواج، وفلسفة المهر، وذيل القصة، وفلسفة المال، وزوجة إمام، والانتحار» وذلك لأن دأبه في أغلب موضوعاته الأسلوب غير المباشر واستدعاءه لشخصيات تاريخية تخدم غرضه من الموضوع.

٥ - الخيال الأدبي:

يتلون الخيال الأدبي عند الرافعي مستمدا عناصره من الحكايات التراثية أو المظاهر الكونية أو النفس الإنسانية أو الواقع الاجتماعي، وصور الرافعي الخيالية لا تأتي بتلقائية، وإنما هي منتزعة من فكره انتزاعا، ولهذا فهي تتداخل أحيانا، وتتزاحم فيها التشبيهات والاستعارات وألوان البديع المختلفة لصياغة الصورة عنده ... والخيال لديه أيضا يرتبط ارتباطا وثيقا بخلاصة عقله وحضوره الذهني ولا غرو في هذا فهو أديب فكرة وهدف .

ويجتمع لديه الحس الديني مع الوجداني في التعبير عن أثر القرآن الكريم وتشبيه قلبه بشجرة تستمد عناصر حياتها من نور القرآن[٥٠].


طاغور

ونجد أن التشبيه هو أكثر الأنماط البلاغية استخداما في تشكيله للصورة:«فالقمر زاه زفاف كأنه اغتسل وخرج من البحر»، «والطيور نساء يتضاحكن، والفراش أطفال يتواثبون»، «وسماؤه كأنها رقعة أطبقت عليها غيوم السماء وأرضه بقعة اجتمعت فيها كل زلازل الأرض»(٥١) .

وقوله عن نفس رسول الله ﷺ:«كأنما خرجت هذه النفس من صيغة الدرة في محارتها أو تركيب الماس في منجمه ...»(٥٢).

ويصور الرافعي أيضا العطاء بالشجرة الطيبة تأخذ ترابا وتصنع حلاوة في قوله :«وما قط نبتت شجرة في مكانها لتأكل وتشرب وتختزن السماد والتراب وتحصنها وتمنعها عن غيرها . ولو قد فعلت ذلك لكان هلاكها»(٥٣) .

ومن استعاراته الرائعة وصف رجل هم أن يقتل ولده في قوله :«وطمس الظلام هذه الرؤيا وتغيمت الدنيا فأيقنت أن آثامي قد أقبلت عليّ ظلمة بعد ظلمة، والتمع شيء أحمر فنظرت فإذا الدم يتخايل في عيني كأنه شعل تتلوى» . وقوله :«ثم طافت الحياة على عيني ففتحتها فإذا الأشياء تبدو لي وليس حقائق ولا معان»(٥٤).

ويصور الرافعي أيضا نفس رسول الله ﷺ بالشمس في قوله :«هي النفس الاجتماعية الكبرى من أين تدبرتها رأيتها على الإنسانية كالشمس في الأفق الأعلى تبسط وتضحى»(٥٥) . فاختار للشمس حالتها عند الضحى وهي أقوى إشعاعا وقدرة على التأثير عن وقت الغروب مثلا لأنها تكون منبسطة على جميع الأرجاء وذات تأثير متعادل في كل مكان تكون فيه.

ويصور الرسول ﷺ في ثباته وصلابته بالجبل الصلد في قوله :«تلك النفس العظيمة في مجموعها: صلابته بمقدار الحق الإنساني الثابت لا بمقدار المتغير الذي يكون عند سبب جبلا صلدا يشمخ، وعند سبب آخر ماء عذبا يجري»(٥٦) .

فوصفه لرسول الله ﷺ بالجبل الصلد للدلالة على الثبات والقوة، ووصف اللين والتردد بالماء العذب . وإن كنت أرى أن الكاتب غير موفق في تصويره للضعف والتردد بالماء العذب لأن في العذوبة حلاوة الطعم وطراوة الملمس وإحساسا محببا إلى النفس، وقد يكون اختيار الكاتب للفظ الماء العذب لإثبات أن الثبات على الحق يتبعه المعاناة، وهو مر على اللين والضعف وإن كان حلوا عذبا، وهناك ثمة معنى آخر في اختيار الماء العذب للضعف والتردد وهو أن الماء من طبيعته الانسياح في محاور ومجاري متعددة عكس الثبات والاستقامة على الطريق .

ويشبه الكاتب أيضا الغريزة بالرعونة والطيش كطفل أحمق لا ضابط له ولا التزام في تصرفه . أما النفس المؤمنة فيشبهها بالرجل المتحكم في هذا الأحمق(٥٧) .

ويصور الكاتب انتشار الإسلام وأثره في تحويل المجتمعات إلى الأفضل في قوله «إن هذا الدين سيندفع بأخلاقه في العالم اندفاع العصارة الحية في الشجرة الجرداء، طبيعة تعمل في طبيعة فليس يمضي غير بعيد حتى تخضر الدنيا وترمي بظلامها»(٥٨) .

فالإسلام كالعصارة الحية التي تستمد منها البشرية غذاءها ونموها، والبشرية شجرة في حاجة إلى هذا الغذاء . ثم صور الرافعي أيضا السياسات والقوانين الوضعية بطلاء مزيف تطلى به الشجرة الميتة الجرداء بلون زائف لا قيمة له ولا عمل، وشتان ما بين عمل حقيقي وآخر باطل .

وأخيرا نصل إلى نهاية رحلتنا الشائقة داخل فكر الرافعي في كتابه «وحي القلم» الذي يجمع بحق كل خصائصه الأدبية والعقلية، فالفكرة لديه سمو وارتقاء بالنفس البشرية، والنقد لديه نقد اجتماعي وأدبي يجمع بين التوجيه والتأثير . والحس الجمالي والفني هو سمة عامة من سمات الأسلوب عند الرافعي . فهو يعتمد في صياغته الأسلوبية على قوة الألفاظ وجزالتها، وتميزها

بسلامة الجرس وجمال الإيقاع، ويتنوع أسلوبه بما لديه من قدرة على التوليد بالتعبير الخصب عن موضوعاته والاتجاه نحو الأسلوب الفلسفي بالتغلغل في دقائق المعاني وبواطن النفوس، وهو مغرم أيضا بتوازن العبارات مما يمنح أسلوبه نوعا من الإيقاع المحبب إلى السمع مع ميله إلى استخدام التضاد والمقابلات اللفظية والمعنوية، والقدرة على استخدام مفردات اللغة واشتقاقاتها ذات الدلالات الموحية .

ويتميز أسلوب الرافعي أيضا في «وحي القلم» بالقدرة على الوصف بما لديه من بصيرة نافذة وقوة ملاحظة في نقله لمختلف الأحاسيس والانطباعات وهو من خلال وصفه يستخدم أحيانا الأسلوب الساخر لتعميق إحساسنا بالرفض لبعض سلبيات المجتمع الاجتماعية والثقافية .

أما الخيال عند الرافعي فهو منتزع من فكره الواعي انتزاعا، لأنه خلاصة عقله وحضوره الذهني، ولذلك تبدو فيه ألوان البديع المختلفة وتتزاحم التشبيهات والاستعارات، لأنه كان شديد الحرص على الصياغة الفنية في أسلوبه بجانب أنه أديب فكرة وهدف قبل أن يكون أديب إحساس وشعور .

والرافعي أديب بحق، طمع أن تكون له مكانة الريادة الأدبية في عصر تباينت فيه الاتجاهات، وازدادت بينه وبين معاصريه فيه الخصومات، ووفدت إليه مختلف الثقافات والاتجاهات، فوجدنا الرافعي في هذه الخضم الهائل من التحولات الاجتماعية والثقافية والسياسية من حراس العقيدة الحقيقيين الذين سعوا إلى المحافظة على الذات القومية، وكافحوا عن المبادئ والقيم الإسلامية طامحا إلى سمو التغيير ورقي الفكرة فكان من نوابغ الرواد في الأدب الإسلامي وفكره الأصيل.■

الهوامش:

(١) مدرسة البيان في النثر والحديث، د.حلمي محمد القاعود، ١٠٢ - ١٠٣ .
(٢) وحي القلم، ٢ / ٥ ، نشر دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان.
(٣) وحي القلم، ٢ / ٥٤ .
(٤) وحي القلم، ٢ / ٥٤ .
(٥) وحي القلم، ٢ / ٨٦ .
(٦) وحي القلم، ١ / ٣٠ .
(٧) وحي القلم، ١ / ٣٢-٣٣ .
(٨) وحي القلم، ٢ / ١٤١ .
(٩) وحي القلم، ٢ / ٧٧ .
(١٠) وحي القلم، ٢ / ٧٤ .
(١١) وحي القلم، / ٢٧ .
(١٢) وحي القلم، ٢ / ٦٢ .
(١٣) وحي القلم، / ٩٣ .
(١٤) وحي القلم، ٢ / ١٤١ .
(١٥) وحي القلم، ٣ / ٩ .
(١٦) وحي القلم، ٣ / ٢٠٨ .
(١٧) وحي القلم، ١ / ٧٦ .
(١٨) وحي القلم، ٣ / ٨٩ .
(١٩) وحي القلم، ٢ / ٣٢٢ .
(٢٠) وحي القلم، / ٣٢٠ .
(٢١) وحي القلم، ٢ / ٢٩٨ .
(٢٢) وحي القلم، ١ / ١٣٣ .
(٢٣) وحي القلم، ١ / ٢٢١ .
(٢٤) وحي القلم، ٢ / ١٨ .
(٢٥) وحي القلم، ٢ / ٢٠ .
(٢٦) وحي القلم، ٣ / ٢٢٣ .
(٢٧) وحي القلم، ٣ / ٢٣٦ .
(٢٨) وحي القلم، ٢ / ١٤٤ .
(٢٩) وحي القلم، ٢ / ١٠ .
(٣٠) حديث الأربعاء، ج ٣ / ١٢٢، ١٩٧٩م، ط٩ .
(٣١) تطورات الأدب الحديث في مصر، ط٤ / ٣٨٦ .
(٣٢) وحي القلم، ٣ / ٩ .
(٣٣) وحي القلم، ٣ / ٢٣ .
(٣٤) وحي القلم، ٣ / ٢٨ .
(٣٥) وحي القلم، ٣ / ٢٨ .
(٣٦) وحي القلم، ٣ / ١٨٦ .
(٣٧) ديوان طرفة / ٢٧، دار صادر، بيروت، ١٩٦١، الماوية: المرآة، الحجاج: العظم المشرف على العينين، الفرقد :ولد البقرة الوحشية .
(٣٨) وحي القلم، ١ / ٧٠ .
(٣٩) وحي القلم، ٣ / ١٤٦ .
(٤٠) وحي القلم، ٣ / ٢٥٠ .
(٤١) وحي القلم، ٣ / ٢٤٧ .
(٤٢) وحي القلم، ٣ / ٢٥٤ .
(٤٣) وحي القلم، ٣ / ٢٥٥-٢٥٦ .
(٤٤) وحي القلم، ٢ / ١٠٣ .
(٤٥) وحي القلم، ٢ / ١١٣ .
(٤٦) من مقاله الانتحار، ٢ / ٨٧ .
(٤٧) من مقاله الانتحار، ٢ / ١١١ .
(٤٨) وحي القلم، ١ / ٦٢ .
(٤٩) وحي القلم، ١ / ١٣٤ .
(٥٠) وحي القلم، ١ / ٤٤ .
(٥١) وحي القلم، ١ / ١٧٩ .
(٥٢) وحي القلم، ٢ / ٦ .
(٥٣) وحي القلم، ١ / ٥٥ .
(٥٤) وحي القلم، ٣ / ١٢٠ .
(٥٥) وحي القلم، ٢ / ٦ .
(٥٦) وحي القلم، ٢ / ٧ .
(٥٧) وحي القلم، ٢ / ٧ .
(٥٨) وحي القلم، ١ / ٢٣ .



يضم كتاب «السحاب الأحمر» لمصطفى صادق الرافعي تسعة فصول تحمل عناوين: «القمر الطالع» ، و«النجمة الهاوية» ، و«السجين» ، و«الربيطة»، و«المنافق»، و«الصغيران»، و«الشيخ علي» ، و«الشيخ أحمد»، و«الشيخ محمد عبده».



وفي هذه الفصول يُناقش قضايا فكرية واجتماعية كثيرة بأسلوب أدبي محلق هو أسلوب أحد أئمة البيان في النثر العربي الحديث.

ومن القضايا الكثيرة التي يُناقشها في هذا الكتاب: معنى العاطفة، والمرأةُ ودورها في الحياة، والجمال ومعانيه، والزواج من الغربيات، ومفهوم الصداقة الحقيقية، ومعنى التدين، وأيام الشباب ... وغيرها.



بقلم: د. حسين علي محمد

ولن نستطيع أن نتوقف أمام ما يضمه الكتاب في هذا العرض، وإنما سنُشيرُ إلى بعض ما احتواه في قراءة قد تدُل على محتواه كما تدُل القطرات القليلة على النبع!

المرأة

تحتلُّ المرأة حيزا كبيراً في هذا الكتاب، فيصورها جميلةً وقبيحةً، وحانيةً وقاسيةً، وأُماً وبنتاً وأختاً، وعاشقةً ومعشوقةً، وروضةً من روضاتِ النعيم، ولفحةً من نارِ جهنم:

فهو يتحدَّث عن المرأة التي تكون جمالاً مُطلقاً، فيراها معنى من معاني السموِّ في الخلقِ، فيقول: «أيُمكنُ أن يكونَ هذا الجمالُ الفتَّانُ في المرأة الجميلة خلاصةَ سماءٍ من السماواتِ، خُلقتْ عينينِ وخَدَّيْن وشفتيْن؛ تضحكُ أحياناً بالنور، وتلتهبُ أحياناً بالبرْق، وتنفجرُ أحياناً بالرّعد»[1].

وهو يرى المرأة معنى من معاني النعيم الدّائم، أو قطعةً من قطع الجحيم، فيقول: «أُقسمُ لو صُغِّرت الجنةُ وجُعلتْ أرضيَّةً، تُلائمُ حياةَ رجلٍ من الناس، ثمَّ عُجِّلتْ له في هذه الحياةِ الدُّنيا، لما كانتْ بمتاعِها ولذَّاتِها وفنون الجمالِ فيها إلا المرأةَ التي يُحبُّها!، أما الجحيمُ فلا أراني في حاجةٍ إلى بُرهانٍ عن أنها صغرت وتجزَّأتْ واندفقتْ على الأرضِ شُعلاً في اسْمٍ من أسماء النساء»[2].

والكاتب يرفض اتجاه بعض المتعلمين في أوربا إلى الزواج من أوربيات نصرانيات، فيقول لهم:

«أما واللهِ إنكم فئةٌ لا تُعَدُّ إلا في مصائبِ وطنها، وإنكم لكالأجنبي، مادام أحدكم لا يصلُ أمومةَ أولادِهِ بتاريخ أمه، وإنكم لكالغاصب، مادمتم تغصبون حتى نساءَ الوطنِ في رجال الوطن، وإنكم لكالعدو مادام كل واحدٍ منكمْ حرباً على بيتٍ...»[3].

ويتمنى لو جاؤوا بمنجزات الحضارة التي تنفع الناس في الزراعة وغيرها من أمور الاقتصاد والحياة التي تنفعُ الناسَ، فيقول: «ألا ليتكمْ جئتم للبلادِ من أوروبا بمحاريثَ لا مواريثَ، وجئتم بالسمادِ بدلاً منْ هذا الوساد[4]، وبالبهائم للسّواني، لا بالحلائل والغواني[5]، وببضائع الحوانيت لا ببضائع أنطوانيت.. وليتكم إذ كنتم رجالنا لم تغلبْكم نساؤهم، وإذ كنتم سيوفَنا لم تأسركم دماؤهم، ويا ليتكمْ لم تتنعّموا وتتأنثوا، فكانت البلاد تجد منكم أهل البأس، ولم تتعلّموا وتتخنّثوا، فكانتْ الأرضُ على الأقلِّ تجد منكم أهل الفأس»[6].

الصداقة الحقيقية

كان مصطفى صادق الرافعي - كما قدّمنا - يستمد موضوعات مقالاته من الحياة، فهو حين يكتب لا يكتب من خياله، وإنما يكتب عن واقع يحياه ويعرفه حق المعرفة. ففي "الفصل الثامن"[7] من الكتاب وعنوانه "الشيخ أحمد" يصف فيه صديقاً له عاجلته المنية فمات في سنِّ الشباب. ويرسم من خلال هذا الوصف صورة للصداقة، ويُبرز ما كان يتحلّى به صديقه الراحل من مبادئ وأخلاق كريمة، ويضع مقياساً للصداقة الحقة والصداقة الزائفة.

فيقول عنه في المقطع الأول: «كانتْ نفسُهُ العاليةُ كالنَّجْمةِ وُهِبَتْ قوةَ النزولِ إلى الأرض، وكان حبيباً لو انْقَسَمَتْ روحي في جِسْمَيْنِ لكانَ جِسْمَها الثاني. كانَ دائماً كالذي يشْعُرُ أنَّهُ لا بُدَّ ميِّتٌ، وتاركٌ ميراثَ مودَّتِهِ، فلا أعْرِفُ أني رأيْتُ منْهُ إلاَّ أحْسنَ ما فيه، وكأنَّما كانَ يُضاعِفُ حياتي بحياتِهِ، ويجْعلُني معهُ إنْسانيْنِ».

إنه يتحدث عن قوة العلاقة بينه وبين صديقه الراحل - الشيخ أحمد الرافعي - فيقول: كانت نفسه عالية في صفاتها، ولكنه متواضع في حياته بين الناس؛ فهو كالنجمة العالية التي منحها الله القدرة على النزول إلى الأرض، وكنا نتشابه في الأخلاق كالتوأمين فهو حبيب إلى نفسي، كأنه شقيق روحي. وكان حريصاً على مودة الناس وحبهم لتظل تلك المودة ذكرى طيبة له عندهم بعد موته، فلم أر منه إلا أحسن ما فيه. وكانت حياته تزيد حياتي وكأني أصبحت شخصين هو أحدهما، فأنا به أعيش مرتين في الوقت نفسه.

وفي المقطع الثاني يبين أن صديقه الراحل كان يمتاز بقوة الإيمان التي تملأ القلب وتشعرنا بحيوية الدين كما كان الصحابة - رضي الله عنهم - في أيام الوحي، ففي أعماق نفسه قوة قلب المؤمن ومعها سموُّ الإيمان ونورُه، ويمتاز بالحياء، والصراحة في الحقِّ، وصدق النية، فوجهه يُعبِّر عما في نفسه كما يُعبِّرُ لسانُه عما في عقله، وكانت شهامته عالية، كما كان محبا، ألوفاً لا يحقد على أحد، وكان حليماً واسع الصدر، كأنَّ الله عوَّضه بذلك الحلم عن قِصر عمره، وكان طيب النفس، فأيامه القصيرة كلها خير، فهي تُساوي أضعافَها لخلوها من التفاهة والفراغ.

يقول: «وكانَ لهُ دينٌ غضٌ كعهْدِ الدين بأيَّامِ الوحْيِ، لا تزالُ تحتَهُ رقةُ قلب المؤمنِ وفوْقَهُ رقَّةُ جناحِ المَلَكِ، يُخالطُ نورُهُ القلوبَ، وكانَ حييا صريحَ الحقِّ، ترى صدقَ نيَّتِهِ في وجْهِهِ كما يُريكَ الحقُّ صِدْقَ فِكْرِهِ في لسانِهِ، سامياً في مروءتِهِ ليْسَ لها أرْضٌ تسْفُلُ عنْدَها، وإنَّما هي إلى وجْهِ اللهِ فلا تزالُ ترتفعُ، ودوداً لا يعرفُ البُغْضَ، مُحِبا لا يتَّسِعُ للحقْدِ، ألوفاً لا يُسِيرُ الموْجِدةَ على أحَدٍ.

وكان رحيبَ الصَّدْرِ، فكأنَّ اللهَ زادَ فيهِ سَعَةَ الأيامِ التي سيَنْتقِصُها منْ حياتِهِ، ففي قلبِهِ قُوَّةُ عُمْرين، وكانَ طيِّبَ النَّفْس، فكأنَّ اللهَ لم يمُدَّ في عُمْرِهِ طويلاً لأنَّهُ نفَى الأيامَ الهالِكَةَ التي يكونُ الإنسانُ فيها معنىً من معاني الموْتِ».

وكأننا في صداقتنا الحقة ينبغي أن نبحث عمن يملكون قوة قلب المؤمن، وسموَّ الإيمان ونوره، ويمتازون بالحياء، والصراحة في الحقِّ، وصدق النية، وأصحاب الشهامة العالية، الذين لا يحقدون على أحد، والذين تخلو حياتهم من التفاهة والفراغ.

التأمل وقوة الخيال

ينبغي على الإنسان السوي عند الرافعي أن يمتلك قوة الخيال، فهذه القوة هي التي تهبه القدرة على مواجهة ما يمر به من مثبطات مُجهضات لهمته وروحه، ولكنه ينبِّه على أن قوة الخيال قد تكون قوة مدمرة. يقول في الفصل التاسع:

«وفي النفْسِ الإنسانيةِ لا تمرضُ الحقيقةُ إلا



من سوء التخييل فيها، كأنَّ نعمةَ الخيالِ إنما وُهِبتْ للإنسانِ لتُخرجها من حدودِ الحقائق فتُفسدها ويُفسد آثارَها فيه ... فالخيالُ هو القوةُ التي يثبُ بها الإنسانُ إلى المجهول، وهو نفسُه القوة التي يسقطُ بها إذا تقاصرت الوثْبةُ أوْ طاشَتْ»[٨].

ويتآزر الخيال مع الوقائع المأخوذة من دفاتر الحياة في هذا الكتاب، حتَّى ليمكننا أن نعدَّ كتاب «السحاب الأحمر» صفحة من صفحات التأمل في شتى مناحي الحياة! فما أكثر ما تمتلئ صفحات هذا الكتاب بالتأمل في شتى مناحي الحياة، فيتأمل في أيام الشباب ويراها نهار العمر:

«يا أيامَ الشباب! أنتِ وحدكِ نورُ الحياة، لأنكِ منذُ الفجْرِ وأنتِ وحدكِ نهارُ العمر، لأنّكِ إلى أن تصفرَّ الشمسُ، وليس وراءكِ إلا كآبةُ الليلِ تتقدَّمُ ليلَها باسمةً في شفقِ المغرب»[٩].

ويُقول: «يا أيامَ الشباب! أنتِ وحدكِ العمرَ»[١٠].

ويتأمّلُ في مرض النفاق الذي يشيع في المجتمع باسم المجاملة أو المصلحة، ويراه دليلاً على الغباء وبلادة الحس، ولا ينجو منه إلا المصلحون والحكماء وأصحاب النفوسِ الحرة. يقول:

«وكلُّ منافقٍ وصاحبُه الذي يُنافقُ لهُ، رجلان لا يفهمُ أحدُهما الآخر. أو تكونُ بلادةُ الحسِّ قدْ بلغَتْ منْ أحدهما أن يتظاهرَ بأنهُ لا يفهم، وبلغت الغلظةُ منْ صاحبِهِ أن يظهر كأنه غيرُ مفهوم!، وكلاهما غطاءٌ مكفأ على حقيقته، ولكنَّ الحقائقَ المُغطّاةَ بأغطية الكذب موضوعةٌ أبداً على نارٍ تتقدُ من عزائم المصلحين، ونفوس الحكماء وقلوبِ الأحرار، فلا تزالُ تغلي كلما طال بها العهْدُ حتى تنفجرَ مِنْ أغطيتِها ... وكان من سنةِ اللهِ أن تجد الناسَ يُنافقون جميعاً، إلا مُصلحاً أو حكيماً أو رجلاً حرَّ النفسِ»[١١].

ويتأمَّل في شيوع المكر بين الناس حتى غدا بعضهم وحوشاً يسَير بيننا في أزياءِ الآدميين؛ يقول:

«تُرى لو سألنا الوحشَ حين يفترس إنساناً: ماذا وقع في نفسك منه حتى ثُرتَ بهِ وعدوتَ عليْه؟ أكان يقول - لو أنطقه الله - إلا أنه أبصرَ في هذا المخلوق وحشاً ماكراً خبيثاً إلاَّ يكن في دقةِ ناب الثعبان فهو في خطرِ سُمِّه، وأنه لو رأى عليْهِ سمْتَ إنسان، وأبصرَ له نظرةَ إنسان، وأحسَّ منهُ قلبَ إنسان، للجأ من وحشيتهِ إلى الإنسانية التي فيه، إذ الإنسانيةُ هي حرمُ الأمنِ الإلهيِّ الذي توضعُ عنده كلُّ الأسلحة!»[١٢].

وقد تكون ثمرة التأمل فقرة هجائية، في كلمات قلائل، أو جمل دالة، تكون نتيجة تجربة لها خصائصُها الدالة، التي ربما لا تُرضي من لم يمر بأمثال هذه التجربة، ومنها:

«قيلَ لحيَّةٍ سامةٍ: أكان يسرُّكِ لو خُلقْتِ امرأةً؟ فقالت: فأنا امرأةٌ غيرَ أن سمي في النابِ، وسمُّها في لسانِها!»[١٣].

فهو لا يهجو عموم المرأة، وإنما يهجو هذه المرأة التي تشبه الحية!

ويتحسّر الرافعي لعدم فهم الناس للصداقة الصحيحة؛ فإن الصداقة الحقة تقوم على قاعدتين هما: حرص على الحق وحرص على الحب، فلو عرف الإنسان الحق معرفة صادقة لما سكت عن كلمة تسرُّ الناس وتُسعدهم:

«آهٍ لوْ عَرَفَ الحقَّ أَحَدٌ لما عَرَفَ كيفَ ينْطِقُ بكلمةٍ تُسيءُ، ولوْ عَرَفَ الحبَّ أَحَدٌ لما عَرَفَ كيفَ يسكُتُ عنْ كلمةٍ تسرُّ، ولنْ يكونَ الصديقُ صديقاً إلاَّ إذا عَرَفَ لكَ الحقَّ، وعَرَفْتَ لهُ الحبَّ»[١٤].

وفي معرضه للصداقة يعرض علينا الكاتب أربعة أنواع من الأصدقاء الزائفين لنحذرهم، ولا نعتد بصداقتهم: النوع الأول: ذلك الشخص المُلازم لك ملازمة الشيطان يُوسوس بالشر، ويدعو إلى الخطأ، وخير لك أن تُخالفه وتُعاديه.

والنوع الثـاني: ذلك المُرافق الذي يتكلّف لك المودّة، ويُلايئك متى وجد عندك خيْراً يقتنصه، أو فرصة ينتهزها، فهو كالذبابة تتهافت على العسل متى وجدته، فإن لم تجده طارت لتبحث عنه في موضع آخر. والنوع الثالث: ذلك الشخص الذي يتظاهر لك بالحب، ولا يتحمّل تبعات الصداقة، ولا يُشارك في الشدائد، فنفسه غائبة عنك كأنها منفى جديد اضطررت للإقامة فيه دون أن تعرف عنه شيئاً، فلا أنس ولا راحة. والنوع الرابع: ذلك الصاحب المتلوّن كتلون جلدة الوجه، تحمرُّ في الصحة، وتصفر في المرض، فهو معك إن كنت في خير، وبعيد عنك إن كنت في شر. ثم يختم الكاتب هذه الفقرة بأن هؤلاء الأصدقاء الأربعة غير مخلصين لك، وغير حريصين على إسعادك، إذ لا يندمجون في مشكلاتك ليحملوا عنك عبئها، ولكن يقفون على الهامش، كأنهم علامات على ظهور المصائب لا إخوان يُشاركون في تحمُّلها، ويُحققون معنى الصداقة.

يقول: «لا أُريدُ بالصديقِ ذلك القرين الذي يصحبُكَ كما يصْحبُك الشيطانُ، لا خيْرَ لكَ إلا في معاداته ومُخالَفته، ولا ذلك الرفيق الذي يتصنَّعُ لكَ ويُماسِحُكَ متى كان فيكَ طعْمُ العسل لأنَّ فيه روحَ ذبابة، ولا ذلك الحبيبَ الذي يكونُ لكَ في همِّ الحُبِّ كأنَّهُ وَطَنٌ جديدٌ، وقدْ نُفِيتَ إليْهِ نفْيَ المُبْعَدين، ولا ذلكَ الصَّاحبَ الذي يكونُ لكَ كجِلدةِ الوجْهِ تحمرُّ وتصْفرُّ، لأنَّ الصحةَ والمرضَ يتعاقبان عليْها. فكُلُّ أولئكَ الأصْدقاءِ لا تَراهُمْ أبَداً إلاَّ علَى أطْرافِ مصائبِكَ، كأنَّهمْ هناكَ حُدودٌ تُعْرفُ بها منْ أيْنَ تبْتدئُ المُصيبَةُ لا منْ أيْنَ تبْتَدِئُ الصَّداقَةُ، ولكن الصَّديقَ هو الذي إذا حضَرَ رأيْتَ كيفَ تظْهَرُ لك نفْسُكَ لتتأمَّلَ فيها، وإذا غابَ أحسَسْتَ أنَّ جُزْءاً منْكَ ليْسَ فيكَ، فسائرُكَ يحِنُّ إليْكَ. فإذا أصبَحَ من ماضيكَ بعْدَ أنْ كانَ منْ حاضِرِكَ، وإذا تحوَّلَ عنْكَ ليصِلَكَ بغيْرِ المحْدودِ كما وصَلَكَ بالمحدودِ، وإذا ماتَ .. يوْمئذٍ لا تقولُ: إنَّهُ ماتَ لكَ ميِّتٌ، بلْ ماتَ فيكَ ميِّتٌ، ذلك هو الصَّديقُ»[١٥].

وقد وضع الكاتب في الفقرة الأخيرة مقياساً للصداقة الحقة استقاءً من صداقته للشيخ أحمد الرافعي، فيقول: إن الصديق الحق ينبغي أن يكون بالنسبة إليك كالمرآة ترى نفسك فيه عند حضوره، فتسعد لوجوده، وإذا غاب أحسست أن جزءاً منك غاب، لأنكما شيء واحد، وكل منكما يُكمل الآخر. فإذا مات وأصبح من ذكريات الماضي بعد أن كان من أركان الواقع، وغادر عالمك المحدود، ليصلك بالعالم العلوي الذي لا نهاية له ولا حدود، لا تحس أن شخصا عاديا مات، بل تحس أن جزءاً منك قد مات في أعماق نفسك، وهذا هو الصديق الحق.

أفكار عميقة ولغة مجنحة

أفكار الكتاب في فصوله التسعة مرتبة عميقة مما يؤدّي إلى غموض بعضها أحياناً، وتعتمد على الاستقصاء والتحليل والتعليل والتوليد والإجمال ثم التفصيل، ففي الفصل الثامن الذي عنوانه «الشيخ أحمد» يتحدث عن الصفاء والرقة، والشباب وهو أيام «شبع العمر»، ثم يتحدث عن الشيخ أحمد ونفس هذا الصديق العالية، وقوة العلاقة بينه وبين الكاتب "وكان حبيبا"، فهذا إجمال فصّله في بقية الفقرة. و"كان له دين غض" تفصيل إلى قوله "نوره القلوب". و"صريح الحق" تعليله وتفصيله في الجملتين بعده. و"سامياً في مروءته" إجمال، تفصيله إلى قوله: "ترتفع". ومن التعليل "كان رحيب الصدر" تعليله في "كأن الله زاد فيه" إلى "قوة عمرين". و"كان طيب النفس" تعليله "كأن الله لم يمد في عمره" إلى آخر الفقرة.

والتوليد أن يولّد من الفكرة الواحدة أفكاراً فرعية عدة، مثل "متى كان فيك طعم العسل" ولّد منها "لأن فيه روح ذبابة" و"كأنه وطن جديد" ولّد

منها "وقد نُفيت نفْي المُبعدين"، و"لا تراهم إلا على أطراف مصائبك" ولّد منها "كأنهم هناك حدود تعرف منها من أين تبتدئ المصيبة لا من أين تبتدئ الصداقة" ومن التوليد أيضاً: أن يُلبس الفكرة أثواباً لغوية منوعة مثل "ذلك القرين .. ذلك الرفيق .. ذلك الحبيب .. ذلك الصاحب .. و"لا تقول: إنه مات لك ميت، بل مات فيك ميت".

وقد عني الكاتب بانتقاء الألفاظ القوية الصافية والفصيحة الأصيلة الدقيقة، وصاغها في عبارات محكمة قوية متحررة من السجع والصنعة التي لا تخلو من التكلف، مع ميل إلى الإطناب، ونوّع الجمل بين الطول والقصر، ولعلك تلحظ التعبير بالفعل "كان" وتكراره للدلالة على رحيل هذا الصديق. كما تلحظ الفرق بين التعبيرين " ترى صدق نيته في وجهه" و"يُريك الحق صدق فكره في لسانه" فأنت ترى وجهه بنفسك، والحق هو الذي يُريك صدق فكره، مع الإكثار من صفات التمجيد للدلالة على الإعجاب الممزوج بالحسرة والألم لفراقه مثل "نفسه العالية، كان يضاعف حياتي بحياته، .. كان حبيباً صريح الحق، سامياً في مروءته، ودوداً، محبا، ألوفاً، رحيب الصدر، طيب النفس". وتكرار النفي لتوكيد الفكرة مثل "لا أُريد بالصديق ذلك القرين ولا ذلك الصاحب"، وبما يشبه الترادف المعنوي مثل: "معاداته ومخالفته" وقد أضاف عطف الثانية على الأولى معنىً جديداً لأن المخالفة عمل إيجابي بعد المُعاداة. و"إذا غاب .. وإذا أصبح من ماضيك .. وإذا تحوّل عنك .. وإذا مات"، وهذا الترتيب له هدف نفسي للتخفيف من صدمة موت الصديق، فالكاتب يتدرّج بالخبر حتى تتهيّأ النفس لتحمل صدمة خبر الموت.

وكان الكاتب دقيقا في انتقاء الألفاظ الملائمة لمواضعها، مُراعياً الفروق الدقيقة بين المرادفات، فـ"القرين" يُلائم التشبيه بالشيطان اقتداءً بقوله تعالى عن الشيطان: ﴿ **وقال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد** ﴾، و"الرفيق" يُلائم "يتصنّع ويُماسح" لما فيه من الرفق واللين، و"الحبيب" يلائم "هم الحب" وتبعاته، و"الصاحب" يوحي بالملازمة فيلائمه التشبيه بجلدة الوجه في الالتصاق.

واستخدام اسم الإشارة "ذلك" للدلالة على البُعد، ملائم للجو النفسي لصديق زائف بعيد عن القلب، وعن معنى الصداقة الحقة. وأيضا "أولئك" إشارة لكل هذه الأنواع من الأصدقاء، و"هناك" إشارة إلى موقفهم البعيد عن المشكلة، و"مات فيك ميت" أدق في التعبير عن قوة الصلة من "مات لك ميت" لدلالة "فيك" على الاندماج.

إن كتاب «السحاب الأحمر» لوحة وجدانية من لوحات الأدب الحديث، تسمو بالنثر إلى ما يشبه الشعر. ■

الهوامش:

(١) مصطفى صادق الرافعي: السحاب الأحمر، ط المكتبة العصرية، بيروت، لبنان ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م، ص,١٩

(٢) المرجع السابق، ص,١٩

(٣) المرجع السابق، ص,٤٢

(٤) الوساد: كناية عن الزوجة نفسها، والمواريث: كناية عنهن أيضاً.

(٥) الحلائل: الزوجات، والسواني: جمع سانية، وهي السواقي تدور فيها البهائم.

(٦) المرجع السابق، ص,٤٢

(٧) الفصل الثامن بعنوان "الشيخ أحمد"، ويتحدث فيه (ص ص٨٥-٩٤) عن الأستاذ الشيخ أحمد الرافعي، ابن عم الكاتب، وصديق نشأته، ورفيق شبابه، والكاتب خال أولاده، وقد ذهب الشيخ أحمد الرافعي ليؤدّي فريضة الحج فأفضى إلى ربه هناك، ودُفِن بمكة (يُنظر المرجع السابق، ص٨٩ فما بعدها).

(٨) المرجع السابق، ص,١٠٢

(٩) المرجع السابق، ص,٨٦

(١٠) المرجع السابق، ص,٨٦

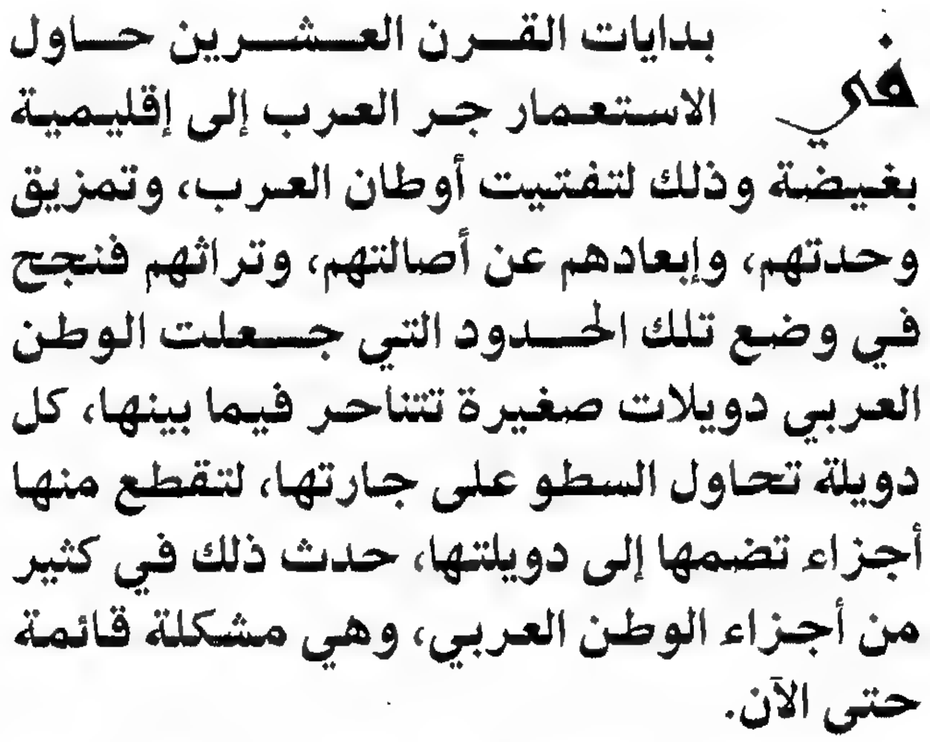
(١١) المرجع السابق، ص,٦١

(١٢) المرجع السابق، ص,٢٩

(١٣) المرجع السابق، ص,٢٤

(١٤) المرجع السابق، ص,٩٠

(١٥) المرجع السابق، ص,٢٩



موقف الرافعي من دعاة العامية واللغات الأجنبية



في بدايات القرن العشرين حاول الاستعمار جر العرب إلى إقليمية بغيضة وذلك لتفتيت أوطان العرب، وتمزيق وحدتهم، وإبعادهم عن أصالتهم، وتراثهم فنجح في وضع تلك الحدود التي جعلت الوطن العربي دويلات صغيرة تتناحر فيما بينها، كل دويلة تحاول السطو على جارتها، لتقطع منها أجزاء تضمها إلى دويلتها، حدث ذلك في كثير من أجزاء الوطن العربي، وهي مشكلة قائمة حتى الآن.

وإمعانا من الاستعمار في إنهاء كل رابطة تربط هؤلاء العرب حاول نشر لغته في البلاد الواقعة تحت سيطرته، وسلطانه، ففرنسا تحاول فرض لغتها على المغرب العربي، وتحاول السيطرة على كل تراث الأمة العربية لتجعل هذه الدول خاضعة لها، بل إنه أعلن في يوم من الأيام أن الجزائر قطعة من فرنسا، وكذلك صنعت إيطاليا في ليبيا، أما إنجلترا فإنها حاولت فرض اللغة الإنجليزية على مصر والعراق، ولكن حال الأزهر الشريف دون تمكينها من رغبتها.



بقلم: د. عبد المنعم يونس*
مصر

ولما لم يستطيعوا ذلك أشاعوا بين العرب في مصر مقولة تقول: إن العرب لا يستطيعون النهوض، والسير في ركب الحضارة إلا إذا تخلوا عن اللغة العربية، ولجؤوا إلى لغات إقليمية محلية كما حدث للغة اللاتينية، ولم يعلموا أن اللغة العربية ليست لغة حديث فقط، وإنما لغة القرآن الكريم، لغة التراث العربي الذي يشكل كيان الأمة العربية ووجدانها، إنها اللغة التي حملت القرآن الكريم، وانتشر بها وانتشرت به في شتى ربوع العالم.

ثم حدث أمر جد خطير، فقد ألف أحد قضاة محكمة الاستئناف في مصر من الإنجليز، وهو القاضي ولمور، كتابا أسماه لغة القاهرة، ووضع لها فيه قواعد، واقترح اتخاذها لغة للعمل والأدب، كما اقترح كتابتها بالحروف اللاتينية [١] .

وجدت هذه المحاولات مقاومة ضارية، ووقف الكتاب الغيورون على لغتهم، والشعراء المؤمنون بتراثهم يفندون تلك الأفكار الخبيثة، التي حملتها فكرة اللغات الإقليمية، فكان أن أفرزت المعركة كثيرا من الكتب والقصائد منها قصيدة حافظ إبراهيم «اللغة العربية تنعي نفسها بين أبنائها» والتي يقول فيها[٢] :

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي
وناديت قومي فاحتسبت حياتي
رموني بعقم في الشباب وليتني
عقمت فلم أجزع لقول عداتي
ولدت ولما لم أجد لعرائسي
رجالا، وأكفاء وأدت بناتي
وسعت كتاب الله لفظا وغاية
وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة
وتنسيق أسماء لمخترعات

أيطربكم من جانب الغرب ناعب
ينادي بوأدي في ربيع حياتي؟!

وإذا كان حافظ إبراهيم قد لمس في قصيدته كثيرا من القضايا التي كانت شائعة في عصره من محاولات الاستعمار فرض لغته، ومن ضعف لغة الصحافة، ومن تلك النداءات التي تصدر من بعض الكتاب الذين يحاولون فرض اللغة العامية على الكتابة المصرية فإن العداء للفصحى لم ينشأ من المستعمر فحسب، وإنما نشأ أيضا من تلك الأبواق التي آمنت برأيه، واستأجرها لترويج فكره، حتى يأتي هذا الرأي من داخل العرب أنفسهم، فقد كتب أحد الكتاب في مجلة الهلال مقالا يدافع فيه عن اللهجات السوقية - يقول: « إنه يشتغل بضبط أحوالها، وتقييد شواردها، لاستخدامها في كتابة العلوم، وهو يؤكد في مقاله أن اختلاف لغة الحديث عن لغة الكتابة هو من أهم أسباب تخلفنا الثقافي، وزعم أنه من الممكن اتخاذ أي لهجة عامية للكتابة كالمصرية أو الشامية، وأنها ستكون أسهل على سائر المتكلمين بالعربية على اختلاف لهجاتهم من العربية الفصيحة، وزعم أيضا أن تعلق المسلمين باللغة الفصيحة لا مبرر له، لأن هناك كثيرين - يعني من المسلمين - لا يتحدثون بالعربية، ولا يكتبون بها، ولأن اللغة التي يتكلمها المسلمون هي غير العربية الفصيحة على كل حال.. » وقال : « إن كل ما يطالب به هو وضع قواعد هذه اللغة التي يتكلمون بها فعلا وواقعا»، وختم مقاله بقوله : « وما أحرى أهل بلادنا أن ينشطوا من عقالهم طالبين التحرر من رق لغة صعبة المراس قد استنزفت أوقاتهم، وقوى عقولهم الثمينة، وهي مع ذلك لا تواليهم نفعا بل أصبحت ثقلا يؤخرهم عن الجري في مضمار التمدن وحاجزا يصدهم عن النجاح، ولي أمل أن أرى الجرائد العربية قد غيرت لغتها، وبالأخص

* أستاذ الأدب والنقد بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ، ورئيس جمعية رابطة الأدب الإسلامي بالقاهرة.

جريدة الهلال الغراء التي هي في مقدمتها، وهذا أعده أعظم خطوة نحو النجاح، وهو غاية أملي، ومنتهى رجائي »[٣].

وإذا كانت هذه المحاولات السافرة لم تؤت أكلها، لأن ثمرها نيئ، وأفكارها خبيثة مكشوفة قد تنبه لها العامة والخاصة، وكتب الغيورون على اللغة والتراث والمقدسات كتابات فاهمة واعية فندوا فيها أباطيل المبطلين، وأراجيف المرجفين، وبينوا للقارئ العربي ما تحمله هذه الأفكار من دسائس حاول المستعمر دسها في أذهان الكتاب، حتى يستطيع تحقيق غرضه والقضاء على تراث الأمة العربية والإسلامية.

كان من أهم هؤلاء الكتاب الذين تصدوا لهذه الحملة، ووقفوا كل جهدهم لتفنيد ادعاءاتها، وأعلنوا للناس جميعا في مختلف البلاد العربية والإسلامية أن تلك الخدعة لا ينبغي أن تنطلي عليهم لأن الاستعمار وأذنابه يحاولون هدم اللغة العربية، وتقويض أركانها، وإحداث هوة سحيقة بين الأمة العربية والقرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي مبين « هو الكاتب الاسلامي العظيم مصطفى صادق الرافعي » الذي لم يأل جهدا في بيان ما تنطوي عليه هذه الدعوة ولم يقتصر جهده في ذلك على النثر، بل قال في ذلك شعرا ضمنه[٤] ديوانه سنعرض له عند حديثنا عن أوجه الدفاع عن اللغة العربية، والتصدي لأعدائها.

دفاع الرافعي عن اللغة العربية:

أدرك الرافعي من أول وهلة أن الدفاع عن اللغة يتطلب منهجا منظما يحفظه لنفسه، حتى يكون دقيقا في رصد كل حدث يمكن أن يخدمه في دعوته، ويحتاج ذلك إلى ذاكرة لاقطة يرصد كل حركة وإن كانت صغيرة، فربما يقدم الحدث الصغير خيطا يصل بالباحث أو المفكر إلى علاج الظاهرة علاجا ناجعا.

● لم يَأْلُ الرافعي جهداً في كشف ما تنطوي عليه الدعوة إلى العامية وفضح دوافع دعاتها.

فقد رأى مرة بعض الناس يتحدث إلى أحد الباشوات حديثا لم يعجبه، لأنه كان يحاول الحديث بلكنة غريبة ليست بالعربية الخالصة، ولا بالرطانة الأجنبية، وإنما خلط الرجل بين اللغة العربية، واللكنة الأجنبية، فهداه ذلك الموقف إلى أن يكتب مقالا لا عن تلك اللغة الخليط أو اللغة المرقعة كما سماها، وإنما كتب عن أولئك الذين يذهبون إلى البلاد الأوربية، ويعودون منها وقد لووا ألسنتهم، أو تعمدوا ذلك حتى يظهروا للناس أنهم جنس آخر، ثم خلص من ذلك إلى أن هؤلاء القوم أصيبوا بعقدة الخواجة كما كان يسميها القوم، وحاولوا أن يقولوا لمستمعيهم: إنهم قوم أخذوا حظا من بلاد أوربا. وما ذلك إلا لضعف هؤلاء القوم، وعدم إيمانهم بأن لغتهم تستطيع أن تؤدي ما تؤديه اللغات الأخرى، بل هي أعرق من هذه اللغات لأنها تحمل أمجاد الأمة ولا تستطيع لغة أخرى أن تقف معها في مضمار.

يقول الرافعي: « جاء حضرة صاحب السعادة فلان لزيارة الباشا وهو رجل مصري ولد في بعض القرى ما نعلم أن الله تعالى ميزه بجوهر غير الجوهر، ولا طبع غير الطبع، ولا تركيب غير التركيب، ولا زاد في دمه نقطة زهو، ولا وضعه موضع الوسط بين فئتين من الخليقة غير أنه زار فرنسا، وطاف بإنجلترا، وساح في إيطاليا، وعاج على ألمانيا، ولون نفسه ألوانا، فهو مصري ملون، ومن ثم كان لا يرى في بلاده وقومه إلا الفروق بين ما هنا وبين ما هناك ...» ثم يقول : .. هو كغيره من المترفين المنعمين، مصري المال فقط إذ كانت

أسبابهم ومستغلاتهم في مصر عربي الاسم لا غير ..» « وكغيره من هؤلاء المترفين المنعمين المفتونين بالمدنية، لكل منهم جنسه المصري، ولفكره جنس آخر» .

● **يزري الرافعي بهؤلاء الذين يحاولون إظهار قدرتهم الكلامية بلغات غير لغاتهم وهم لا يكادون يجيدون لغتهم الأصلية.**

هذه المقدمة التمهيدية في المقال ضرورية لأنه يضع توصيفا لهذا الذي سيتحدث عنه فيما بعد، وليعلم القارئ أن هذا الشخص ليس له ولاء لوطنه إلا أنه ينعم بخيراته، ويستغل موارده في ملذاته فهو عربي الاسم فقط، وهو يشترك مع كل هؤلاء المنعمين الذين يستغلون وطنهم في نهب أمواله، ثم بعد ذلك تراهم يتعالون على أبناء الوطن ممن هم سبب في هذا المال الوفير الذين ينعمون به .

.. ثم يأتي إلى لب الموضوع فيقول : « قال وكان حضرة صاحب السعادة يكلم الباشا بالعربية مرتفعا بها عن لغة الفصيح ارتفاعا منحطا .. نازلا بها عن لغة السوقة نزولا عاليا، يرتضخ لكنة أعجمية، بينا هي في بعض الألفاظ جرس عال يطن، إذ هي في لفظ آخر صوت مريض يئن، إذا هي في كلمة ثالثة نغم موسيقي يرن، ورأيته يتكلف نسيان بعض الجمل العربية ليلوى لسانه بغيرها من



الفرنسية لا تظرفا ولا تملحا ولا إظهارا لقدرة أو علم، ولكن استجابة للشعور الأجنبي الخفي المتمكن في نفسه، فكانت وطنية عقله تأبى إلا أن تكذب وطنية لسانه، وهو بأحدهما زائف على قومه، وبالأخرى زائف على غير قومه»[٥] .

وكلام الرافعي يقصد به أن يرسم صورة لهؤلاء الذين يحاولون إظهار قدرتهم الكلامية بلغات غير لغاتهم فهم لا يجيدون لغات قومهم، ولا لغات غير قومهم، ويضرب على ذلك مثلا : « فهو مرة صوته يشبه جرسا عاليا يطن، ومرة يشبه صوت مريض يئن، ومرة ثالثة يشبه نغما موسيقيا يرن، لأن صوته لم يكن على نسق واحد، ولا يتحدث لغة واحدة، حتى إن الباشا المخاطب عندما انصرف هذا الرجل قال عنه : « أف لهذا وأمثال هذا، أف لهم، ولما يصنعون، إن هذا الكبير يلقبونه « حضرة صاحب السعادة» ولأشرف منه والله رجل قروي ساذج لقبه حضرة صاحب الجاموسة .. نعم إنه الفلاح عندنا جاهل علم، ولكن هذا أقبح منه جهلا فإنه جاهل وطنية» ثم يردف قائلا: « ثم إن الجاموسة وصاحبها عاملان دائبان مخلصان للوطن، فما هو عمل حضرة صاحب (اللسان المرقع) هذا؟ إن عمله أن يعلن برطانته الأجنبية أن لغة وطنه ذليلة مهينة، وأنه متجرد من الروح السياسي للغة قومه .. إذ لا يظهر الروح السياسي للغة ما إلا في الحرص عليها، وتقديمها على سواها »[٦] .

ثم يعلق الرافعي على ذلك بقوله : « كان الواجب على مثل هذا ألا يتكلم في بلاده إلا بلغته،

وكان الذي هو أوجب أن يتعصب لها على كل لغة تزاحمها في أرضه، فترك هذا وهذا وكان هو المزاحم بنفسه، فهو على أنه حضرة صاحب سعادة « لا ينزل نفسه من اللغة القومية إلا منزلة خادم أجنبي في حانة» (٧) .

بمثل هذه اللغة القاسية كان الرافعي يواجه هؤلاء الذين يستخفون بلغتهم، وينزعون إلى لغات أخرى يظنون أنهم بهذا يتباهون على قومهم، وعلى ما ألفوه من حديث بلغة عربية أصيلة، إنه ينحو عليهم باللائمة، لأنهم ما زالوا مرتبطين بما تركه الاستبداد والحمق في زمن الحكم التركي، وكأن الأجنبية علامة الحكم والسلطة واحتقار الشعب.

ويستمر مصطفى صادق الرافعي في تصنيف هؤلاء الأدعياء إلى طبقات: واحدة تتعلق بعصر الاستبداد، وأخرى تصنع نفاقا للاستعمار، فهم يميلون إلى الخضوع والذل السياسي في عهد الاحتلال الإنجليزي، فاللغة الأجنبية بينهم تشريف واعتبار، كأنهم بها من غير الشعب المحكوم الذي فقد السلطة، وثالثة تصنع ذلك، لأنهم يريدون به عيب اللغة العربية وتهجينها، لأنهم لا يحبون الدين الإسلامي الذي جعل هذه اللغة حكومة باقية في بلادهم مع كل حكومة، وفوق كل حكومة « وهم يزدرون هذا الدين ويسقطون عن أنفسهم كل واجباته .. وهؤلاء قد خلطوا عملا صالحا، وآخر سيئا، إذ يغلون في مصريتهم غلوا قبيحا ينتهي بهم إلى سفه الآراء، وخفة الأحلام، وطيش النزعات فيما يتصل بالدين الإسلامي وآدابه، ولغته، وما أرى الواحد منهم إلا قد غطى وصفه من حيث هو رفيع على وصفه من حيث هو عالم أو أديب أو ما شاء . إن هذا المقت ﴿ كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا ﴾(٨) .

هذا جانب من حملة الأديب الكبير الرافعي على أولئك الذين هانوا على أنفسهم فلجؤوا إلى لغة الأجنبي يتشدقون بها، وكأنهم لا يعلمون أنهم بصنيعهم هذا إنما يحطون من أنفسهم، ويقللون من شأنهم، فالأصالة تعني أن يحرص الإنسان على لغته، ويضعها في موضعها اللائق بها بين لغات العالم، وهم لا يعلمون أيضا أن من هانت عليه لغته التي تشكل تراثه وأمجاده سيكون هو بالتبعية هينا على من يتحدث إليهم، لأنهم والأمر كذلك سينظرون إليه نظرة ازدراء واحتقار فهم يعلمون تماما أنه يتملقهم ويعمل على إرضائهم، وهو في دخيلة نفسه يرفضهم، لأنهم يحتلون بلاده، بل إن هذا الصنف من الناس لا يثق به أحد.

● ما ذلت لغة شعب إلا ذل، ولا انحطت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار.

أما الجانب الثاني فقد جاء في مقال بعنوان : « اللغة والدين والعادات» باعتبارها من مقومات الاستقلال، وسأقف عند الجزئية الأولى، وهي جزئية اللغة، لأن الرافعي ألح عليها باعتبارها المقوم الأساسي من مقومات الاستقلال، ثم إنه حلل هذه الجزئية تحليلا رائدا أبان فيه أن اللغة تعني كل المقومات السابقة، بل إنها تعني قومية الفكر، وقومية العادات والتقاليد، يقول الرافعي : « أما اللغة فهي صورة وجود الأمة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها، وجودا متميزا قائما بخصائصه، فهي قومية الفكر، تتحد بها الأمة في صور التفكير، وأساليب أخذ المعنى من المادة، والدقة في تركيب اللغة دليل على دقة الملكات في أهلها، وعمقها في عمق الروح، ودليل الحس على ميل الأمة إلى التفكير، والبحث في الأسباب والعلل، وكثرة مشتقاتها برهان على نزعة الحرية، وطماحها، فإن روح الاستبداد لا يتسع، ورأيه

لزوم الكلمة والكلمات القليلة».

ثم يقول : « وإذا كانت اللغة بهذه المنزلة، وكانت أمتها حريصة عليها، ناهضة بها، متسعة فيها، مكبرة شأنها، فما يأتي ذلك إلا من روح التسلط في شعبها، والمطابقة بين طبيعته، وعمل طبيعته وكونه سيد أمره، ومحقق وجوده، ومستعمل قوته، والآخذ بحقه، فأما إذا كان منه التراخي والإهمال وترك اللغة للطبيعة السوقية وإصغار أمرها، وتهوين خطرها، وإيثار غيرها بالحب والإكبار فهذا شعب خادم لا مخدوم، تابع لا متبوع، ضعيف عن تكاليف السيادة لا يطيق أن يحمل عظمة ميراثه، مجتزئ ببعض حقه، مكتف بضرورات العيش، يوضع لحكمه القانون الذي أكثره للحرمان، وأقله للفائدة التي هي كالحرمان».

● إن الأمة الحريصة على لغتها، الناهضة بها المعتزة بها ،المُكْبِرة شأنها، هي الأمة التي لديها نزعة المقاومة والغلبة والاعتزاز بتراثها وفكرها.

« وما ذلت لغة شعب إلا ذل، ولا انحطت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار، ومن هنا يفرض الأجنبي المستعمر لغته فرضا على الأمة المستعمرة، ويركبهم بها، ويشعرهم عظمته فيها، ويستلحقهم من ناحيته، عليهم أحكاما ثلاثة في عمل واحد : أما الأول فحبس لغتهم في لغته سجنا مؤبدا، وأما الثاني فالحكم على ماضيهم بالقتل محوا ونسيانا، وأما الثالث فتقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها، فأمرهم من بعدها لأمره تبع» .

والذين يتعلقون اللغات الأجنبية ينزعون إلى أهلها بطبيعة هذا التعلق إن لم تكن عصبيتهم للغتهم مستحكمة من قبل الدين أو القومية، فتراهم إذا وهت فيهم هذه العصبية يخجلون من قوميتهم، ويتبرؤون من سلفهم، وينسلخون من تاريخهم، وتقوم بأنفسهم الكراهية للغتهم، وآداب لغتهم، ولقومهم وأشياء قومهم، فلا يستطيع وطنهم أن يوحي إليهم أسرار روحه، إذا لا يوافق منهم استجابة في الطبيعة، وينقادون بالحب لغيره، فيتجاوزونه، وهم فيه، ويرثون دماءهم من أهلهم، ثم تكون العواطف في هذه الدماء للأجنبي، ومن ثم تصبح عندهم قيمة الأشياء بمصدرها لا بنفسها، وبالخيال المتوهم فيها لا بالحقيقة التي تحملها، فيكون شيء الأجنبي في مذهبهم أجمل وأثمن، لأن إليه الميل وفيه الإكبار والإعظام، وقد يكون الوطني مثله أو أجمل منه، بيد أنه فقد الميل، فضعفت صلته بالنفس، فعادت كل مميزاته لا تميزه»[٩].

بمثل هذه الكلمات تحدث الرافعي عن اللغة، فهو يمثل صيحة في وجه الاستعمار الذي حاول جاهدا صرف الشعوب المستعمرة عن لغتها، حتى يتمكن من السيطرة عليها، واستمرار وجوده فيها، فالشعوب التي تمكن المستعمرين من لغتها، فتنصرف عنها، وتتبع لغة المستعمر شعوب حكمت على شخصيتها بالفناء، وعلى وجودها بالعدم، لأنها ستكون تابعة للمستعمر سائرة على دربه وهواه.

وإذا حاولنا تحليل هذه الأفكار، وما أثاره الكاتب من قضايا جانبية فإننا نرى أن الكاتب ركز على أن اللغة هي صورة حية لوجود الأمة في أفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها، فاللغة تشترك فيها الأمة، لأنها تدل على قومية الفكر، وتتحد بها الأمة اتحادا فكريا . ودقة التعبير اللغوي دليل على قوة ملكات الأمة ومواهبها . وعمق اللغة دليل على عمق روح الأمة، وميلها إلى التفكير والبحث في الأسباب والعلل . وإذا استعملت الأمة اللغة استعمالا قويا، فأكثرت من المشتقات، وتصرفت

في المترادفات فإن ذلك دليل حي على نزعة الحرية لدى الأمة وطموحها إلى الاستقلال.

ثم حاول الكاتب أن يبين لنا أن الأمة الحريصة على لغتها الناهضة بها المتسعة فيها المكبرة شأنها هي الأمة التي لديها نزعة المقاومة والغلبة، وأن شعبها هو الشعب المطابق بين طبيعته وعمل طبيعته، فهو سيد أمره، محقق وجوده، مستعمل قوته، آخذ بحقه، وإذا أهمل شعب لغته، وتراخى في استعمالها، وترك اللغة العامية تسيطر عليها، وآثر غيرها عليها فهذا شعب ضعيف في تكوينه فهو خادم لا مخدوم، تابع لا متبوع، ضعيف من تكاليف السيادة، ولا يطيق أن يحمل عظمة ميراثه، فهو شعب أشبه بمجموعات العبيد، لا يقدرون على الاستقلال بأنفسهم، يكتفون بضرورات العيش يوضع لهم القانون الذي يحكمهم حكما أكثره الحرمان، وأقله الفائدة التي هي كالحرمان.

أما الفكرة الثانية، فقد حاول الكاتب فيها بيان أمر هام، وهو أن لغة الأمم المستعمرة تكون الهدف لهؤلاء المستعمرين، فقد علم الاستعمار في النصف الأول من القرن العشرين أنه لا بقاء له بين هذه الأمم إلا بالسيطرة على لغتها، فأضحت لغة الأمم هي الهدف الأول للمستعمرين، فلن يتحول الشعب أول ما يتحول إلا من لغته، فمنشأ التحول من أفكاره وعواطفه وآماله، فإذا انقطع الشعب من نسب لغته انقطع من نسب ماضيه، ورجعت قوميته صورة محفوظة في التاريخ لا صورة محققة في وجوده، ثم ضرب الكاتب مثلا بأن أبناء الأب الواحد، إذا تكلم كل واحد منهم لغة أصبحوا أبناء ثلاثة آباء لا أبناء أب واحد، وهو بذلك يضرب مثلا للشعوب التي تربطها روابط أصيلة، ثم يجعلهم الاستعمار يتكلمون لغات غير لغتهم الأصيلة.

وذلة الأمة تأتي من تركها لغتها، ومن هنا يفرض الأجنبي المستعمر لغته فرضا على الأمة المستعمرة، ويركبهم بها، ويشعرهم عظمته فيها، ويستلحقهم فيها، فهو كما يقول - الرافعي - يحكم عليهم أحكاما ثلاثة في عمل واحد، الأول حبس لغتهم في لغته سجنا مؤبدا، والثاني الحكم على ماضيهم بالقتل محوا، ونسيانا، والثالث تقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها، فأمرهم من بعدها لأمره تبع .

أما الفكرة الثالثة فيركز فيها الكاتب على أولئك الذين يعجبون بلغة المستعمر، فهم بطبيعة الحال سينزعون إلى أهلها، فإذا وهنت عصبيتهم إلى لغتهم خجلوا من قوميتهم وتبرؤوا من سلفهم، وانسلخوا من تاريخهم، وقامت بأنفسهم الكراهة للغتهم وآداب لغتهم ولقومهم وأشياء قومهم .

ثم حاول الكاتب أن يبين لنا أنهم والحالة هذه سيبتعدون عن وطنهم حتى وهم فيه، لأن عواطفهم ستكون مع الأجنبي، فيكون شيء الأجنبي في مذهبهم أجمل وأثمن، وقد يكون الشيء الوطني مثله أو أجمل منه ولكنهم فقدوا الميل إليه .

ثم تأتي الفكرة الرابعة تبين لنا أن اللغات تتنازع القومية، لأنها احتلال عقلي للشعوب التي ضعفت عصبيتها، فإذا هانت اللغة القومية على أهلها أثرت اللغة الأجنبية في الخلق القومي، وإذا قويت العصبية، وعزت اللغة فلن تكون اللغات الأجنبية إلا خادمة يرتفق بها، ولن يعطي للأجنبي إلا ما يستحقه، وبذلك يصبح كل شيء أجنبي قد خضع لقوة قاهرة غالبة هي قوة الإيمان بالمجد الوطني، واستقلال الوطن .

لقد كانت مصر كغيرها من البلاد العربية والإسلامية محطا لأنظار المستعمر، وهدفا من أهدافه التي كان يسعى جاهدا في النصف الأول من القرن العشرين، كي يجعلها تحت سلطانه . ينفذ من خلالها لتحقيق مآربه، وطموحاته، وقد علم الإنجليز يقينا أن الاستعمار العسكري سيتقلص حتما، فليحاول فرض لغته على المصريين بجعلها لغة الدواوين والمدارس والثقافة والعلوم، فجاءت صيحات الكتاب المصريين الغيورين على لغتهم تحذر من هذا الخطر الداهم،

وتكشف للناس تلك اللعبة الخسيسة التي يريد المستعمر الترويج لها في بلادنا، ويبين لهم ما يعنيه التمسك بلغتهم، فهي لغة الدين والعروبة، وأمجاد الماضي .

ولعل هذه الصيحة يحس بها كل إنسان في كل مكان، وهو بهذا يأتي بأفكار عالمية لا تحدها بيئته، ولا تقف أمامها أسوار الوطن .

« سيأتي يوم إذا ذكر فيه الرافعي قال الناس : هو الحكمة مصوغة في أجمل قالب من البيان».

مصطفى كامل

قصيدة «اللغة العربية والشرق»

كان الغرض أن أقتصر على بعض ما كتبه الرافعي من نثر الرافعي حول دفاعه عن اللغة العربية، ولكنني رأيت أن أعرج في أسطر قليلة على قصيدة الرافعي ... « اللغة العربية والشرق» والتي جاءت في ديوان الرافعي، الجزء الثاني، وهي قصيدة يبكي فيها الرافعي ما آلت إليه اللغة العربية، وعزا ذلك إلى كيد أبنائها لها، إنهم لم يراعوا فيها ما أرضعتهم إياه، وقد يجني النسب كثيرا من الأحزان على من ينتسب إليه حتى إنه بدأ القصيدة بقوله:

أمٌّ يكيد لها من نسلها العقب
ولا نقيصة إلا ما جنى النسبُ
كانت لهم سببا في كل مكرمة
وهم لنكبتها من دهرها سببُ
لا عيب في العرب العرباء إن نطقوا
بين الأعاجم إلا أبهم العربُ

فقد صور الرافعي إهمال العرب لغتهم الأم التي يكيد لها أبناؤها، وهذا منتهى العقوق التي يمكن تصوره لأن هذه الأم كانت سببا في كل مكرمة نالها هؤلاء العرب، فقد وصلت لغتهم إلى مشارق الأرض ومغاربها، ثم هم بعد كل هذا الذي قدمته لهم أمهم يقلبون لها ظهر المجن، فتراهم إن نطقوا نطقوا بلغة لا يكاد يعرفها غيرهم، والرافعي يشير بذلك إلى اللغة العامية التي لا تعرف إلا بين الناطقين بها، أما اللغة العربية فإن الأمة العربية كلها تشترك فيها، وتتبين ملامحها .

ثم أخذ الرافعي يتحدث عن تاريخ اللغة العربية، وكيف أنها استمرت طوال الدهر ناصعة كالبدر حتى طمست السحب من نوره، ثم حدث لها ما حدث في تاريخها الحديث حتى قال:

سلوا الكواكب كم جيل تداولها
ولم تزل نيرات هذه الشهبُ
وسائلوا الناس كم في الأرض من لغة
قديمة جددت من زهوها الحقبُ
ونحن في عجب يلهو الزمان بنا
لم نعتبر، ولبئس الشيمة العجبُ

ثم أخذ يوجه حملته على الغرب الذي حاول طمس اللغة العربية، والدعوة إلى لغته التي أراد بها في صفوف الأمة، والدعوة إليها فقال:

أنترك الغرب يلهينا بزخرفه
ومشرق الشمس يبكينا، وننتحبُ
وعندنا نَهَرٌ عذب لشاربه
فكيف نتركه في البحر ينسربُ
وأيما لغة تنسي امرأ لغة
فإنها لعنة من فيه تنسكبُ

إنها صيحة قوية يرسلها الرافعي، حتى يدرك الجميع أن اللغة العربية ما زالت تعطي، وتقدم للجميع ما يمكن أن يجعلهم يفخرون بها، فهي كالنهر العذب الذي يجب علينا أن نحافظ عليه، ولا نتركه يضيع في بحر اللغات الأخرى، ثم أرسل

حكمته الرائعة في قوله :

وأيما لغـة تنسي امـرأ لغـة
فـإنهـا لـعنة من فـيـه تنسكبُ

ثم أنحى باللائمة على لغة القصور التي يتشدق بها ساكنو القصور، لأنهم يحاولون أن يلووا بألسنتهم بكلمات أجنبية، حتى يظهروا للناس أنهم على علم باللغات الأجنبية، حتى يقول:

أرى نفوس الورى شتى وقيمتها
عندي تأثرها لا العـز والرتبُ
ألم تر الحطب استعلى فصار لظى
لما تأثر من مس اللظى الحطبُ
فـهل نضـيع مـا أبقى الزمـان لنا
وننفض الكف لا مجد ولا حسبُ

ويستمر الرافعي في حديثه عن اللغة العربية، ونعيه على قومها الذين أهملوها، ونزعوا إلى اللغات الأخرى، فيختتم قصيدته بقوله:

هيهات ينفعنا هذا الصياح فما
يجدي الجبانَ إذا روَّعْتَه الصخبُ
ومن يكن عاجزا عن دفع نائبة
فـقِصر ذلك إن تلقاه يحتسبُ
إذا اللغات ازدهت يوما فقد ضمنت
للعـرب أي فـخار بينهـا الكتبُ
وفي المعادن ما يمضي برونقه
يد الصدا غير أن لا يصدأ الذهبُ

هذه نظرات سريعة في قصيدة الرافعي التي تحتاج إلى وقفات متأنية، حتى يتضح من خلالها مدى ما يرمي إليه الرافعي، ومدى ما وفق فيه، أو أخفق، وكذلك تلك اللغة التي عالج بها الرافعي قصيدته، وتحلية هذا الأسلوب بالحكمة التي أتت في مكانها، ولم تكن مستجلبة، أو مستكرهة.

إن الرافعي بكل المقاييس كاتب غيور على لغته، غيور على دينه، غيور على عروبته، ومن يؤتى هذه المزايا جدير بأن يعد من الصفوة الذين يحتفى بهم، ويعطون حقهم من التكريم والإكبار .

رحم الله الرافعي وجزاه عن العروبة والإسلام خير الجزاء.■

الهوامش:

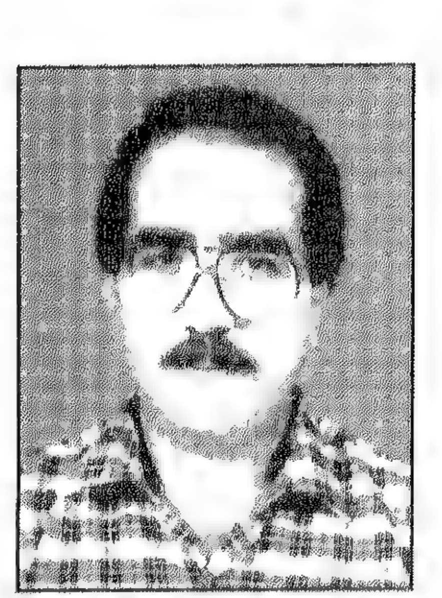
(١) د . محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، ص٣٤٣ ، مكتبة مصر ومطبعتها ، ١٩٨٠م.
(٢) ديوان حافظ إبراهيم .
(٣) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، مرجع سابق.
(٤) ديوان الرافعي ، شرح محمد كامل الرافعي ، مكتبة الإيمان بالمنصورة ، أمام جامعة الأزهر .
(٥) مصطفى صادق الرافعي ، وحي القلم ، ج٢ ، ص٢٩٦ ، دار المعارف ، ط٢ ، ١٩٨٢م .
(٦) المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٢٩٧ .
(٧) المرجع السابق نفسه .
(٨) المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٢٩٨ .
(٩) المرجع السابق ، ج٣ ، ص٣٢ – ٣٥ .

يا نفس ويحك أرضى الجد منك فتى	ماضي العزيمة وثاب فمقتحم
لا تعرضي لي لذات الهوى أبدا	ما للهوى في لساني "لا" ولا "نعم"
كأس المدامة في بعض الخطاب فم	ومدفع الحرب في بعض الكلام فم
ما لذتي أنا إلا أن أكون فتى	كما يرفرف في أعلى الذرى علم
كأنه صفحة منشورة قرأت	فيها ضمائرها العلوية الأمم
سلم وحرب، له في سلمها عظم	يخشونه، وله في حربها عظم

مصطفى صادق الرافعي



الرافعي وأغاريد الأطفال



بقلم : أحمد فضل شبلول
مصر

احتوى ديوان «أغاريد الرافعي» الصادر عن وزارة الثقافة والإعلام بالجمهورية العراقية عام ١٩٧٩، جمع وتقديم مصطفى نعمان البدري،على أربعة أبواب، يقتصر الأول منها على ما كان من نظم الرافعي في بناته وبنيه، وكيف تعهدهم بتلك الأغاريد، يغرس فيهم روح التربية القومية، والقيم العالية، والذوق البياني الرفيع .

أما الباب الثاني فهو عبارة عن مجموعة من الأناشيد القومية، بينما احتوى الباب الثالث على الأغاني والموشحات التي حاول الرافعي غير مرة أن يتمها في ديوان « أغاريد الشعب » فيضع فيه لكل طائفة أو جماعة من الشعب أغنية عربية تنطق بخواطرها وتعبر عن أمانيها . في حين احتوى الباب الرابع على بعض المتفرقات .





وبالنظر إلى مجمل نصوص الأقسام الأربعة نجد أن نصيب النصوص المكتوبة إلى أحبائنا الصغار قليلة، فمن بين ثلاثة وثلاثين نصا شعريا - هي كل نصوص الأقسام الأربعة - نستطيع أن نختار عشرة نصوص فحسب، تصلح للطفولة بمراحلها العمرية المختلفة، بل إننا نستطيع أن نستبعد الباب الرابع أو الأخير كله، والذي جاء تحت عنوان «متفرقات» لأنه لا يصلح بنصوصه السبعة عشر للأطفال، وعلى ذلك فإننا نستبعد نصف قصائد الرافعي المنشورة في هذا الديوان تقريبا، ويتبقى لنا الأبواب الثلاثة الأخرى التي بدورها تحتوي على بعض القصائد والأناشيد البعيدة كل البعد عن مستوى الطفولة، وإن كان بها عدد من الأناشيد الوطنية والقصائد الحماسية التي تصلح لسن الطفولة المتأخرة وما بعدها، مثل النشيد الوطني الشهير « اسلمي يا مصر أو نشيد مصر » الذي كان مكتوبا باسم الزعيم الوطني سعد زغلول.


سعد زغلول

يقول مصطفى نعمان البدري عن هذا النشيد « كان النشيد قد سمي باسم سعد زغلول، الذي رفعته الأحداث إلى صدر الزعامة الوطنية، تشبها بالترك الذين خلعوا على زعيمهم كمال أتاتورك».

ومما يلفت الانتباه أن هذا النشيد قام بتقديمه أحد الأطفال الموهوبين في العزف الموسيقي والغناء ضمن البرنامج التلفزيوني الصباحي «صباح الخير يا مصر - فقرة مسرح التلفزيون» وبعد أن شد هذا الطفل انتباه مقدمة البرنامج والحاضرين وكذلك المشاهدين، وبعد أن أثنت مقدمة البرنامج على أدائه وحفظه لهذا النشيد، سألته أن يقدم شيئا لإخوانه الأطفال الحاضرين والمشاهدين، وكأنها لم تقتنع بأن هذا النشيد يصلح لسن الطفولة التي عليها هذا الطفل، وهو بالفعل كذلك، فهذا النشيد يحمل من المعاني الوطنية السامية والقيم الروحية العالية ما يعلو على إدراك الأطفال ما قبل العاشرة .

ولنذكر القارئ بالمقطع الأول من هذا النشيد الذي لم يقل الرافعي صراحة إنه كتبه للأطفال، ولكن صنف النشيد في هذه المجموعة التي من المفروض أنها موجهة للأطفال .

يقول الرافعي :

اسلمي يا مصر إنني الفدا
ذي يدي إن مدت الدنيا يدا
أبدا لن تستكيني أبدا
إنني أرجو مع اليوم غدا
ومعي قلبي وعزمي للجهاد
ولقلبي أنت بعد الدين دين
لك يا مصر السلامة
وسلاما يا بلادي
إن رمى الدهر سهامه
فاتقيها بفؤادي
واسلمي في كل حين

إن سلسلة الأناشيد القومية التي احتوى عليه الباب الثاني من أغاريد الرافعي يأتي معظمها في مستوى نشيد « اسلمي يا مصر » أو في مستوى أعلى منه من حيث البناء اللغوي، والصور المعنوية أو المجردة أو التركيبة الشعرية بعامة.

يقول الشاعر في نشيد «بلادي»:

بلادي هواها في لساني وفي دمي
يمجدها قلبي ويدعو لها فهمي
ولا خير فيمن لا يحب بلاده
ولا في حليف الحب إن لم يتيَّم
ومن تؤوه دار فيجحد فضلها
يكن حيوانا فوقه كل أعجم

غير أننا نستطيع أن نختار نشيدا واحدا من مجموعة الأناشيد القومية التي احتوت على ستة أناشيد، يصلح لسن الطفولة بالمفهوم الذي نتحدث

عنه هنا، وهو نشيد «حمى النيل» الذي يقول الشاعر في مطلعه :

يا حمى النيل الأمين
لك في قلبي حنين
لك إخلاصي المتين
وهوى الأطفال دين

***

مصر يا خير وطن
مصر يا أم الزمن
لك من غير ثمن
كل عمري الثمين

أما المجموعة الثالثة والتي جاءت تحت عنوان «أغاني الشعب» فقد احتوت على ثلاثة نصوص هي: الفلاح في الصباح، ونشيد الفلاحة، وزجل في تسرية فقير

وبداية نستبعد النص الأخير لأنه كتب بالعامية المصرية في صورة زجلية، ونحن في هذا المقال لا نتعامل إلا مع النصوص المكتوبة بالفصحى للأطفال .

أما بالنسبة لنص «الفلاح في الصباح» فقد كان من الممكن أن يرقى ويطور ليصبح أوبريتا مثل أوبريت «الوسام» عند إبراهيم شعراوي على سبيل المثال.

لقد احتوى نص «الفلاح في الصباح» على الحركة وتعدد الأصوات وتداخلها، يقول الرافعي في مطلع النص:

هات يا محمود لي المحراث
وضع الآن على الثور الحبالا
يا «علي» قم فخذ هذي الحبالا
للسُّباخ قارب الصبح الطلوعا

***

أنت يا «خضرة» قومي فاحلبي
يا «سماحي» قل لـ « زينب » اذهبي
وخذي خبزا ومشّا لأبي
ثم أرسل «هانما» ترعى القطيعا


عمر الأميري

وهكذا تدب الحركة والحياة في بيت الفلاح المصري، أو على خشبة المسرح إذا تحول النص إلى أوبريت، ولكن يبدو أن فكرة الأوبريت كانت بعيدة عن ذهن الرافعي أثناء كتابة هذا النص، مع أن الفكرة الأساسية للنص – وهي محاولة لرفع الظلم عن الفلاح المصري، وتحسين صورته أمام الناس، وإشعار المجتمع بمدى أهميته – كان الأصلح لها الأوبريت.

أما عن المجموعة الأولى « أغاريد التربية الفصحى» فقد احتوت على سبعة نصوص هي مناغاة، و أرجوحة سامي، وليلة الساهر على الطفل المريض، وكن دائما لمصر، وندى الورد، ونشيد المدرسة، وبنت النيل.

وكما جاءت عن نصوص عمر بهاء الدين الأميري المكتوبة – في معظمها – عن الأطفال، وليست للأطفال، فإننا نجد عند الرافعي هذه الإشكالية أيضا، وبخاصة في مناغاة حيث يتحدث الشاعر عن طفلته وليس إليها، يقول :

طفلتي في العمر مرت
من سنيها باثنتينْ
ليستا فيما غدت تعـ
ـقل إلا ضحكتينْ
جئتها يوما فألقيـ
ـت عليها قبلتينْ

أما في قصيدة « ليلة الساهر على الطفل المريض » فهي لا تتحدث عن الطفولة والأطفال، ولا إليهم، بقدر ما تتحدث عن الشاعر أو الساهر على الطفل المريض ومشاعره أثناء سهره على المريض، ورعايته له :

هنالك النجم الذي من سناه
تضيء في ظلمة قلبي مناه
نضنو سُقام كلما قال : آه
أحسست في قلبي دويّ انفجار

أنظر للطفل فلا أصبر
كأن عيني في الذي أنظر
تحولت قلبا غدا يشعر
فكل لحظ خاطر يستثار

وكما قرأنا قصائد عائلية عند عمر بهاء الدين الأميري في ديوانه «رياحين الجنة» فإننا نجد في «أغاريد الرافعي قصائد مماثلة يتحدث فيها عن ابنيه سامي وعبدالرحمن، ولكن يظل الاتجاه العام في أغاريد الرافعي بعيدا عن هذا الاتجاه الذي أكده الأميري في ديوانه .

يخاطب الرافعي ابنه سامي في قصيدة «أرجوحة سامي» فيقول:

أنعم بها أرجوحة يا سامي
تنام فيها أهنأ المنام
في قطعة من روضة الأيام
يأوي إليها طائر الأحلام

أما قصيدته عن عبدالرحمن الرافعي، وهي من القصائد المرقصات (انظر رأي الرافعي في شعر الترقيص في كتابه تاريخ آداب العرب، هامش ص ١٨٧، جـ٣ ....) حيث يقول :

« لو أن سيداتنا الأمهات يتقبلن شعر الترقيص، ويجرين به على ألسنتهن لكبرت اللغة العربية مع أولادهن، ولغرسن بذلك في أذواق الأطفال أصول الوزن والقافية وأصول الأدب معها ... » .

لقد انتهز الشاعر فرصة كتابته لهذه القصيدة / المرقصة ليتحدث فيها إلى أطفال مصر جميعا، وليس لابنه عبدالرحمن فحسب، يقول فيها :

يا ابني ويا ابن مصر
كن دائما لمصركْ
أنت ابن مصر وابني
وسعدها وسعدي
أبنيك حين أبني
تفي لها بوعدي
أبنيك من ضميري
فلتعطها ضميركْ
ولتحي يا صغيري
حتى ترى صغيركْ
جمال أهل عصركْ

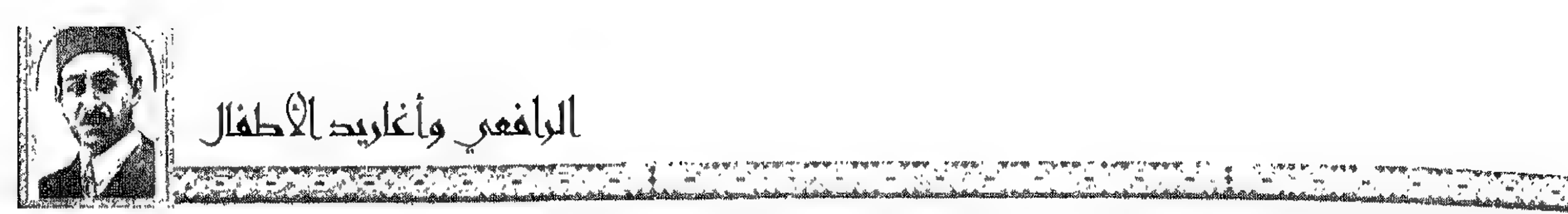
إن أهم ما يتميز به ديوان الرافعي علو النبرة القومية، والحس الوطني الصادق، وهو ما ينبغي أن يكون موجودا في القصائد التي تكتب للأطفال، جنبا إلى جنب مع الموضوعات الإنسانية والدينية والاجتماعية الأخرى التي رأيناها في العديد من دواوين الشعراء الآخرين الذين يكتبون للأطفال .

وعموما فقد أدت هذه الأناشيد الحماسية دورها المطلوب في الحركة الوطنية والمطالبة باستقلال مصر، وإجلاء الإنجليز.

وليس معنى هذا أن الرافعي لم يكتب أناشيد وقصائد إسلامية مباشرة لشبابنا وأطفالنا، بل كان يكتب النصوص الإسلامية من واقع حماسته الوطنية، وإخلاصه لأمته العربية أيضا. يقول في نشيد الشباب المحمدي:

يا شباب العالم المحمدي
يعوز الكون شباب مهتدي
فأروه دينكم ليقتدي
دين عقل وضمير ويد
يا شباب العزمات المبرمة
يا رجال المكرمات الملهمة
عرفوا الكون الهدى والمرحمة
علموا الكون العلا والمكرمة
عرفوا الكون النفوس المسلمة

وإذا كنا قد استبعدنا من أغاريد الرافعي للأطفال المجموعة الرابعة «متفرقات» بنصوصها السبعة عشر، والتي قلنا عنها إنها لا تصلح لسن الطفولة، فإنه ليس مصادفة أن تأتي بحور هذه المجموعة من البحور التي لا يكثر دورانها حاليا في القصائد المكتوبة ليس للصغار فحسب، ولكن للكبار أيضا، مثل المقتضب، والمديد، والمجتث، ومخلع البسيط،



يقول في قصيدة « في ليلة الأنس» وهي من المقتضب، وهي كما نرى لا تصلح للأطفال:

من أشعة النظر
لأشعة القمر
من سهاد أعينه
لكواكب السهر
من ذبول مقلته
لنضارة الحور

أما عن المجموعات الثلاث الأخرى، فقد استبعدنا من المجموعة الثالثة نصا زجليا، ويبقى نصان جاءا من الرمل والرجز، أما المجموعة الثانية فقد جاءت نصوصها من بحور الطويل والرجز ومجزوئه، والرمل ومجزوئه، والمتقارب.

أما المجموعة الأولى فهي تعد من أقرب المجموعات الأربع إلى روح الطفولة والأطفال، وقد اعتمدت على الرجز ومجزوئه (٣ قصائد)، ومجزوء الرمل (قصيدة واحدة)، ومجزوء الهزج (قصيدة واحدة)، والسريع والخبب (قصيدة واحدة لكل منهما) .

لقد بلغ مجموع المجزوءات في أغاريد الرافعي تسعة مجزوءات مقابل اثنين وعشرين نصا من البحور التامة، وهو الأمر الذي يشي بأن عددا كبيرا من هذه النصوص لا يصلح بالفعل لسن الطفولة والأطفال.

أرجوحة سامي

أنعم بها أرجوحة يا سامي — تنام فيها أهنأ المنامِ
في قطعة من روضة الأيام — يأوي إليها طائر الأحلامِ
في وكرَيِ النهار والظلام — على غصون العمر النوامي
أزهارها ما زلن في الأكمام — قامت على ذاك الغدير الطامي
في شاطئ المستقبل البسام — كأنها خواطر الأحلامِ

* * *

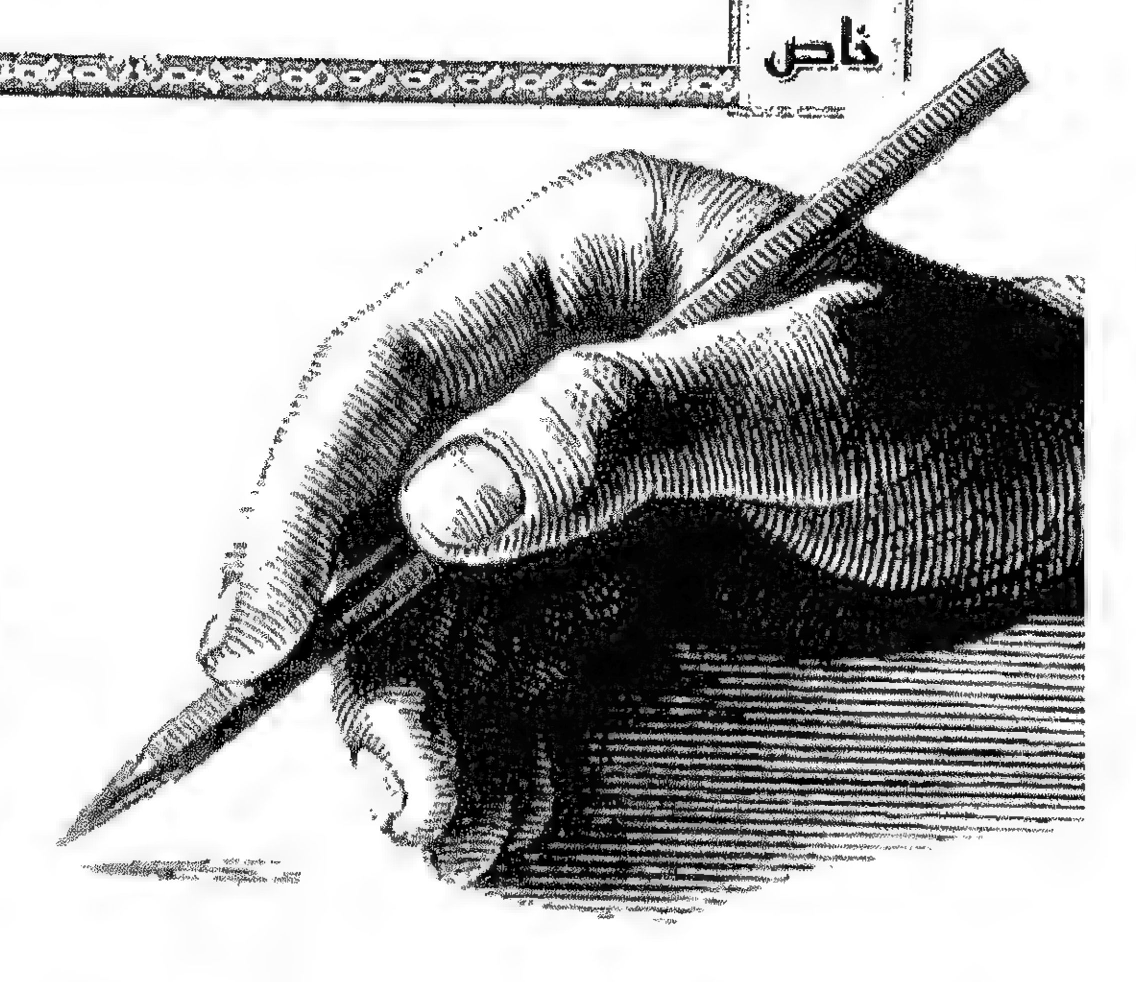
ما هزة الثناء في الكرام — واليد في الأشواق والسلامِ
وصلف المليك في القيام — وطرب الشاعر للإلهامِ
كما أرى أرجوحة الهمام — تهتز فخرا بالفتى المقدامِ
بملك البيان والكلام — وصاحب العرش من الأقلامِ

وقائد الجيش من الأعلام

* * *

يا ساميا وأنت في الأقوام — من «رافعي» الحكمة في الأنامِ
من عترة الخليفة الإمام — من «عمر» المعز للإسلامِ
إن جميع السادة العظام — أهل العلا والهمم الجسامِ
ومن أضاؤوا أفق الدوام — لم يولدوا أكبر في المقامِ
منك ولا في العقل والأجسام — فلا تكن أصغرهم يا «سامي»

مصطفى صادق الرافعي



عندما ندرس حياة مصطفى صادق الرافعي يظهر أثر الإسلام بارزاً في فكره وأدبه ونشاطه. وتبرز كذلك الناحية الوطنية. ولكن تظلّ العروبة والقوميّة لها النغمة القويّة. فكيف برزت هذه النواحي في حياة الرافعي، وكيف واءم بينها ؟!

أثر الإسلام في أدب الرافعي وفكره



أثر الإسلام في عواطفه وكتاباته:

نشأ الرافعي نشأة دينية في بيت ملتزم بالإسلام. وبالرغم من ظروفه الصحيّة التي أثرت كثيراً في دراسته الرسميّة، إلا أنه بذل الجهد الكبير لينال العلم من بيته، ومن المكتبات، ومن الشيوخ والأساتذة الأفاضل الذين أعانوه ووجهوه. فنال بذلك علماً متميّزاً، كما تميّزت موهبته وبان نبوغه.

إذن كان غذاؤه الأولُ الإسلام قرآناً حفظه، ولغة عربيّة ملك زمامها وتمكن من علومها وآدابها، وفقهاً تعلّمه ووعاه. فلا بُدَّ أن يظهر أثر هذا الزاد في سلوكه ومواقفه. لقد كان وقوراً لا يهبط، صادقاً لا يكذب، واضحاً لا يماري، أميناً لا يخدع، صريحاً في وُدِّه وخصومته، وكانت هذه الخلال من أبرز آثار الإسلام فيه.

والدين الإسلامي منهج حياة يقوم على الإيمان والتوحيد، ويلجم الشهوات، ويضبط الغرائز، ويُنير الدربَ لتتحدّد المواقف والآراء والعلاقات في جميع ميادين الحياة.

كـان من أبرز نواحي حـيـاته الحبُّ والتـأثُّر الشديد بالجمال والحُسن، وقد كان له في ميدان الحب والجمال جولات واسـعـة امتدّت فـترة غير قـصـيرة في حياته، وفـجرّت فيه مواهبه النثرية والشـعريّة. ولكننا نودُّ أن نشـير إلى أنَّ الإسلام ألجم هواه وغرائزه حتى لا يهبط إلى ساحة الفجور، في واقع امتدّت فيه فتنة الغزو الغربي، وامتدَّ فيه نجاحه في بعض المـيـادين، من إطلاق حـرية المرأة، وتغيير كثير من العادات، حتى سقط فيه الكثيرون. وهنا يظهر الأثر المهم للإسلام في حياته. وقد يتـحـوّل الناس وتتـبـدّل المفـاهيم، ولكنَّ مـيزان الإسـلام حقٌّ ثابت لا يتغيّر. إنه ميزان ربانيّ حقٌّ لا يأتيه الباطل أبداً.

وكـان للإسـلام آثار أخرى عليه برزت في بعض مـؤلفـاته مـثل " تحت راية القـرآن " أو " بين القـديم والجديد "، جاءت فيه موضـوعات متعددة: الجملة القرآنية، ونقدٌ لكتاب الشعر الجاهلي، مسلم لفظاً لا معنى. وتحدّث عن موضـوعـات الميراث " العـربي "، والأدب " العربي " وغـيـر ذلك. ونلمس هذه الحـمـيّة الإيمانية في " رسـالة الحج " وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية، وغـيـر ذلك من أبواب الجـهـاد بالكلمـة والردّ على من يسمون أنفسهم بالمجدّدين.

ونلمس تأثيـر القـرآن الكريم والسنة النبـوية في كتاباته بيـاناً وبلاغـة مع قـدرة مـتـميّزة على توليد المعـاني، وتجـديد التـعـبـيـرات، وإيراد المقـابلات والمتطابقات، ومـختلف أنواع البديع والبيان والبلاغة من استـعـارة ومـجـاز وتشـبيه، مما كوّن له أسلوباً خاصّاً في الكتابة لا تجده عند غـيره، حتى وصـفه أحد الصـحـافيين بقوله: " إنه المـخـتـار لحـراسـة لغة القرآن "(1).

فـمن الجليّ أن أوّل آثار القـرآن الكريم في الرافـعي هي اللغـة العـربيـة التي أحبـهـا وعشـقـهـا، وجاهد من أجلها، وأطلق عبقريتها. فهي خط بارز في



بقلم: د. عدنان النحوي
السعودية

جميع كتاباته: أدباً نثراً وشعراً، بياناً متميّزاً. ويكاد لا يكون هناك خلاف بين النّقاد على أن للرافعي أسلوبه المتميّز الذي اختصّ به، فلا تجده عند سواه.

هذه بعض آثار القـرآن والسنة في عـاطفة الرافعي، في فكره وكتاباته، في نثره وشـعـره، وفي مـواقـفـه من دعـاة الفتنة وحرّية المرأة ومساواتها بالرجل، والطعن في الإسـلام، فلقد كان الفارس المجلّي في ذلك. وردوده هذه تمثل باباً واسـعـاً في كـتـاباته، وهذا باب يمكن الإطالة فيه حتى يبلغ كتاباً، ولكننا نوجزها هنا على قدر هذه الكلمة.

ولم ينحـصـر أثر الإسـلام في حياة الرافـعي في هذه النواحي، وإنّما امتدَّ إلى نواحٍ أخرى ترك فيها الإسلام أثراً واضحاً.

أثر الإسلام في العامل النفسي

كان للإسلام أثر كبير في العامل النفسيّ، العامل النفسيّ الذي كوّنته بيئته ومجتمعه وظروفه الصحية، ومرض التـيفوئيد الذي ألمّ به وآذاه، فـأنهك جـسـمـه وأفقده السمع، وتناوُبُ الأمراض بعد ذلك حتى انقطع عن الدراسة، و عن الوظيفة التي رآها قيداً عليه وعلى طمـوحـاته ، كـأنه شـعـر أن هناك سـدوداً في حـيـاته وحـواجـز تخطاها بجـهـد دائب، وعـزم وتصـمـيم، وموهبة متميزة.

أثّر ذلك كله في نفسـيـتـه فـترك جـروحـاً يطوي آلامـها، وغضباً يكتم هيجانه، وكأنه يُنفّس عن نفسه بحب الطبيعة والمروج والمناظر الجميلة، وكثرة التأمل والنظر والتـفكر، وحـبـه الخلوة والانفـراد. ولكن هذه كلها ولّدت في نفسـه عزيمة لا تتراجع، وتصـميماً لا يقـهـر. فكان يقرأ يوميّاً ثماني ساعات، ويـتـخطى ما يثيره صممه من عقبات، بثقة ويقين. ولا أشك أن هذه العـزيمة مـا ولّدها فيـه إلا إيمانه المسـتـقر في فطرته وقلبه، فآمن بقضاء الله وقدره، وآمن بأن عليه واجباً

يجب أن ينهض إليه ومضى على دربه حتى كتب الله له البروز والتميّز في نواحٍ جليّة من الأدب واللغة. وجابه كبار رجال الأدب والفكر في عصره بين نقد وهجوم، وودٍّ وألفة، ورضا وخصام، وبين مساجلات ومناظرات، في أجواء يثور فيها التحاسد والتباغض. وبسبب هذه العوامل النفسيّة كلها، كان شديداً عنيفاً في هجومه وفي نقده في قضايا أدبية وقضايا فكرية.

كان يشعر بينه وبين نفسه أنه طاقة وموهبة، وأن عليه واجباً يودُّ الوفاء به، ومسؤولية يجب أن ينهض إليها، ليس في ميدان القتال، ولكن في ميدان القلم والكلمة، فإذا كان هذا الشعور الذي عبّر عنه أحياناً أثارته الموهبة، فإن هذه الموهبة غذّاها حفظه لكتاب لله وبيئته الدينيّة.

أثر الإسلام في فهمه للواقع وتعامله معه

وحين دخل معترك الحياة بزاده الغنيّ، وصحته المضطربة، وصممه المستديم، رأى ميادين الواقع هائجة مائجة، تموج فيها التغيّرات العاصفة، والأحداث الدولية الكبيرة، والحرب العالميّة الأولى وآثارها، وسقوط الخلافة الإسلامية، وتمزّق العالم الإسلامي كله، وغزو عسكري للعالم الإسلامي، وغزو فكري وثقافي علماني، وامتداد أثر ذلك في العالم الإسلامي والعالم العربي وفي مصر ذاتها، ورأى مظاهر التحوّل السريع.

لقد ران على الشرق الإسلامي عهود من الوهن والتخلّف تركت فيه أمراضاً عديدة وأسواءً كثيرة. فلقد امتد الجهل بالكتاب والسنة وباللغة العربية بين الناس امتداداً واسعاً، واعوجّت الألسنة باللهجات العامية وباللغات الأجنبية. ومهد ذلك إلى الغزو الثقافي الفكري والعسكري تحمله القوى الأجنبية ، وتحمله كذلك جموع العائدين من الابتعاث إلى أوروبا، وقد اضطربت التصورات الإيمانية لدى بعضهم واختلفت لدى بعضهم الآخر، فانقلبوا جنوداً للغرب وفكره ومصالحه، يندفعون بجرأة يعلنون أفكارهم الجديدة ويقبلون التحدّي ويصرون على فتنتهم، والغرب يغذّيهم ويمدّهم بأسباب القوة وبأبواب التوجيه.

ولم يقتصر الأمر على مصر وحدها، ولكنّ هذه الفتنة امتدّت إلى جميع أنحاء العالم الإسلامي، ولا ننكر أن التركيز كان أشدَّ على مصر وبلاد الشام.

واضطرب الواقع الاقتصادي في مصر وغيرها، واتسعت هوّة التفاوت الاجتماعي والطبقي، وبرز نفوذ المرابين من اليهود وأعوانهم من بيوتات المال الأوروبية، هذه البيوتات وهؤلاء المرابون أصبحوا يتمتعون بخيرات البلاد وينعمون بها، ويظل الفلاح يشقى ويعاني في عوز وفاقة، وصبرٍ وابتلاء. ومما كان يزيد البلاء بلاءً زيادة الضرائب على صورة مؤذية .

وامتدّت هذه الحالة زمناً غير قصير، ومازالت آثارها واضحة حتى اليوم، وهي تتزايد وتتزايد فتنتها في المجتمعات الإسلامية، منذ القرن السادس عشر حتى اليوم. وشهد القرن العشرون حربين عالميّتين أثرتا أسوأ التأثير على واقع المسلمين، وعلى مصر، وعلى ازدياد نفوذ الغرب وإعلامه وفكره وثقافته وأدبه، دون صناعته وسلاحه وعلومه. وتمزّق العالمُ الإسلامي كله قطعاً قطعاً تناثرت في الأرض، واستقل بعضُها عن بعض، ووقعت كلُّها تحت نفوذ الأجنبي الغازي المعتدي والمحتل، وأخذت كلُّ قطعة تتغنى بقوميتها. وظهرت شعارات كثيرة متصارعة، وكان من أخطرها ما انتشر في بلاد الشام والعالم العربي كلِّه، من نزعة " العروبة " التي نُظِمت لها الأناشيد، والتي كان يُردِّدها الأطفال المسلمون في المدارس والمناسبات، وامتدت هذه الأناشيد في العالم العربي كله، لتغرس في النفوس حركة " العروبة " في انحراف عن الدين كما في النشيد التالي:

بلاد العرب أوطاني
من الشام لبغدان
ومن نجد إلى يمنٍ
إلى مصرَ فتطوانِ

فلا حدٌّ يباعدنا
ولا دينٌ يُفرّقنا
لسان الضاد يجمعنا
بغسّان وعدنانِ
لنا مدنيّة سلفتْ
سنُحْييها وإن درسَتْ
ولو في وجهنا وقفت
دهاة الإنس والجان

والناحية الأخرى إقبالُ الكثيرين من المسلمين على تقليد الغرب ابتداءً من اللباس وسائر المظاهر، إلى مقاصف اللهو وحفلات الرقص، وامتداد اختلاط النساء بالرجال وانتشار بيوت القمار واللهو غير البريء. وكذلك اعوجاج الألسنة باللغات الأجنبية، وانتشار الأندية والجمعيات والمؤسسات والمنظمات لتغذّي كلَّ مظاهر الانحراف عن الإسلام، تزيده انحرافاً وفتنة.

أمام هذه الفتن جاء الرافعي يحمل زاده وعلمه ويحمل أمراض جسمه ويحمل عزيمة وتصميماً، فوجد في الساحة سلامة موسى الذي كان يدعو إلى العامية والأدب المكشوف والفرعونية، وطه حسين صاحب كتاب "الشعر الجاهلي"، ومدارس فكرية وأدبية وسياسية متعددة، ووجد الصراع الممتدّ الذي ملأ الندوات والصحافة والإعلام، يخوضه الجميع كأنهم لا يدرون ما يُحاك للأمة من تدمير وهلاك. لقد جاء الرافعي في مرحلة تميز بها المجتمع المصري بالحركة الأدبيّة الواسعة آنذاك على صورة لم تشهدها مصر من قبل. وشغل الأدباء وكثير من الناس بهذا الصراع الأدبي الشديد على صفحات الجرائد والمجلات وغيرها، والأعداء يعملون بهدوء وفق منهج مدروس.

دارت معارك شديدة بين الرافعي دعاة التجديد والتغريب من أمثال قاسم أمين وطه حسين، وسلامة موسى ولطفي السيد، وغيرهم، في مقالات صحفية وفي كتب تصدر من هنا وهناك. ودارت معركة حامية بين الرافعي والعقاد في كتاب «على السَّفّود» الذي أصدره الرافعي يهاجم به العقاد هجوماً مقذعاً.

غضب الرافعي لسقوط الخلافة الإسلامية وقَطْع الصلة بين الأتراك والعرب فكتب عند ذلك: "يا غَربة الإسلام في موطنه"[٢] وبرزت عاطفته الإسلامية بصورة مباشرة وسلامة منهج. ولكن ظلّ الرافعي يرى في العرب قوماً متميّزين من غيرهم من الأقوام.

ولا شكّ أنّ الرافعي كانت تشرق في قلبه آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة التي لا تميّز قوماً من قوم إلا بالتقوى.

ومن ناحية أخرى أراد الرافعي أن يجعل من اللغة العربيّة "جنسيّة لغويّة" كما قال في إعجاز القرآن:

"إنما القرآن جنسيّة لغويّة تجمع أطراف النسبة إلى العربيّة، فلا يزال أهله مستعربين به، متميزين بهذه الجنسية حقيقة أو حكماً"[٣].

فتكون دلالة ذلك أنّ على المسلم مهما كان جنسه أو لونه أن يُتقِن العربيّة حتى يستطيع تدبُّر كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، لتجتمع الشعوب الإسلاميّة كلّها على ذلك، على سلامة الفهم والتدبّر وصدق الإيمان والتوحيد.

ولذلك تحدّث في الباب السابع من كتاب "تاريخ آداب العرب"، عن الأندلس وعروبتها، وعن مصرع العربيّة فيها! ويقول: "... ونحن نريد الآن أن نُبيِّن كيف صُرِعَت العربيّة فيها بعد أن صارعت طويلا"[٤]، ويشير بين حين وآخر إلى حقيقة الإسلام في الأندلس.

واعتبر جريمة النّصارى في الأندلس وتنصيرهم للمسلمين عبارة عن "تنصّر العربيّة"، فجعل من ذلك عنواناً لفصل في كتابه "تاريخ آداب العرب"[٥].

ولقد تحدَّث مصطفى نعمان البدري في كتابه " الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد " عن هذه الناحية في فكر الرافعي واتجاهه، بصورة مفصّلة واسعة. وينْقُل البدري عنه قولته المشهورة: " وما أراها إلا ستنهض في مصر والشام نهضةً من يستجمع ـ تأملْ ـ وربّما شهد الناسُ دهراً يصلح أن يُسمّى فيه ما بين العراق والأطلنطيق "جمهورية اللغة العربية "، وما هو ببعيد " [٦].

ويقول أيضاً: " بعد نكبة الأمة في الحرب العالمية الأولى وضياع سلطانها، وتوزُّع ديارها أسلاباً بين أيدي المستعمرين والمغامرين أدرك ما يعوز الأمة في ذلك الصراع المرير، وهو القوّة، بل خوارق القوّة،....، فكتب في نوادر القوّة عند المسلمين صفحات جُلّى فيها شواهد من تاريخهم العظيم.

ولقد تأثّر الرافعي بإنزال الإمام الشافعي اللغة العربية منزلتها الأمينة، فاعتبرها الأساس البياني لمعرفة دور اللغة العربيّة والكتاب والسنّة في جمع الشعوب على الحقّ الذي جاء من عند الله [٧]. وإنه لأمر جميل أن يُنزل الإمام الشافعي اللغة العربيّة منزلتها الأمينة، ويبيّن أهميّتها في فهم الكتاب والسنّة للوصول إلى سلامة الاعتقاد الإيماني.

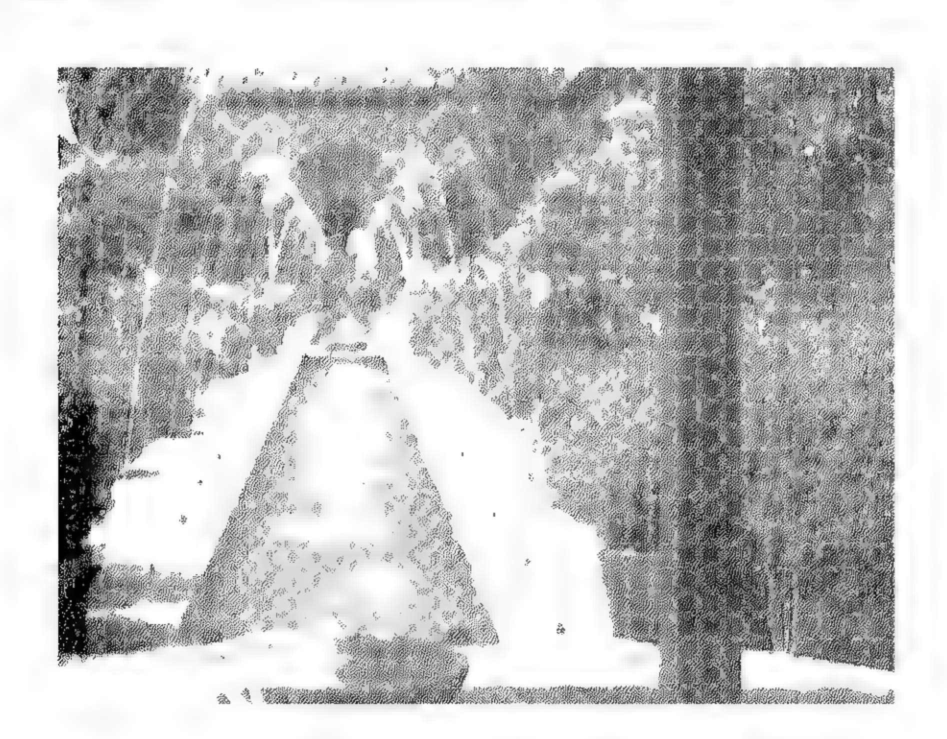
الاتجاه الوطني

أما الناحية الوطنية فما قصّر الرافعي عنها. لقد كان للرافعي وجهة نظر ورأي في السياسة جعله يفقد الثقة بالأحزاب جملة. وقد عبّر عن ذلك قوله بقوله:

فَيا عُصْبَة الأحزاب رُدُّوا حُلُومَكُمْ
وجرّوا على غير الثرى بذيولِ

ولكنه أشار إلى دعوة مصطفى كامل والحزب الوطني لإقامة " الجامعة " في فكرة وطنيّة انشقّ لها مكانها في التاريخ [٨].

الأناشيد التي أطلقها تحمل الروح الوطنيّة



الصافية والعاطفة الصادقة،ومنها نشيد: " اسلمي يا مصر "، ونشيد " حماة الحمى... " ونشيد: " لكِ يا مصر السلامة، وسلاماً يا بلدي. وللرافعي مجموعة دواوين أُميط اللثام عن أسمائها ولكنّها لم ترَ النور، وهي " أغاريد الرافعي " ومجموعاتها الثلاث، تدور حول ترقيص الأطفال، والأناشيد الوطنيّة، وبعض قصائد الموشحات [٩].

وكذلك مقالاته في " الأخبار " كتبها خلْواً من التوقيع، أو بأحرف من اسمه. وامتدت مقالاته الوطنية حرارةً وقوة، وساهم في أنشطة وطنية صافية. ثم لوحظ عليه الانكماش، بعد ما رأى من صراع الأحزاب وانشقاق صفوف الجماهير، وافتراق الحركة المصريّة، حتى لم يعدْ لها جامع لا من العروبة ولا من الإسلام.

ويقول مصطفى نعمان البدري: "وقد حفلت حياتُه الشعريّة بموافقات طريفة في موضوعاته الوطنيّة..."[١٠] ويستشهد بالقصيدة الوطنية التي مطلعها:

بلادي هواها في لساني وفي دمي
يمجّدها قلبي ويدعو لها فمي [١١]

فلمَّا انتهت الحرب العالمية الأولى، وتقاسم الغرب أجزاء العالم الإسلامي، وظهرت بوادر المقاومة هنا وهناك، وفي مقدّمتها مصر، كان الرافعي لسان الأمّة المجاهدة عن قيمها وكرامتها بأدبه وفنّه، وقد رفع لها أكثر من شعار..."[١٢].

وله عدّة أناشيد، كما ذكرنا أعلاه بعضها، ومنها نشيده الأثير: " اسلمي يا مصر " ! وهو نشيد وطني، ولكننا نردّده، وندعو لمصر وسائر بلاد الإسلام بالسلامة.

وله نشيد آخر: " يا شباب العالم المحمدي " الذي كان صرخة تدوّي به دماء المؤمنين، وتطير به أشلاؤهم.

والنشيد الآخر: " حماة الحمى " الذي أضحى نشيد الناس في مصر وخارج مصر، شرّق إلى بلاد الشام والعراق، وغرّب إلى تونس والمغرب. فكان صوتُه بهذه الأناشيد وبكثير من قصائده وروائع شعره صرخاتٍ إيقاظٍ وتنبيه. ولا شكّ أنّنا نرى في ذلك كله أثراً واضحاً للإسلام.

وإني أشعر أنَّ الرافعي ربط مفاهيمه للإسلام وللوطنية والعروبة متأثّراً بعواصف الواقع وتحدّيّاته. علماً أنَّ الإسلام أعاد صياغة جميع الروابط البشريّة من عائليّة ووطنيّة وقوميّة، لتكون روابط إيمانيّة خالية من أيّ عصبيّات جاهليّة حرّمها الإسلام. رحم الله الرافعي وغفر له وتقبّل منه صالح عمله. ■

الهوامش:

(١) مصطفى نعمان البدري: الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد: ص ١١١.
(٢) السابق: ٤٧٠.
(٣) أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب، ج١ / ١٥٧.
(٤) الرافعي - إعجاز القرآن: ٤٧.
(٥) الرافعي: تاريخ آداب العرب: ج٣/٢٩٣.
(٦) المصدر السابق: ٢٩٩.
(٧) الهلال شباط ١٩٢٠م - ٤٠٠، د. البدري ٤٣٣.
(٨) البدري: ٢٠٧.
(٩) ديوان الرافعي تحقيق د. ياسين الأيوبي - ص: ٣٢١.
(١٠) البدري: ٥٣٩.
(١١) الديوان: ص: ٨٩.
(١٢) البدري: ١٣٦.

صوت القبر*

مصطفى صادق الرافعي

يا من لهم في القبور أموات!

إن رؤية القبر زيادة في الشعور بقيمة الحياة، فيجب أن يكون معنى القبر من معاني السلام العقلي في هذه الدنيا .

القبر فم ينادي: أسرعوا أسرعوا، فهي مدة لو صرفت كلها في الخير ما وفت به، فكيف يضيع منها ضائع في الشر أو الإثم! لو ولد الإنسان ومشى وأيفع وشب واكتهل وهرم في يوم واحد، فما عساه كان يضيع من هذا اليوم الواحد ؟ إن أطول الأعمار لا يراه صاحبه في ساعة موته إلا أقصر من يوم .

ينادي القبر: أصلحوا عيوبكم، فإنها إن جاءت إلى هنا كما هي بقيت كما هي إلى الأبد، هنا قبر، وهناك قبر، وهنالك القبر أيضا، فليس ينظر في هذا عاقل إلا كان نظره كأنه حكم محكمة على هذه الحياة كيف تنبغي وكيف تكون ...

في القبر معنى إلغاء الزمان، فمن يفهم هذا استطاع أن ينتصر على أيامه، وأن يسقط منها أوقات الشر والإثم، وأن يميت في نفسه خواطر السوء . فمن معاني القبر ينشأ للإرادة عقلها القوي الثابت، وكل الأيام المكروهة لا تجد لها مكانا في زمن هذا العقل كما لا يجد الليل محلا في ساعات الشمس.

ثلاثة أرواح لا تصلح روح الإنسان في الأرض إلا بها:

روح الطبيعة في جمالها، وروح المعبد في طهارته، وروح القبر في موعظته .

* مجلة الفتح، العدد ٤٢٩، ٢٦ شوال ١٣٥٣هـ

المرأة في أدب الرافعي

للمرأة في أدب الرافعي مكانة كبرى وهذه المكانة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة الرافعي، وتمتّ بحبل وثيق إلى شخصيته النابغة التي تعاورت على تكوينها أسباب عديدة، منها أنه كاتب إسلامي أصيل ضرب بسهم وافر من الثقافة العربية الإسلامية الزاهرة التي ما فتئت تعتبر المرأة والرجل وجهين لعملة واحدة، أو هما سيّان لقوس متقنة صناعتها، لكل منهما وظيفته التي خلقه الله لها كل فيما رسم له، فلا غنى لأحدهما عن صاحبه، ولا مناص لهما من السير على طريق دقيقة غاية في الدقة، وكيف لا تكون كذلك وواضعها هو خالق هذا الكون وبارئه؟! ومنها أن الرافعي قد أوتي نَفْساً مرهفةً شاعرة، وإحساساً رقيقاً مبدعاً بما حوله، هذه الخاصة التي أوتيها كثير من عباقرة الفن ومبدعيه تجعل الإنسان ذا حس مضاعف وفهمٍ ثاقب يستشف الأشياء وما وراءها، فينقل لنا مايراه بصورة أكثر عمقاً وإشراقاً.





كما هو الأمر عند كل مسلم حقيقي ينظر الرافعي إلى المرأة بمنظار إنساني قبل كل شيء، فكما أن الإنسان مكرم بالفطرة، ذو مكانة سامية تترجمها كثير من النصوص الإسلامية التي بين أيدينا، فإنه لا يخرج في أدبه عن إعطاء هذه الصورة الواضحة دائماً، فيرى أن المرأة هي الإنسانية في نصف الإنسان، وهذه الصورة هي صورة المثل الأعلى للإنسانية، وقد رآها الرافعي متمثلة بدقة في زوجات النبيﷺ، يقول في (فلسفة المال): "ثم قال الإمام: وأنا دخلت على أزواج رسول اللهﷺ، ورأيتهن في دورهن يقاسين الحياة، ويعانين من الرزق ماشحّ درّه، فلا يجيء إلا كالقطرة بعد القطرة، وهن على ذلك، ما واحدة منهن إلا هي ملكة من ملكات الآدمية كلها، وما فقرهن إلا كبرياء الجنة نظرت إلى الأرض فقالت: لا... ! يجاهدن مجاهدة كل شريف عظيم النفس، همه أن يكون الشرف أو لا يكون شيء"[1].



بقلم: خيرالله الشريف*
سورية

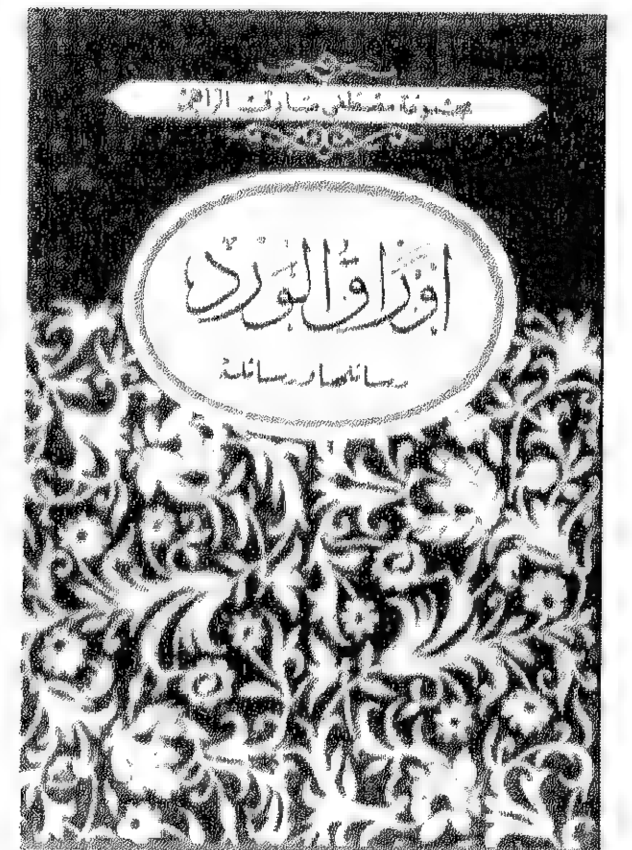
وهو يريد بهذا المثال أن يعطي صورة للمرأة الفضلى المسلمة التي تسامت بأنوثتها، فجعلتها نبراساً لبنات جنسها، تحضّهنّ على تمكين صفات الخير في نفوسهن، وتربية الأخلاق الفاضلة التي ستكون عدة لهن في حياتهن مع الرجال قبل أن تكون لهن ذخراً يوم القيامة، فيقول: "كانت أنوثتهن أبداً صاعدة متسامية فوق موضعها بهذه القناعة وبهذه التقوى، ولا تزال متسامية صاعدة، على حين تنزل المطامع بأنوثة المرأة دون موضعها، ولا تزال أنوثتها تنحدر ما بقيت المرأة تطمع، ورب ملكة جعلتها مطامع الحياة في الدرك الأسفل، وهي باسمها في الوهم الأعلى...!"[2].

وبما عهد عنده من أسلوب الإقناع بالحجة والبرهان والتحليل يستشهد الرافعي بالحديث النبوي الشريف، ويتابع الشرح والتفسير بدقة متناهية وأسلوب لا يملك المرء أمامه إلا التسليم والقبول، فهو يستشهد على الفكرة التي يطرحها مستنبطاً الفكرة التي يؤمن بها، كقضية التبرج التي يجعلها مخالفة لطبيعة المرأة التي فطرت على كونها تميل إلى رجل واحد هو زوجها، فاهتمام المرأة بإظهار زينتها بإسراف، ولمن حرم الله عليها التزين أمامهم هبوط بمستواها إلى الفساد والضعة، ثم إن أزواج النبيﷺ اللواتي هن المثل الأعلى الذي يجب على كل مسلمة اتخاذه أُسوة حسنة كن في الحشمة والوقار بالغات الغاية، فيقول: "وقد روينا عن النبيﷺ أنه قال: اطلعت في الجنة فإذا أقل أهلها النساء، فقلت: أين النساء؟ قال: شغلهن الأحمران: الذهب والزعفران. أي الطمع في الغنى، والعمل له، والميل إلى التبرج والحرص عليه. ونفس الأنثى ليست أنثى، ولكن شغلها بذلك التبرج وذلك الحرص وذلك الطمع، هو يخصصها بخصائص الجسد ويعطيها من حكمه وينزلها على إرادته، وهذه هي المزلّة، فتهبط المرأة أكثر مما تعلو، وتضعف أكثر مما تقوى، وتفسد أكثر مما تصلح، إن نفس الأنثى لرجل واحد، لزوجها وحده. رأيت أزواج النبي ﷺ فقيرات مقتوراً عليهن في الرزق غير أن كلاً منهن تعيش بمعاني قلبها المؤمن القوي في دار صغيرة فَرَشَتْها الأرض"[3].

وللرافعي قدرة فائقة على تحليل طبيعة المرأة ووظيفتها، فهو يصور دخيلتها تصويراً دقيقاً هو دائماً أو غالباً يصيب الحقيقة، ثم يستخدم الفلسفة في بسط فكرته مما يعطي كتاباته إعجاباً كبيراً مدهشاً، من ذلك حديثه عن ضعف المرأة،

* مدير مكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق.

وما يرسمه من تصرفها مع الرجل وعلاقة ذلك بالأخلاق والفضيلة والفكرة الإسلامية الصائبة التي تأخذ بعين الاعتبار هذه الطبيعة الرقيقة المرهفة للمرأة بما يتناسب مع الحياة الأسرية في مملكتها البيتية ومايتعلق بذلك من حجاب وغيره، فمن هذا مقالته (زوجة إمام) التي يقول فيها: "والمرأة ضعيفة بفطرتها، وهي على ذلك تأبى أن تكون ضعيفة أو تقر بالضعف إلا إذا وجدت رجلها الكامل، رجلها الذي يكون معها بقوته وعقله وفتنته لها وحبها إياه... فإذا لم تصب المرأة رجلها القوي لم تستطع أن تكون معه في حقيقة ضعفها الجميل، وعملت على أن يكون هو الضعيف، وبهذا تخرج من حَيِّزها، وماأول خروج النساء إلى الطرقات إلا هذا المعنى، فإن كَثُر خروجهن في الطريق. وتسكعن هاهنا وهاهنا فإنما تلك صورة من فساد الطبيعة فيهن ومن إملاقها..."[٤].



المرأة .. أماً

لعل تلك النظرة الإنسانية الرقيقة التي نظر بها الرافعي إلى المرأة، واتخاذه من أمهات المؤمنين مثلاً أعلى ونبراساً للبشرية قد وطّد القدسية التي أحاط بها هالة الأم التي جعلها عنواناً للمرأة ومكانة لا تنازعها فيها مكانة على الإطلاق كما يُستَشَف من قوله[٥]:

اجْثُ خُضُوعاً واحتراماً لمن **أمُّكَ في حوّاء من أمهّا**

ألا ترى الجنَّةَ فيما رَوَوْا **مطلوبةً من تحتِ أقدامِها**

وفي قصيدته (الشرق المريض) جاءت الدعوة الإنسانية مع الدعوة الإسلامية إنصافاً للمرأة ورفعاً لمكانتها الاجتماعية إلى الأمومة الراعية، فتربية المرأة وإعداد الأم هو المنطلق الذي يبدأ الحياة في الشرق المسلم عندما يقول[٦]:

ربُّوا لذا الشرق يا قومي ممرضةً **تحنو عليه بإحساسٍ ووجدانِ**

ربُّوا له الأمَّ يا قومي فلو وُجدتْ **في الشرق ما طاحَ في ذُلٍّ وإهوانِ**

تلك التي ترفعُ الدنيا وتحفضُها **بطفلِها فهو والدُّنيا بميزانِ**

والرافعي الذي أوتي من القدرة على الوصف فناً، ومن تصوير خوالج النفوس روعة استطاع أن يسكب في مقالته (موت أم) من إبداعه، فأخذ يصور طفلاً قد فقد أمه وهو في عالمه الطفولي البريء يشعر بضخامة الرزء الذي ابتلي به، فهو يظهر ما للأم من رباط وثيق بولدها، ومدى حاجته إليها فيقول: "تبارك الذي جعل في قلب الأم دنيا من خلقه هو، ودنيا من خلق أولادها! تبارك الذي أثاب الأم ثواب ماتعاني، فجعل فرحها صورة كبيرة من فرح صغارها!.. انتهت- أيها الطفل المسكين- أيامك من الأم؛ هذه الأيام السعيدة التي كنت تعرف الغد فيها قبل أن يأتي معرفتك أمس الذي مضى... الأم...؟ ياإلهي، أي صغير على الأرض يجد كفايته من الروح إلا في الأم؟!"[٧].

المرأة .. حبيبةً

إن ذروة أدب الرافعي وعقدة حياته الفكرية والأدبية شيء واحد هو الحب، وقد قاده هذا إلى ابتداع لون جديد من فلسفة الحب والجمال في الأدب العربي كان فيه "مخلصاً لأمانته وفنه، فقد كان يسكب روحه على الورق، ويصدر عن نفس مؤمنة عميقة الإيمان والاقتناع"[٨].

وهذا الحب البنّاء يشير إليه الرافعي في مقدمة (أوراق الورد) فيقول:

"وتاريخ الحب عند صاحب هذه الرسائل كان كله نظرة أخذت تنمو وبقيت تنمو،... وهو حب قد كان من نمائه وجماله وطهره كأنما أزهرت به روضة من الرياض لا امرأة من النساء...»[٩] فأنت لاتجد في هذه الرسائل معاني النساء متمثلة في امرأة تتصبى رجلاً، ولكن معاني الحب والجمال متألهة في إنسانية تستوحي من إنسانية أو توحي لها"[١٠].

لذلك يؤكد الرافعي هذا السمو في الحب عند المسلم عندما يقارن ماهو فيه من طهر مع ما عليه الشهوانيون الخلَّص الذين يفهمون الحب ممارسة لاشعوراً من كتّاب أوربا الذين تسترقهم أهواؤهم فيذلون لها خانعين، فيقول: "وصاحب هذه الرسائل يرى نفسه في الحب كأنما وضع على هامش الناس، منطلقاً غير مقيد، عزيزاً غير ذليل، فهو كالسطر الذي يكتب على هامش الصفحة يستعرض ماملأها بين أعلاها وأسفلها.. يتجافى بها عن ألفاظ الشهوات ومعانيها مما يتعمده بعض فحول الكتاب في أوربا، ولا طلاوة لرسائلهم وقصصهم بغيره، إذ هو يشبه أن يكون روح اللحم والدم في اللغة، ويتوَخّون التأثير من أقرب الطرق إليه، فيَمَسّون شهوات القراء بالحادثة والوصف والعبارة كما يدر لعاب الجائع على ألفاظ الطعام وأوصافه ورائحته..."[١١].

والرافعي، وهو دائم الإشارة إلى الطهارة في الحب في أدبه شعراً ونثراً، كقوله[١٢]:

قلبي هو الذّهبُ الكريـ
ـمُ فلا يفارقُه رنينُهْ
قلبي يحبُّ وإنّما
أخلاقُه فيه ودينُهْ
الحبُّ أُفقٌ طاهرٌ
ما إنْ يُدَنِّسُهُ خَؤونُهْ

وقوله: "الحب إحدى كلمتين هما ميراث الإنسانية، وهدية التاريخ، والطرفان اللذان تلتقي عندهما السماء بالأرض...»[١٣].

● تنظر المرأة بقلبها إلى أشياء لا تراها بعينها.

الرافعي

وقد كانت صورة المرأة الحبيبة عند الرافعي تجسيداً لمفهوم الحب الإنساني العفيف عنده، وهذا يظهر جلياً في تحليله لشخصية هذه المرأة أو لجمالها الحسي، أو في خطابه لها، أو في رسائله إليها.

والحبيبة عنده ليست تمثالاً جميلا- وهو ذواقة الجمال الأول- ولا هي منظر رائع يُتَمَتَّعُ بفتنته وسحره- ومَنِ الشاعرُ المرهف إلاّ يَكُنْهُ الرافعي؟!- وإنما هي عون على أعباء الحياة، وشقيقة الروح، ورفيقة النضال، وإنما الجمال والسحر عندها في تصوره كونها قوة له وسنداً وسبباً من أسباب الحياة السديدة القويمة؛ لذلك يقول: "إذا رأيت رجلاً موفقاً فيما يحاوله، مسدد الخطا إلى الهدف الذي يرمي إليه فاعلم أن وراءه امرأة يحبها وتحبه"[١٤].

ولاغرو أن تكون فلسفة الحب والجمال الرافعية الصادقة المستمدة من الدين الإسلامي الحنيف قد بسطت أجنحتها على عدد من النساء اللواتي وجدن فيها الرجولة الطاهرة والأخلاق الباهرة، ومنهن الأديبة الشاعرة (مي زيادة) التي يقال: إنها أحبت الرافعي وأحبها حباً عفيفا قدم للأدب العربي- كما مر- تلك الروائع الرافعية النادرة، والدليل على شغفها بحبه تلك الرسائل التي جمعها في (أوراق الورد) والتي نشرت مي بعضها في كتبها، وكلمة (سيدي) التي كانت تخاطبه بها، كما كانت تلمح إلى تلك الضغوط التي تتعرض لها من الذين كانوا حولها ومن أهلها وأقاربها خوفاً من تأثير الرافعي الذي عرف بتمسكه الشديد بإسلامه، فتقول له: "لي بك ثقة موثقة... سأدعوك

أبي وأمي، متهيبة فيك سطوة الكبير وتأثير الآمر، وسأدعوك قومي وعشيرتي، أنا التي أعلم أن هؤلاء ليسوا دواماً بالمحبين... وسأطلعك على ضعفي، واحتياجي إلى المعونة، أنا التي تتخيل فيّ قوة الأبطال ومناعة الصناديد!..." [١٥].

المرأة .. زوجة

تمثل الزوجة عند الرافعي المرأة في أنوثتها وفنونها النسائية الفردية، ولكنها تفوق المرأة العادية في ثبات وجودها في حياته، وبقائها فيها وحدها دون غيرها، وأن الاعتبار لها وحدها، ولها وحدها الوقت كله، وهذا يظهر بوضوح في حياة الرافعي الخاصة، فزوجته هي مستودع أسراره التي كان يطلعها على كل رسالة وكلمة تبادلها مع حبيبته، وكل ما أتى به الرافعي في ذلك كان بمشورتها وتحت رعايتها، وكيف لاترعى هذا الحب وقد عرفت غاياته النبيلة، وأهدافه السامية، ناهيك عن كونها أماً لأولاده، وتظهر عاطفته وتقديره للزوجة في مثل قوله[١٦].

فحسبُكِ نبلاً قالةُ الناس أنجبتْ
وحسبُك فخراً أن يصونَك بابُ
لكِ القلبُ من زوجٍ ووُلْدٍ ووالدٍ
وملكُ جَميعِ العالمينَ رقابُ
لم تُخْلَقي إلا نعيماً لِبائسٍ
فمن ذا رأى أن النَّعيمَ عذابُ

ويرى دائماً البيت قائماً على ركنين هما الزوجان، فهو يعدها إحدى دعامتين لاغنى لإحداهما عن الأخرى، إضافة لكونها زينة الحياة فيقول[١٧]:

والعمرُ نهرٌ ترى من
حوادثِ الدهرِ طينَهْ
وشاطئاهُ قرينٌ
قد قابلتْهُ قرينَهْ
هذا تُشَادُ به الدارُ
وهي للدار زِينَهْ

بعض قضايا المرأة الاجتماعية في أدبه

عرف الرافعي بمشاركته الواسعة في المسائل التي كانت تطرح على بساط البحث في مجتمعه، كما عرف بنشاطه الكبير في ميدان النقد الأدبي، واشتهر بصولته وقوة جدله وغلبته لخصومه، ولعل كتاب (وحي القلم) سجل حافل بكثير من تلك القضايا مثل: الإرث، والمهر، وتبرج المرأة وتعلمها، وتعدد الزوجات، والحجاب. وسنتناول هنا قضية حجاب المرأة والميراث:

المرأة .. والحجاب

تبنى الرافعي الفكرة الإسلامية في هذه القضية المهمة، فراح يشرح فلسفة الحاجة إلى الحجاب والحكمة منه، فصرح بأ ن الفطرة الغريزية لدى الرجل والمرأة في ميل كل منهما إلى الآخر ميلاً طبيعياً قد تجرّ- إذا لم تقيد وتضبط بضوابط الحقوق والواجبات- الويلات الاجتماعية على الناس، وهذه الفكرة نجدها مبثوثة في (وحي القلم) في مواضع عديدة كقوله في (فلسفة الطائشة): " لهذا يمنع الدين خلوة الرجل بالمرأة، ويحرم إظهار الفتنة من الجنس للجنس، ويفصل بمعاني الحجاب بين السالب والموجب، ثم يضع لأعين المؤمنين والمؤمنات حجاباً آخر من الأمر بغض البصر، إذ لايكفي حجاب واحد، فإن الطبيعة الجنسية تنظر بالداخل والخارج معاً، ثم يطرد عن المرأة كلمة الحب إلا أن تكون من زوجها، وعن الرجل إلا أن تكون من زوجته... وكل ذلك لصيانة المرأة، مادامت هي وحدها التي تلد، ومادامت لاتلد للبيع..."[١٨].

ثم يتناول الرافعي كتاب قاسم أمين في (تحرير المرأة) بالرد على آرائه التي بناها على استنباطات خاطئة من النصوص، وعلى تأويل للقرآن لاينفذ إلى حقائقه ولايستبطن أسرار عربيته كما قال، ويرى في مقاله (تربية لؤلؤية)[١٩] أن الحجاب حفظ لروحانية المرأة، وصون من التبذل الممقوت، وهو

تربية عملية على طريقة استحكام العادة لأسمى طباع المرأة وأخصها: الرحمة. هذه الصفة النادرة التي يقوم المجتمع الإنساني على نزعها والمنازعة فيها مادامت سنة الحياة نزاع البقاء، فيكون البيت اجتماعاً خاصاً مسالماً تحفظ المرأة به منزلتها، وتؤدي فيه عملها، وتكون مغرساً للإنسانية وغارساً لصفاتها معاً، وينعى على الضعفاء الذين يعرفون ظاهراً من الرأي لايدركون مذهبه، ولايعرفون معنى الحجاب إلا في القماش والكساء.

ويرى في مقالة (س.أ.ع)[٢٠] أن الحجاب رمز لعاطفة الأمومة لأنه رمز الأمانة لمستقبل المرأة، ورمز الفصل بين ما يَحسن وما لايحسن، ولأنه وراء صفاء روحها الذي تخشى أن يكدر، وثبات كيانها الذي تخشى أن يُزعزع، ثم يسوق قصة كاتبة إنكليزية جاءت إلى مصر وأقامت أشهراً تخالط النساء المتحجبات، وتدرس معاني الحجاب، فلما رجعت إلى بلادها كتبت مقالاً عنوانه: (سؤال أحمله من الشرق إلى المرأة الغربية) قالت في آخره: " إذا كانت هذه الحرية التي كسبناها أخيراً، وهذا التنافس الجنسي، وتجريد الجنسين من الحجب المشوقة الباعثة التي أقامتها الطبيعة بينهما، إذا كان هذا سيصبح أثره أن يتولى الرجال عن النساء، وأن يزول عن القلوب كل ما يحرك فيها أوتار الحب الزوجي، فما الذي نكون قد ربحناه؟ لقد- والله- تضطرنا هذه الحال إلى تغيير خططنا، بل قد نستقر طوعاً وراء الحجاب الشرقي، لنتعلم من جديد فن الحب الحقيقي".

المرأة .. والميراث

هذه القضية هي إحدى الشُّبَه التي تُطلق للنيل من إحدى مزايا البناء الاجتماعي المحكم للإسلام، وهي تدل غالباً على جهل مطبق بعدالة توزيع الوظائف الاجتماعية في هذا الشرع الحنيف، وللرافعي في هذا المجال مقالة خاصة تحدث فيها عن (المرأة والميراث)[٢١] رداً على محاضرة كتبها سلامة موسى عن مساواة المرأة بالرجل في الميراث، وقد صرح فيها بأن تقليد أوربا هو الطريق الأصلح في رأيه، وأن الطبقة الغنية في الأمة هي التي تقرر ديانة الأمة... إلى غير ذلك، وهذا ألجأ الرافعي إلى أن ينعى عليه تقليده الأعمى، وعدم فهمه للدين الإسلامي، فضلاً عن تطفله بذاك الاقتراح مع قصر نظره في أمور الاجتماع، فيقول: "إن ميراث البنت في الشريعة الإسلامية لم يقصد لذاته، بل هو مرتب على نظام الزواج فيها،... فإن قلت كما يقول سلامة موسى: إن في الحق أن تنفق المرأة على الرجل، وأن تدفع له المهر، ثم تساويه في الميراث، قلنا: إذا تقرر هذا، وأصبح أصلاً يعمل عليه بطل زواج الفقيرات، وهن سواد النسوة؛ إذ لايمكن ما يمهرن به، ولاما ينفقن منه، وهذا ما يتحاماه الإسلام، لأن فيه فساد الاجتماع وضياع الجنسين جميعاً، وهو مفضٍ بطبيعته القاهرة إلى جعل الزواج للساعة ولليومِ وللوقت المحدود... ولإيجاد لُقَطاء الشوارع، بدلاً من أن يكون الزواج للعمر وللواجب ولتربية الرجل على احتمال المسؤولية الاجتماعية بإيجاد الأسرة وإنشائها والقيام عليها والسعي في مصالحها،... وما نساء الشوارع ونساء المعامل في أوربا إلا من نتائج ذلك النظام الذي أصبح مقلوباً، فهن غلطات البيوت المتخربة والمسؤولية المتهدمة، وهن الواجبات التي ألقاها الرجال عن أنفسهم، فوقعت حيث وقعت!" (٢٢).

ثم يوضح أن الدين يقوم في أساسه على تربية أخلاقية عالية، فهو يربأ بالرجل أن يطمع في مال المرأة، ويأمره أن يدع لها رأيها وعملها في أموالها، لاتحد إرادتها بعمله ولا بأطماعه ولا بأهوائه، ثم يقول: "وإذا انزاحت مسؤولية المرأة عن الرجل انزاحت عنه مسؤولية النسل، فأصبح لنفسه لا لأمته، ولَعَمَّ هذا المسخُ الاجتماعَ، وأسرع فيه الهرم، وأتى عليه الضعف...، ثم إن هناك حكمة سامية، وهي أن المرأة لاتدع نصف حقها في الميراث لأخيها يفضلها به إلا لتعين بهذا العمل في البناء الاجتماعي؛ إذ تترك ما تتركه على أنه لامرأة أخرى، هي زوج أخيها، فتكون قد أعانت أخاها على القيام بواجبه للأمة، وأسدت للأمة عملاً آخر أسمى منه بتيسير زواج امرأة من النساء، فأنت ترى أن مسألة الميراث هذه متغلغلة في مسائل كثيرة، لامنفردة بنفسها، وأنها أحكم الحكمة إذا أريد بالرجل رجل أمته وبالمرأة امرأة أمتها، فأما إذا أريد رجل نفسه وامرأة نفسها، وتقرر أن الاجتماع في نفسه حماقة، وأن الحكومة خرافة، وأن الأمة ضلالة، فحينئذ لاتنقلب آية الميراث وحدها، بل تنقلب الحقيقة"[٢٣].

ويسخر بعنف من سلامة موسى عندما يكشف عن غايته من تناول موضوع ميراث المرأة ومساواته بميراث الرجل في إغراء الشبان بالزواج ممن ورثن أكثر، فيقول: "ومما تشمئز له النفوس الكريمة قول المترجم في محاضرته: (فلو كانت الفتيات يرثن مثل إخوتهن الذكور لكان في ثروتهن إغراء للشبان على الزواج...) إن الدين الإسلامي لايعرف مثل هذا الإسفاف في الخلق، ولا يقره، بل هو يهدمه هدماً، ويوجب على كل رجل أن يحمل قسطه من المسؤولية مادام مطيقاً إن كره أو رضي، ولعمري إن تلك الكلمة وحدها من كاتبها لهي أدل من اسم المحل على بضاعة المحل..."[٢٤].

خصائص أدب المرأة عند الرافعي

١- يمثل الرافعي في أدبه التيار الإسلامي الأصيل، ويتمثل فيه المفاهيم والحلول الإسلامية لمشاكل المجتمع والإنسان، ويتجلى ذلك في أدب المرأة الاجتماعي والعاطفي بشكل خاص، ويفسر ذلك فكرة (الجهاد في سبيل الله) في أدبه التي كانت شعاره في حياته، تحقيقاً لقولة والده الشيخ عبد الرزاق الرافعي في أن ما هو عليه جهاد في سبيل الله[٢٥] . أحس الرافعي أن عليه واجباً كبيراً قد لايدرك تبعته بعض معاصريه، وأن ذلك الواجب قد يكون مذهباً جديداً في تجديد الفكر العربي بالعطاء العقلي والأساليب والأسلحة نفسها؛ فكان نقده العنيف لدعاة الانحلال بجميع أنواعه في المجتمع واللغة والدين والسياسة وغير ذلك، وكانت موضوعات الحب وفلسفة الجمال بياناً لِرقَّة الإسلام وإظهاراً لسمو معتقداته.

٢- يستخدم الرافعي في كتاباته العاطفية وغيرها أسلوب التحليل والشرح والإيضاح، ويرى أنور الجندي أن سبب ذلك هو "النقص الطبيعي في حاسة سمعه كان يدفعه إلى أن يداور المعنى ليسلس له، أو ليجعله أشد وقعاً في أذن القارئ وفي نفسه"[٢٦] وهذا صحيح، لكن السبب الأول يرجع إلى تمكن الرافعي من أدبه، وإلى ماعرف عنه من اتصاله الوثيق بكتب التراث، حتى كان أسلوبه أقرب ما يكون إلى عصور الأدب العربي الأولى، وحتى أطلق عليه لقب: "إمام البيان" و"جاحظ العصر".

٣- يتميز الرافعي في تلك الكتابات باستخدام الرمز، وكثرة الاحتفاء باشتقاق المعاني وتركيب الأخيلة، وقد حفل أسلوبه بالعبارة البيانية يجريها في نسق جميل تلد فيه البلاغة العربية عهداً جديداً في الكتابة والأدب، وهذا الرمز المبدع قد جعله يُتَّهم بالغموض وخصوصاً من طه حسين.

٤- يصب موضوعه في قالب قصصي مشوق، وهذا الأسلوب يتجلى في كتاباته عامة، ومنها مايخص المرأة مثل: الأجنبية، الجمال البائس، الطائشة، فلسفة المهر، التربية اللؤلؤية، موت أم، في اللهب ولاتحترق، احذري... وغيرها كثير.

٥- مشابهة أسلوبه أساليب الفصحاء من العرب، وتأثره العميق بالقرآن الكريم والحديث الشريف، ويبدو من خلال ذلك فهمه العميق لهذين المصدرين، واستيعابه لأسرار اللغة العربية ودقائقها.

وبعد، فهذه محاولة للاطلاع على أدب الرافعي لا أكثر، وهي إذ تضرب أمثلة وتعطي نماذج لاتعدو أن تلقي نظرة على قمة سامقة من قمم أدبنا العربي، وما هي إلا صبابة على مائدة عامرة غنية، بل إلماعة إلى خاصة من خصائص الرافعي الفذ في موهبته، السامي في فنه ومرتبته، ولو قدر للمرء أن يغوص في لجج تلك الخصائص ويعاود التنقير في مناجمها لعثر فيها على عروق التبر وكرائم اليواقيت من كل حجم ولون دون جهد أو كلال. ■

الهوامش:

(١) وحي القلم، ضبط وتعليق العريان، بيروت، دار الكتاب العربي ، ١/١٣٠-١٣١ .

(٢) وحي القلم ١/١٣١ .

(٣) وحي القلم ١/١٣١-١٣٢ .

(٤) وحي القلم ١/١٣٩-١٤٠ .

(٥) ديوان الرافعي، القاهرة ، المطبعة العمومية، ١٣٢١هـ ، ٢/٤٥ .

(٦) حديث القمر ١٠٩ .

(٧) وحي القلم ١/١٥٣، ١٥٥ .

(٩) المحافظة والتجديد في النثر العربي المعاصر، أنور الجندي ، القاهرة ، مطبعة الرسالة ، ١٩٦١م . ٤٦٢ .

(١٠) أوراق الورد، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٧ ، ١٩٨٢م ، ٢٧ .

(١١) أوراق الورد ٢٨ .

(١٢) السحاب الأحمر، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ط ٨ ، ١٩٨٢م ، ٢٠- ٢١- ٢٢ .

(١٣) حديث القمر ١٢٦، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ط٧ ، ١٩٧٤م .

(١٤) حياة الرافعي، العريان ، القاهرة ، المكتبة التجارية ، ط٣ ، ١٩٥٥م، ٥٩ .

(١٥) ظلمات وأشعة ٧٣ . وانظر الرسالة نفسها ند الرافعي في أوراق الورد ١٢٩، وقارن كتاب الأديبة مي زيادة بكتب الرافعي الأخرى، ويبدو أن ميا تأثرت بالرافعي كثيراً وأعجبت به وبأدبه إعجاباً شديداً وقد تعرضت لضغوط شديدة أودت بها إلى دخول مصح نفسي، في الوقت الذي كان فيه الرافعي يخوض بحبها إحدى معاركه الظافرة التي أراد أن يثبت من خلالها رقة الإسلام وسماحته، ويرد كثيراً من الشبه التي أثيرت حوله.

(١٦) ديوان الرافعي ٢/٣٨ .

(١٧) ديوان الرافعي ٢/٤٤ .

(١٨) وحي القلم ١/١٨٥ .

(١٩) وحي القلم ١/١٩٢ .

(٢٠) وحي القلم ١/٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٢١) وحي القلم ٣/٣٩٣ - ٣٩٤ .

(٢٢) وحي القلم ٣/٣٩٤ - ٣٩٥ .

(٢٣) وحي القلم ٣/٣٩٥ - ٣٩٦ .

(٢٤) وحي القلم ٣/٣٩٦ .

(٢٥) الإمام مصطفى صادق الرافعي ٢٤٧، مصطفى نعمان البدري ، بغداد، دار البصري ، ١٩٦٨م .

(٢٦) المحافظة والتجديد في النثر العربي المعاصر ٤٦٣ .

من للمحب ومن يعينه ... والحب أهنؤه حزينه!

أنا ما عرفت سوى قسا ... وته فقولوا كيف لينه؟

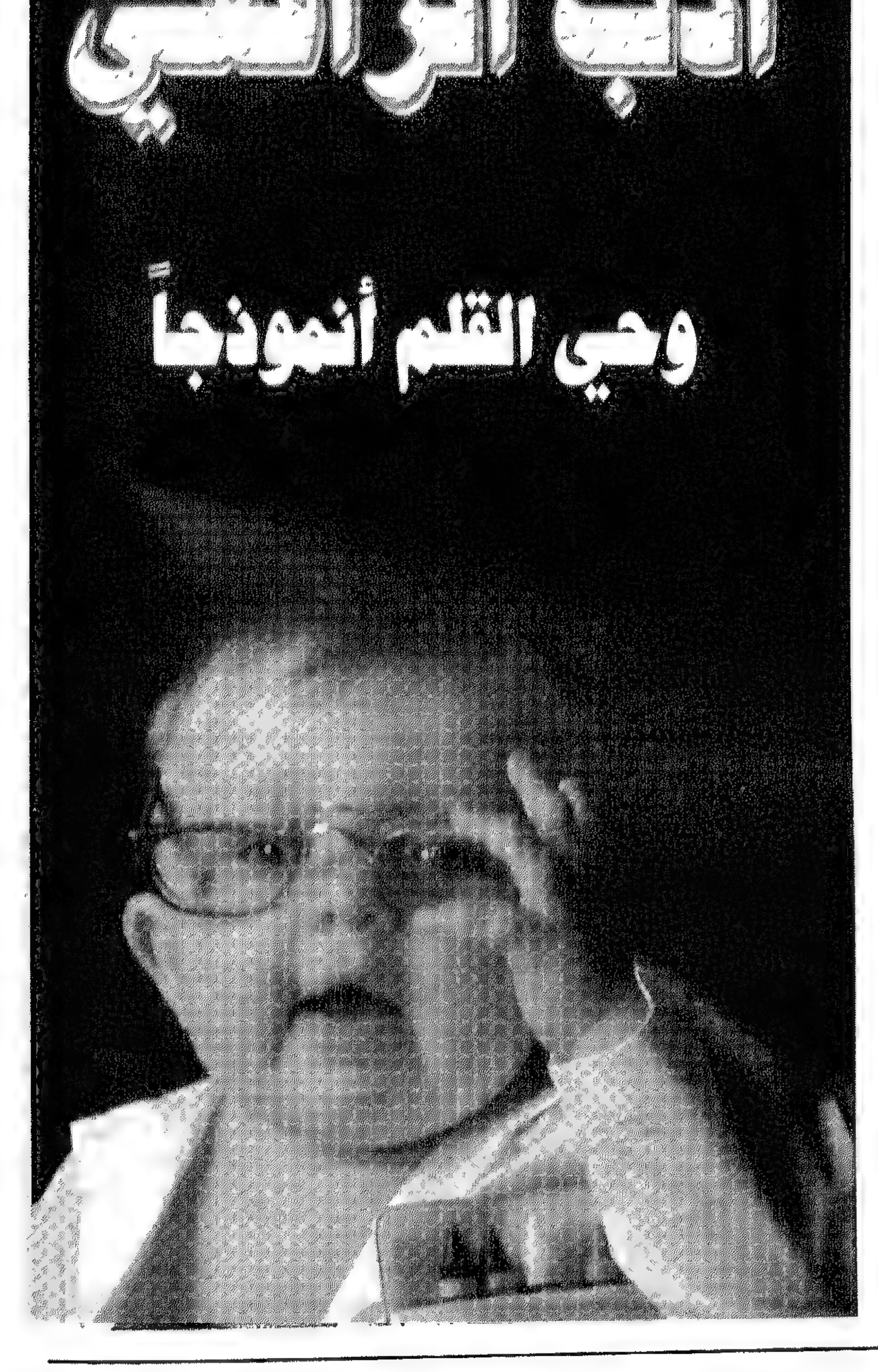
إن يقض دين ذوي الهوى ... فأنا الذي بقيت ديونه

قلبي هو الذهب الكريـ ... ـم فلا يفارقه رنينه

قلبي هو الألماس: يعـ ... ـرف من أشعته ثمينه

قلبي يحب وإنما ... أخلاقه فيه ودينه

مصطفى صادق الرافعي



الطفولة مرحلة عمرية لها خصائصها ومتطلباتها وأهميتها، "وتأتي أهمية الطفولة من كونها مرحلة تشكل في مجملها ميداناً يساعد المربين والعلماء والموجهين على زرع مايرون من توجيهات وأفكار وأخلاق دون أن تعترض مقاومة أو عناء يذكر (1).

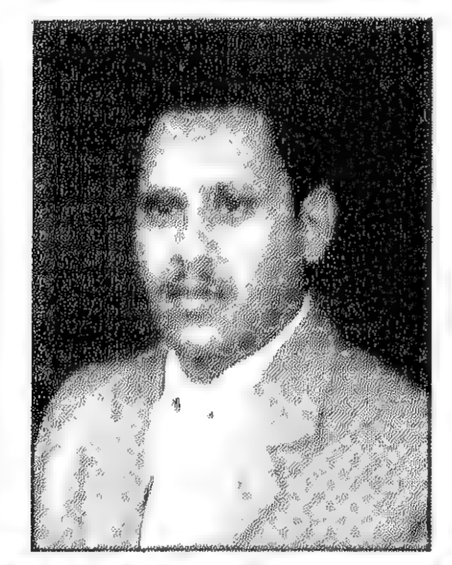




وتشغل "الطفولة "حيزاً كبيراً في كتابات الرافعي ولاسيما في مصنفه "وحي القلم" حتى شكلت ظاهرة بارزة تنم عن هاجس ظل يلح على يراع هذا الأديب فجسده ألوانا ببيان شتى، ووشاه ببيانه المصفى ، وليس غريبا على قلم مثل قلم الرافعي أن يتنزل وحيه ، ويفيض خاطره ببيان رائع عن الطفل والطفولة، في أحوالها وتقلباتها،موجهاً الأنظار إلى شريحة من شرائح المجتمع يستجلي من خلالها فلسفة الحياة،ومعنى الإنسانية، ويكشف سوءات واقع يمتهن معاني الطفولة، ويحطم قيم الحياة، باعتدائه على براءتها، وتشويهه لجمالها، مجتمع تسربت إليه أمراض العصر، تخلخل بنيانه، فطفق يعبث بجمال الأشياء ويحرف ويزيف حقائقها، ويزيغ عن كثير من تعاليم دينه التي تستهدف بناء حياة قويمة أساسها الحب، والطهر، والنقاء.

لقد وعى الرافعي مدى الانحراف والتشوه الذي أصاب مدماك بنية الحياة الاجتماعية،ومن ذلك مايخص "الطفولة " ومعاناة الأطفال في ظل الواقع الجديد الذي أفرز علاقات اجتماعية جديدة عكست نفسها سلباً على واقع الأطفال، ولما كان الرافعي "أديب" الأمة العربية المسلمة المعبر بلسانها الناطق عن ذات نفسها " (٢) فقد أخذ يتلمس قضاياها ومنها قضية الطفولة ـ ببلسم بيانه ويعرضها في مقالاته ـ سابراً أغوارها ومقدما وجهة نظره ـ المستقيمة المنبثقة من نظرة الإسلام للكون والحياة والإنسان .

وينهض هذا البحث بمهمة تتبع تلك المقولات والشذرات المبثوثة في مقالات كتاب وحي القلم ـ بأجزائه الثلاثة طمعاً في جمع أشتات رؤية الرافعي للطفولة،وتجليات تلك الرؤية في أنساق مقالاته، ومعالجته لجوانب القضية، متناولاً ذلك



بقلم د . عبدالحميد الحسامي
اليمن

بالوصف والتحليل إسهاماً في رفد الدراسات الأدبية المعاصرة ـ المتخصصة في أدب الطفولة والمشتغلة على قضية الطفل ـ بهذه الدراسات،التي تكشف حفاوة الأدب الإسلامي "بالطفولة" شأنها شأن موضوعات الحياة الأخرى،فضلاً عن أهمية الموضوع على مستوى الساحة العالمية، فطالما تخصصت جمعيات ومراكز وهيئات ومنظمات بالطفولة وحقوق الطفل.

ويتكفل هذا البحث بإبراز جهد أديب إسلامي في عرض القضية بأسلوب أدبي رفيع،وتحقيق حضور لائق من خلال مقالاته المتعددة،ومدى إسهام الفن الأدبي في تناول الواقع الاجتماعي وتقديم الرؤية الإسلامية المتميزة في مضمار الرؤى المعاصرة .

فالعودة إلى الطفولة ليست هروباً من الواقع ولكنها تقديم صيغة جديدة للسلام والبراءة في عالم استوحش فيه الإنسان،عودة إلى النبع بحثاً عن الجمال في عالم تشوهت ملامحه واستطالت نقائصه.

ويستنطق الرافعي الأطفال قائلاً: «أيها الناس انطلقوا في الدنيا انطلاق الأطفال يوجدون حقيقتهم البريئة الضاحكة لا كما تصنعون إذ تنطلقون انطلاق الوحش يوجد حقيقته المفترسة ".

فالطفولة هنا تصرخ في وجه الإنسانية الطائشة المتوحشة اخلعي "أرسانك ولو يوماً "

وتعترض على اغتيال براءة الحياة،ويخلص الرافعي ليجعل الطفولة مجمعاً لكل مظهر من مظاهر " جمال الحياة ".

"أيتها الرياض المنورة بأزهارها،أيتها الطيور المغردة بألحانها،أيتها الأشجار المصفقة بأغصانها، أيتها النجوم المتلألئة بالنور الدائم، أنت شتى، ولكنك جميعا في هؤلاء الأطفال يوم العيد ..» (٣).

* أستاذ الأدب والنقد المساعد في جامعة إب، اليمن.

إننا لن ندرك روعة الجمال في الطبيعة إلا إذا كانت النفس قريبة من طفولتها ومرح الطفولة ولعبها وهذيانها (٤) .

وهنا نلحظ كيف اتسع مفهوم الطفولة لدى الرافعي ليصبح الحياة الجميلة فهي السرور والقناعة والحب والجمال والبراءة والبساطة، والطمأنينة والحرية والسلام ..

مقابل : المعاني الضدية التي تقتضيها دلالة المخالفة، وتنطلي على المجتمع المعاصر، إن البحث عن الطفولة وإثبات قيمها ومعانيها يمثل محاولة نفي للواقع المتشكل ولو من ناحية نظرية، واعتماد الكاتب على توليد هذه المواصفات أو القيم يمثل إصرارا على تحقيق حضور أكبر للقيم الإيجابية لترسيخها في طفولة اليوم التي هي بالضرورة ملامح الغد .



مفهوم الطفولة

يعمد الرافعي إلى فلسفة الأشياء والبحث عن جواهرها فهو لا يرى الطفولة مرحلة عمرية ممتدة من سن إلى آخر، ولكن الطفولة معنى من المعاني بل كل المعاني الجميلة مجسدة في الأطفال، بهم ومن خلالهم يستقرئ الجمال في الأشياء ويرصد ملامحه .

فالعيد بالأطفال – مثلا – هو « يوم الخروج من الزمن إلى زمن وحده لا يستمر أكثر من يوم» لكن هذا اليوم له معان أخر في وجوه الأطفال .

« خرجت أجتلي العيد في مظهره الحقيقي على هؤلاء الأطفال السعداء، على هذه الوجوه النضرة التي كبرت فيها ابتسامات الرضاع فصارت للزمن ضحكات» (٥) .

« هؤلاء الأطفال السعداء الذين لا يعرفون قياسا للزمن إلا بالسرور » (٦) .

الأطفال في نظر الرافعي هم :

« السحرة الصغار الذين يخرجون لأنفسهم معنى الكنز الثمين من قرشين » .

يسحرون العيد فإذا هو يوم صغير مثلهم جاء يدعوهم إلى اللعب .

يبنون كل شيء على أحد المعنيين الثابتين في نفس الطفل، الحب الخالص، واللهو الخالص، يبتعدون بطبيعتهم عن أكاذيب الحياة فيكون هذا بعينه هو قربهم من حقيقتها السعيدة»، هم السهولة قبل أن تتعقد، يفتشون الأقدار من ظاهرها، ولا يستبطنون كيلا يتألموا بلا طائل، يأخذون من الأشياء لأنفسهم فيفرحون بها ولا يأخذون من أنفسهم للأشياء كيلا يوجدوا لها الهم، قانعون يكتفون بالتمرة ولا يحاولون اقتلاع الشجرة التي تحملها .

يعرفون كنه الحقيقة وهي أن العبرة بروح النعمة لا بمقدارها .

يجدون من الفرح في تغيير ثوب للجسم أكثر مما يجده القائد الفاتح في تغيير ثوب للمملكة، حكماء .. يشبه كل منهم آدم أول مجيئه إلى الدنيا حين لم تكن في الأرض خليقة ثالثة معقدة من صنع الإنسان المتحضر .

شعرهم البديع : أن الجمال والحب ليس في شيء إلا في تجميل النفس وإظهارها عاشقة للفرح، حكمتهم العليا أن الفكر السياسي هو جعل السرور فكرا وأظهاره في العمل .

فلاسفة تقوم فلسفتهم على قاعدة عملية هي أن الأشياء الكثيرة لا تكثر في النفس المطمئنة .

يوجدون حقيقتهم البريئة الضاحكة، أحرار .. حرية نشاط الكون كالفوضى ولكنه في أدق النواميس»(٧) .

مكانة الأطفال في نفوس الآباء :

الذرية الصالحة نعمة، وقرة عين ولذا كانت دعوة عباد الرحمن ﴿ ربنا هبنا لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما ﴾ (٨).

ويستلهم الرافعي هذا المعنى ومعاني أخرى للذرية حين يقول « رأيت الناس قد أنعم الله عليهم أن يكونوا آباء فنسأ بالولد في آثارهم، ومد بالنسل في وجودهم، وزاد منه في أرواحهم أرواحا، وضم إلى قلوبهم قلوبا وملأ أعينهم من ذلك بما تقر به قرة عين كانت لم تجد ثم وجدت، فهم بهؤلاء يملكون القوة التي ترجعهم أطفالا مثلهم في كل ما يسرهم، فيكبر الفرح في أنفسهم وإن كان في ذات نفسه ضئيلا صغيرا، ويعظم الأصل في أشيائهم وإن كان هو من شيء صغير لا يؤبه له، وتلك حقيقة من حقائق السعادة لا أسمى ولا أعظم منها إلا الحقيقة الأخرى وهي القوى التي تحول بها الكون في قلب الوالدين إلى كنز من الحب والرحمة، وجمال العاطفة بسحر من ابتسامة طفل أو طفلة، أو بكلمة منهما أو حركة على حين لا يتحول مثل ذلك ولا قريبا منه بمال الدنيا ولا يملك الدنيا (٩) .

« وكم تتحمل الأم الجنين صابرة راضية فرحة بآلامها وتغذوه وتقاسمه حياة نفسها »(١٠) .

إنهم – أي الأطفال – امتداد لوالديهم، وزينة حياتهم بل إن ابتسامة أو كلمة لا توازيها كنوز الدنيا، وفوق ذلك يكون مولد الطفل في نظر والده مولدا جديدا له، يقول الرافعي على لسان أب : « قال المسكين ثم أعادتني قدماي إلى البيت لأرى طفلتي وما كنت رأيتها ولقد كانت ولادتها أول الحياة لها وأول الحياة لي ...» (١١) .

فكم ظل ينتظر مجيئها مشدود الأعصاب حين أخذ المخاض يعتصر زوجته وكانت أمنيته « أن تلد لي الحياة والحب معا .. وتأتي لقلبي بمثل طفولتي الأولى ..» (١٢) .

وأحيانا يقوم الطفل بدور آخر فلا يكون امتدادا لحياة والده فحسب بل يكون إنقاذا لوالده من خسارة فادحة قد تحل به، ويستلهم الرافعي قصة من التاريخ الإسلامي يتوسل بها في طرح موضوعه، ويبني عليها نصه، وينسج على هيكلها خيوط بيانه، وهي قصة مالك بن دينار وقد وسمها بـ « بنته الصغيرة » وجعلها في جزأين ولما كانت البنت «الطفلة» هي الأضعف فقد كانت الحكمة من قيامها بهذا الدور أدل وأولى انتصارا لضعفها، لقد قامت الطفلة فاطمة بإنقاذ حياة أبيها وتحويل مجرى حياته من ظلمات أقصى الفجور والغي إلى أنوار الهداية والاستقامة .

« كانت البنية بدء حياة في بيتي وبدء حياة في نفسي، فلما دبت على الأرض ازددت لها حبا، ألفتني وألفتها، فرزقت روحي منها أطهر صداقة في صديق، تتجدد للقلب كل يوم بل كل ساعة، ولا تكون إلا لمحض سرور القلب دون مطامعه فتملك بالحياة نفسها لا بأشياء الحياة فلا تزيد الأشياء في المحبة ولا تنقص منها » .



وقد كانت بحبه لها سببا في تركه للخمرة «جهدت أن أترك الخمر فلم يأت لي ولم أستطعه إذ كنت منهمكا على شربها، ولكن حب ابنتي وضع في الخمر إثمها الذي وضعته فيها الشريعة فكرهتها كرها شديدا». وبعد أن توفيت ابنته كانت رؤياه الشهيرة التي وقفت ابنته فاطمة درعا في وجه التنين الذي أراد هلاكه « فإذا ابنتي التي ماتت قد أشرفت علي، فلما رأت ما أنا فيه صاحت ثم بكت، ثم وثبت كرمية السهم، فجاءت بين يدي ومدت إليّ شمالها فتعلقت بها ومدت يمينها إلى التنين فولى هاربا، وأجلستني وأنا كالميت من الخوف والفزع وقعدت في حجري كما كانت تصنع في الحياة وضربت بيدها إلى لحيتي وقالت يا أبت .. ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ....** ﴾ [١٣] .

وتخبره عن تفاصيل الرؤيا « يا أبتاه ذلك عملك الصالح أنت أضعفته فضعف حتى لم يكن له طاقة أن يغيثك، من عملك السيئ ولو لم أكن لك هنا ولو لم تكن اتبعت قول رسول الله ﷺ فيمن فرح بناته المسكينات الضعيفات – لما كانت لك هنا شمال تتعلق بها ويمين تطرد عنك »، وقد عالج في هذه المقالة «ابنته الصغيرة » واجب الوالدين نحو البنت وضرورة تربيتها تربية مشتملة « تربية عقلية، تربية إحسان، تربية جسمها تربية إحسان وإلطاف، وتربية روحها تربية إكرام وإحسان وإلطاف ... ويقول : « البنت هي أم ذدار ليس ينبغي أن ينظر الأب إلى بنته الأعلى أنها بنته أم أولادها ثم أم أحفاده فهي بذلك أكبر من نفسها وحقها عليه أكبر من الحق، فيه حرمتها، وحرمة الإنسانية معا ..[١٤].

الأطفال الفقراء

يلتفت الرافعي إلى الأطفال الفقراء نظرة تنتصر لهم من واقعهم بعد أن يعمد إلى تجسيد مأساتهم بأسلوب كله استعطاف، فيقول على لسان أحدهم – وهو يخاطب أخاه : « انظر هاهم أولاء يرى عليهم أثر الغنى وتعرف فيهم روح النعمة، وقد شبعوا .. إنهم يلبسون لحما على عظامهم أما نحن فنلبس على عظامنا جلدا كجلد الحذاء .. إنهم أولاد أهليهم، أما نحن فأولاد الأرض، هم أطفال ونحن حطب إنساني يابس يعيشون في الحياة ثم يموتون، أما نحن فعيشنا هو سكرات الموت إلى أن نموت، لهم عيش وموت ولنا الموت مكرورا ... هؤلاء الأطفال يتضورون شهوة كلما أكلوا ليعودوا فيأكلون، ونحن نتضور جوعا ولا نأكل لنعود فنجوع ولا نأكل، وهم بين سمع أهليهم وبصرهم ما من أنة إلا وقعت في قلب، وما من كلمة إلا وجدت إجابة، ونحن بين سمع الشوارع وبصرها، أنين ضائع، ودموع غير مرحومة »[١٥] .

ولم يكتف بمجرد تصوير هذه النوازع النفسية التي تعتلج في نفس طفل يتيم تصويرا واصفا، بل يحاول أن يلامس نفسياتهم مدعما معنوياتهم بتشبيههم بأبطال الحرب : « أنتم أيها الفقراء حسبكم البطولة فليس غنى بطل الحرب في المال والنعيم ولكن بالجراح والمشقات في جسمه وتاريخه »[١٦] .

ويؤكد أن الفقير لا ينهزم في معركة الحوادث، وأن الأغنياء سبب هزائم الشرق ....، ويدعو على لسان طفل فقير إلى أن يكون الحكام من صالحي الفقراء ليحكموا بقوانين الفقر والرحمة لا بقانون الغنى أو القسوة [١٧]، أما أولاد الأغنياء فيجب أن يباشروا الصناعة والتجارة ليجدوا عملا شريفا يصيبون منه رزقهم بأيديهم لا بأيدي آبائهم، « لأن اختلال العدل أو ما سماه الرافعي «العمى الاجتماعي» سبب بقاء تلك الفجوة بين حياة الفقراء وحياة الأغنياء، ولولا العمى الاجتماعي لما كان فرق بين ابن أمير متبطل في أملاك أبيه من القصور والضياع، وابن فقير متبطل في أملاك المجلس البلدي من الأزقة والشوارع .

وكان مجمل هذه المقالة انتصارا لحقوق الطفولة الفقيرة في وجه الغنى المفرط الذي ينبئ عن اختلال المعادلة الاجتماعية .

وفي هذه المقالة يجسد الرافعي مفارقة عجيبة حين يرسم مشهدا لطفلين فقيرين يتضوران جوعا وهما متوسدان عتبة البنك « يا عجبا بطنان جائعان في أطمار بالية يبيتان على الطوى والهم ثم لا يكون وسادهما إلا عتبة البنك، ترى من لعن البنك بهذه اللعنة الحية »؟.

وتصل المأساة إلى قمة التأزم حينما يحاور الفقير أحمد أخته أمينة :

– آه لو صرت مديرا ! أتدرين ماذا أصنع ؟

– ماذا تصنع يا أحمد ؟

– أعمد إلى الأغنياء فأردهم بالقوة إلى الإنسانية وأحملهم عليها حملا، أصلح فيهم صفاتهم التي أفسدها الترف واللين والنعمة، ثم أصلح ما أخل به الفقر من صفات الإنسانية بالفقراء أحملهم على ذلك حملا » .. «القانون الآن كلمة حقي، ونحن نريد أن يكون: « حقي وواجبي، وما أهلك الفقراء بالأغنياء ولا الأغنياء بالفقراء ولا المحكومين بالحكام إلا قانون الكلمة الواحدة ... « .. أنا أحمد المدير .. أنا عمل اجتماعي منظم يحكم أعمال الناس بالعدل أنا خلق ثابت يوجه أخلاقهم بالقوة، أنا الحياة الأم مع الحياة الأطفال الأخوة في هذا البيت الذي يسمى الوطن، أنا الرحمة عندي الجنة، ولكن عندي جهنم أيضا ما دام في الناس من يعصي، أنا بكل ذلك لست أحمد، لكني الإصلاح »[١٨] .

لقد لجأ الرافعي إلى تصوير الطفولة المشردة مجسدة في الطفلين (أحمد وأمينة) اللذين ناما على عتبة البنك يفترشان الرخام البارد، ويلتحفان جوا رخاميا في برده وصلابته على جسميهما، ويتساءل: « أهما طفلان أم كلاهما تمثال للإنسانية التي شقيت بالسعداء ...» .

الأطفال أيتاما..

إن مأساة «اليتيم» زاوية من زوايا نظرة الرافعي إلى الطفولة وتناولها في كتاباته، ولا شك في أن اليتيم ومأساة الأطفال بموت والديهم يمثل مادة خصبة لقلم الأديب ناهيك عن أهمية هذه القضية في مضمار البناء الاجتماعي، والرافعي إذ يصور هذه المأساة بريشته الصانعة يرسم لوحة «موت أم» يبين أثر موت الأم في نفوس أبنائها، ومقدار العواطف المنطلقة عند رؤية أطفال خمسة «



أكبرهم كأنه ثمانية أرطال لا ثمانية أعوام، جاء إلينا كما يجيء الفزع لقلوب مطمئنة، إذ كان في عينيه الباكيتين معنى فقد الأم طغت عليها الدموع فتناول منديله ومسحها بيده الصغيرة، ولكن روحه اليتيمة تأبى إلا أن ترسم بهذه الدموع على وجهه معاني يتمها.. جلس مستسلما تترجم هيئته معاني هذه الكلمة « رفقا بي» ثم تطير من عينيه نظرات في الهواء كأنما يحس أن أمه حوله في الجو ولكنه لايراها[١٩].

ويصور الرافعي مشاهد هذا الطفل اليتيم بصور شتى« يتململ في مجلسه فينعطف جسمه كله بهذه الكلمة «ياأمي»، ويستبطن أعماقه النفسية «أحس ولا ريب أنه قد ضاع في الوجود لأن الوجود كأنه أم «لمس خشونة الدنيا منذ ساعة»، شعر بالذل ينساب في قلبه الصغير، لبسته المسكنة لأنه صار وحده في المكان كما هو وحده في الزمان..

ثم يخاطبه: « انتهت أيها الطفل المسكين أيامك من الأم.. بدأت أيها الطفل المسكين أيامك من الزمن، ياإلهي، أي صغير على الأرض يجد كفايته من الروح إلا في الأم»[٢٠].

ويرسم الرافعي صورة أخرى من صور اليتيم في مقالته «قصة أب» إمعاناً منه في تشخيص المشهد وبيان أبعاده كافة، فيتحدث عن طفلة ولدت وفارقت أمها الحياة بعد ولادتها «إنها طفلة ولدت وكأنما أخرجت من تحت الردم، إذا ولدت تحت ماض من الحياة منهدم، وهل فرق بين هذا وبين أن تكون ولدتها أمها في الصحراء « فالمسكينة على الحالين منقطعة أول ما انقطعت من حنان الأم ورحمها، طفلة ولدت صارخة، لا صرخة الحياة ولكن صرخة النوح والندب على أمها، صرخة حزينة معناه: ضعوني مع أمي في القبر» صرخة ترتعد كأن المسكينة شعرت أن الدنيا خالية من الصدر الذي يدفئها، صرخة تتردد في ضراعة كأنه



جملة مركبة من هذه الكلمات «يارب ارحمني من حياة بلا أم»[٢١].

وينتصر الكاتب للطفولة مجسدة في هذه الطفلة المسكينة إذ يتعهدها أبوها بالرعاية ويحوطها بالحنان والعطف تعويضا لها على فقدان الأم.

«إذا صبر الناس على الحياة فمن أجلك يامسكينة، من أجل ضعفك وانقطاعك..سأعاني الصبر لك، وأعاني الصبر لي، وأعاني الصبر عن أمك، سأصبر عن الصبر نفسه»[٢٢].

الأطفال اللقطاء..

تناول الرافعي في مقالته عربة اللقطاء مأساة الأطفال اللقطاء محاولا رسم ملامح هذه المأساة في مشهد درامي حزين؛ مستخدما مشهدا ضديا هو مشهد أطفال صغار مع أمهاتهم وذويهم إمعانا

منه في تشخيص الموقف، وقد كان عنوان المقالة دالا مناسبا حيث يوحي بأن عالم هؤلاء اللقطاء قد اختزل ليصبح مجرد «عربة» تشكل ميدان حياتهم، عربة مسورة بألواح من الخشب كجوانب النعش تمسك من فيها من الصغار أن يتدحرجوا منها إذا هي تدرج وتقلقل»[٢٣].

«أولئك ثلاثون صغيرا من كل سطح لقيط ومنبوذ، وقد انكمشوا وتضاغطوا إذ لا يمكن أن تمط العربة فتسعهم ولكن يمكن أن يكبسوا ويتداخلوا حتى يشغل الثلاثة أو الأربعة منهم جزأين ومن منهم إذا تألم سيذهب فيشكو لأبيه..؟

يشعرك اجتماعهم أنهم صيد في شبكة لا أطفال في عربة، ويدلك منظرهم البائس الذليل أنهم ليسوا أولاد أمهات وآباء ولكنهم وساوس آباء وأمهات.

لقد كثف الرافعي مشهد الحزن والحسرة حينما رسم مشهد نزولهم من العربة، وصور امرأتين تقومان على اللقطاء «وكلتاهما تزوير للأم على هؤلاء الأطفال المساكين» فضلا عن الحوار الذي دار بين الحصانين اللذين يجران العربة أحدهما الكميت والآخر الأدهم».

الأول: كان يجر عربة الكلاب التي يقتلها الشرطة، والثاني كان يجر القمامة والأقذار، ويحس الأول بثقل الأطفال اللقطاء حتى يخيل إليه أن ظل كل طفل منهم يثقل وحده عربة والثاني: يشعر بأن الريح الخبيثة أشد من ريح القمامة إذ أصبحت في الزمن نفسه حينما قرن بهؤلاء وعربتهم.

أما حوذي العربة فإنه يشكو من هذه المهنة إذ يرى أن كل واحد من هؤلاء إن هو إلا جريمة تثبت امتداد الإثم والشر في الدنيا .. ويستطرد الرافعي في المقارنة بين هؤلاء اللقطاء وبين غيرهم من الأطفال ـ على لسان حوذي العربة وأحد أصدقائه .

وتبلغ المأساة ذروتها حينما أخذت المرأتان المصاحبتان لجماعة اللقطاء تتناجيان بشأنهم.

"قالت الكبرى: ياحسرتا على هؤلاء الصغار المساكين، إن حياة الأطفال فيما فوق مادة الحياة أي سرورهم وأفراحهم، وحياة هؤلاء البائسين هو دون مادة الحياة أي في وجودهم فقط، وكبر الأطفال يكون منه إدخالهم في نظام الدنيا،وكبر هؤلاء إخراجهم إلى الملجأ، وهو كل النظام في دنياهم، ليس بعده إلا التشريد والفقر وابتداء القصة المخزية .

قالت الصغرى : ولم لايفرحون كأولاد الناس ؟ أليست الطبيعة لهم جميعاً ، وهل تجمع الشمس أشعتها على هؤلاء لتضاعفها لأولائك ..

– هؤلاء اللقطاء في حياة عامة قد نزعت منها الأم والأب والدار ..

– هم أطفال غير أنهم طردوا من حقوق الطفولة، كما طردوا من حقوق الأهل، وحسبك شقاء الطفل الذي لم يعرف من حنان أمه إلا أنها لم تقتله، ولا من شفقتها إلا أنها طرحته في الطريق .

– ألا لعنة الله والملائكة والناس أجمعين على أولئك الرجال الأنذال الطغام الذين أولدوا النساء هؤلاء المنبوذين ..عجباً إن سيئات اللصوص والقتله كله تيبس وتتلاشى، ولكن سيئات العشاق تعيش وتكبر» .

ولم يتوقف الرافعي عند عملية استنطاق هاتين المرأتين، والمرأة بحكم تكوينها قادرة على التعبير عن هذا الموقف بعاطفتها الجياشة تعبيراً مؤثراً،لكن الرافعي يقدم مؤثراً آخراً يبسط من خلاله القضية وتمثل ذلك بالتقاط صورة لطفل صغير بمعية أمه يلعب ويمرح، وطفل لقيط ليجري بينهما الحوار الآتي :

«فنظر الطفل إلى اللقيط وأومأ إلى جماعته ثم قال له: أأنتم جميعاً أولاد هاتين المرأتين أم أحدهما.

ـ هما المراقبتان، وأنت أفليست هذه معك مراقبة؟

- وما معنى مراقبة ! هذه ماما!!
- فما معنى ماما؟ هذه مراقبة!!
- كلكم من دار واحدة.
- نحن في الملجأ ومتى كبرنا أخذونا إلى دورنا .
وانقطع الحوار بصوت من المراقبة:
تعال يا رقم عشرة..فلوى اللقيط المسكين وجهه وانصاع وأدبر».

ويختم المشهد"ومشى الأطفال بوجوه يتيم يقرأ من يقرأ فيها أنها مستسلمة مسكينة معترفة أن لا حول لها في شيء من هذا العالم إلا هذا الإحسان البخس القليل.

ونلحظ أن الرافعي يقلب الموضوع من جوانبه كافة، يستقصي الظاهر ويرصد تجلياتها وأسبابها منوعاً في عرضها،مستثمراً كل التقنيات التي تسهم في جلاء الموضوع، فتارة يصف وآخرى يحاور وثالثة يتوسل بشخصية أو بشخصيات ورابعة يستنطق الحيوان .

ولاينسى أن يشير إلى تعاليم الإسلام وآدابه التي تضمن سلامة المجتمع وتحقق طهارته،"لأيهما يجب التمحيص أللصاعقة أم للمكان الذي يخشى أن تنقض عليه، لقد أجابت الشريعة الإسلامية : حصنوا المكان ولكن المدنية أجابت حصنوا الصاعقة[٢٤].

أبناء الذوات

لم تغب عن قلم الرافعي تلك الشريحة من الأطفال الذين لا ينعمون بطفولتهم ولا يمارسون حياتهم الطبيعية نتيجة نمط الحياة الذي تفرضه ظروف آبائهم،وقد عالج الرافعي هذه الظاهرة الاجتماعية .. ظاهرة أبناءالذوات أو الأغنياء من خلال قصة الطفل " عصمت "؛ إذ كان طفلاً مترفًا يكاد ينعصر لينا وتراه يرف رفيفاً مما نشأ في ظلال العز، بيد أنه تمرد على هذه القيود حين انساق وراء خياله،وهرب على وجهه من تلك الصورة التي يمشي فيها الجندي وراء ابن المدير .

ولا شك في أن تمرد عصمت وهو ابن المدير على وضعه الاجتماعي يعد بحثا عن طفولته الغائبة، الطفولة التي طوتها طقوس الإدارة وكبلتها مواصفات علو المنزلة إذ أصبحت مكانة الشخصيات فوق المعاني ..

إن هناك طفولتين: الطفولة المزيفة التي يحياها عصمت، والطفولة الحقيقية التي ينبغي أن يعيشها كما يعيش الأطفال الآخرون، وكان قرار عصمت استجابة لنداء الفطرة وانسياقا وراء انسجام الأشياء، وقد أخذت نفسه تهتز وترف بإحساسها، كالورقة الخضراء عليها طل الندى، وأخذ قلبه يتفتح في شعاع الكلام كالزهرة في الشمس، وسكر بما يسكر الأطفال حين تقدم لهم الطبيعة مكان اللهو معدا مهيئا[٢٥]، ودبت روح الأرض دبيبها في عصمت، وأوحت إلى قلبه بأسرارها فأدرك من شعوره أن هؤلاء الأغمار الأغبياء من أولاد الفقراء والمساكين هم السعداء بطفولتهم، وأنه وأمثاله هم الفقراء والمساكين في الطفولة، وأن ذلك الجندي الذي يمشي وراءه لتعظيمه إنما هو سجن .

ويرى الرافعي أن أبناء المسؤولين والأغنياء أعجز عن التعامل مع نظرائهم من الأطفال، إذ إن عصمت لم يستسغ أن يكون مهزوما في اللعب مما حدا بهم أن يمرغوه في التراب، لولا أن أحدهم جاء وفرقهم، طفل في العاشرة تبين عصمت منه القوة والمتانة معللا ذلك لما سأله عصمت من أين لك هذه القوة ؟ فأجاب إني أعمل بيدي فأنا أشتد، وإذا جعت أكلت طعامي، أما أنت فتسترخي فإذا جعت أكلك طعامك، ثم إني ليس لي عسكري ... !

أنت طفل المدرسة كأنك طفل من ورق، وكراسات من لحم، وكأن عظامك من طباشير، لا تبك يا ابن المدير ، تعلم أن تكون جلدا ...

وكما انتصر الرافعي للطفولة المضطهدة بتمرد عصمت انتصر للطفولة الفقيرة قائلا :

أنتم الفقراء حسبكم البطولة، فليس غني بطل الحرب بالمال والنعيم ولكن بالجراح والمشقات في جسمه وتاريخه (٢٥) .

خاتمة :

من خلال هذه الطيافة العجلى تبين كيف استأثر موضوع الطفولة باهتمام الرافعي فكان هاجسا ملازما يحفز قلمه للكتابة عن الطفل، وأهمية تربيته، موجها عدسته لالتقاط صورها من عالم الطفولة، مجسدا آلامها ومصورا عذاباتها ومدى الانحراف الذي حاق بعالم الطفولة عن مساره الطبيعي، فقدم مشاهده لمآسي الطفل اليتيم، والطفل الفقير، واللقطاء، وأغنياء من أبناء الذوات.

ويستخدم في ذلك : القصة مستعملا إياها من التراث، أو صائغا إياها من مفردات الواقع ، يتوسل بالوصف ، ويوظف الحوار ويرسم المشهد ، وهو في كل ذلك يكتب بخيال مجنح ومفردات بيانية فيه من الطراوة ما لا يقدر عليه غيره . ■

الهوامش:

(١) مجلة الأدب الإسلامي، ناول عبدالهادي، مج ١٠، ع٤٠، ص ١٠٤ .
(٢) وحي القلم (المقدمة)، محمد سعيد العريان، ص١٢ .
(٣) وحي القلم، ج١، ٣٢، ٣٣ .
(٤) نفسه، ج١، ٤١ .
(٥) نفسه، ج١، ٢٩ .
(٦) نفسه، ج١، ٣٠ .
(٧) نفسه، ج١، ٣٢ .
(٨) سورة الفرقان، آية ٧٤ .
(٩) وحي القلم، ج٢، ١٥٦ .
(١٠) نفسه، ج٢، ١٥٨ .
(١١) نفسه، ج٢، ١٦٠، ١٦١ .
(١٢) نفسه، ج٢، ١٥٧ .
(١٣) نفسه، ج١، ٢٣٥ .
(١٤) نفسه، ج١، ١٩٩ .
(١٥) نفسه، ج١، ٨١، ٨٢ .
(١٦) نفسه، ج١، ٧٧ .
(١٧) نفسه، ج١، ٨٢ .
(١٨) نفسه، ج١، ٨٤ .
(١٩) نفسه، ج٢، ١٥٤ .
(٢٠) نفسه، ج٢، ١٥٥ .
(٢١) نفسه، ج٢، ١٥٧ .
(٢٢) السابق نفسه .
(٢٣) نفسه، ج١، ٣٠٦ .
(٢٤) نفسه، ج١، ٣١١ .
(٢٥) نفسه، ج١، ٧٢ .
(٢٦) نفسه، ج١، ٧٧ .

ندى الورد*

ندى الورد على فُلِّكْ
كسفت الورد والفُلاّ
ومن غصنك من ظلِّكْ
كسفت الغصن والظلاّ
فما أحلاك في دلِّكْ
ومن علمك الدلاّ؟
وكل الحسن في كلِّكْ
فربي يحفظ الكلاّ

* * *

ألا يا حبة الحب
ويا إنسانة الأنسِ
وروح القلب في القلب
ومعنى النفس في النفسِ
وثغر اللؤلؤ الرطب
ولحظ الماس في الشمسِ
يعيش الحسن في شكلكْ
فما أحلى ، وما أحلى

* * *

فكوني دائما حسنا
بأعمالك في الناسِ
ومن أخلاقك الحسنى
أضيئي ضوء نبراسِ
على الألماس ما أثنى
كهذا النور في الماسِ
ومن فضلكِ من فضلك
أرينا المرأة الفُضلى

مصطفى صادق الرافعي

* كتبها لابنته زينب في طفولتها.

شخصية الأديب المسلم في حياة الرافعي ورسالته



بقلم: د. محمد أبو بكر حميد



«عاش الرافعي في هذه الأمة وكأنه ليس منها، فما أدت له في حياته واجباً ولا اعترفت له بحق، ولا أقامت معه على رأي، وكأنما اجتمع له هو وحده تراث الأجيال من هذه الأمة المسلمة فعاش ما عاش ينبهها إلى حقائق وجودها على حين تعيش هي في ظلال التقليد وأوهام التجديد ورضي هو مقامه منها غريباً ومعتزلاً لا يعرفه أحد إلا من خلال ما يؤلف من كتب وينشر في الصحف أو خلال ما يكتب عنه خصومه الأكثرون وهو ماضٍ على نهجه لا يبالي.. ولا ينظر لغير الهدف الذي جعله لنفسه منذ يومه الأول، وهو أن يكون من هذه الأمة لسانها العربي في هذه العجمة المستعربة، وأن يكون لهذا الدين حارسه وحاميه يدفع عنه أسباب الزيغ والفتنة والضلال وما كان - رحمه الله - يرى في ذلك إلا أن الله قد وضعه في هذا الموضع ليكون عليه وحده حياطة الدين والعربية.. كأن ذلك «فرض عين» عليه وهو على المسلمين «فرض كفاية».

بهذه الكلمات الموجزة اختصر **محمد سعيد العريان** مأساة جهاد أستاذه مصطفى صادق الرافعي ورسالة حياته، وذلك عقب وفاة الرافعي سنة (١٩٣٧) في مطلع كتابه الفريد **«حياة الرافعي»** الذي يعد مصدرا أساسيا إلى الآن لكل من يتعرض لحياة الرافعي ، وذلك ليذكر هذه الأمة بالدين الذي عليها لهذا الأديب الكبير والكاتب الإسلامي المستنير ولا تزال تلك الكلمات - رغم مضي - أكثر من ٦٠ عاما عليها - لم يجف مدادها تستنهض الهمم نابضة بالحياة، تدعو لإنصاف الرجل. والمأساة أن الرافعي لم يأخذ إلى الآن - ولو بعض حقه - من أمة لا تزال تحمل على عنقها ديوناً كثيرة لأمثاله من أدبائها ومفكريها الذين أخلصوا حياتهم لها وماتوا في سبيلها.. أمة - للأسف - منذ بدأت تستبدل برايتها الحقيقية التي تسامت بها على باقي الأمم رايات أخرى ملونة تراجعت عن ركب الحضارات.

وقد ظهر الرافعي في عصر هذه الفتن، وعاصر هؤلاء المفتونين فتصدى لهم ورد كيدهم في نحورهم بقلمه وحده لا يسنده حاكم يحميه، ولا منصب يترفع به، ولا حتى صاحب يذود عنه، فكان متكلاً على الله وحده متخذا شعاره قوله تعالى: ﴿ **إن الله يدافع عن الذين آمنوا** ﴾ فكانت هذه الآية محور حركته كلها ومصدر جرأته وشجاعته وجهره بالحق في وجوه من كان يشتم منهم عداوة للدين أو للغة من صغار وكبار.

إشراق العبقرية:

ينتمي مصطفى صادق الرافعي (١٢٩٨-١٣٥٦هـ = ١٨٨١- ١٩٣٧م) إلى أسرة عريقة في النسب خدمت الإسلام والعروبة بعدد من العلماء والقضاة والأدباء والمؤرخين اشتهروا في الشام ومصر، وأول من وفد من هذه الأسرة إلى مصر من طرابلس الشام وطنهم الأول كان الشيخ محمد طاهر الرافعي سنة ١٢٤٣هـ (١٨٢٧م) ليتولى القضاء في مصر على مذهب أبي حنيفة، ومنذ ذلك التاريخ كاد القضاء يكون حكراً لآل الرافعي حتى اجتمع في زمن ما أربعون قاضيا رافعيا في مختلف محاكم مصر، ووالد أديبنا الرافعي هو المرحوم الشيخ عبدالرزاق الرافعي كان رئيسا للمحاكم الشرعية في كثير من الأقاليم وهو واحد من أحد عشر أخا اشتغلوا جميعا بالقضاء.

وكان الرافعي - رحمه الله - شديد الاعتزاز بانتهاء نسبه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أما والدته فهي سورية الأصل من حلب وكان والدها الشيخ الطوخي يعمل تاجرا بين مصر والشام. وكان مولد أديبنا في بهتيم إحدى قرى مديرية القليوبية بمصر، وليس في طنطا كما يظن البعض، ونشأ في رعاية أبيه، وما كاد يتم العاشرة من عمره حتى استظهر القرآن عليه حفظا وتجويدا. لم يدخل الرافعي المدرسة إلا بعد أن جاوز العاشرة بسنة أو سنتين، فقد درس سنة من الابتدائية في دمنهور ثم نقل والده قاضيا في محكمة المنصورة فانتقل معه إلي مدرسة المنصورة الأميرية وحصل على شهادة الابتدائية وسنه يومئذ سبع عشرة سنة! فكانت الشهادة الابتدائية هي كل ما حصل عليه الرافعي من شهادات المدارس النظامية، ثم استقرت أسرة الرافعي في طنطا منذ عُيّن والده رئيسا لمحكمتها الشرعية، ومنذ ذلك الحين أصبحت طنطا مقرا لأسرة الرافعي وعاش فيها أديبنا إلى أن توفاه الله بها.

وقد منعت الرافعي من مواصلة دراسته بعد الابتدائية إصابته بمرض التيفوئيد الذي أقعده أشهرا وأصابه بحبسة في صوته وصمم في أذنيه ظل يثقل عليه حتى تحول إلى صمم تام، وانقطع الرافعي به عن دنيا الناس والأصوات مع تمامه الثلاثين من عمره، فكانت هذه العاهة زلزلة خير وبركة في حياته فلزم الكتاب وانقطع للقراءة يقرأ تسع ساعات كل يوم لا يتصل بالناس إلا من خلال القلم على أحسن ما يكون الاتصال حتى ظهر نبوغه وأشرقت عبقريته، على أنه قبل هذا كله لازم أباه في صباه يأخذ عنه علوم العربية ويتفقه في

ارسموا شخص الوفا ثـــم انظروا من بعد رسمي
لو يسمى في الأنام الحــب ما اختار سوى اسمي



مصطفى صادق الرافعي

اللغة وعلوم الدين والتفسير ويقرأ لعلماء الأمة.

وهكذا امتلأ الرافعي منذ طفولته بروح الإسلام وتشبع بفكره، وآمن برسالته فجعلها رسالته يهتدي بهداها، ويقتدي بأعلامها، ويتخذ من لغة القرآن حصنه الحصين يدافع عنها ويهاجم منها كل الذين أرادوا الطعن في كتاب الله من خلال الطعن في لغته.

على هذه الروح شب الرافعي وشاب، وتشبع بحب القرآن ولغته منذ ميعة صباه ونشأ لا يتكلم إلا الفصحى، وكان حظه من العامية المصرية قليلا – كما يروي صفيه الأستاذ محمد سعيد العريان – وظلت لهجته الشامية في الحديث تنم عن أصله إلى آخر أيامه. فقد باعد فقده للسمع مبكرا بينه وبين إتقان اللهجة المصرية مضافا إليها حرصه وعشقه للتخاطب مع الناس بالفصحى.

أما حياة الرافعي الوظيفية فهي تختصر في سطور قصيرة، فقد دلف إليها في أبريل عام ١٨٩٩م وهو في سن التاسعة عشرة فعُيِّن كاتبا في محكمة "طلخا" الشرعية القريبة من "طنطا" ثم نُقِل إلى محكمة «إيتاي البارود» الشرعية ثم إلى محكمة طنطا الشرعية ثم إلى محكمة أهلية واستقر به المقام في طنطا، وعاش الرافعي طوال حياته موظفا صغيرا يتقاضى راتبا ضئيلا يعيش عليه بقناعة إذ لم تكن الوظيفة في حياته إلا وسيلة تعينه على العيش الكفاف ليفرغ لنفسه بعد ذلك يقودها إلى العلا في مراتب الثقافة والأدب والفكر ليتسنم قممها العالية ويمثل مكانته اللائقة به بين كبار أدباء عصره.

الرافعي في بيته:

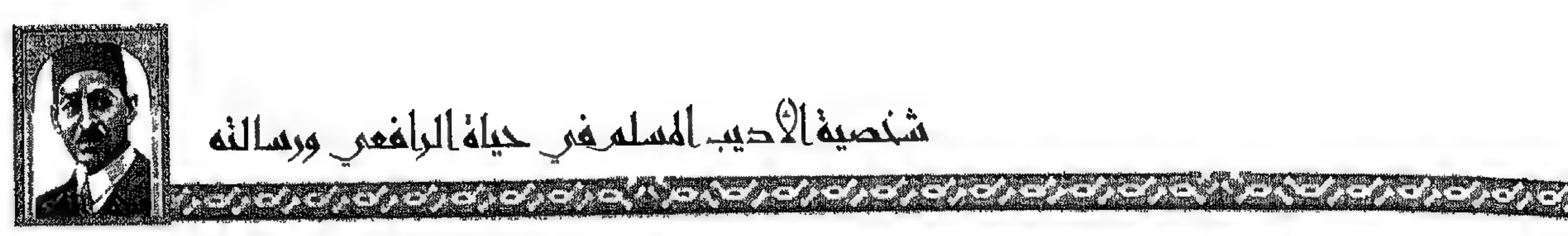
تزوج الرافعي في الرابعة والعشرين من عمره من فتاة مصرية صريحة النسب أخت صديقه الأستاذ عبدالرحمن البرقوقي صاحب مجلة «البيان». وقد عاش الرافعي لزوجه وفي بيته وبين أولاده مثل الزوج والأب الذي يحترم حدوده ويعطي لكل ذي حق حقه، وحسبنا أن نقرأ ما كتبه عنه تلميذه وصديقه الأستاذ العريان حين شهد بقوله: «**وأنا ما عرفت أبا لأولاده كما عرفت الرافعي إذ يتصاغر لهم ويناغيهم ويدللهم ويبادلهم حبا بحب ثم لا يمنعه هذا الحب من أن يكون لهم أبا فيما يكون على الآباء من واجب التهذيب والرعاية والإرشاد ...**».

ولم يفرط الرافعي يوما في عقد الأسرة وظل مرضيا لزوجه التي أعطت له كل حياتها وهيأت له في بيته كل ما يحتاجه رجل مفكر مثله، وما يقال عن علاقة الرافعي بالمرأة خارج محيط الأسرة فيه كثير من التجاوز للحقيقة، وما يقال عن حبه لمعاصرته الأديبة الشامية المعروفة الآنسة مي زيادة فيه من الخيال أكثر مما فيه من الواقع.

لقد هب الحب على قلب الرافعي مثله مثل كل إنسان ولكنه لم يترك هذا الحب يعصف بحياته فسرعان ما حوله إلى نسيم يستوحي منه أرق وأجمل مؤلفاته لغة وأسلوبا ومعنى، فليس الرافعي الذي يسلم قياده لهواه، فإذا كان حبه أقوى منه قد كان دينه وإيمانه أقوى من حبه، وهو القائل:

الحب سجدة عابد ... ما أرضه إلا جبينه
قلبي يحب وإنما ... إيمانه فيه ودينه

وقد صارح الرافعي زوجه بحقيقة أمره مع فلانة الذي لم يتجاوز «الاستلهام»، وكانت أعرف الناس بعفة زوجها واستقامته وعظيم إيمانه،



وهكذا كان هذا الحب في حياة الرافعي طائفا روحانيا بعيدا عن شهوات الجسد، وأوحى إلى الرافعي بأعظم ما خطه يراع في فلسفة الحب والجمال في أدبنا الحديث، كان أولها **«حديث القمر»** كتبه سنة ١٩١٢ عقب زيارة قام بها لوطنه الأصلي لبنان ومن وحي لقائه بالأديبة مي زيادة، ثم تبعه بثلاثة كتب أخرى على شكل رسائل حب خيالية فكان **«رسائل الأحزان»** و**«السحاب الأحمر»** سنة ١٩٢٤ ثم تبعهما **«أوراق الورد»** سنة ١٩٣١ .

كلمة الصدق

إن الأمة لن تكون في موضعها إلا إذا وضعت الكلمة في موضعها، وإن أول ما يدل على صحة الأخلاق في أمة كلمة الصدق فيها، والأمة التي لا يحكمها الصدق لا تكون معها كل مظاهر الحكم إلا كذبا..

مصطفى صادق الرافعي

شاعر الأمة:

وبدأ الرافعي حياته شاعراً ونظم الشعر في سن باكرة قبل أن يبلغ العشرين من عمره، وبدأ يتألق بما ينشره من شعر في الصحف والمجلات التي كان يصدرها الشاميون في مصر، فقد كانت الزعامة الأدبية في اللغة والأدب والتاريخ في أيديهم، فنشر الرافعي في مجلات **«الضياء»** و«البيان» و«أثرياء» و**«الزهراء»** و**«المقتطف»** و**«الهلال»** وغيرها.

وتطلع الرافعي في تلك السن الصغيرة إلى منافسة شعراء عصره الكبار: البارودي وشوقي وحافظ وأعد نفسه لانتزاع إمارة الشعر، فلما أصدر حافظ إبراهيم سنة ١٩٠٣ ديوانه ورأى الشاعر الشاب ما ناله ديوان حافظ من ترحيب وثناء أعد عدته وأصدر **الجزء الأول من ديوانه ١٩٠٤ بعد ديوان حافظ بشهور، وقدم له بمقدمة بارعة تحدث فيها عن معنى الشعر وفنونه، ثم أصدر الجزء الثاني من ديوانه سنة ١٩٠٤ والثالث سنة ١٩٠٦، وفي سنة ١٩٠٨ أصدر الجزء الأول من ديوان النظرات**، وارتفع اسم الرافعي عاليا متألقا في سماء الشعر ولقي من احتفاء الأدباء والنقاد ما لم يلقه إلا قلة من أدباء جيله، فقد قرظ شعره **الإمام محمد عبده** حيث كتب إليه يقول: **«أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفاً يمحق به الباطل، وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الأوائل»** وصدقت فيه فراسة الإمام.

وكتب الزعيم **مصطفى كامل** يقول: **«وسيأتي يوم إذا ذكر فيه الرافعي قال الناس هو الحكمة العالية مصوغة في جمال قالب من البيان»**، وإذا كان هذا بيان شعر الرافعي فإن ذروة هذا الشعر بإجماع الكثير من دارسي أدب الرافعي تكمن في أناشيده، فقد غنى الرافعي للإسلام والوطن والطفولة والشعب بشكل لم يسبق إليه أحد مما يجعله بحق إمام عصره في شعر الأناشيد، فقد غنى الشعب أناشيده الوطنية، وهتف أبناء المدارس بها كل صباح في مدارسهم، ورددتها المجموعة في الإذاعات والاحتفالات، كما ساهم الرافعي في الحركة الوطنية المصرية منشدا بكل نبضات قلبه وسبحات روحه وعزيمة إيمانه، اسمعه يقول في نشيده الوطني الأول:

يا حمى النيل الأمين
لك في قلبي حنين
لك إخلاصي المتين
وهوى الأوطان دين

● غنى الشعب أناشيده الوطنية وهتف أبناء المدارس بها كل صباح في مدارسهم، ورددتها المجموعة في الإذاعات والاحتفالات، وأصبح الرافعي صوت الأمة وطنيا وإسلاميا.

ويشاء الله أن يكون الرافعي بنشيده **«إلى العلا»** صوت الأمة سنة ١٩١٩ في نهضتها في الدعوة للحرية والاستقلال فيكتب هذا النشيد الذي تجاوز لجنة الأناشيد التي أرادت مجاملة شوقي أمير الشعراء حين اجتمعت طائفة من رجال مصر آنذاك واختارت نشيد الرافعي، وكتبت عنه صحف العصر تطالب به نشيدا قوميا للأمة، فجاء في **جريدة «الأخبار»** ما نصه **«نقدم إلى الأمة هذا النشيد الفخم الذي وضعه ذلك الشاعر في نبوغه والنابغة في شعره - الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي وهو صورة حية للشعور الوطني الذي ملك الروح بل هو معرفة تلك الروح.. وما أجدره أن يكون ندى على الألسنة في كل هاجرة»** وتم تلحين النشيد وهتفت به مصر كلها:

إلى العلا إلى العلا بني الوطن
إلى العلا كل فتاة وفتى
إلى العلا في كل عصر وزمن
فلن يموت مجدنا كلا ولن

وبعده كتب الرافعي نشيدا أصبح نشيد الفتوة والكشافة والجنود وأصبح نشيد مصر القومي في عصر الزعيم **سعد زغلول** استجابة لدعوة الأدباء والطلبة، وتألفت اللجان في أنحاء البلاد لإذاعته وتبارى الملحنون على تلحينه، وتغنى به الناس في أنحاء مصر من أعماق قلوبهم: **«اسلمي يا مصر»**

اسلمي يا مصر إنني الفدا
ذي يدي إن مدت الدنيا يدا
أبدا لن تستكيني أبدا
إنني أرجو مع اليوم غدا
ومعي قلبي وعزمي للجهاد
ولقلبي أنت بعد الدين دين
لك يا مصر السلامة
وسلاما يا بلادي
إن رمى الدهر سهامه
اتقيها بفؤادي
واسلمي في كل حين

وقد قرظ هذا النشيد وأشاد به كبار رجال العصر في الفكر والأدب والسياسة أمثال **سعد زغلول وأحمد زكي باشا ومحب الدين الخطيب** وغيرهم، وهكذا أصبح هذا النشيد نشيد مصر القومي الرسمي خلال الفترة من سنة ١٩٢٣ إلى سنة ١٩٣٦م.

واستجابة لرغبة شبان الوفد وزعيمه كتب الرافعي نشيدا وطنيا آخر بعنوان: **«حماة الحمى»**:

حماة الحمى، يا حماة الحمى
هلموا، هلموا لمجد الزمن
لقد صرخت في العروق الدّما
نموت، نموت ويحيا الوطن

هذا إلى جانب العديد من الأناشيد التي كتبها لطلاب المدارس مثل نشيد **«بنت النيل»** و**«نشيد الطلبة»** و**«نشيد المدرسة»** مضافا إليها الأناشيد التي كتبها لأطفاله فتبنتها رياض الأطفال والمدارس الابتدائية كما كتب أغانٍ للفلاحين.

والرافعي هو مؤلف النشيد الإسلامي الخالد **«نشيد الشباب المحمدي»** الذي ذاع واشتهر في كل بلاد العالم العربي حتى يومنا هذا:

ربنا إياك ندعو ربنا
آتنا النصر الذي وعدتنا
إننا نبغي رضاك إننا
ما ارتضينا غير ما ترضى لنا
أنفسا طاهرة طهر الحرم
ملأ التاريخ مجدا وكرم
وافيات بالعهود والذمم
راقيات للمعالي والهمم

واختارته «جمعية الشبان المسلمين» في مصر سنة ١٩٢٧شعارا لها.

إمام الأدب وحجة العرب:

ولكن الرافعي لم يستمر في درب الشعر رغم ذلك النجاح المشهود الذي حققه فيه، فقد اكتشف أنه في هذا العصر لن يستطيع تبليغ رسالته في خدمة لغة أمته وقرآنها من خلال الشعر وحده، فقد تأمل الرافعي حال اللغة العربية... لغة القرآن على ألسنة الناس كلاما وكتابة فوجدها عجمة مستعربة أو عربية مستعجمة ووجد أن «الجملة القرآنية» قد غابت من هذه اللغة التي يكتب بها أدباء عصره، فنذر نفسه أن يعيدها، فلابد له إذن أن يطرق باب النثر ليسمو به من الوحل الذي ارتكس فيه، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كان الرافعي يرى أن في النظم العربي قيودا لا تتيح له أن ينظم بالشعر كل ما يريد أن يعبر به من أفكار وآراء يريد أن يفهمها كل الناس، وهو رأي لم يكتبه الرافعي وإنما تحدث به في مجالسه ورواه عنه صفيه وصديقه الأستاذ محمد سعيد العريان في كتابه المعروف عنه.

وهكذا يمم الرافعي وجهه شطر قبلة النثر الفني وإن لم يهجر الشعر، ولكنه لم يعد إلى وسيلته الأولى في التعبير، وتنازل عن حلم حيازة إمارة الشعر أي أنه بدل وسيلته من أجل رسالته.

وبدأ الرافعي ذلك الانقلاب في حياته الأدبية بمحاولة إعادة الاعتبار للغة العربية والجملة القرآنية إلى لغة الإنشاء في المدارس الأولية، فالإصلاح يبدأ من هناك، وكتب عدة مقالات بديعة في الإنشاء على أمل أن يصدرها في كتاب مدرسي يسميه **«ملكة الإنشاء»** يتعلم الطلاب من لغته.



محمد سعيد العريان
تلميذ الرافعي ومؤرخ سيرته

وكان إنشاء الجامعة المصرية آنذاك سنة ١٩٠٧ وخيبة أمل الرافعي فيما تقدم للطلاب من دروس في الأدب واللغة جعلته ينصرف عن متابعة كتاب «ملكة الإنشاء» ويلتفت لما هو أهم، فكتب مقالا يهاجم مناهج التدريس في الجامعة، فاهتزت إدارة الجامعة وحسبت لهجوم الرافعي حسابه وأعلنت عن مسابقة في تأليف كتاب جامعي عن «أدبيات اللغة العربية» وجعلت للفائز ١٠٠ جنيه لمن يكتب ذلك الكتاب في سبعة أشهر! فلم يعجب ذلك الرافعي فكتب يسخر من شروط المسابقة، فعادت اللجان تجتمع وعدلت الجامعة في المسابقة فزادت المدة إلى سنتين والمكافأة إلى مئتين مع طبع الكتاب على نفقتها.



ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين

الفتح

صحيفة إسلامية علمية أخلاقية

تصدر يوم الخميس من كل أسبوع

(المراسلات)

(الاشتراكات)
في المملكة المصرية
في الخارج

(الاعلانات)

(١) القاهرة: الخميس ٩ صفر سنة ١٣٤٧ - ٢٦ يوليو سنة ١٩٢٨

نشيد جمعية الشبان المسلمين

ربنا إياك ندعو!

ربنا إياك ندعو، ربنا آتنا النصر الذي وعدتنا

إننا نبني رجالك، إننا ما ارتضينا غير ما ترضى لنا

واصبحت اناشيد الرافعي
افتتاحيات الصحف والمجلات في عصره

وشمر الرافعي عن ساعديه وقدح زناد فكره في تأليف كتاب، ولكن لا ليقدمه للجنة مسابقة الجامعة التي كان يرى أنها ليست من الكفاءة بحيث تحكم على كتابه، ولم يسل لعابه للمكافأة الكبيرة المرصودة

وهو الموظف الصغير الذي لا يزيد راتبه عن بضعة جنيهات والعائل لأسرة كبيرة.

تضاءلت كل تلك الاعتبارات النفسية والمادية الصغيرة أمام اعتبار الرافعي لنفسه ويقينه بقدر «الرسالة» الجسيمة التي عاهد نفسه على تأديتها نحو أمته.

خرج الرافعي على الناس سنة ١٩١١م بكتابه الفريد **«تاريخ آداب العرب»** الذي بدأه سنة ١٩٠٩ وطبعه على نفقته قبل حلول الأجل الذي حددته الجامعة متجاهلا بذلك الجامعة ومسابقتها ومكافأتها!

ويعلم الله كم كلفه ذلك الكتاب من بؤس وضنك في حياته المعيشية، ولكنها نفس الرافعي الأبية الرفيعة.

ويروي شاهد عصره ومؤرخ سيرته الأستاذ محمد سعيد العريان أن هذا الكتاب قد أحدث انقلابا وأثرا ليس في مناهج الجامعة وطرق تدريسها للغة والأدب فحسب بل في كل ما صدر من كتب بعد ذلك في هذا العلم، وأصبح اسم الرافعي على كل لسان، وكتابه موضوع نقاش وإعجاب في كل مجلس ومنتدى.

وفي سنة ١٩١٢ أصدر الرافعي الجزء الثاني من **«تاريخ آداب العرب»** بعنوان **«إعجاز القرآن»** وصدر الجزء الثالث الذي ختم به حياته بعد وفاته بثلاث سنوات، فقلد الرافعي صدر العربية بثلاث درر لم تعرف العربية الحديثة إلى اليوم لها من مثيل، وبلغ به الرافعي أوج مجده، وقمة من قمم إخلاصه لدينه وحبه للغته، ونال هذا الكتاب وعنوانه الكامل **«إعجاز القرآن والبلاغة النبوية»** أضعاف ما ناله الجزء الأول من ثناء المعجبين وزاد من جحود المنكرين والكارهين للإسلام واللغة العربية، فكتب **الزعيم سعد زغلول** إلى الرافعي مشيدا يقول: **«..ولكن قوما أنكروا هذه البداهة (بداهة إعجاز القرآن) وحاولوا سترها فجاء كتابكم مكذبا لإنكارهم وأيد بلاغة القرآن وإعجازها بأدلة: مشتقة من أسرارها، في بيان مستمد من روحها، كأنه تنزيل من التنزيل، أو قبس من نور الذكر الحكيم».**

إحدى رسائل الرافعي بقلمه إلى صديقه أبو رية

حرب على الانحراف والتطاول

أما معركة الرافعي مع **طه حسين** فقد كانت أكثر ضراوة من معركته مع العقاد، ذلك لأن طه حسين في نظر الرافعي جهر بتنكره ورفضه لبعض ما جاء به القرآن جهارا نهارا فيما ألقاه في الجامعة من محاضرات.

ويعود تاريخ الخصومة بين الرافعي وطه حسين إلى مرحلة مبكرة من حياة الاثنين كان دافعها التنافس على نيل المكانة

- **تجاهل الرافعي مسابقة الجامعة المصرية، وتجاهل مكافأتها المغرية، وأخرج كتابه الفريد (تاريخ آداب العرب) على نفقته الخاصة، فأحدث انقلابا في مناهج الجامعة وطرق تدريسها واقتحم كتابه أسوار الجامعة بقوة وجدارة وأصبح اسم الرافعي على كل لسان.**

الأدبية الكبيرة لدى الجمهور، وكان طه حسين آنذاك لا يزال طالبا في الجامعة، بينما كان نجم الرافعي قد تألق في سماء الشعر وعالم البيان العربي، فقد تعقب الطالب طه حسين كتب الرافعي واحدا بعد الآخر بالهجوم مدعيا بأنه «لم يفهمها» ابتداء من كتاب **«رسائل الأحزان»** الذي صدر سنة ١٩١٢، وكان ذلك في أغلب الظن غيرة منه فدارت بينه وبين الرافعي مناوشات على صفحات جريدة **«السياسة الأسبوعية»** الشهيرة في حينها.

لكن المعركة الحقيقية التي كانت خالصة لله وللدين وللقرآن لم تحدث إلا بعد أن عاد طه حسين من فرنسا دكتورا وأصبح أستاذا للأدب الجاهلي في كلية الآداب بالجامعة وأخرج للناس سنة ١٩٢٦محاضراته في كتاب يحمل عنوان **«في الشعر الجاهلي»** والذي كان أخطر ما فيه إنكار طه حسين لقصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في قوله: **«للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي..»**.

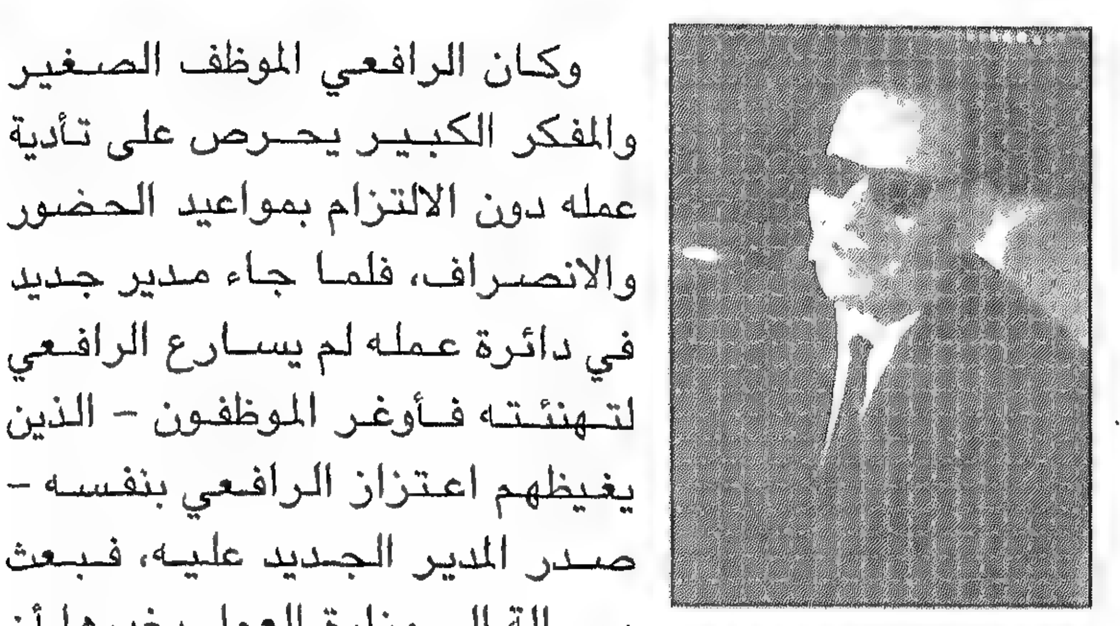
وهنا غضب الرافعي من هذه «الوقاحة» كما سماها، ومن هذا التطاول على كتاب الله، ووقف الرافعي ولم يقعد حتى استنهض الهمم، واستنفر الأمة كلها للدفاع عن قرآنها، وتحولت المعركة بينه وبين طه حسين من معركة بين القديم والجديد أو على الأصح بين الأصيل والدخيل في الأدب إلى معركة للدفاع عن عقيدة الأمة وحمايتها ممن يشكك فيها.

وتجاوزت حدود الصحف إلى قاعة البرلمان وساحة القضاء، صرخ الرافعي مستنكرا: كيف يرخص طه حسين لنفسه أن يتجرد عن دينه ليحقق مسألة من مسائل العلم أو يناقش رأيا في الأدب أو التاريخ إذ لم يسبق أحد من رجال الأدب في جعل حقيقة من حقائق القرآن موضع التكذيب أو الشك؟!

ولم يقعد الرافعي من وقفته تلك إلا بعد أن تنادت الأمة كلها من الأزهر والعلماء والهيئات والنقابات والجامعة ورجال الشارع في الدعوة إلى محاكمة طه حسين وطرده من الجامعة، وزلزلت الأرض من تحت أقدام أنصاره في الحكومة فوصل إلى النيابة وكتب بيانا أذيع على الناس يعلن فيه احترامه للإسلام وإيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

وصودر الكتاب وأعدمت نسخه وأصدره طه حسين فيما بعد بعنوان **«في الأدب الجاهلي»** بعد أن حذف كل ما فيه من طعن في القرآن والإسلام، ثم جمع الرافعي مقالات هذه المعركة وأصدرها في كتاب بعنوان **«تحت راية القرآن»** سيجد فيه القارئ تفنيد الرافعي لآراء طه حسين رأيا رأيا فيما لا يتفق مع العقيدة الإسلامية ونسخها بالحجة والبرهان وإثبات تأثر طه حسين بآراء المستشرقين التي افتتن بها وحاول أن يفتن بها طلاب الجامعة.

وقد مات الرافعي رحمه الله قرير العين مطمئن البال لمستقبل الإسلام في قلوب الشباب حين طالب طلاب الجامعة - قبل وفاته بقليل - بمكان يخصص للصلاة ويفصل الفتيان عن الفتيات فحياهم بمقالة كتبها في مجلة الرسالة ولم ينس - عفا الله عنه - أن يغمز فيها طه حسين!


طه حسين

خصاله وسجاياه

كان الرافعي -رحمه الله - في خُلقه وسلوكه مع الناس مثال المسلم الحق في اعترافه بالفضل لأهل الفضل ومد يد العون للمحتاجين، وفي الوفاء وحفظ العهود والذمم، وفي سيرة حياته العديد من الشواهد التي يرويها معاصروه التي تدل على نبل خلقه، ومنه مثلا ما يدل على مبلغ وفائه لأساتذته، فقد كان الرافعي في مجلس فدخل أستاذ له علمه في الابتدائية، فما أن رآه الرافعي حتى طأطأ وانحنى يريد تقبيل يده، ولما خرج الأستاذ مال الرافعي ليهمس في أذن صديقه العريان: «هذا أستاذي» وكان في صوته رنة هي أقرب إلى صوت الطفل لأبيه حين يمر بهما معلمه، وقد ظل الرافعي يذكر أستاذه طوال اليوم!

وقد أثنى كل من عرفه وزامله في العمل على خلقه وسعة صدره، فقد كان يتطوع ليحمل عن زملائه تبعة كل خطأ يقعون فيه ويتقبل نتيجته، وقد تولى عن زملائه مرة مواجهة مفتش من وزارة العدل جاء ليحقق في خطأ تقدير الرسوم لأكثر من مئة وعشرين قضية لم يكن للرافعي فيها خطأ واحد!

وكان الرافعي - رحمه الله - شديد الاعتداد بنفسه عارفا حق المعرفة بمكانته، حريصا أشد الحرص على كرامته من أن يمسها أي إنسان مهما ارتفع مقامه، وكان يكره الوقوف على الأبواب والتزلف إلى الرؤساء ونشر كلمات النفاق بين أيديهم.

وكان الرافعي الموظف الصغير والمفكر الكبير يحرص على تأدية عمله دون الالتزام بمواعيد الحضور والانصراف، فلما جاء مدير جديد في دائرة عمله لم يسارع الرافعي لتهنئته فأوغر الموظفون - الذين يغيظهم اعتزاز الرافعي بنفسه - صدر المدير الجديد عليه، فبعث برسالة إلى وزارة العمل يخبرها أن في محكمة طنطا كاتبا أصمّ لا يصلح للتفاهم مع الجمهور، ومع ذلك فهو كثير التهاون في مواعيد العمل، ويطلب فصل الرافعي من وظيفته بالمحكمة!

وكان من حسن حظ الرافعي أن المفتش الذي أرسلته الوزارة كان الشاعر حفني ناصف - يرحمه الله - قال له الرافعي: إن كانت وظيفتي هنا فليؤاخذوني بالتقصير والخطأ فيما يسند إلي من عمل، وإن كانت الوظيفة تعال من الساعة الثامنة واجلس على الكرسي كأنك مشدود إليه بحبل حتى يحين موعد الانصراف فلا علي إن تمردت على هذا التعبد.. قل لهم في الوزارة: إنكم لا تملكون من الرافعي إلا هاتين الإصبعين ساعات من النهار! فكتب حفني ناصف - وهو الذي يعرف عبقرية الرافعي - إلى الوزارة يقول: **«إن الرافعي ليس من الموظفين الذين تعنيهم الوزارة بهذه القيود.. إن للرافعي حقا على الأمة أن يعيش في أمن ودعة وحرية، إن فيه قناعة ورضى، وما كان هذا مكانه ولا موضعه لو لم يسكن إليه، دعوه يعيش كما يشتهي أن يعيش، ودعوه يعمل ويفتن ويبدع لهذه الأمة في أدبها ما شاء أن يبدع، وإلا فاكفلوا له العيش المرضي في غير هذا المكان».**

وعملت الوزارة بنصيحة مفتشها الأديب الكبير حفني ناصف، وتركت للرافعي حرية الغدو والرواح من الوظيفة ولا سلطان عليه إلا

سلطان نفسه ولا رقيب عليه إلا ضميره الذي يراقب الله سبحانه! ، فكانت نفسه أزكى النفوس وكان ضميره أكثر ضمائر الموظفين أمانة ويقظة وحرصا.

هكذا عاش الرافعي عزيزا منيعا مرفوع الرأس موفور الكرامة، يهابه الكبراء ويحسب له أصحاب الجاه والنفوذ ألف حساب، ويخشى أصحاب الزيغ والفتن صليل قلمه وغضبه الذي لا يخشى في الله لومة لائم، أما الفقراء والمساكين فقد كان يشعر بالتوحد معهم والشعور بآلامهم ومعاناتهم، وقد كتب فيهم كتابا بعنوان «المساكين» سنة ١٩١٧م، وقال في مقدمته **«أردت به بيان شيء من حكمة الله في شيء من أغلاط الناس»** واحتشد وجدانيا وعاطفيا وبيانيا في الحديث عن معاني الفقر والإحسان والتعاطف.

لقد كانت موضوعات الكتاب من قلب الواقع تشعرك أن الرافعي لم يتخذ لنفسه برجا عاجيا يعيش فيه بمعزل عن معاناة الناس، ولم ينظر للحياة من حوله نظرة فلسفية مجردة، وإنما غرق في معايشة الواقع والإحساس بطريقته الخاصة به، فكان يشعر بعضة الجوع في أمعاء الفقير وحرارة دمعة اليتيم على خده وغليان قلب المظلوم والمقهور.

> ● انتصر الرافعي في الجامعة على طه حسين ووقفت الأمة كلها معه غيرة على دينها، وحيا الرافعي طلاب الجامعة لمطالبتهم بتخصيص مكان للصلاة للطلاب والطالبات، واعتبر ذلك استكمالا لانتصاره على طه حسين لله وللدين.

الرافعي المؤمن القوي:

وبقدر ما حرص الرافعي على السمو بروحه وتغذية عقله وتعميق إيمانه بالفكر والتأمل والقراءة والعبادة، حرص كل الحرص على تقوية جسده بالرياضة البدنية منذ باكر شبابه، وكانت رياضة المشي أحب رياضة إليه، ويروي العريان أنه شاهد الرافعي ينهي مشيه الذي يبدؤه بعد الفجر بمسح وجهه بقطرات الندى التي تتساقط على أوراق البرسيم، فلما سأله قال الرافعي: **«إنه ينضد الوجه ويرد الشباب!»** ويحدثنا أن الرافعي مارس أنواعا أخرى من الرياضة كالملاكمة وحمل الأثقال، وأنه كان يحتفظ في الغرفة التي كان فيها مكتبه «بعقلة» تتدلى من السقف، وكرات وأساطين من الحديد وأثقالا من أثقال الرياضة مسندة إلى الحائط، وكان يملك عمودا طويلا من الحديد، يعلق من طرفيه ولديه الصغيرين «سامي» و«محمد» ثم يرفعهما بيده! ومن شدة عشقه للرياضة سعى الرافعي لمعرفة أبطالها المشهورين ورفع في مكتبه صورة الرياضي الفرنسي المشهور صاندو إلى جوار صورة الإمام محمد عبده! لتمثلا أكمل ما يحتاج إليه الإنسان من قوة الجسد وقوة الروح، وكان يردد قول الرسولﷺ: **«إن الله يحب المؤمن القوي»** وعملا بدعوة سيد الخلق ص تعلم الرافعي السباحة وكان يرتاد شاطيء «سيدي بشر» في الصيف مع أسرته ويلوذ بمكان آمن فيه يبعده عن أعين الرقباء، وكان أصحابه يسمون ذلك المكان «بلاج الرافعي» لا يقترب منه إلا من عرفه الرافعي وأذن له وإلا سال من عصا الرافعي الشهيرة دم رأسه!

حلم الرافعي الذي لم يتحقق:

لم يكن الرافعي يقيم وزنا للاعتبارات

الشكلية التي تسود المجتمع، فقد كان يتعامل مع الناس ببساطة وتلقائية ووفق مفاهيم خاصة به، شأنه في ذلك شأن كل عبقري لا يستطيع بداهة الالتزام بكل ما تعارف عليه الناس، فله عالمه الخاص وله سلوكه الخاص الذي قد ينكره عليه الغير، وعلى سبيل المثال فقد أنكر عليه الناس أن يظهر كل يوم في إعلان في إحدى الجرائد اليومية عن الفسفورين وعليه شهادة بخطه عن مزاياه، حتى ظن البعض أن الرافعي قد قبض مبلغا كبيرا لقاء ظهوره في هذا الإعلان كما يفعل الممثلون هذه الأيام، ولكن أهل الرافعي وأصحابه يؤكدون أن الرجل لم يقبض شيئا، وكل ما في الأمر أنه اشترى الفسفورين مرة فأعجب به فطلب منه صاحب الصيدلية أن يكتب رأيه فيه ففعل فاستغله في الإعلان الذي ظهر يحمل صورة الرافعي مذيلا بلقب «إمام الأدب وحجة العرب» الذي أطلقه عليه أمير البيان شكيب أرسلان.

ماذا يقول نابغة الأدب وحجة العرب

في الفوسفورين

الاستاذ الشهير السيد مصطفى صادق الرافعي الذي قال سعد باشا زغلول في وصف بيانه:

«كأنه تنزيل من التنزيل»

الاستاذ مصطفى صادق الرافعي

الفوسفورين مركب علمياً طبياً في لندن ببلاد الانكليز

يباع في جميع الاجزاخانات ومخازن الادوية الشهيرة

لذيوع صيته استغل صاحب صيدلية كلمة كتبها الرافعي للإعلان عن بضاعته

وفاجأ الرافعي الناس مرة أخرى بشيء من هذا القبيل، حين نشرت مجلة المقتطف سنة ١٩٢٨ إعلانا فيه كلمة للرافعي يشيد بفن أحد المهندسين المعماريين، وقصتها أن الرافعي استعان بهذا المهندس في وضع رسم لمنزل كان يحلم ببنائه، فأعجب الرافعي بالرسم فكتب لذلك المهندس رأيه فكانت هذه الشهادة أجرة المهندس على رسمه، فاستغلها المهندس وطبع منها آلاف الصور فكانت خير دعاية له، درت عليه أموالا طائلة.

ومات الرافعي دون أن يتحول ذلك الرسم إلى بناء حقيقي، فقد كانت موارده لا تكاد تكفي قوت عياله، فقد انصرف - رحمه الله - عن تنمية دخله المادي إلى الإضافة إلى فكر الأمة وتنميته وإثرائه بلا حساب، ومات الرافعي الشاعر الأديب الذائع الصيت في طول العالم العربي وعرضه وراتبه لم يزد على بضعة وعشرين جنيها في الدرجة السادسة بعد خدمة ثمان وثلاثين سنة في وظائف الحكومة! ■

أمة وحده

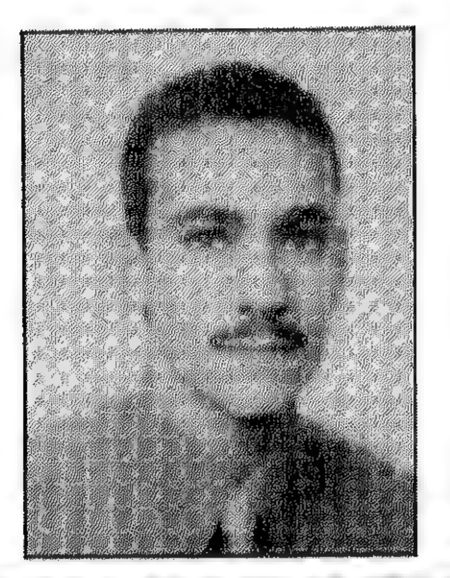


الرافعي أمة وحده، لها وجودها المستقل، وعالمها المتفرد، ومزاجها الخاص، وأكثر الذين كرهوه هم الذين جهلوه .. إنما يحب الرافعي ويبكيه من عرف وحي الله في قرآنه، وفهم إعجاز الفن في بيانه، وأدرك سر العقيدة في إيمانه.

أحمد حسن الزيات



قضية الفقر في أدب الرافعي



بقلم : وليد عبدالماجد كساب*
مصر

تناول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي قضية الفقر في أكثر من كتاب له، فكتب في كتابه الرائع «وحي القلم» عدة مقالات منها: سمو الفقر، حديث قطين، والطفولتان، وأحلام في الشارع، وأحلام في القصر، وقصة زواج وفلسفة المهر، وقد عالج أديبنا تلك القضية بشكل رمزي متميز وهو ما لايتأتى لأحد بسهولة.



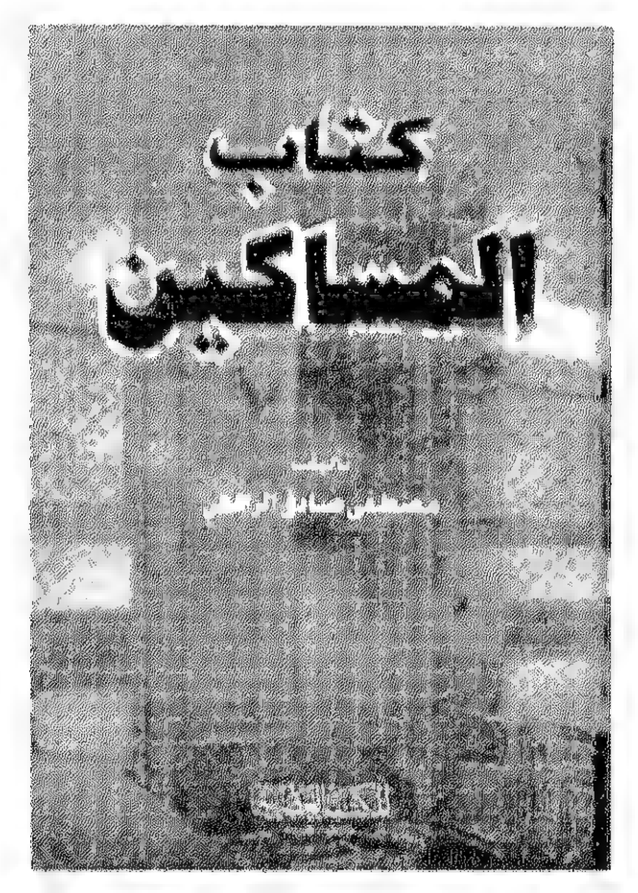
أما كتابه «المساكين» فهو قطعة إنسانية رائعة صاغها لأسباب وضحها في قوله «هذا كتاب حاولت أن أكسو الفقر من صفحاته مرقعة جديدة..فقد والله بليت أثواب هذا الفقر، وإنها لتنسدل على أركانه مزقا متهدلة يمشي بعضها في بعض، وإنه ليلفقها بخيوط من دمع، ويمسكها برقع من الأكباد، ويشد بالقطع المتنافرة من حسرة إلى أمل، وأمل إلى خيبة، وخيبة إلى هم، وأقبح من الفقر أن لا يظهر الفقر كاسيا أو تكون له زينة إلا من أوجاع الإنسانية أو المعاني التي يتمنى الحكماء لو أنها غابت في جماجم الموتى الأولين»(1).

وحسب قوله فقد كتب كتابه «المساكين» وكتب فيه عن الفقر وماهو من باب الفقر، لالمحوه، ولكن للصبر عليه، ولا من أجل البحث فيه ولكن للعزاء عنه، ثم كتب عن الغنى وما إليه، لارغبة في إفساده على أهله، ولكن لإصلاح مايفهم منه غير

* باحث برابطة الجامعات الإسلامية - القاهرة.

أهله[٢]. إذن فالرافعي لم يتناول قضية الفقر ليفسد على الأغنياء حياتهم، فالغنى أمر مباح مشروع طالما أعطى الغني الفقراء من مال الله الذي آتاه.

وقد أدار الرافعي كلامه في هذا الكتاب على الوجه الذي يراه الشاعر في ضحك الطبيعة ورقتها دون الوجه الذي يعرفه الفيلسوف في عبوس المادة وجفائها، لأنه كما يقول: «يريد به النفس في مستقرها، وجاء به من مبرق الصبح لا من غياهب الليل، وأطلعه من أفق الإيمان لا من قرارة الشك، كما أراد به تفسير شيء من حكمة الله في شيء من أغلاط الناس»[٣].



لقد أخرج الرافعي كتابه هذا سنة١٩١٧م، وهو الكتاب الرابع مما ألف في المنثورة، وثاني ما ألف في أدب الإنشاء، يقول الأستاذ محمد سعيد العريان في تقديمه لهذا الكتاب «كان الرافعي يقرأ فيما يرد إليه من بريد قرائه كثيراً من المآسي الفاجعة يسأله أصحابها الرأي أو المعونة، فما يقرؤها إذ يقرؤها كلاما مكتوبا، ولكنها تحت عينيه حادثة يشهدها ويرى ضحاياها، فما تبرح ذاكرته من بعد إلا مع الزمن الطويل»[٤].

ولقد حاز هذا الكتاب إعجاب القراء والمثقفين لما يتمتع به من أسلوب أخاذ بديع فضلا عما يحتويه من مواقف إنسانية رائعة تثير مكنونات النفس وتحرك سواكنها، حتى إن أحمد زكي باشا ليقول مخاطبا الرافعي«لقد جعلت لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير، وهيجو كما للفرنسيين هيجو، وجوته كما للألمان جوته».

مفهوم الفقر عند الرافعي:

يرى الرافعي أن الفقر والغنى قضيتان أزليتان منذ خلق الإنسان الأول، فقد كان الفقر عُريانا يوم كان آدم في الأرض وليس عليه إلا ما خصف من ورق الجنة، وعاش دهرا تحت السماء يلبس من ضياء كل كوكب، ويمرح في ثياب بيضاء من أشعة القمرين، إذ لم يكن يعرفه أحد بعد ولا استطار به سماع السوء في الأحياء؛ بل كان عنصرا مجهولا في غيث الطبيعة، ولم يكن لهذا الإنسان يومئذ من المعاني الفقرية غير شعور طبيعي لازيغ في تأويله عن الطبيعة، وهو شعور المعدة القوية المعصوبة التي لا تتحمل الشعر والخيال وفنون الكذب العقلي، ولا تشعر إلا لتطلب، ولا تطلب إلا ما تجد، ومتى وجدت وانطفأ نهمها فليس إلا قوة الجسم وانبساط النفس وحمدا لله من كل ضرب من ضروب الجمال في الخليقة.

ويقول الرافعي:« إنه حين فتحت الصفحة الأولى من تاريخه الدموي الأساسي كان الحقد أول سطورها، ثم يأتي الفقر من بعده، يظهر ذلك في عداوة بني آدم ﴿ **إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم تقبل من الآخر** ﴾[٥]،فما الحقد إلا فقر من المحبة، ولا الحسد إلا فقر من الثقة، ولا الطمع إلا فقر من العقل[٦].

وفي ضوء ذلك فإن الفقر عند الرافعي فقران..

١- فقر مادي.

٢- فقر معنوي.

فالفقر المادي هو عوز الإنسان إلى المال الذي يسد به حاجاته الأساسية من مأكل ومشرب وغير ذلك مما يحتاج إليه الناس في معاشهم.

أما الفقر المعنوي وهو افتقار النفس إلى خلق من الأخلاق الكريمة كالرضا والزهد وغيرهما، فيرى الرافعي أنه أقدم من الفقر المادي، يقول: «ولقد كان الفقر قبل أن يكون المال، ثم وجد المال، فيما صنع أن يلقى أهله الأغنياء من هموم الدنيا وبأساء الحياة ما

لو استطاعوا لافتدوا من عذابه كل مافي أيديهم ولو أن لهم طلاع الأرض ذهبا»[7].

أما الفقير فيما وصف الرافعي فهو شخص في الناس«ضائع حتى لايعرف له محلا، ومنفرد حتى لايجد بينهم لشخصه ظلا، وإذا هو بالسماء وقد التهت بأقدارها حتى كأنها في عينه جمرة من البرق الخاطف، وإذا الأرض قد ثارت بأهلها كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، فإن أقبل على الناس فروا من أماكنهم كأنه زلزلة تمشي، وإن استصرخهم نفروا كأنه في صوته فزع الرعد القاصف»[8].

الفقر عند الرافعي بين الجبر والاختيار:

يفرق الرافعي بين نوعين من الفقر، فيرى أن هناك فقرا إجباريا، لا يمكن لصاحبه أن يتخلص منه إلا بإذن الله عز وجل ومشيئته، وقد لا يجدي معه الأخذ بأسباب الغنى فكم من رجل « حط الله أوزاره وكتب عليه أن يكون فقيرا من المال وحب المال وذل المال، فخرج وليس في أفئدة الناس إلا الرأفة والحنان، وجاء وليس له من الناس حاسد أو عدو، وخلق ذا حدين نفسه الماضية لا يكتفه ذل أو هم إلا قطعها، وانطلق كالفرس العتيق ... ماذا يبغض الناس منه، وماذا يعادون؟! هو في ذلك البحر زورق قد سقط مجدافه، فليس له ما يضرب وما يسخر به، وإنما تدافعه رحمة الله حيث اندفع، والبحر لا يعادي الزورق الذي يجري فوقه، ولكن يعادي المجداف الذي يديره هنا وههنا .. رجل كأنه قطعة من الأبد، لا أمس له يتعقبه ولا غد له يترقبه، بل الحياة عنده يقظة طويلة والموت نوم أطول» [9].

والفقير في هذا عند الرافعي هو ذلك « الكائن الضعيف الذي أحاط به الجهل حتى إنه ليجهل نفسه، وأينما يول وجهه أشاح عنه الناس بوجوههم فلووا رؤوسهم، وصعروا خدودهم وأمالوا أعناقهم .. وهو من تنكرت له الدنيا حتى أصبح فيها كأنه نوع شاذ من الخلق يقوى على كل شيء حتى الطبيعة، ولكنه يضعف عن شيء واحد وهو الغنى، فقضت عليه شرائع الاجتماع أن ينفق من حياته أضعاف ما يكسب لحياته ..»[10] .

أما الفقر الاختياري فهو الذي قعد صاحبه عن الأخذ بأسباب الرزق، فتواكل على الآخرين، واعتمد على عطاياهم في التقوت والحصول على حاجاته الأساسية من مسكن وملبس وغير ذلك، وليس هذا بالفقر الذي يتعاطف معه الرافعي في كتبه وإنما تتجه كتاباته إلى الذين قعدت بهم حاجاتهم، فهم أولى بالرعاية من هؤلاء المتواكلين .

رمزية الرافعي في التعبير عن الفقر:

يتميز أدب الرافعي برمزيته التي تضفي على أسلوبه طلاوة ليس لها مثيل، فتارة يمثل لكل من الفقر والغنى بقطين أحدهما يرفل في النعيم والآخر يعيش في فقر مدقع، ويدور الحديث بين القطين في صورة ممتعة متندرة .

ويصف الرافعي القط السمين - الذي هو رمز الغنى - وصفا بديعا لا يقدر عليه إلا مقتدر، يقول : «خرج يتخلع تخلع الأسد في مشيته، وقد ملأ جلدته من كل أقطارها ونواحيها، وبسطته النعمة من أطرافه، وانقلبت في لحمه غلظا، وفي عصبه شدة، وفي شعره بريقا، وهو يموج في بدنه من قوة وعافية، ويكاد إهابه ينشق سمنا».

وعلى الجانب الآخر يصف القط الهزيل الذي هو رمز الفاقة وقد رآه : « نحيفا متقبضا، طاوي البطن، بارز الأضلاع، كأنما همت عظامه أن تترك مسكنها من جلده لتجد لها مأوى آخر .. متيبسا كالميت في قبره غير أنه لم يمت .. أعطي الحياة غير أنه لم يحي..»».

ويدور الحوار بين القطين - أو الرمزين - جذابا مؤثرا في النفس ومثيرا لشجونها وأحزانها يقول السمين للهزيل : « أو ليس الهر منا صورة مختزلة من الأسد، فمالك - ويحك - رجعت صورة مختزلة من الهر، أفلا يسقونك اللبن، ويطعمونك الشحمة، واللحمة، ويأتونك بالسمك، ويقطعون لك من الجبن أبيض وأصفر، ويفتون لك الخبز في المرق، ويؤثرك

الطفل ببعض طعامه، وتدلك الفتاة على صدرها، وتمسحك المرأة بيديها .. وما لجلدك هذا مغبرا كأنك لا تلطعه بلعابك ولا تتعهده بتنظيف؟!» .

ويرد القط الهزيل عليه ردا يفيض بالحكمة والذكاء، إذ ينتقد تلك المعيشة المترفة التي يعيشها، لأن النعمة لا تأتيه وحدها وإنما تأتيه البلادة أيضا، وإن صلحت له الحياة فقد فسدت الغريزة، وإن ربح الشبع فقد افتقد اللذة التي يشعر بها من يتعب في تحصيلها.

ويستمر القط الهزيل «الحكيم» في شرح فلسفة الفقر والغنى بشكل فريد، حتى إن القط السمين (الأبله) يقول له : « تالله لقد أكسبك الفقر حكمة وحياة، وأراني بإزائك معدوما بزوال أسلافي منك وأراك بإزائي موجودا بوجود أسلافك منك ..»[١١] .

ثم نراه تارة أخرى ينام نومته الشعرية بعد أن رأى طفلين (أحمد وأمينة) يرقدان على عتبة أحد البنوك،ولنا هنا وقفة لا بد منها، فقد اختار أديبنا البنك ليرمز به إلى الغنى الفاحش والطغيان، كما يرمز به إلى الفروق الطبقية التي يعاني منها الناس في حياتهم، يقول : « وظهر لي بناء شيطان في ظلمة الليل من مرأى الغلامين – أسود كالحا، كأنه سجن أقفل على شيطان يمسكه إلى الصبح، ثم يفتح له لينطلق معمرا، أي مخربا، أو هو جسم جبار كفر بالله وبالإنسانية، ولم يؤمن إلا بنفسه وحظوظ نفسه، فمسخه الله بناء، وأحاطه من هذا الظلام الأسود بمعاني آثامه وكفره»[١٢].

ويمثل الرافعي للفقر والغنى بمعانيهما المتعددة بطفولتين متباينتين، فطفولة مترفة منعمة تتمثل في شخصية (عصمت) ابن الباشا الذي وصفه بأنه يكاد ينعصر لينا .. ويرف رفيفا في ظلال العز كأن لروحه من الرقة مثل ظل الشجرة حولها، وطفولة أخرى بائسة تظهر في شخصية (جعلص) – وانظر إلى الظلال التي يلقيها هذا الاسم على نفس القارئ– وكعادته يدير أديبنا حوارا طريفا بين الطفلين اللذين يمثلان اتجاهين متغايرين في الحياة البشرية .

ثم هو يتحدث عن شخصية حلمت أنها عاشت حال الفقر كما عاشت حال الغنى فليست الدنيا تدوم على حال، « فقد كان فلان ابن الأمير فلان يتنبل في نفسه بأنه مشتق ممن يضع القوانين لا ممن يخضع له، فكان تياها صلفا يشمخ على قومه بأنه أمير ابن أمير، ثم هو وقد مالت عليه الدنيا ففقد كل أمواله وأهين إهانة بالغة، وابتلي بالجنون، فساح في الأرض لا يستبين نهارها من ليلها، ثم رأى أنه أفاق من الإغماء فإذا هو قد استيقظ من نومه على فراشه الوثير»[١٣] .

ونراه يستلهم في كتابه « المساكين» معاني الفقر المختلفة من الشيخ علي الذي التقى به حين كان في زيارة أصهاره في بلدة «منية جناح» بدسوق، والشيخ علي كما وصفه الرافعي « رجل سدت في وجهه منافذ الجهات الأربع كلها إلا جهة السماء، فكأنه في الأرض بطل خيالي يرينا من نفسه إحدى خرافات الحياة،ولكنه مع ذلك يخرج للدنيا تلك الحقيقة الإلهية التي لا تغذوها مادة الأرض ولا مادة الجسم، فهي تزدري كل ما على الأرض من متاع وزينة وزخرف، وكل ما وردت عليه الغبطة من بسطة في الجسم أو سعة في المال أو فضل في المنزلة، وكل ما أنت من إقباله على طمع ومن فوته على خوف .. فهو من أجهل الناس في الدنيا بالدنيا ... وأنت إذا سطعت له بالجوهرة الكريمة النادرة فلا يعدو أن يراها حصاة جميلة تتألق[١٤].

وعلى النحو الذي رأينا فقد أجاد الرافعي في تعبيره الرمزي عن الفقر بأساليب مختلفة، فنراه يرمز



إليه بطفلين تارة، وبقطين تارة أخرى، ويجعلهما مدار كلامه فيسبح بالنفس في أرجاء الكون الفسيح يستلهم من الفقر معانيه المختلفة، ويبحث في مظاهره التي تلقي بظلالها على النفس والمجتمع.

سمو الفقر :

ويتحدث الرافعي عن الفقر السامي الذي يعتلي فوق المادة، فلا يعبأ بالحياة ولا يكترث بها، وإن هذا السمو ليبدو واضحا جليا في أخلاق النبي ﷺ . فبالرغم من الفقر والفاقة التي عاشها إلا أنه كان بطبيعته فوق الاستغناء، فهو فقير لا يجوز أن يوصف بالفقر، ولا تناله المعاني النفسية التي تعلو بعرض من الدنيا وتنزل بعرض، فما كانت به خلة تحدث هدما في الحياة فيرممها المال، ولا كان يتحرك في سعي ينفق فيه من نفسه الكبيرة ليجمع من الدنيا .. ولا استقر في قلبه العظيم ما يجعل للدينار معنى الدينار ولا للدرهم معنى الدرهم، فإن المعنى الحي لهذا المال هو إظهار النفس رابية متجسمة في صورة تكبر على قدر من السعة والغنى، والمعنى الحي للفقر من المال هو إبراز النفس ضئيلة منزوية في صورة تصغر على قدر من الضيق والعسرة.

وعلى عكس ما يرى أكثر الكتاب من زهد النبيﷺ فإن أديبنا الرافعي يرفض ذلك، حيث يرى أن فقره من نوع آخر، يقول : « ولا يسمى فقره ﷺ زهدا كما يظن الضعفاء ممن يتعلقون على ظاهر التاريخ، ولا يحققون أصوله النفسية . وأكثرهم يقرأ التاريخ النبوي بأرواح مظلمة تريهم ما ترى العين إذا ما اختلط الظلام ولبس الأشياء، فتراءت مجملة لا تفصيل لها، مفرغة لا تبين فيها، وما بها من ذلك شيء غير أنها تتراءى في لقية من البصر لا تغمر حقا ... وهل الزهد إلا أن تطرد الجسم عنك وهو معك، وتنتز عنه وهو بك متعلق ؟ فتلك سخرية ومثلة، وفي رأيي تشويه للجسم بروحه . وقد تنعكس فتكون من تشويه الروح بجسمها، فليس يعلم إلا الله وحده : أنذاك تفسيره الإنسانية الزاهد بالنور، أم هو تفسير بالتراب .. ولقد كان ﷺ يملك المال ويجده، وكان أجود به من الريح المرسلة، ولكنه لا يدعه يتناسل عنده [١٥] . ■

الهوامش:

(١) مصطفى صادق الرافعي ، المساكين ، ص١٩ ، مكتبة الإيمان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ -١٩٩٧م ، تحقيق عبدالله المنشاوي .
(٢) نفس المرجع ، ص٢٨ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٨ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٥ .
(٥) المائدة ، الآية ٢٧ .
(٦) المساكين ، ص٢١ .
(٧) المساكين ، ص٢١ .
(٨) نفس المرجع، ص٥٣ .
(٩) المساكين ، ص٣٨ .
(١٠) المساكين ، ص ٥١ .
(١١) مصطفى صادق الرافعي ، وحي القلم ، ٤٢/١ ، ط الهيئة العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٣م .
(١٢) نفس المرجع ، ٦٧/١ .
(١٣) وحي القلم ، ٧٦/١ .
(١٤) المساكين ، ص٣٤ .
(١٥) وحي القلم ، ٤٣/٢ .

ومن عجب يكون المال تاجا ... وحب المال أشبه بالقيود
فيا أسفا على الفقراء أمسوا ... كمثل العود جفف للوقود
دموعهم دنانير ولكن ... تعامى الناس عن هذي النقود
أليس من التغابن وهو ظلم؟ ... جزاء السعي يعطى للعقود

مصطفى صادق الرافعي

قراءة في كتاب حديث القمر للرافعي

على الرغم من الدراسات المتعددة المستفيضة لمؤلفات الرافعي تظل كتبه الوجدانية الأربعة: حديث القمر، رسائل الأحزان، السحاب الأحمر، أوراق الورد، بحاجة الى دراسات وعناية خاصة، ولا سيما كتابه «حديث القمر».

وتؤلف الكتب الأربعة المذكورة وحدة متوالية فيما بينها، قد تختلف شكلا في التعبير، لكنها تدور أصلا حول محور واحد في التفكير، هو المرأة. وهكذا يمثل كتاب «حديث القمر» البداية أو الفاتحة، على حين يمثل كتاب «أوراق الورد» النهاية أو الخاتمة، كما تمثل الأزهار والأوراق والأغصان نسبة وعلاقة بجذرها. وقد حدد الرافعي الأغراض التي وضع من أجلها كتاب «أوراق الورد» وهي تشمل الكتب الأربعة بقوله لمحب الدين الخطيب:

١ - سدّ المكان الخالي في الأدب العربي.

٢ - وضع عمل يحسم النزاع في الخلاف بين القديم والجديد.

٣ - إسقاط زعم المستشرقين وغيرهم ممن ينتقدون العربية بأنها قاصرة في الوصف والتحليل، تحليل العاطفة.

٤ - وضع قطعة فنية بليغة في البيان العربي تحفظ على نشء هذه الأيام ذوق البلاغة، فإن كتابة الجرائد أفسدت الأذواق.

٥ - تطهير فكرة الحب، والسموّ بها في نفوس الشباب، فإن الحب طور من أطوار النفس لا بدّ منه [١].

غرض الكتاب :

عقد الرافعي فصلاً في بداية الكتاب، عنوانه «غرض الكتاب» صرح فيه، ببعض ما ذكره عن كتاب أوراق الورد، فالغرض التعليمي، عبر عنه بقوله : «وأنا أرجو أن أكون قد وضعت لطلبة الإنشاء المتطلعين لهذا الأسلوب أمثلة من علم التصور الكتابي الذي توضع أمثلته، ولا توضع قواعده» [٢]، أما دورانه حول المرأة، ولا سيما الحب، فكل حرف من حروفه تنطق بهذه المسألة من مثل قوله : «نشرت على خيوط القمر ليلاً من ليالي الجمال دونه شباب الشاعر الغزل، يمتد من ألحاظ فاتنته الحسناء كلما استطار في آفاقه ابتسامُها»[٣]، أما التجديد وما عبر عنه من «سدّ الفراغ» و «تطهير فكرة الحب» فغرضان من أغراض هذا البحث .



بقلم : محمد الحسناوي
سورية

صاحبة القمر :

إذا كانت صاحبة الكتب الثلاثة، أي التي تتصل بها الأسباب هي الأديبة اللبنانية الأصل «ميّ زيادة»، فإن الكتاب الأول الذي سبق الثلاثة، فيتصل سببه بفتاة لبنانية أخرى «فقد كان له في بحمدون من لبنان والمنظر الجميل خيال مليحة ألهمته الأشعار، وساهرته الليالي . وفي ربوة من ربا الجبل الأشمّ عرف (ليلى)، وكانت أديبة شاعرة آذاه فراقها، فسكب على صفحات مجلة الزهور قصيدته (عبرات البين)، وحبها هو الذي أثمر عنده (حديث القمر) ذلك الكتاب الفريد .» [٤] .

طفولة قلب :

لما صدر الكتاب عام ١٩١٢م كان الرافعي في ميعة الصبا والشباب أي في الثانية والثلاثين من عمره، وهو كتابه الأول في الحب، لكن الرافعي لم يتغير مذهبه في الحب حتى كتبه الأخيرة مثل «أوراق الورد» : صدق في العاطفة وسمو في المشاعر والتعبير «كان الرافعي في كتابه أوراق الورد شاعراً خيالياً فيلسوف النزعة، عذريّ الهوى، ينسج في الحب حلّة أثيرية، وإن حبه غريب الوجود، بل نادر ..» [٥] . ولما كان الرافعي متمثلاً للإسلام فالتصور الإسلامي للمرأة، كان مذهبه في الحب ومعلماً من معالم العاطفة في الأدب الإسلامي المعاصر، وصورة معبرة عن التصور الإسلامي للتعبير عن الحب في الأدب الإسلامي أيضاً .

وهذا وجه آخر من وجوه الأهمية في دراسة كتبه الوجدانية الأربعة .

التربية الأدبية :

لا تفوتنا أيضاً نظرته التجديدية للتربية الأدبية، أي من خلال التذوق ومدارسة النماذج البيانية، وليس من خلال «التلقين» أو الطريقة التقليدية لتدريس البلاغة، فيقول : «كل علوم البلاغة إنما تدور على شرح أمثلة بليغة وغير بليغة . فما من كاتب يحاول أن يستفيد تصورَه من هذه العلوم على أن ينزلها في ذلك منزلة الأصول والضوابط إلا انتهى إلى ملكة علمية، تتصل منه بعقل جامد، كأنه غلاف لفظي، نسجته القواعد والأمثال، فإلى أن يعقد الموتُ لسانه لا تكون قيمة عمره قد أربَت في البلاغة على ثمن كتاب من كتب علوم البلاغة ... ولا غرو فإن من ضلال العقل أن يعمل المرء لمقدّمات متسلسلة يُنتج بعضها بعضاً وليس لمجموعها نتيجة» [٦] .

ذلك لأن البلاغة ليست في القواعد، وإنما في المشاعر والأشكال التعبيرية التي استنبطت منها القواعد : «..علم التصور الكتابي الذي توضع أمثلته، ولا توضع قواعده، لأن هذه القواعد في جملتها إلهام ينتهي إلى الإحساس، وإحساس ينتهي إلى الذوق، وذوق يفيض الإحساسَ والإلهام على الكتابة جميعاً، فيترك فيها حياة كحياة

الجمـال، لا تداخلُ الروح حتى تستبدّ بها، ولا تتصل بالقلب حتى تستحوذ عليه، فتكون له كأنها فكره في ذاته» (٧) .

وما لم يصرح به، لكن عبر عنه بلسان الحال، هو اختيار الموضوعات والأغراض الغزلية جسراً لعرض النماذج والأساليب الأدبية البليغة، التي يؤمل منها وبها صقل المواهب الأدبية، لأن ناشئة الأدب عادة ما يكونون في أعمار الشباب، ومشاعرهم نحو الأنثى في غاية من الحساسية والإرهاف للتلقي والعطاء بآن . فهل الحال العاطفية التي كان عليها الكاتب آنذاك وراء هذا التصور، أم التصور الناضج لديه حول الإنسان عامة، وحول مكان المرأة من كيان هذا الإنسان ذكراً كان أم أنثى، أم الأمران معاً، يقول: «كتبتها وأنا آمل أن تكون الطبيعة قد ألقت في معانيها بذوراً من عناصر التحول الأخلاقي تزكو في هذه القلوب الحيوانية التي لو نُقلت إلى جوانح البهائم لعاشت بها ... وهذه النفوس تذل لأحقرِ مَن في الأرض ولا تثور إلا على السماء، وهذه العقول التي تحاول أن تكتب للروح تاريخاً أرضياً يبتدىء وينتهي في التراب فتكون الحقيقة الإلهية التي يدركها الإنسان بسبيل من الوهم الإنساني الذي لا يدرك الحقيقة ...» (٨) .

ويتألف الكتاب من تسعة فصول، بتعبير المؤلف، ومن مقدمة حول «غرض الكتاب» . كل فصل من هذه الفصول يدور حول محور واحد رئيس، تتضام كلها لتنضوي تحت عنوان واحد هو المرأة، أو الجانب العاطفي من العلاقة بين الرجل والمرأة : الحب . وذلك كله من خلال حب الرافعي نفسه وتصوراته الفكرية والفلسفية حول هذا الحب . ويمكن أن نسمي المحاور في كل فصل على التسلسل التالي : «البكاء والدموع في الحب، العواطف، الفقر، الشعر والشعراء، الإيمان والإلحاد، جمال الطبيعة، أهمية الألم، الحب الحقيقي، الصداقة والحب» .

• الحب عند الرافعي في الفكر لا في الحس، وهو مدعاة للسمو لا للتسفل ، وشتان بين حب الرافعي الذي يرفع وبين الحب الذي يضع.

قد يلحظ القارىء العلاقة الواضحة بين معظم المحاور والموضوع الرئيس أو عنوان الكتاب «حديث القمر»، لكنه يستغرب علاقة موضوع مثل «الإيمان والإلحاد» مثلا بهما . إن الجواب في تصور الرافعي للإنسان وعلاقته بالوجود وبخالق هذا الوجود سبحانه وتعالى، فلا انفصام بين مشاعر الإنسان الفطرية، مثل مشاعر الحب عامة والإيمان خاصة . يقول :«كتبتها وأنا أرجو أن تكون الطبيعة قد أوحت إليّ بقطعة من مناجاة الأنبياء التي كانت تستهلّ في سكون الليل فيَعيها كأنه ذاكرة الدهر، وأن تكون بثت في ألفاظي صدى تلك النغمات الأولى التي كان يتغنى بها أطفال الإنسانية فتخرج نغمات من أفواههم ممزوجة بحلاوة الإيمان الفطري» ويضيف: «فالبلغاء هم أرواح الأديان والشرائع والعادات، وهم ألسنة السماء والأرض، وإذا شهد عصر من العصور أمةً ليس فيها بليغ فذلك هو العصر الذي يكون تاريخاً صحيحاً لأضعف طبائع الأمم » (٩) .

فالحديث الرئيس عن البكاء والدموع استتبع بالتداعي النفسي الحديث عن الجمال في الحبيبة وفي العاشق، هذا أولاً.

والحديث ثانياً عن جمال العاشق استدعى استجلاب المثل من المرآة والضبع التي رأت جمالها في المرآة، وهذه على طريقة القرآن الكريم في ضرب الأمثلة واستثمار المثل في توضيح المراد

والمثل له، وقد صُنفت كتب عدة في أمثال القرآن معروفة [١٠] وثالثاً يعكس النص جانباً من قضية المرأة، أي صورتها أو علاقتها بالرجل الذي يحبها مثلا، وهل هو شريف نظيف أم عاشق أخرق كالضبع التي نظرت في المرآة .

ورابعاً يحدد صفات العاشق الأخرق خرق الضبع عقلاً وحساً «الذي يحب حواسه فتجوع روحه وتشبع وتعتل بالتخمة أيضاً ...» .



ولعمري أجاد الرافعي التمثيل والتحليل والتصوير، كما أقنع العقل في الوقت نفسه . وعلى هذا النسق تحدث في الفقرة الأولى من هذه الفقرات عن محاسن الحبيبة الجسدية ولكن بلغة سماوية فقال: «.. ورآها في جملة الجمال تمثال الفن الإلهيّ الخالد الذي يُدرّس بالفكر والتأمل لا بالحس والتلمّس ...فذلك الذي يشعر بحقيقة الحب» .

الحب عند الرافعي في الفكر لا في الحس وإن انطلق منه، وهو مدعاة للسمو لا للتسفل . وشتان شتان بين حب الرافعي الذي يرفع والحبِّ الذي يضع . وفي زعمنا هذا هو الفرق بين تصور الرافعي الإسلامي لقضية المرأة وتصور الجاهليات القديمة والحديثة لها .

فالقمر هو الحبيبة، والحبيبة هي المرأة، والمرأة هي الشرق، والشرق مريض بسبب ظلم المرأة .

الرافعي .. وقصيدة النثر:

لم يكن حديث الرافعي في هذا الكتاب عن البلاغة أولاً وعن الشعر والشعراء ثانياً عبثاً، بل تأصيل في سياقه الذي يكتب فيه عن المرأة والجانب العاطفي من قضيتها، هذا الحديث الذي لا ينفصل عن البلاغة والشعر في يوم من الأيام . ولا يقف الانفعال الشعري عند الكتابة النثرية ذات الأخيلة المحلقة والإيقاعات الموسقة، بل يتضمن الفصل الثامن قصيدة شعرية على أبحر الخليل والقافية الموحدة تعد ثلاثة وأربعين بيتاً، عنوانها «الشرق المريض» . الفصل يحتل سبع عشرة صفحة، ثلثها صفحات القصيدة الشعرية، والبقية النثر الشعري الذي رأينا أمثلة منه .

يقول :

وأراه في كلّ زهرة تفوح
وفي كلّ نجم يلوح،
وفي هذا القمر كأنه طلعة حبيبة الروح [١١] .

هذه القصيدة «الشرق المريض» صورة مكثفة لكتاب «حديث القمر» أو لقضية الكتاب التي هي قضية المرأة، التي هي أيضاً قضية الشرق في الوقت نفسه . ولذلك زعمنا أن قضية المرأة في أدب الرافعي لم تعط حقها، لأنها أكبر من حجاب أو سفور أو تعليم أو اختلاط . وليس الفرق بين هذه القصيدة وبين أي فصل من فصول الكتاب إلا الوزن العروضي، ومتى كان العروض هو الفيصل بين الشعر والنثر إلا عند القواعد البلاغية الآلية الجامدة التي عرّض بها الرافعي في هذا الكتاب نفسه .

الفصل الرابع كله يدور حول الشعر والشعراء، وجوهر الشعر عند الرافعي ليس في العروض والأوزان، بل في الأحاسيس والمعاني والأخيلة والأفكار إذا كانت سامية أو محرضة على السمو فنياً، وإلا كانت زيفاً أو سقط المتاع : «الشاعر الصحيح رجل الكمال السماوي، لأن الشعر إذا لم يكن مع الشرائع كان عليها، وفي

ذلك فساد كبير، والشعراء أنفسهم كالشرائع تكون لمن يشاء أن تكون له، وهم يحكمون النفوس بالحب، والشرائع تحكمها بالرهبة، ولولاهم ما أعطي الناس قوة فهم التعزية فلم يكن لهم أن يطمئنوا لدين من الأديان»، «لا كهذا الشعر البارد الثقيل الذي تفرغه .. أفواه بعض شعرائنا المشهورين ... شعراء !! وشعراء الشرق ! ! نعم ونعيم وعَين : وعند الزنوج جماعة يحسنون الرقص على نقر الطبول هم شعراؤهم، بل شعراء العقول الذاهلة والأحلام الطائشة، بل شعراء الوحشية التي تكتب بأسنانها وأظافرها» [١٢] .

ويبلغ الأمر بالرافعي مستوى منح الشاعر قبسا من النبوة، وهذا المذهب ليس شطحة بيانية عند الرافعي، بل هي جزء من تصوره للشعر والشعراء ودورهم في الحياة . وهذا التصور لشعراء «الرؤيا» كما يسمون في الأدب الغربي ويسمي الشعراء المحدثون أنفسهم بدءاً بأدونيس وانتهاء ببدر شاكر السياب أو العكس، هو نفسه تصور الرافعي الأديب الشاعر، بل مبدع قصيدة النثر التي لم يدّعها بهذا المصطلح لنفسه وادّعاها آخرون .

ومن غير شطح أو مبالغة أزعم أن أدونيس وكثيرين من شعراء ما يسمى بـ قصيدة النثر قد تتلمذوا في مدرسة الرافعي ولا يعترفون بذلك . وبوسعنا أن نجمل الملامح الأدونيسية المتأثرة بملامح الرافعي أولاً بنبوة الشعر أو ما يسمى رؤيا الشعر، مع اختلاف بين نبوة مؤمنة ونبوة وثنية أو ملحدة، وثانياً قصيدة النثر التي كتبت بها كتب الرافعي الوجدانيات الأربعة التي نحن بصددها، وقال فيها مصطفى نعمان البدري: «يكاد المرء يحس بوزن خاص في المقالة البيانية،


بدر شاكر السياب

ولا سيما الرافعية منها، لم يتهيأ له خليل آخر كالفراهيدي يكتشف له عروضه وأوزانه»[١٣]، ثم تجلت بوضوح أكبر في «نشيد اليمامة» الذي أدرجه في «وحي القلم» يقول فيه :

«على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحتضن بيضها
يمامة سعيدة ستكون في التاريخ كهدهد سليمان،
نُسِب الهدهد إلى سليمان وستُنسَبُ اليمامة إلى عمرو .
واهاً لك يا عمرو : ما ضرّ لو عرفتَ اليمامة الأخرى ؟!»[١٤] .

وبالمناسبة نوضح تعارضاً ظنه مصطفى نعمان البدري في موقف الرافعي من الشعر المنثور الذي قال فيه : «إنه تسمية تدل على جهل واضعيها» وبين تجربته نفسه في القصيدة النثرية [١٥]، فنزعم أن الرافعي رفض المصطلح خوفاً من أن يحل الشكل الجديد محل الشكل الشعري الخليلي على أنه الشعر والآخر ليس بشعر، وهذا لم يمنعه من كتابة الشعر المنثور لأنه مجدد يؤمن بالتعدد في الفن، ويرفض التحزب للشكل الواحد .

أما آخر ملمح فني يلحق أدونيس بالرافعي نشير إليه، فهو الشغف بالتلاعب الأسلوبي، أي تقليب المعنى الواحد بتقليب ألفاظه، أو اشتقاق معنى آخر من الألفاظ نفسها بتغيير سياقها أو علاقاتها، من مثل قول الرافعي : «يبكي صابراً ويصبر باكياً»[١٦] وقوله : «الجمال الغض الذي يرخص في شرائه القلب حين ترخص في شراء القلب الحياة» [١٧] وقوله «آه يا قمري الحبيب، بل يا حبيبي القمر» «فلا أنظر إلى خلقة المعاني ولكن أنظر إلى تركيبها الخلقي» [١٨] .

الظاهرة الأسلوبية نفسها تواجهنا في أعمال أدونيس، ففي كتابه «النص القرآني وآفاق

الكتابة»[١٩] نلحظ الأمثلة التالية «أبدية المعنى ومعنى الأبدية»[٢٠] «أصبحت القصيدة أشبه بمسرح كليّ لكلية اللغات والأشياء»[٢١] «الكلمات قربها البعيد جداً، وبعدها القريب جداً»[٢٢] «من يدافع بقوة عن حق الاختلاف، لا بدّ من أن يدافع بقوة أيضاً عن حق الانتماء»[٢٣] «حتى الذكرى السياسية، حتى ذكر المؤسسات»[٢٤] . أما سمتا الغموض والتفلسف في الشعر فأتردد في نسبتهما إلى الرافعي أو إلى معادلة أدونيس الشخصية والاجتماعية .

أدونيس

قضية المرأة أو الشرق المريض :

القمر هو الحبيبة ليلى، وليلى هي المرأة الشرقية، والمرأة الشرقية هي الشرق لأهميتها فيه، والشرق مريض لأن ليلى مريضة أو مظلومة . تلك هي المعادلة التي تجمل الكتاب كله، كما تجمل قصيدة «الشرق المريض» فيه .

هناك خيط فني بين ليلى مجنون بني عامر، وليلى المريضة في العراق لزكي مبارك، وليلى مصطفى صادق الرافعي في الوقت نفسه . فليلى رمز وحقيقة بآن . وبوسعك أن تلحق ليلى مفترضة لقاسم أمين إن شئت أيضا . وأيكم ليست له ليلى !؟

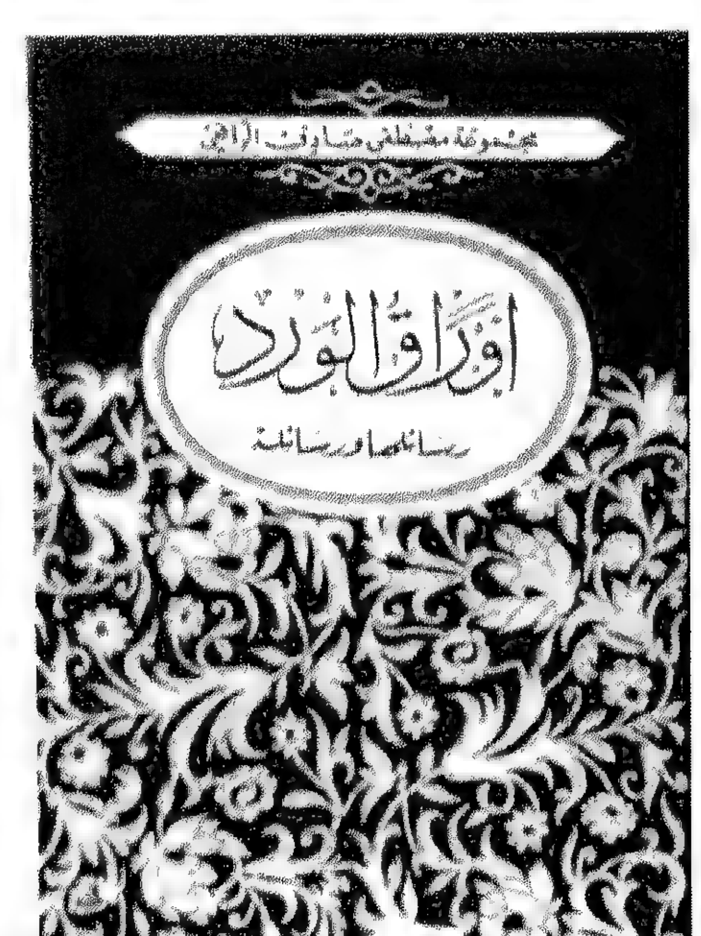
في مطلع القصيدة «الشرق المريض» مقطع من ستة أبيات يضاف إليها ثلاثة أخرى من المقطع الثاني يتحدث الشاعر عن مريض في ليله ونهاره يعاني، وكبده تؤزّه بين الأضلع كالنار، وهو ناعس أو مخدر، يحفر له قبره أمام عينيه، حتى تظن أنه يعني نفسه أو شاعراً مثله، والالتباس مطلوب . ثم يصرح في البيت العاشر حتى آخر القصيدة أنه يعني بالمريض «الشرق» . وبوسعك أن تترجم الشرق إلى «العالم الإسلامي» المزجى بين أعوانه الأشرار اليائسين العاجزين، الذين يبادرون به الموت قبل أوانه، من شدة اليأس والإذعان، اللذين لا ضروة لهما، يتمنون الأماني بلا عمل يقدمونه، إيماناً منهم بمعجزات سخيفة يفترونها على الإيمان الحقيقي .

ثم ينتقل إلى تشخيص المصيبة التي ألمت بهذا الشرق، وهي معضلة نَحْسٍ معقدة ملتوية أشبه ما تكون «بامرأة مصبوغة من جهالات بألوان» . وطريقته في هذا التشبيه إرهاص فني للانتقال إلى المرأة الدواء لهذا المدنف العاني : حيث يأخذ بالحديث عن امرأة ممرضة «حقيقية أو مجازية» تداوي الشرق بإحساس ووجدان، بل بالروح، «لأن أقتل داء الشرق روحاني»، فهي تذكره بعهد الملائكة، وحنان الأنبياء، ونبات الفضائل من القلب، أو الحديث عن«الأمّ» التي هي دواء الشرق من ذله وهوانه، ترفع الدنيا وتخفضها بطفلها الذي يعدل الدنيا بأسرها، تلك المرأة الفاضلة أشبه بالسماء التي ترسل الملائكة لا الشياطين، وليس كالمرأة المطروحة في بيت للعميان الذين لا يرون جمالها ولا يقدرونها قدرها .

● لما كان الرافعي متمثلا للإسلام فإن نظرته إلى المرأة جاءت وفق التصور الإسلامي .

السبب في هذا البلاء هو الرجال، لكن العقاب نازل بالنساء ألماً وشجناً، كمثل العين المتألمة، ومرضها في جزء منها هو الأجفان .

في المقطع الرابع يتلهف على حال المرأة، مكرراً لفظ «لهفي» في بداية الأبيات الثلاثة الأولى منه، يتلهف على معاملتها لحسنها المادي كالجوهرة في عقد حسناء أو تاج سلطان مرة، أو ريحانة خضراء تقطع من أصلها لتذبل على يد سكّير ثانية، أو غانية عذراء وضعت في غير موضعها بين الأسواء والأضغان ثالثةً، وهي كنايات عن تزويج الفتاة من غير من تحبه أو تختاره أو يناسبها أو لأغراض لم تخلق لها أصلاً لذلك يوضح في أربعة الأبيات التالية أهمية التناسب بين الزوجين من حب ورضى :



لكل معنى جميل ما يلائمه
كما تمازجُ ألحانٍ بألحانِ
وليس يُطرب صوتُ الماء منحدراً
كما نرى وقعهُ في سمع ظمآنِ
فيا إلهي إذا أجريتَ في قدرٍ
يوماً بأن يلتقي في الناس ضدّانِ
فاجعل للطفك معنى في التقائهما
كيلا يكون من الضدّين زوجانِ

ويوضح المأساة إذا كانت المعادلة بين الرجل والمرأة مختلة : فالرجل الذي ينال المرأة بطغيان : أي وهي تبغضه لأمر ما .. هو حقد مدمر لا مثيل له، وعلى العكس : إن الذل الذي يعاني منه الرجل من امرأة سوء أيضاً لا مثيل له .

الخاتمة في ثلاثة أبيات تدور حول ضرورة الحب للزواج، وضرورة التناسب بين الزوجين، لأن الزواج بناء للحياة التي تشبه القصر، والحب والتناسب أركان أساسية في هذا البنيان، وبهما تتحقق السعادة والهناءة .

هل نفهم من هذه القصيدة أن الشاعر يتحدث عن تجربة ذاتية، عن «ليلى» حبيبته الحقيقية، وقد زوّجت من غير حبيبها الشاعر، وهي مأساة معروفة في شرقنا المريض ؟

في مواضع أخرى كثيرة مؤشرات على ما نذهب إليه، فالفصل الثالث حديث عن الغنى والفقر، يتعصب فيه المؤلف للفقير على الغني، وفي الفصل الثامن يحمل المؤلف بشدة على الغني الجلف الذي يشتري الحسناء بالمال «ويأتي هذا الرجل – ولا يكون إلا غنياً – وقد أدلّ بنفسه وأشرق وجهه كأن فيه كل معاني ذهبه وفضته، وإن كان هذا الوجه الجلديّ كأنه بعض ما خلق من أحذية الرذيلة ... فيريد أن يتسفهه الجمال عن ماله وثروته، ويريد أن يشتري الحسناء الجميلة التي خلقت للحب لا للبيع ... اشتراها من فقرها بماله، ومن تعاستها بقبحه ...فإن الله يأبى أن يجعل في الأرض أو في السماء قوة تجعل الحسان الجميلات يشعرن من الغلظة والفظاظة بما يشعر به أولئك البهائم، رحمة لهذا الجمال!» (٢٥) .

ويضيف «أيوثق فؤاد الحسناء بالسلسلة الرّبوض التي صيغت من كلمات الزواج ثم يشد طرفها في يد الرجل الذي تكرهه أو ستكرهه شخص البغض ويقال مع ذلك إنهما ارتبطا برباط مقدس ...سوأةً لك، أيعيد التاريخ نفسه وتكون أنت الصنم الذي تقرب له الذبيحة وعيناه جامدتان تبعثان الرعب والخوف ....عزاءً أيتها الجميلة ...عزاءً أيتها الجميلة ...عزاءً عزاءً»(٢٦) . إلى أن يقول : «..ولا يعلمون (الكتاب والأدباء والمصلحون) أن التاريخ الإنساني وإن لم يكن نسائياً غير أن المرأة هي التي تلده وترضعه بأخلاقها حتى يتماسك ويدرج ثم يذهب يافعاً، وإن العظمة التاريخية وإن

كانت مترجلة إلا أن في باطنها دائماً روحَ أنثى، حتى إنها أعظم ما تكون إذا همَّت همها لشيء من آمال هذه الروح»[٢٧] .

ما نظننا بحاجة للبرهنة على أن مذهب الرافعي في المرأة عامة وفي الحب من التصون والعفة والنزاهة خاصة .. مذهب إسلامي، وأن يؤلف أربعة كتب توقع على الألحان نفسها لأمر يلفت النظر، ويستدعي الانتباه، في عصر تشابهت فيه الأمور والتبست على كثيرين . المرأة هي الشرق، والشرق مريض، تلك هي المسألة . أما جوهر المسألة فهو قلب المرأة، وليس حجابها وتعليمها واختلاطها إلا بعضاً من كل، وبعضاً أقل أهمية من هذا «البعض» الذي بين الصدور .

ما بعد الجملة القرآنية..الأمثال:

سوف نتجاوز الحديث عن الخصائص الأسلوبية عند الرافعي مثل ما عرف عنه من التأثر بالجملة القرآنية[٢٨] مفرداتٍ وصيغة، ودفاعه عنها عربية وفصاحة، ومثل الغموض أُخذ عليه في كتابه «حديث القمر»، ثم تخفف منه في كتابه الرابع «أوراق الورد» [٢٩]، ومثل تصنيف النقاد فصوله وفصول الكتب الثلاثة الأخرى في «المقالة البيانية»، وهي : «مقالة أدبية متميزة، تتخذ الفكرة أساساً، وتدير الأسلوب صياغة بيانية مثيلة من حول الفكرة، وتجعل الفن والجمال والإشراق بالعبارة وانتقاء الكلمات وسيلة، تشرق فيها المقالة، فتشف عن الأصالة»[٣٠]، لأن الدراسات السابقة أفاضت الحديث عن هذه الجوانب، فباتت مشهورة . وسوف نعنى بمسألتين، إحداهما لم تلق العناية، وهي ضرب الرافعي «الأمثال» على طريقة القرآن الكريم، والثانية تصوره لقضية المرأة والحب .

والمثل اصطلاحاً : قول سائر، يُشَبَّهُ به حالُ الثاني بحال الأول . والعلاقة بين الحالين، أن الحالة الأولى هي التي يُضرب بها المثل في الأصل، والحالة الثانية : هي التي يُذكر فيها المثل مرة أخرى . والعلاقة الحاصلة بين الحالين، هو الشبه الحاصل بين الحالة الأولى، وبين الحالة الثانية [٣١] .

وهذا يقتضينا التذكير بأنواع المثل الثلاثة :

النوع الأول : وهو المثل الموجز السائر، حِكَمياً وغير حِكَميّ .

النوع الثاني : المثل التشبيهي أو التمثيلي .

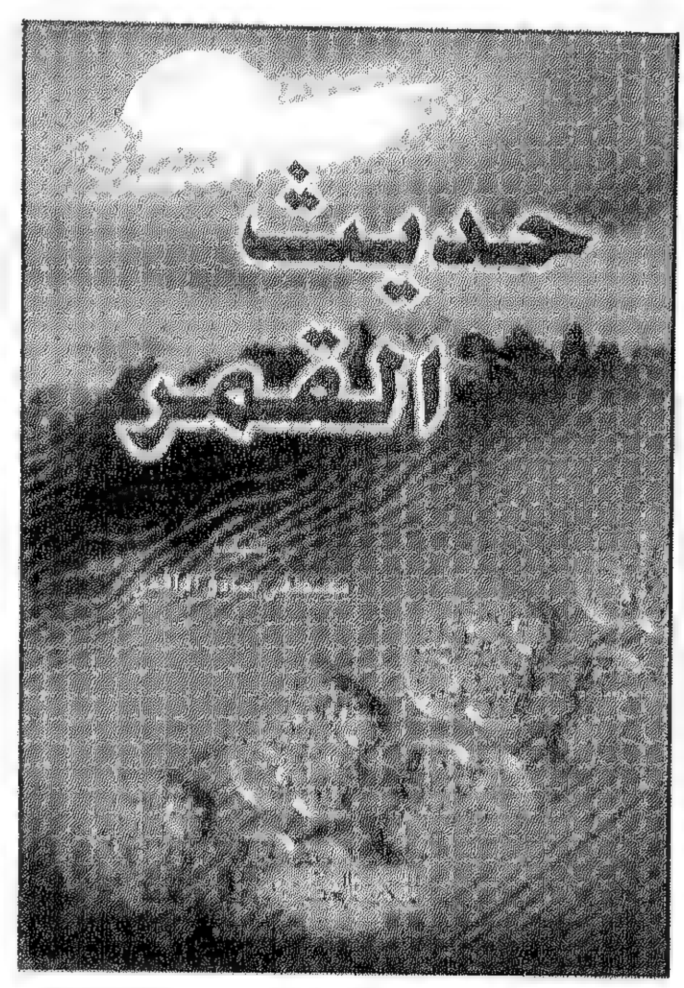
النوع الثالث : القصصي [٣٢] .

لقد اشتمل الكتاب على الأنواع الثلاثة، النوع الأول منها سماه مصطفى نعمان البدري بـ«الآبدة» : «هي الحكمة المرسلة في المثل، بجوامع الكلم التي يكون منها خلاصة التجربة في الحياة ...حفل بها «حديث القمر» فأشرق بالعربية على معانيها»[٣٣] من مثل قول المؤلف : «ربَّ دقيقة واحدة من حياة رجل تُبذل في ثمنها حياة بتمامها من رجل أو رجال»[٣٤] «العبودية للحب الصحيح هي مبدأ العبودية الصحيحة لله» [٣٥] «السعادة طفولة القلب»[٣٦] «ولعمري ماذا ينفعك أن تمشي وراء الملك لتقيس خطواته»[٣٧] .

النوع الثاني : المثل التشبيهي أو التمثيلي صادفنا منه أكثر من خمسة عشر مثلًا، بعضها مقتبس من القرآن الكريم والحديث الشريف أو مُشابه أمثلتهما شبهاً كبيراً، من مثل قوله : «العلم الذي لا يخلق ذبابة ولا أحقر من ذبابة، فيتفلسف ويقول لنا كيف خلقت؟»[٣٨] «السفينة لا تزال تجري بمجدافيها ما اتجها في الحركة إلى جهة واحدة، فإذا اختلفا وتدابرا في هذه الحركة التوت السفينة أولاً واضطربت ثانياً وانقلبت آخراً، وهل الرجل والمرأة إلا مجدافان في زورق البيت (العائلة) الذي يعبر بهما نهر

الحياة !»(٣٩) . أما بعضها الآخر فمبتكر جميل فيه من البراعة والذكاء وتسديد الرمية ما يعجب ويدهش، نختار منها: «إن الذباب ليقع على الزهر كما يقع النحل ليجني العسل، وإنه ليطِنّ في الروض كما تغرد الطيور لترقيص قلوبها الصغيرة، ثم يطير عن الزهرة ذباباً كما وقع ويسكت ذباباً كما طنّ، وكيفما نظرت إليه تراه ذباباً، ولكنه من الطير، ولكنهم من الشعراء» (٤٠) . نحسب أنك لم تفتك النكتة الصدمة المفاجئة «ولكنهم من الشعراء»، وهي مزية أسلوبية تشكل ظاهرة في أسلوب الرافعي حين يمهد أو يطيل التمهيد للغرض الفني أو الفكري الذي يرمي إليه، نكتفي بهذه الإشارة العابرة، وهي المزية التي أورثته غموضاً عند بعض المتلقين . ومثل قوله : «لا تنسل أيها المسكين المحزون ريش جناحيك اللذين تطير بهما لتنظر لون ما تحته من الجلد فتترك نفسك بلا إيمان وتدع قلبك بلا توكّل وتسقط آخر الأمر مع هؤلاء الذين لا يرتفعون عن الأرض في طيرانهم نحو السماء إلا مقدار ما يرتفع غبار الأرجل في طريق السابلة»(٤١) .

النوع الثالث : المثل القصصي، نصادف اثنين منه، أحدهما أسطوري، سبق أن أشرنا إليه في قصة الضبع التي صادفت مرآة صقيلة جميلة نسيتها صاحبتها، فنظرت فيها فوجدت قبح وجهها، فاتهمت المرآة بالقبح ولم تعترف بقبح نفسها، ولعل هذا المثل مستمدّ من مثل عربي قديم «لشرّ ما اطّرحكِ أهلُكِ»(٤٢). ثانيهما قصة مستمدة من تجربة المؤلف الشخصية «أعرف رجلاً كأنه نَزعَة شك بين أهل العزائم ....ورآني صامتًا كأنما تبعثرت نفسي فمرّ في هذيانه عجلاً غير رائث، ...كأنه ليس في الأرض محبّ غيري فليس فيها عاذل غيره، وأنا في كل ذلك أصعّد فيه وأصوب فلا تأخذ منه عيني إلا رجلاً موضوعاً في جلده وثيابه كما يُطمر لوح الثلج في اللفائف والقشور»(٤٣) .



المرأة :

في تصور الرافعي : المرأة هي الشرق، والشرق مريض بمرضها، ومرضها من ظلم الرجل لها، ومن ظلمه لها طغيانه عليها بسلبها الإرادة وحق الاختيار والزواج ممن تحب ورفض من تكره، فلو أتيح لها أن تحنو على قلوب المشرقيين بحنانها، أو تربي أولادها التربية الحقيقية لشفي الشرق من بلائه، وعمرت الحياة بقصور كقصور الجنة والحور العين .

وعلاقة الرجل بالمرأة علاقة قلب وروح وعقل، لا علاقة جسد وحسب، وهي علاقة تبادلية، وليست من طرف واحد، وإلا فهي ليست علاقة، بل استبداد وجلافة وغلظة ورباط غير مقدس . هذه العلاقة تنشىء السعادة إذا اتصلت، وتنشىء التعاسة إذا انقطعت . هذه العلاقة تصقل النفس وترتفع بها إلى السماوات، وبالشعراء إلى الإبداع وبالإنسان إلى الإيمان، وهي التي تميز الإنسان من الحيوان . والحب هو إكسير هذه العلاقة، وليس المال أو الجاه أو القشور الأخرى، وهو ليس حب الجمال الذي يذوي أو الشهوة التي تجوع أو تشبع وتتخم، بل حبّ الجمال الإلهي في النفس والروح والفكر، وفي العفة والتصوُّن والنزاهة تابعاً أو نابعاً من محاسن الطبيعة أو الفطرة، يقول مثلاً : «ولو فهم الناس الحبّ على حقّه لاستجدّوا لأنفسهم عقولاً، فإن الطبيعة نفسها متى أرادت أن تجدد إنساناً لتبعث منه رجلاً من رجالها، شاعراً

أو حكيماً أو بطلاً، تجلت على نفسه وآماله في صورة إحدى الحسان وتركته محباً، فلا تكون آلام الحب وآماله في باطنه إلا تغييراً نفسياً كأنه على ذلك إنما يُهدَم ويُبنى» [٤٤] .

ومع ذلك نزعم أن قضية المرأة في أدب الرافعي عامة، وكتبه الوجدانية الأربعة خاصة - وبينها حديث القمر - لا توفّيها حقها إلا رسالة جامعية لا مقالة واحدة. ■

الهوامش:

(١) الرافعي بين المحافظة والتجديد ، مصطفى نعمان البدري ، دار الجيل ، بيروت ، دار عمار ، الأردن ، ط١ ، ١٤١١هـ ، ١٩٩١م ، ٤٠١و٤٠٢ .
(٢) حديث القمر - مصطفى صادق الرافعي - كتاب المعارف - سوسة: تونس ١٩٨٨م - ص : ٦ .
(٣) المرجع السابق : ٥ .
(٤) الرافعي بين المحافظة والتجديد : ١١٤ .
(٥) المرجع السابق : ٤٠٠ .
(٦) حديث القمر : ٧ .
(٧) المرجع السابق : ٦و٧ .
(٨) نفسه : ٦ .
(٩) نفسه : ٥ و٨ .
(١٠) وضع العلماء الأقدمون كتباً في أمثال القرآن، ذكر منها محقق كتاب (أمثال القرآن لابن القيم) تسعة مؤلفات، وفي مؤلفات الحديث الشريف وضعت مصنفات أخرى . من الكتب الحديثة: الأمثال في القرآن .
(١١) حديث القمر : ٧٦و٧٧ .
(١٢) المرجع السابق : ٤٥و٤٦ .
(١٣) الرافعي بين المحافظة والتجديد : ١٩٦ .
(١٤) المرجع السابق : ٣٢٨ : نقلاً عن الرسالة ٩٣، وحي القلم : ١ ٢٨ .
(١٥) الرافعي بين المحافظة والتجديد : ٣٢٧ .
(١٦) حديث القمر : ١٣ .
(١٧) المرجع السابق : ١٠٦ .
(١٨) نفسه : ١١٤ .
(١٩) النص القرآني وآفاق الكتابة - أدونيس - دار الآداب - لبنان - ط١ : ١٩٩٣ .
(٢٠) المرجع السابق : ١١٩ .
(٢١) نفسه : ١٢٣ .
(٢٢) نفسه : ١٢٥ .
(٢٣) نفسه : ١٢٧ .
(٢٤) نفسه : ١٤٨ .
(٢٥) حديث القمر : ١٠٠و١٠١ .
(٢٦) نفسه : ١٠٣ - ١٠٤ .
(٢٧) نفسه : ١٠٧و١٠٨ .
(٢٨) الرافعي بين التجديد والمحافظة : ٣٧٧ .
(٢٩) المرجع السابق : ٣٩٩ .
(٣٠) نفسه : ١٩٤ .
(٣١) أمثال القرآن - ابن قيم الجوزية - دراسة وتحقيق: الدكتور موسى بناي علوان العليلي - مكتبة القدس - ط١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م - ص ١٠ .
(٣٢) الأمثال في القرآن - الدكتور محمد جابر الفياض - دار الشؤون الثقافية العامة - ط١ : ١٩٨٨ - ص٤٨٨م .
(٣٣) الرافعي بين المحافظة والتجديد: ٢٩٦ .
(٣) حديث القمر : ٢١ .
(٣٥) المرجع السابق : ٢٩ .
(٣٦) نفسه : ٣٣ .
(٣٧) نفسه : ٤١ .
(٣٨) نفسه : ٥٧و٥٨ .
(٣٩) نفسه: ١٠٨ .
(٤٠) نفسه : ص٤٧ .
(٤١) نفسه : ٩٦ .
(٤٢) نفسه، ١٦و١٧ .
(٤٣) نفسه، ١٢٢ .
(٤٤) نفسه، ١٢٢ .

أراك - وأنت نبت اليوم - تمشي ... بشعرك فوق هام الأولينا
وأوتيت النبوءة في المعاني ... وما دانيت حد الأربعينا
فزن تاج الرئاسة بعد (سامي) ... كما زانت فرائده الجبينا
وهذا الصولجان فكن حريصا ... على ملك القريض وكن أمينا
فحسبك أن مطريك (ابن هاني) ... وأنك قد غدوت له قرينا

حافظ إبراهيم *

* في تقريظ ديوان مصطفى صادق الرافعي.

الرافعي والشعر

بدأ الرافعي شاعرا وانتهى كاتبا ، وقد خطر بباله كما يقول د. مصطفى الشكعة[1] أن يكون ذات يوم أميراً على الشعراء بل إنه كان في يوم ما شاعر الملك[2] ثم غضب لكرامته حينما تصور أن تصرفا ما صدر عن ناظر الخاصة الملكية في حقه قد مس كبرياءه فأسمع رجل القصر الكبير ما لم يكن يتوقعه من مواطن متواضع الحال كمصطفى صادق الرافعي، وكان طبيعيا أن يحرم من لقب «شاعر الملك». وقد تعرض الرافعي لكثير من المضايقات في حياته، وتصدى لها وهو لا يحتاج إلى من يدافع عنه.

للرافعي شعر معروف وأناشيد رائعة تشهد بشاعريته، ومنها:

حماة الحمى يا حماة الحمى
هلموا هلموا لمجد الزمن
فقد صرخت في العروق الدما
نموت نموت ويحيا الوطن[3]



تفتحت موهبة الرافعي مبكرة وصقلها بالقراءة الثرية العميقة. لقد اهتم الرافعي باللغة العربية اهتماما كبيرا فحفظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وحفظ قدرا كبيرا من شعر القدامى وخطب العرب ومحاوراتهم.

نظم الرافعي الشعر في أغراض مختلفة تقليدية وحديثة ، فتناول القضايا الوطنية والقومية والاجتماعية ، فتحدث عن قضية الشرق والغرب والفرق بينهما في الثقافة والعادات والتقاليد في ذلك الوقت ، كما تحدث عن قضية تعليم المرأة الشرقية ودورها في المجتمع، كما نظم الشعر في الإخوانيات من مدح ورثاء وتهنئة.

لقد أولى الرافعي الشباب اهتماما كبيرا فخصص عددا من القصائد في الجزء الأول من ديوانه المعنون باسمه ، رسم فيها لهم طريق النجاح بالتمسك بالمبادئ التالية : التمسك بدينهم وتعاليمه القويمة، وملء القلوب بحب الله، والاعتماد على النفس. وقد اتضح ذلك كله في قصائده الموجهة للشباب ومنها:

لا زينة المرء تعليه ولا المال
ولا يشرفه عم ولا خال
وإنما يتسامى للعلا رجل
ماضي العزيمة لا تثنيه أهوال[4]

بقلم: إبراهيم سعفان
مصر

وقال أيضا:

وعــزز العلم فــاعــتــز الأنام به
وما إلى العز غير العلم من سبب[٥]

أما قصائد المديح فنراه يمهد لها الرافعي بأبيات في الغزل، ثم بعد ذلك ينتقل إلى مدح الشخصية ، وهو انتقال سلس لا يشعر المتلقي فيه بقلق وهو في مدحه يركز على صفاته الخلقية والعلمية وما قدمه للمجتمع من أعمال ذات فائدة ، فهذه الصفات هي التي تجعل الإنسان عند الرافعي يستحق المدح ، كما نرى الرافعي ينأى بشعره عن المبالغة والنفاق فيقول في مدح الخديوي عباس:

على أنك استغنيت عن كل مادح
بآثارك الغــرا وأيامك الغـــر
وأوحيت لي ذا الشعر حتى كأنما
لقطت نفيس الدر من ساحل البحر[٦]

ونظم الرافعي أيضا في الرثاء ، فرثى الأمير عبدالرحمن أمير أفغانستان ، ورثى عمه عبدالقادر الرافعي ، والشيخ محمد عبده ، ولكن قصائد الرثاء هذه قليلة في الديوان، وتعتبر قصائد الرثاء متطورة فنيا حيث نجد الرافعي يتخلص من الرثاء التقليدي الذي يذكر مآثر المرثي مسبوقة بالفعل «كان» كما كان حريصا على الصورة الشعرية حتى يبعد عن التقريرية المباشرة .

ففي رثاء الأمير عبدالرحمن أمير أفغانستان يقول:

يا فاجع الموت ماذا ينفع الحذر
وقــد عــهــدناك لا تبــقي ولا تذر
جنت أناملك الأرواح فانتثرت
كــمــا تناثر من أوراقــه الزهر[٧]

وفي رثاء عمه الشيخ عبدالقادر الرافعي يقول:

الدهر طرس ونحن الأحرف السود
والموت آخره والعمــر تمهيـد
وذي الليــالي بلاغــات مـعـبـرة
جناســهن الأماني والمواعيـد[٨]

وعن ضعف الشرق يقول الأبيات التالية متسائلا عن أسباب ضعف العرب والمسلمين وتدهورهم ، وكيف نصل إلى هذا الحال ونحن أمة العلم والحضارة والرجال الذين أضاؤوا الأرض بعلمهم:

لقـد أشـرق العلم من شـرقنا
ومـا زال يضـؤل حتـى (غـربْ)
وكنا صـعـدنا مـراقي المعـالي
فـأصبح صـاعـدنا في صـببْ
وكم كـــان منا ذوو همــــة
ســمت بهـــم لمعالــي الرتـــبْ
وكم من هزبز تهــز البـــرايا
بـــوادره إن ونى أو وثــبْ[٩]

ثم يختم القصيدة متسائلا هل نتكاسل حتى نضيع ما تبقى من أمجادنا ؟ أم نعمل بجد ونشاط لبنائه من جديد ، ثم يبين أننا إن توانينا في أداء واجبنا فسنكون سبة في جبين الزمان فيقول:

فهل نضيع ما أبقى الزمان لنا
وننفض الكف لا مـجـد ولا حـسبُ
إنا إذا سبة في الشرق فاضحة
والشـرق منا وإن كنا به خـربُ
هيهات ينفعنا هذا الصياح فما
يجدي الجبان إذا روعته الصخبُ
ومن يكن عاجزا عن دفع نائبة
فقصر ذلك أن تلقاه يحتسبُ[١٠]

أما بالنسبة للمرأة فقد طالب بتعليمها ما يناسبها ويفيدها في أداء دورها في البيت ، فيقول مبينا الفرق بين المرأة الشرقية والغربية:

للحـســان الدلال والخـيــلاءُ
ولك الأمــر بعــد يا حــسناءُ
كل بدر لـه ســمــاء ولا يعــر
ف للحـسن كـالبـيـوت سـمـاءُ
لا تغـرنك من تزين من العـجـ
ـم فـما الشـرق والشـمال سواءُ[١١]

*** الجوانب الفنية:**

يرى الرافعي أن الشعر ينبني على الأسس التالية:

١- الموهبة

٢ - الفكر الذي يبرزه البيان الناصع

٣ - الصدق، لأن ما صدر من القلب يصل إلى القلب

٤ - التأثير في المتلقي

ويبين أيضا صفات الشاعر الحقيقي المطبوع ، والفرق بينه وبين الشاعر غير الحقيقي.

فالشاعر الحقيقي هو الذي يصدر كلامه من القلب فيصل إلى القلب وألا يكون كلامه خارجا من اللسان فلا يتجاوز الآذان ، أما الشاعر غير المطبوع فهو يفتقد إلى الموهبة الحقيقية فيأتي شعره متكلفا لأنه كما يقول الرافعي « كالأعمى يتناول الأشياء ليقرها في مواضعها وربما وضع الشيء الواحد في موضعين أو مواضع وهو لا يدري»[١٢].

لقد طبق الرافعي آراءه هذه في نقده للمبدعين، فهل طبقها على نفسه؟

من العرض التحليلي الذي قدمته والذي حرصت فيه على تقديم نماذج متعددة من شعر الرافعي، وذلك ليكون بين يدي القراء ليتمكنوا من الإلمام بصورة واضحة عن شعره، ويمكن القول أن الرافعي التزم بالمقاييس النقدية التي ذكرها.

فشعره يتسم بالسمات التالية:

١- تميز شعره بالسلاسة والعذوبة والصدق ونصاعة البيان ، والوضوح الفني الذي يتصف بالشفافية.

٢ - نظم الرافعي القصائد الطويلة التي تبلغ أكثر من ثلاثين بيتا ، في وحدة محبوكة تنتظم القصيدة كلها دون خلل فني.

٣ - اهتم الرافعي بالتركيز والتكثيف، كما أجرى في القصيدة أبياتا مجرى الحكمة والمثل، والرافعي شاعر مطبوع ، وقد مكنه هذا من قول الشعر ارتجالا.

٤ - اهتم الرافعي بالصورة الشعرية التي تدل على رقة إحساسه وشفافيته ، كما اهتم بالصور الشعرية الجديدة مثل:

*** والناس في الدنيا دلاء فذا**
يهوي إلى القاع وذا يرتقي

*** والماء ألين شيء لكنه لا يداس**

*** وإنما الأرض جيد والقبور حولها**
عقد ومثلك در فيه منضود

*** فأغروا به «الخزان» حتى خلته**
وصيا يريه كيف ينفق بالقدر

٥ - ضمن الرافعي شعره بعض الأمثلة الشعبية مثل:

«فما جهينة إلا عندها الخبر».

كما استوحى آيات القرآن الكريم في مثل قوله:

فإن كان هذا بحكم الزمان
فتبت يدا ذا الزمان وتب

كتابات مصطفى صادق الرافعي النثرية والشعرية تنطلق من قلب مؤمن عامر بحب الله ، كتابات ملتزمة بالتعاليم الإسلامية، تحافظ على حياء المتلقي ومشاعره. إنها نموذج للأدب الإسلامي الصحيح الذي يدعو إلى الخير والحق والجمال بأداء فني متميز. ■

الهوامش:

(١) كتاب «مصطفى صاق الرافعي كاتبا عربيا، ص٢٥ .
(٢) المصدر السابق : ص ٢٦ .
(٣) المصدر السابق : ص ٢٦ .
(٤ ديوان الرافعي ، جـ١ ، ص١٤ .
(٥ المصدر السابق : جـ١ ، ص ١٤ .
(٦) المصدر السابق : جـ١ ، ص ٣٠ .
(٧) المصدر السابق : جـ٣ ، ص ١٤٢ .
(٨) المصدر السابق : جـ١ ، ص ١٤٧ .
(٩) المصدر السابق : جـ١ ، ص ٢٦ .
(١٠) المصدر السابق : جـ١ ، ص ٢٦ .
(١١) المصدر السابق :جـ٢ ، ص ٤٦ .
(١٢) من وحي القلم ، ج٣ ، طبعة الهيئة العامة للكتاب.



الكتاب : مصطفى صادق الرافعي " كاتباً عربياً ومفكراً إسلامياً "
تأليف : دكتور مصطفى الشكعة
الناشر : الدار المصرية اللبنانية
الطبعة الثالثة ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م
عرض : محمود حسين عيسى

جاء الكتاب في ستة فصول هي :

الفصل الأول : وعنوانه **" الرافعي نشأة وثقافة وزماناً"** وفيه تحدث المؤلف عن نشأة الرافعي وثقافته ، ومذاهبه الأدبية التي مزج بينها وبين اللغة العربية ، حيث نمت الملكة الأدبية عند الرافعي مبكرة خصبة في نطاق الشعر ، وقد عمد إلى إثراء معلوماته اللغوية بحفظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، وحفظ أكبر قدر من شعر القدامى والمحدثين وخطب العرب ومحاوراتهم في الجاهلية ، ودررهم الخطابية في الإسلام .

وتحدث المؤلف عن أفكار الرافعي الاجتماعية، ثم انتقل للحديث عن شعره وكيف أنه طرق أبواب الشعر المختلفة من تقليدية ومحدثة . كما يبين المؤلف موقفه من خلال تصديه لدعوات العامية والفرعونية والإلحاد ومحاربة الفكرة الإسلامية .

الفصل الثاني : وعنوانه **" آداب العرب وإعجاز القرآن "** وفي هذا يقول المؤلف : لعل الرافعي لم يكتب كتابه " تاريخ آداب العرب " إلا مستجيباً لدعاء نفسه في خدمة اللغة العربية ، لغة القرآن ، فأراد أن يميط اللثام عن الخبء من جمالها والخالد من آثارها . وكان هذا في الجزء الأول من الكتاب . أما الجزء الثاني فقد اختصه الرافعي بـ " إعجاز القرآن والبلاغة النبوية " حيث يصف المؤلف " الرافعي " بأنه كان في إيمانه صادقاً مع ربه ، صادقاً مع نفسه ، صادقاً مع مجتمعه ، وكان هذا الإيمان قوة دافعة له في الذود عن حياض كتاب الله والتعلق الشديد بكلام رسول الله ﷺ حباً ودراسة . ويذكر المؤلف كيف فجر ظهور هذا الكتاب طاقة دينية كبرى في المجتمع ، وكيف استقبله المؤمنون بالبهجة والثناء ، واستقبله المنكرون بالصمت المغلف بالغيظ المتأجج والحقد الدفين .

وقد كان عنوان **الفصل الثالث : " معركة النقد المقدس .. تحت راية القرآن أو المعركة بين القديم والجديد "** ويبين المؤلف هنا طبيعة كتاب " تحت راية القرآن " والهدف منه ، واشتمال الكتاب على ثلاث مراحل : الأولى حملة الرافعي على أصحاب الجديد بعامة ، ونظرته إليه، وتصويره لهم ، والحديث عن الذوق الأدبي . والثانية تتصل بآراء طه حسين حول الشعر الديني في الجاهلية واتهام المسلمين بمحوه وإسقاطه ، وقد ندد الرافعي وأصحابه بهذا الرأي في ضوء المنهج العلمي والتاريخي . والثالثة الرد على آراء طه حسين في كتابه " الشعر الجاهلي " تلك المرحلة التي زعزعت كرسي الأدب العربي تحت صاحبه .

مصطفى صادق الرافعي
كاتباً عربياً ومفكراً إسلامياً
دكتور مصطفى الشكعة
الدار المصرية اللبنانية

أما **الفصل الرابع** : فقد كان عنوانه **"المقالة الإسلامية"** ويبين المؤلف في هذا الفصل " المضمون الإسلامي في المقالة الرافعية " من خلال مقالات الرافعي عن : طبيعة النبي ﷺ ، شخصية الرسول ، سموّ الفقر عند الرسول ، معجزة الإسراء والمعراج ،عبرة الهجرة . ثم المقالات الخاصة بأدب السياسة الإسلامية ، يتبعها بالمقالات الخاصة بأدب المحاجة والجدل ثم المقالات الخاصة بأدب العقيدة ويذكر المؤلف منها : الجمال الفني في بلاغة الرسول ، حقيقة المسلم مستمدة من فلسفة الإسلام وفرائضه .. وغيرها .

وفي **الفصل الخامس** وعنوانه : **" كتاب المساكين "** يعلق المؤلف على هذا الكتاب قائلاً : إن "كتاب المساكين" من خلال النهج الذي قدمه الرافعي – فكرة وهدفاً وصياغةً – يعدّ بمعايير النقد المحايد حلقة جديدة في سلسلة الإنجازات الإبداعية التي واكبت عصر الرواد القلميين الذين ينتظم الرافعي قافلتهم ، ولكنه استطاع أن ينفرد بينهم بأسلوبه المشرق المكين ، وجملته العربية الأصيلة ، وعبارته الغنية بأسباب من الترف الذي جعل منه سمةً ومذهباً ، ويتوج الرافعي ذلك كله بالروح الإسلامية التي تتضوع بالأريج في كل صفحة سطرها يراعه ، وفي كل مقالة دبجتها بنانه .

وهكذا نصل إلى **الفصل السادس : " الأثر الإسلامي للرافعي في أدباء عصره "**، وفيه يقرر المؤلف أن الرافعي بريادته للكتابة في ظل الفكرة الإسلامية كان هادياً لمعاصريه من الكتّاب الذين قدر لهم بسطة في العمر من بعده ، وكانوا خصوماً للإسلاميات ظاهراً أو باطناً . ■

الكتاب : مصطفى صادق الرافعي " فارس القلم تحت راية القرآن "
تأليف : د . محمد رجب البيومي
الناشر : دار القلم ، دمشق ، سلسلة أعلام المسلمين (٦٥)
الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ ، ١٩٧٧م .
عرض : عبدالرزاق ديار بكرلي

يؤرخ هذا الكتاب لعلم العربية مصطفى صادق الرافعي، حياة، وأدبا، ويدرس نتاجه، ويحلل مواقفه، ويفصل في نزاعاته، ويرد الأمور إلى أسبابها ومسبباتها، ويضع المواقف في إطارها التاريخي وتسلسلها المنطقي، وبذا يصحح الكثير من المفاهيم الخاطئة، ويزيل اللبس، وينصف الأديب الرافعي أيما إنصاف . واشتمل الكتاب على الموضوعات الآتية:

هذا الرجل، المقدمة، تمهيد موجز، نشأة كريمة، الكاتب البليغ :

تدور حول حياته ونشأته، وبواكير أعماله الأدبية والظروف والملابسات التي أسهمت في تشكيل أدبه وبلاغته.

محمد ﷺ:

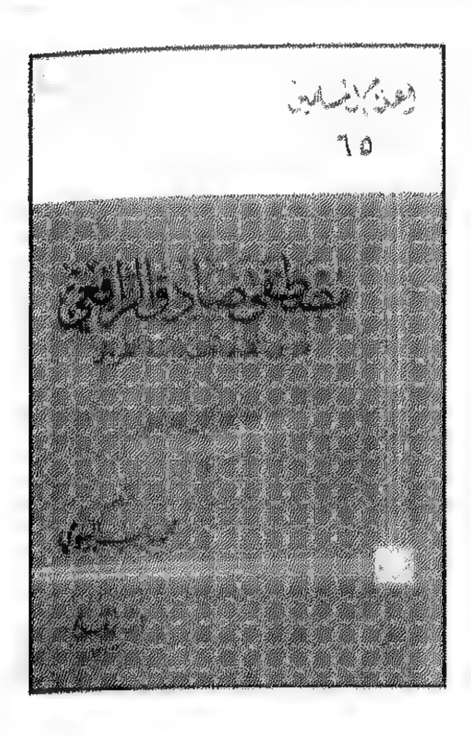
عنوان موضوع تحدث فيه عن النبي ﷺ بأسلوب غاية في البراعة، عن نبوته، وسيرته، ويوم الطائف، والإسراء، الأذان، مقتبسا حول كل ذلك فقرات من أقواله البديعة.

تاريخ الأدب العربي :

أورد فيه المؤلف قصة كتابة الرافعي عن الأدب العربي مؤرخا والظروف التي دفعته إلى هذه الكتابة والجوانب التي تميز بها تأريخه آخذا عليه عدم التقيد بذكر المصادر التي رجع إليها في كتابه.

إعجاز القرآن الكريم:

تحدث فيه عن كتابه الذي خصصه للحديث عن إعجاز القرآن وتفرده عن سابقيه والحفاوة التي قوبل بها هذا الكتاب .



البلاغة النبوية:

وتحدث فيه عن بلاغة النبي ﷺ مستخلصا سمات هذه البلاغة من الخلوص والقصد والاستيفاء .

ثم يقول: «ولاجتماع تلك الثلاثة في كلامه ﷺ وبناء بعضها على بعض سلم هذا الكلام العظيم من التعقيد والعي والخطأ والانتشار، وسلمت وجوهه من الاستعانة بما لا حقيقة له من أصول البلاغة ».

الاستشفاف الذوقي في فهم القرآن والحديث:

تحدث فيه عن تفسير القرآن وشرح الحديث، حيث يقول : «طريقنا في اكتناه إعجاز القرآن أن الكلمة الواحدة من كلماته لها جهات عدة، فالبحث في فهم القرآن يجب أن يكون في اللفظة ووجه اختيارها وسياق تركيبها وما تدل عليه في كل ذلك وما يدل كل ذلك بها» .

في حومة الدفاع:

يبرز المؤلف هنا كيف أن الرافعي لم يكن مهاجما بادئ ذي بدء، ولكنه التزم الفريضة في دفع المنكر والأمر بالمعروف، وكانت المسألة بالنسبة إليه فرض عين، رادا عن مفاهيم الرجعي والتقدمي، مدافعا عن الرابطة الدينية، وعن الشرق، وعن اللغة العربية، مهاجما الدعوة إلى اللغة العامية واللغة الأجنبية.

عن الشعائر الدينية :

تحدث الرافعي عن الأذان في أروع مظاهر تأثيره، وتأثير كلمة «الله أكبر»، وحديث المسجد، والقيام في الصلاة، وتولي شطر القبلة، والركوع والسجود بين يدي الله، والتسليم الذي يخرج به من الصلاة، والزكاة والصوم والتقوى .



عن علماء الإسلام :

يتحدث فيه عما كتبه الرافعي في سلسلة أدبية عن كبار العلماء ممن جابهوا السلطان الظالم في غير هوادة، من مثل : سعيد بن المسيب، والشعبي، ومالك ابن دينار، وأحمد بن حنبل، والحسن البصري، والعز ابن عبدالسلام، وغيرهم من أفذاذ العلماء، حيث ولدت القصة الإسلامية على يد الرافعي فيما صور من أحداث ورسم من شخصيات.

فللرافعي مفهوم خاص في كتابة القصة لا يتقيد فيه بما تعورف عليه من خطوات العمل القصصي، ولكنه يذكر الحادثة في ثوب القصة، ثم يفتح بابا للتحليل الأدبي، والتفسير النفسي يكشف عن مدلول هذه الأحداث . ولم يقل الرافعي للقارئ إنه يكتب قصة أدبية حتى نحاكمه في ضوء ما نعرف من أساليب التأليف القصصي، ولكنه يخاطب القراء بما يراه مجالا للتأثير في شعوره النفسي، تاركا لقلمه أن يجمع المقالة والقصة في ثوب واحد .

عن المرأة:

لقد دافع الرافعي عن المرأة دفاعا شرعيا منصفا، لا كغيره ممن أرادوا من خلال دعوى الدفاع عنها أن تنزلق إلى الفساد وحمأة الرذيلة تحت دعوى التحرر والانفتاح .

وهنا يرد الحديث عن كتبه أوراق الورد، ورسائل الأحزان، والسحاب الأحمر، وغيرها من مقالات في هذا الشأن .

مع العقاد:

هذه هي المشكلة الكبرى التي استطاع المؤلف أن يضع مبضعه في مفصل النزاع بين الرجلين حاكما بينهما، ملطفا الجو في خلافاتهما، راداً الأمور إلى أسبابها ومسبباتها معللا إياها بأسلوب منطقي حصيف، وليس «على السفود» من ذلك ببعيد .

يقول البيومي : وقد لحق العقاد بالرافعي بعد قرابة ربع قرن فغاب عن الميدان فارسان مدججان تحدث بآثارهما الركبان حديثا ما زال يمتد صداه .

تحت راية القرآن:

هذا الموضوع امتداد للموضوعات السابقة في دفاع الرافعي عن القرآن الكريم حينما تورط طه حسين فيما قاله عن القرآن الكريم في كتابه «الشعر الجاهلي» حيث تصدى له الرافعي وفند مزاعمه الخطيرة .

الرافعي كاتب الوجدان :

تميزت كتابات الرافعي بتحريك العواطف النبيلة والمشاعر الفياضة فهو في ذلك فرد لا نظير له، وانظر ذلك في حديثه عن القلب الطاهر، وحديث القمر، ورسائل الأحزان، وأوراق الورد، والسحاب الأحمر، إلى أن يقول الكاتب عن كتاب المساكين : «إنه من الأدب الوجداني من ناحية تأثر العاطفة وانفعالها بمظاهر الفقر المحتشم والصبر القانع والوثوق المطمئن .. وكل ذلك يتجلى في مسيرة قروي هادئ قانع..».

الشاعر الموهوب :

وللرافعي شعر في غاية الإبداع والتألق، ومنه الشعر الوصفي والاجتماعي والتقريري التعبيري، ممزوجا بالخيال والإدراك المتيقظ الذي هو أول منافذ الخيال.

أما نثر الرافعي فهو النثر الفني الذي يحلق في القارئ بعيدا في مجال الخيال والفكر في آن واحد.

الرافعي ناقدا:

يقول الدكتورالبيومي : لا أقول: إن النقد كان أبرز ميزات الرافعي، بل أقول: إنه كان أثرا قيما من آثاره وله وزنه في تقدير كفاحه الأدبي الطويل.

الرسائل الخاصة وجهة إسلامية:

تحدث فيه الكاتب عما كتب من الرسائل الخاصة التي ينشرها الآخرون لأدباء استأمنوهم عليها .. وهنا يأتي ذكر «أبي رية» فيما نشر من الرسائل الخاصة للرافعي، ويرى الكاتب أن الرسائل التي تحمل بعض الشطط أولى بالكتمان والصون الخلقي، وإن كان النشر ضروريا في رأي من يبيحه فإن الواجب أن يبعد عن الرسائل ما يشي بنقيصة أو ينبئ بتهجم على إنسان مناوئ .. بما يحفظ لصاحب الرسائل أسراره الخاصة.■

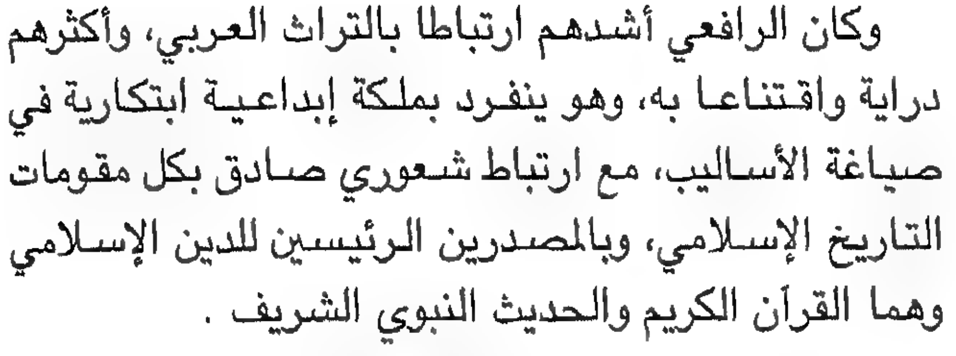
بين الرافعي وطه حسين تحـ

يعد الأديب مصطفى صادق الرافعي في الطليعة من الكتاب والأدباء الذين أثروا بفكرهم وإبداعهم الحياة الأدبية والفكرية في مصر والعالم العربي في النصف الأول من القرن العشرين.

وهو يمثل مع «عباس العقاد»، و «طه حسين» الريادة الحضارية في محاولة النهوض بالعقلية العربية في العصر الحديث، وإعادتها إلى دائرة الضوء المتوهجة التي انتشرت أشعتها .. وعمت أرجاء الأرض في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية.

ولكل من هؤلاء الثلاثة منهجه في التفكير، وطريقته في الأسلوب، وأثره فيمن حوله، ولكل منهم شيعته.. ومريدوه، ودوره الكبير في الحركة الثقافية، والحياة الأدبية في مصر والعالم العربي في العصر الحديث.





وكان الرافعي أشدهم ارتباطا بالتراث العربي، وأكثرهم دراية واقتناعا به، وهو ينفرد بملكة إبداعية ابتكارية في صياغة الأساليب، مع ارتباط شعوري صادق بكل مقومات التاريخ الإسلامي، وبالمصدرين الرئيسين للدين الإسلامي وهما القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

وكتابه «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» .. يظل منارة مضيئة تموج أشعتها الهادية في كل زمان ومكان، تهدي العقول الحائرة، وتقوي العزائم الفاترة، وتدفع عن حياض الدين غزوات المغيرين، وشبهات الملحدين، ومؤامرات المنافقين.

ويعلل الأستاذ حسين حسن مخلوف «شدة الرافعي في نقده، وقوة شكيمته في خصومته العلمية والنقدية .. وعدم استسلامه في معاركه النقدية بما قاله أحد القراء عن الرافعي: «إنه ناقد صعب» فأجاب قائلا: لشعوره بالتمكن من مادة اللغة العربية وثقته بنفسه، وفهمه لأسرار البيان العربي شعرا ونثرا، ولدراسة أدوات الأدب العربي لتكون صناعة القلم سليمة لديه.

ثم إنه لا يكتب رأيا إلا إذا امتحنه على آداب القرآن الكريم، وأصول الإسلام فما وافقها فهو رأيه، وما خالفها فهو بريء منه[1].



تحت راية القرآن



بقلم: د . صابر عبدالدايم
مصر

تحت راية القرآن في قلب الميدان:

وكتاب «تحت راية القرآن» ميدان لمعركة دارت رحاها بين قطبين رائدين هما «الرافعي»مدافعا عن تراث العربية، وعن كثير من ثوابت الإسلام ضد آراء جريئة، وحقائق مغلوطة، وشبه مغرضة آثارها د . طه حسين في كتابه «الشعر الجاهلي» في إصداره الأول عام ١٩٢٦م.

ولنتساءل: لماذا وضع الرافعي قضية الانتحال التي تعد العنصر الأساسي في كتاب د . طه حسين، والقاسم المشترك بينه وبين الرافعي في كتابه «تحت راية القرآن» ؟ لماذا جعل الرافعي مناقشة هذه القضية وتحريرها تحت راية القرآن، وما علاقة القرآن بقضية الشعر الجاهلي ؟

إن منهج الرافعي الذي ينطلق من المصدرين الكبيرين: الكتاب والسنة: هو المحرك الأول لهذه القضية .

والبعد الديني لا الأدبي .. هو في المقدمة من أبعاد قضية «الانتحال» في الشعر الجاهلي، وهو المحرك الأول لهذه القضية .

ولنتأمل النتيجة التي انتهى إليها د . طه حسين متبعا فيها آراء كثير من المستشرقين .. وهي نتيجة سلبية لا تصدر من باحث متمكن من مقومات تراث الأمة العربية والإسلامية، وفي مقدمة هذه المقومات الإيمان بقداسة النص القرآني، وبأنه قطعي النص والدلالة، يقول د . طه حسين:

«للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل وإبراهيم إلى مكة».

قال د . طه حسين «ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعا من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية، والتوراة والقرآن من جهة أخرى».

والرد على هذه الفرية التي تقدح في قداسة النص القرآني .. لم تقتصر على الرافعي فقط بل تصدى لها كثير من العلماء وفي مقدمتهم: «الأمير شكيب أرسلان، والشيخ محمد الخضر حسين، ومحمد فريد وجدي، و د . محمد أحمد الغمراوي، والشيخ محمد أحمد عرفه، وغيرهم .

ومن الذين قاموا بالرد المباشر بعض النواب في البرلمان في هذا الوقت ومنهم النائب الأستاذ عبد الخالق عطية في جلسة يوم الاثنين ١٣ سبتمبر سنة ١٩٢٦م .

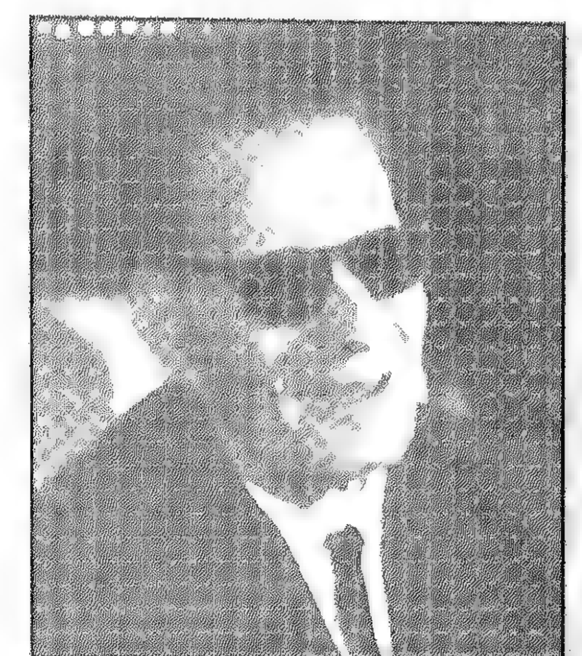
وفي رده إثارةٌ لقضية تربوية يجب أن نقتدي بها في مدارسنا وجامعاتنا ومعاهدنا العلمية .. وما أحوجنا إليها في هذا الوقت الذي كثر فيه المتقولون والأدعياء .

يقول النائب معلقا على ما آثاره د.طه حسين من شكوك ومزاعم .. وكذب وتلفيق حول القرآن، «إننا إذ نسلم أولادنا للحكومة ليتعلموا في دورها نفعل ذلك معتمدين على أن بيننا وبينها تعاقدا ضمنيا على أن الديانات محترمة، لا أقول تعاقدا ضمنيا فقط، بل صريحا، لأن الحكومة تعنى بتعليم الدين في مدارسها، وتضعه في مناهجها .

وإذا كان الأمر كذلك، فعلى الذين يريدون أن يحرقوا بخور الإلحاد أن يحرقوه في قلوبهم، لأنهم أحرار في عقائدهم، أو أن يحرقوه في منازلهم، لأنهم أحرار في بيئاتهم الخاصة، أما أن يطلقوه في أجواء دور العلم ومنابر الجامعة فهذا لا يمكن أن نفهمه بأي حال من الأحوال» [٢] .

ولنتأمل أحوال جامعاتنا الآن !!.

ووصف الشيخ: مصطفى القاياتي بأن ما جاء به د . طه حسين: «قبائح متعددة»، ما بين تكذيب لصحيح التاريخ، وتكذيب لنصوص القرآن، ونسبة التحايل إلى الله وإلى النبي محمد ﷺ، وإلى موسى عليه السلام».



د . طه حسين

والرافعي يلخص تقويمه لشخصية د . طه حسين .. مع تفنيد آرائه في أسلوب حاد ساخر .. يوجز الحقائق، ويجمل التفاصيل ولكنه يتوسع فيها بعد ذلك عبر مباحث الكتاب مستعينا بشهادات المعاصرين من الباحثين والعلماء والنواب ورجال السياسة المنصفين .

فيقول معللا فساد آراء د . طه حسين فيما يتعلق بالقضايا التي أثارها في كتاب «الشعر الجاهلي» وهي كثيرة:

«وصاحبنا يرجع في ذلك إلى طبع ضعيف لم تحكمه صناعة الشعر، ولا راضته مذاهب الخيال، ولا عهد له بأسرار الإلهام التى صار بها الشاعر شاعرا، ونبغ الكاتب كاتبا .

وماهو إلا ماترى من خلط يسمى علما، وجرأة تكون نقدا، وتحامل يصبح رأيا، «وتقليد للمستشرقين يسميه اجتهادا»، وغض من الأئمة يجعل به الرجل نفسه إماما، وهدم أحمق يقول هو البناء وهو التجديد،وماكنا نعرف على التعيين ما الجديد أو التجديد في رأي هذه الطائفة حتى رأينا أستاذ الجامعة يقرر في مواضع كثيرة من كتابه أنه هو الشك، ومعنى ذلك أنك إذا عجزت عن نص جديد تقرر به شيئا فشك في النص القديم، فحسبك ذلك شيئا تعرف به، ومذهبا تجادل فيه، لأن للمنطلق قاعدتين إحداهما تصحيح الفاسد بالقياس والبرهان:"والأخرى إفساد الصحيح بالجدل والمكابرة " .

ثم يحترس الرافعي .. ويزيل هذه المثالب التي شخص بها مسلك د. طه حسين في منهجه وفي شخصيته.. ببعض المعالم الإيجابية التي يتسم بها، وهذا يؤكد أن الرافعي في تقويمه له لم يكن متجنياً، ولا مسفا مثلما كان في "السفود"وهو يهجم على العقاد بكل ألوان السباب .. وفي قلب هذا الهجوم .. تبرق شهب نقدية حارقة لا يستطيع العقاد لها دفعا .. ولكن "الرافعي"مع العقاد لم يكن منصفاً، ولم تكن غضبته للعلم وحده، ولم تكن غيرة على الدين وإنما كانت رد فعل اتسم بالغضب الشديد والانفعال الجارح وكأنه استجابة مباشرة لقانون الطبيعة البشرية، وقوانين الحياة نفسها "لكل فعل رد مساو له في الاتجاه " .

وقصة الرافعي في مواجهة العقاد لها فضاء آخر .. وسياق مغاير، يقول الرافعي ... وهو يضع طه حسين فوق ميزانه النقدي والعلمي،وإنه لولا ضعف خيال الدكتورطه، وبعده من الصناعة الفنية في الأدب، واستسلامه لتقليد الزنادقة، وبعض المستشرقين الذين لايوثق برأيهم ولابفهمهم في الآداب العربية، ثم لولا هذه العصبية الممقوتة التي نشأت فيه من هاتين الصفتين إلى صفات أخرى يعرفها من نفسه حق المعرفة لكان قريبا من الصحة فيما يرى ، ولتدبر الأمور بأسبابها القريبة منها

واستعان عليها بما يصلحها ، ولتوقى بذلك جناية التهجم التي هي في أكثر أحوالها علم الجهلاء ، وقوة الضعفى ، وكياسة الحمقى وعقل المغرورين».

ويمكن أن نتهم الرافعي بالمبالغة في اتهام د.طه حسين وإلصاق كل هذه المثالب به .. ولكني أرى أنه أصاب كبد الحقيقة حين وصف صاحب كتاب «في الشعر الجاهلي» بأنه مستسلم لتقليد الزنادقة ، وبعض المستشرقين الذين لا يوثق برأيهم ولا بفهمهم في الآدب العربية.

ولنتأمل دقة الرافعي في التفريق بين الزنادقة.. وبعض المستشرقين حيث لم ينكر الدور الإيجابي الذي قام به المستشرقون في خدمة التراث العربي والإسلامي تحقيقا... وطباعة، وتمحيصا وتدقيقا وفهرسة.. وهي جهود بارزة لاتنكر.. وتحتاج إلى قليل من تصحيح المفاهيم، وكشف مناطق الشبهات، وتحرير بعض الآراء التي تشوهها الترجمات الحرفية التي تحرف المعنى وتقلب الحقائق [٣] .

يقول الرافعي: إن طه حسين استسلم للزنادقة وبعض المستشرقين وهذا كلام صائب ودقيق لأنه حدد هذا «البعض» وهم الذين «لا يوثق برأيهم، ولا بفهمهم في الآداب العربية» .

ومن المستشرقين المنصفين للحضارة العربية والفكر الإسلامي «توماس كارلايل» صاحب كتاب «محمد المثل الأعلى في كل شيء» و «الكونت هنري دي كاستري» صاحب كتاب «الإسلام خواطر وسوانح» و «المستشرق» فرانز روزنتال» والمؤرخ الإنجليزي «برناد شو» الذي يقول ويؤكد أنه «في الوقت الحاضر كثيرون من أبناء أوربا قد دخلوا في دين «محمد» أي الإسلام، حتى يمكن أن يقال: إن تحول أوربا إلى الإسلام قد بدأ، وأحسن ما يقال: إن القرن الحادي والعشرين لن يمضي حتى تكون أوربا قد اتخذته دينا لها، وعهدت إليه في حل مشاكلها» .

أما المستشرقون الذين لا يوثق برأيهم ولا بفهمهم في الآداب العربية ومعهم الزنادقة الذين قلدهم طه حسين - كما يقول الرافعي " .. وكما تشهد بذلك الوثائق العلمية ووقائع التاريخ، وكما انتهت إلى ذلك اللجنة التي فحصت كتاب «في الشعر الجاهلي» وكذلك المحكمة التي أصدرت حكمها بعد اعتذار د . طه حسين وإقراره بأنه مسلم ولم يتعمد الإساءة إلى الإسلام .

وقد انتهى الأمر إلى مصادرة الكتاب وإحالة د. طه حسين إلى النيابة، وحققت معه وانتهت إلى أن هذا البحث ليس من عمل الدكتور، بل سبقه به المستشرقون ومنهم «مرجليوث» المستشرق الإنجليزي، وانتهت هذه القضية بقضها وقضيضها سنة ١٩٢٦م، كما يقول الأستاذ حسنين حسن مخلوف .

وحفظت النيابة الأوراق لعدم كفاية الأدلة ولثبوت حسن النية فيما صدر من د . طه حسين .

ولسنا هنا بصدد معارضة الحكم، ولا التنقيب عن حقيقة معتقد طه حسين .. فهذا أمر لا يعلمه إلا الله وحده .

ومن الحقائق التي تؤكد تقليد طه حسين واتباعه لما قاله المستشرقون .. ما ورد من آثار لهم في دراسة الأدب العربي وتحقيق دواوين الشعر الجاهلي ؟ وحين تصدق هذه الحقيقة .. فإنها أصدق تهمة توجه إلى « عميد الأدب العربي» الذي رفع لواء التجديد، وهو في الحقيقة يلبس مسوح التقليد، ظنا منه بأن الحياة الثقافية لن تكشف هذا الصنيع، أو أنه يضحي بسمعته العلمية في سبيل إرضاء أساتذته من بعض المستشرقين الذين وصفهم الرافعي بأنهم « لا يوثق برأيهم ولا بفهمهم في الآداب العربية» وكل هذه الاحتمالات تصب في تيار مضاد لما كان يتوهمه طه حسين، ولكنه أغرى الكثيرين من الباحثين بارتياد هذه الطرق الشائكة التي تجدف ضد التيار .. حتى لو كان هذا التجديف ضد

الثوابت، وضد القيم والأعراف والتقاليد الأدبية والحقائق التاريخية، والثوابت الدينية».

والمستشرقون الذين ردد أقوالهم د . طه حسين .. لم يبتكروا الجديد، وإنما بالغوا، في تضخيم ظاهرة الانتحال – التي أثارها ابن سلام في كتابه « طبقات فحول الشعراء » ووردت هذه القضية على لسان الرواة في تقويمهم لبعض الروايات، ولبعض من رووا الشعر العربي .. وهذا دليل جودة وتمحيص، وتدقيق ورغبة في الوصول إلى النص الأصلي الصحيح .. حيث كانت الرواية منهجا دقيقا من مناهج العرب والمسلمين.

فالمفضل الضبي، يفند حماد الراوية المتوفى سنة ١٩٨ هـ، والأصمعي ينقد خلف الأحمر ويتهمه بالانتحال وقد توفي سنة ٢١٦ هـ، وابن هشام في سيرته ينقد ابن إسحاق المتوفى سنة ٢١٨هـ، وابن سلام يقوم روايات ابن إسحاق وحماد الرواية.

وابن إسحاق يقر بعدم علمه بالشعر .. وهذا الإقرار عده رواة الشعر فضيحة وقد روى أشعارا عن عاد وثمود .

وأبو الفرج الأصفهاني رفض روايات ابن الكلبي عن دريد بن الصمة .

إن هذه الظواهر التي تؤكد حرص رواة الشعر على صحة ما ينسبونه للشعراء لم تؤد بهم الى القول بانتحال معظم الشعر الجاهلي، ولا بالقول إلى أسبقية القرآن . وأن الشعر العربي أتى بعده، لأنه تقليد له في الألفاظ والأساليب، ولا إلى القول بأن الشعر تطور للقرآن كما يزعم المستشرقون.

هذه الظواهر القديمة في قضية الانتحال . دفعت بعض المستشرقين إلى الطعن في صحة الشعر الجاهلي وإلى الطعن في كثير من حقائق القرآن، وحتى نثبت صحة ما ذهب إليه الرافعي نسوق هذه الحقائق التي تكشف عن دور المستشرقين في تضخيم هذه القضية، وتكشف كيف خدع د . طه حسين بهم !!

وكيف جعل نفسه بوقا لهم عن طواعية – رغبة في الظهور – وصدمة للواقع الأدبي، والفكري .

وأول من تناول موضوع الانتحال شيخ المستشرقين الألماني تيودور نولدكه سنة ١٨٦١ أي قبل طه حسين بخمسة وستين عاما .

ولقد استعان بنتائج البحث في اللغات السامية، وما كشفت عنه النقوش الحميرية والسبئية وفي اليمن عموما، وبالمقارنة بما حدث في الآداب الأخرى، الأدب اليوناني وخاصة هوميروس، وفي الأدب الألماني ليسوق الأسباب الدقيقة التي تؤيد وتوسع من نطاق النتائج التي وصل إليها ابن سلام الجمحي بنظرة ثاقبة ولكنها غير مؤيدة بالأسانيد التاريخية .

وبعد ثماني سنوات جاء «ألفرت فلهلم» ليثير الشكوك سنة ١٨٧٢ في مقدمة ديوان «الشعراء الستة الجاهليين» .

وفي سنة ١٩٠٤ م كتب «كليمان هوار» مقالة مغرضة بعنوان «مصدر جديد للقرآن .

وفي عام ١٩٠٥ أصدر «مرجليوث» كتابه عن «محمد وظهور الإسلام، ثم كتب مقالته عن «محمد» في دائرة معارف «الدين والأخلاق»(٤) .

وتوالت الجهود التي تدرس التشابه بين لغة القرآن ولغة الشعر الجاهلي وكتب مرجليوث مقالا عن أصول الشعر العربي عام ١٩١١م، وكتب بحثا في الموضوع نفسه سنة ١٩٢٥ .

ومن القضايا المغرضة التي أثارها «مرجليوت» هي أن الشعر تطور للقرآن، أي أتى بعده .. وهذا أخطر مافي القضية التي قلد كل تكويناتها د . طه حسين.

العلم والدين وشبهات المستشرقين:

ومما يتصل بتقليد طه حسين للزنادقة وبعض المستشرقين الذين لا يوثق برأيهم ولا بفهمهم في الآداب العربية قضية «الصلة بين العلم والدين» .. حيث يرى أن الدين من نتاج الجماعات البشرية تقليدا لرأي «دور كايم» الذي يقول: «إن الجماعة



تعيد نفسها أو بعبارة أدق «أنها تؤله نفسها ويقول د . طه حسين وهو يتبنى الفكر «العلماني»:

إن العالم ينظر إلى الدين كما ينظر إلى اللغة، وكما ينظر إلى الفقه، وكما ينظر إلى اللباس، ومن حيث إن هذه الأشياء كلها ظواهر اجتماعية يحدثها وجود الجماعة في تطورها، وإذن فالدين في نظر «العلم الحديث» ظاهرة كغيره من الظواهر الاجتماعية، لم ينزل من السماء، ولم يهبط به الوحي، وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها .

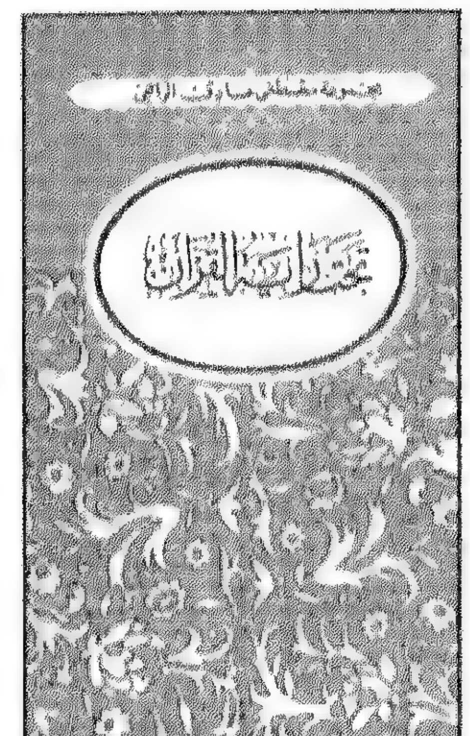
ثم يرى د . طه حسين في محاولة للتوفيق الملفق بين العلم والدين: «أن من الممكن أن يكون الإنسان ذا دين يؤمن بما يثبته العلم، ويكون عالما لا يقر ما لم يثبته العلم» .

فكل امرئ هنا يستطيع إذا فكر قليلا أن يجد في نفسه شخصيتين ممتازتين: إحداهما عاقلة تبحث وتنتقد وتحلل(*)، وتغير اليوم ما ذهبت إليه أمس، والأخرى شاعرة تلذ وتفرح وترضى وتغضب في غير نقد ولا بحث ولا تحليل وكلتا الشخصيتين متصلة بمزاجه وتكوينه لا نستطيع أن نخلص من إحداهما .

ثم يتصور «طه حسين» الحل التلفيقي للتلاقي بين العلم والدين وهما في رأيه لا يلتقيان !! يقول: «فما الذي يمنع أن تكون الشخصية الأولى عاملة باحثة ناقدة ؟ وأن تكون الشخصية الثانية مؤمنة ديانة مطمئنة طامحة إلى المثل الأعلى؟

ثم يقول: «وأنا أؤكد أن هذا اللون من الحياة النفسية وحده هو الذي يكفل السلم بين العلم والدين»(٥) .

وهذا التقسيم قائم على افتراض مخطئ وهو التصادم بين العلم والدين، والمنهج الإسلامي لا يقول بهذا التصادم .. لأن العلم يكتشف أسرار الله في الكون وفق تفكير منظم، وآليات وتقنيات تتجدد



وتتطور حسب تطور الأزمنة .. والبيئات ونظريات العلم ووسائله، والحركة العلمية في ظل الإسلام تؤكد ذلك نظريا وعمليا .

وعلم النفس في أحدث ما انتهى إليه ينقض كلام د . طه حسين في مسألة الذات العاقلة والذات الشاعرة .

وهل التدين بعيد عن «العقل»؟ وهل هو مجرد خواطر وسوانح وتخيلات؟

وأمام هذا التصور الغريب، والموقف المتناقض من «الدين» يقول الرافعي مستظلا براية القرآن، ومتحصنا بأسلحة اليقين ويرد على «طه حسين مفندا رؤيته المتناقضة»: يخلط طه في معنى العلم ومعنى الدين، فيذكر أنهما لا يلتقيان إلا نزل أحدهما للآخر عن شخصيته، ويزعم أن العلم لا يرى الدين إلا قد خرج من الأرض كما تخرج الجماعة، فمتى قطع العلم على أن الجماعة الإنسانية خرجت من الأرض، وقد أخذ مذهب دارون يتصدع ويتخرب على زلازل القلم وانحياز ناموس النشوء عن هذه الجهة الحيوانية.

ومتى كان العلم يبحث في الأديان على أنه علم؟ وكيف له أن يبحث فيها وهو مقصور بطبيعته وتحديد هذه الطبيعة على ما يدخل في باب الأدلة الحسية، ولا وسائل له إلا وسائل الحس المعروفة من البحث والاستقراء والمقابلة والاستنباط، دون ما يتصل بالمعاني العقلية المحصنة مما هو نظري فلسفي كالمعاني التي يرجع إليها الدين . إنه ليس بعلم ما يجاوز تلك الحدود المسورة بأسوار البحث والامتحان بحيث لا تخرج منه النتيجة الصريحة التي برهانها «الحس واليقين دون الظن والجدل» .

ثم يقول الرافعي ملخصا الرد على طه حسين ومنكرا عليه رأيه:

فقول طه مثلا: «إن قصة بناء الكعبة خرافة، وإن إبراهيم وإسماعيل شخصان وهميان لا يعدان علما، بل حمق محض، فإذا اعتذر منه بالعلم أضاف إلى حمقه جهلا، فإذا أصر على قوله واعتذاره زاد على الجهل الحمق والغفلة»[٦] .

وفكر د . طه حسين الدائر في فلك «العلمانية، والذي أدى به إلى التقليد واتباع آراء بعض المستشرقين .. جعله يتعصب لآرائه اقتناعا منه بهذا المنهج ..

وقد اتهمه الرافعي، وحلل موقفه الفكري، ومنهجه «العلمي» القائم على «الشك».

يقول: رأينا عصبية طه على الإسلام تلبس ثلاثة وجوه:

أولها: عقيدته في القرآن وأنه من وضع الذي جاء به لا من وحي ولا تنزيل ولا معجزة .

وثانيها: رأيه في النبي ﷺ وأنه رجل سياسي فلا نبوة ولا رسالة.

وثالثها: عمله في توهين أمر الأئمة من الصحابة فمن بعدهم وقياسهم في الإنسانية وأهوائها وشهواتها على قياس من نفسه وطباعه.

وهذه التهم تحتاج إلى مراجعة ومناقشة وتحليل ولكنها تتوافق مع المنهج الذي تابع فيه د.طه حسين آراء المستشرقين ومناهجهم المادية .

والدكتور طه حسين لم يتابع الردود على ناقديه .. ولكنه كتب إلى مدير الجامعة المصرية موضحا موقفه العام من «الدين» وهو موقف نابع من رؤيته لتكوين الشخصية تكوينا ازدواجيا أو تناقضيا، كما اتضح من أقواله.

يقول: كثر اللغط حول الكتاب الذي أصدرته منذ حين باسم «في الشعر الجاهلي»، وقيل إني تعمدت فيه إهانة الدين، ولم أخرج عليه وما كان لي أن أفعل ذلك وأنا مسلم أؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

ولكن الرافعي يفند هذا الكلام في فصول متعددة من كتابه «تحت راية القرآن وهي:

* عصبية طه حسين على الإسلام.
* قد تبين الرشد من الغي.

و «مسلم لفظا لا معنى» وهو من أشد المباحث ضراوة .

والرافعي في المقدمة يقول وهو يرجو أن يتراجع د . طه حسين عن آرائه التي قلد فيها الزنادقة وبعض المستشرقين يقول «وما نريد أن نزيد طه على ما قلنا مما سنقرؤه في هذا الكتاب، ولكنا نرجو أن يهديه الله فيكون من أمته ويعود إليها، فإنه إلا يكن بها لا يكن بغيرها، وإنها إلا تكن به تكن بغيره»[٧] .

وأرى أن الخلاف بين الرافعي وطه حسين يرجع إلى طبيعة منهج كل منهما وطريقته في التفكير ..

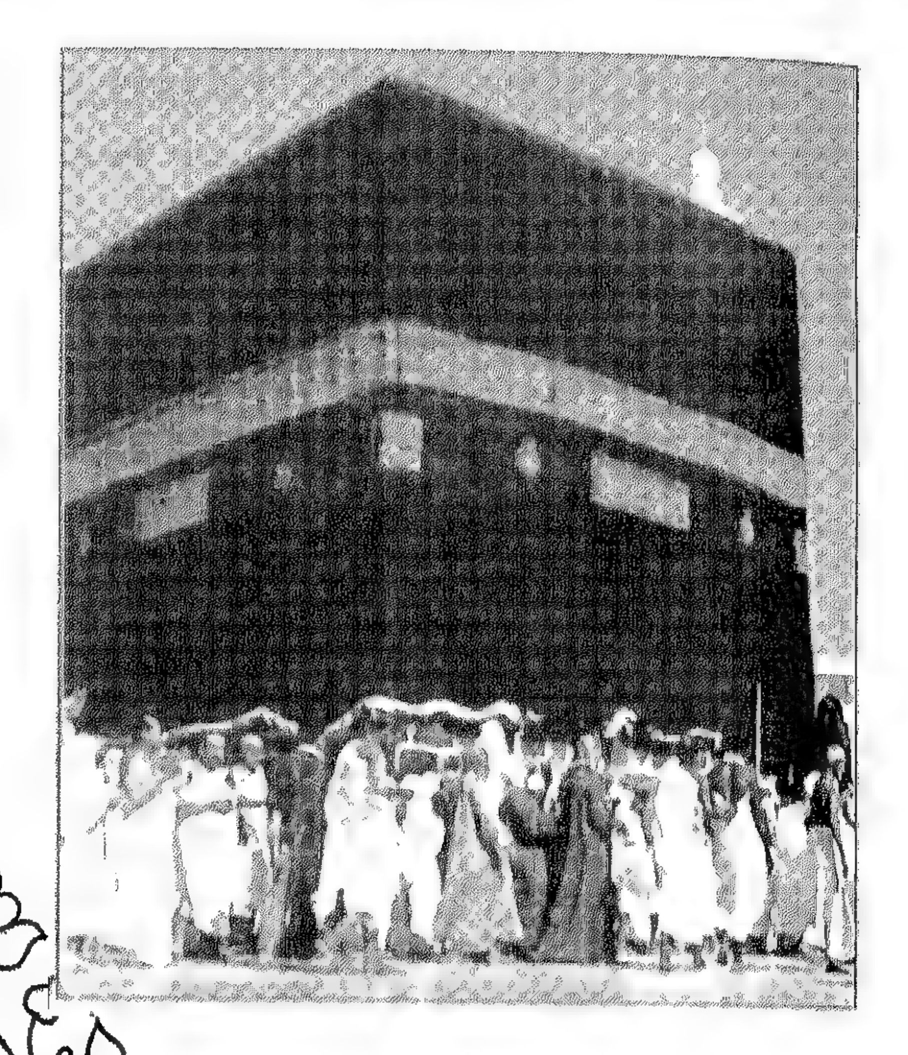
فالرافعي ينطلق من ثوابت الفكر الإسلامي، ومن الإحساس بقيمة التراث العربي، وعلومه ومناهجه.

والدكتور طه حسين متأثر بمناهج التفكير الغربية، وينطلق من قاعدة منهجية وهي التصادم بين التفكير العلمي، والتفكير الديني مع محاولة التوفيق بينهما في صورة تلفيقية أو خداعية من باب «التقية» .

والجزء الأول من كتاب «تحت راية القرآن» يجسد هذا التصور الذي يؤطر حقيقة الخلاف بين الرجلين فهو خلاف جذري، ومنهجي، وشخصي، وقد تضمن الكتاب ست مقالات في قسمه الأول .. وهي تفصيل لمنهج «الرافعي» ولموقفه من الثقافة الغربية ودعاوي التجديد والمقالات هي:

١ – المذهبان: القديم والجديد.
٢– الجملة القرآنية .
٣– ما وراء الأكمة
٤ – الرأي العام في العربية والفصحى.
٥– تمصير اللغة.
٦– جلد هرة.

وكل هذه المباحث تناقش ماهية القديم .. وماهية الجديد، وماذا نقبل منهما ؟ وماذا نرفض في ظل ثوابت الحضارة العربية، والثقافة الإسلامية: مع



رفض كل ما يتعارض معهما من مكونات الفكر «الأجنبي» وقبول الرؤى والأفكار والمناهج التي لا تتصادم مع مناهجنا وعقيدتنا .

جذور المعركة وبواعثها:

وحين نتأمل ونبحث عن جذور الخلاف بين الرافعي وطه حسين نجد أن طه حسين هو الذي بدأ بالهجوم على الرافعي متهما إياه بالجمود الفكري، وهو اتهام ينطلق من الخلاف المنهجي كما وضحت سابقا.

فالرافعي أسبق في الحياة الأدبية من طه حسين والعقاد.

وبدأ الرافعي بالنقد الأدبي مبكرا وسنه خمس وعشرون سنة، وكتب في «المقتطف» مقالا عن الشاعر محمود سامي البارودي سنة ١٩٠٥م . قال فيه «شاعر فحل مجود، ضيق الفكر، ضعيف الحبك في إبراز المعاني واختراعها .

ولكن طه حسين يبدأ بالهجوم على الرافعي .. ويسخر من منهجه في كتاب «تاريخ آداب العرب» فيقول في صحيفة «الجريدة» سنة ١٩١٢م إنه لم يفهم من هذا الكتاب حرفا واحدا».

وحين ألف الرافعي كتاب «حديث القمر» قرظه الأديب العالم «حفني ناصف»، ولكن د . طه حسين نقد هذا الكتاب نقدا لاذعا .. وقال في تهكم: «إن هذا التقريظ ليس من عمل حفني ناصف، بل من عمل الرافعي نفسه» .

وحين ألف الرافعي «رسائل الأحزان» التي كتبها إثر موقف «مي زيادة» المضاد منه بعد أن توهم أنها تبادله مشاعر المودة والمحبة .. وبعد أن سعى العقاد للوقيعة بينهما . تناول د . طه حسين والعقاد هذه الرسائل بالنقد العنيف، ومما زاد من ألم الرافعي في محنته مع «مي» أنها وقفت كما يقول «حسنين حسن مخلوف»، مع د . طه حسين في بعض ما أخذه على الرافعي ونشرته في مجلة «المقتطف» .

ويقول د . طه حسين في نقده للرافعي ونقد «رسائل الأحزان» نظلم الرافعي إذا قلنا إنه يشق على نفسه في الكتابة والتأليف بل أنت تنصفه إذا قلت: «إنه ينحت من صخر، إن كل جملة من هذا الكتاب تبعث في نفسي شعورا قويا مؤلما بأن الكاتب يلدها ولادة، وهو يقاسي من هذه الولادة ما تقاسي الأم من آلام الوضع».

ويقوم الرافعي بالرد معلنا اشتعال المعركة، واحتدام لهيبها فيكتب في «السياسة الأسبوعية» قائلاً:

الأستاذ الفهامة الدكتور طه حسين: يسلم عليك المتنبي ويقول لك:

وكم من عائب قولا صحيحا
وآفته من الفهم السقيم

قرأت يا سيدي ما كتبته عن «رسائل الأحزان» مما أتسمّح في تسميته نقدا، وألممت بالغاية التي أجريت لها كلامك، وما كان يخفى علي أن في الحق ما يسمى تعسفا، وفي النقد ما يدعى تهجما، وفي المنطق ما يعرف بالمغالطة، وفي كل صناعة ما هو انتحال ودعوى وتلفيق .

وانطلق الرافعي من هذه المقدمة الحادة الساخرة إلى التصريح بالهجوم على كتابات د.طه حسين في تاريخ الأدب قائلا: «أفلا تسأل نفسك لم لم تعجبني كل الفصول التي كتبتها في الأدب وتاريخه، وأنت تتخبط منذ سنين، وتكتب كل أسبوع مرة، فإن سألتها فهل تستخرج من ذلك إلا أن هذه الفصول هي في رأيي خلط مخلوط، تركب فيها الشطط، ثم تعتسف الطريق، ثم تضع التاريخ كما تخلقه أنت لا كما خلقه الله، وتصول على الأموات الذين لا يملكون دفعا ولا ردا ولا حوارا ولا جوابا»(١).

وتحت راية القرآن يظل الرافعي مقاتلا ومدافعا عن قيم الإسلام وثوابته ومعالمه لا يخشى في الله لومة لائم.

وهذه المعركة ما زالت مستمرة .. وما زال الفريقان يصولان ويجولان .. وكل يرفع رايته - ويشهر أسلحته ويعلن حجته - ولكن تبقى كلمة الله هي العليا.

وكما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ (سورة الأنبياء).

وما أروع الكلمات التي وصف بها الرافعي «القرآن الكريم» الذي عاش يستروح نسائمه، ويستظل برايته، ويدافع عن حقائقه، ويحتمي بآياته البينات. ■

الهوامش:

(١) مصطفى صادق الرافعي، حياته وأدبه، حسنين حسن مخلوف.
(٢) ص٣٨٨، تحت راية القرآن للرافعي.
(٣) انظر في هذا الموضوع «إعادة قراءة القرآن لجاك بيرك»، وردود د.محمد رجب البيومي، إصدار دار الهلال.
(٤) انظر ذلك بالتفصيل في كتاب «أصول الشعر العربي لمرجليوث»، ترجمة د. يحيى الجبوري.
(*) يعلق الرافعي قائلا بين قوسين «يعني وتكفر»!!!
(٥) انظر ص ٣٥٣ - ٣٥٤ تحت راية القرآن.
(٦) تحت راية القرآن ٣٥٦-٣٥٧.
(٧) ص ١٠ تحت راية القرآن.
(٨) انظر: مصطفى صادق الرافعي، حياته وأدبه، حسنين حسن مخلوف..

لقد أدى الرافعي رسالة كبرى في معركته الفكرية الواسعة، دفاعا عن اللغة العربية وأصالتها ودفاعا عن الإسلام وقيمه الغالية وحضارته الخالدة، وقرر في معظم كتاباته أن الحل الإسلامي هو الحل الصحيح لمشاكلنا، لكن ما معنى مؤامرة الصمت التي تقف اليوم إزاء تراث الرافعي العريق، أهي جزء من المؤامرة الشاملة ضد الإسلام وأهله في هذا العصر؟ أم هي مخلب من مخالب الغزو الفكري الذي يأبى إلا أن يطمس الحقائق النيّرة الباهرة في تاريخنا الإسلامي المعاصر؟؟

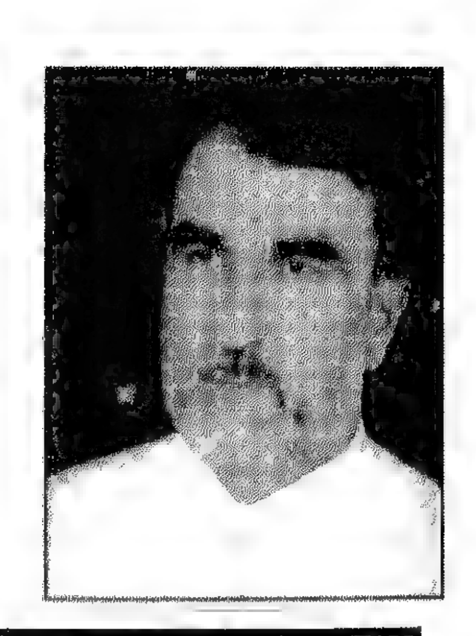
نجيب الكيلاني



من ملامح القصة عند الرافعي

هل يعد الرافعي كاتب قصة في نظر النقاد وأصحاب هذا الفن؟! يبدو أن الجواب: لا، بحسب معايير القصة القصيرة المعاصرة التي تأثرت بمعايير القصة الأوروبية ، ورسخت أسسها لدى مبدعيها وكتابها بدءاً من الترجمات ومروراً بالتمصير والتعريب وانتهاءً باستقلالية كتاب هذا الفن.

ولقد أجاب الرافعي في الجزء الثالث من وحي القلم بوضوح على هذا السؤال الذي طرح عليه، لا يحتاج القارئ معه إلى تأويل،وذلك في مقاله الذي بعنوان " فلسفة القصة ولماذا لا أكتب فيها "[1]، يقول الرافعي: "لم أكتب في القصة إلا قليلاً، إذا أنت أردت الطريقة الكتابية المصطلح على تسميتها بهذا الاسم، ولكني مع ذلك لا أراني وضعت كل كتبي ومقالاتي إلا في قصة بعينها، هي قصة هذا العقل الذي في رأسي، وهذا القلب الذي بين جنبي... " .



بقلم : شمس الدين درمش

ومع أن الرافعي يميل إلى الإطناب في مقالاته إلا أنه في هذه المقالة الجوابية أوجز إيجازاً كأنه يريد أن يقول للقراء : إن قضية القصة الاصطلاحية محسومة لديه لا مجال فيها للجدل، فهو يوضح قائلاً "وأنا لا أنكر أن في القصة أدباً عالياً، ولكن هذا الأدب العالي في رأيي لا يكون إلا بأخذ الحوادث وتربيتها في الرواية كما يربى الأطفال على أسلوب سواء في العلم والفضيلة، فالقصة من هذه الناحية مدرسة لها قانون مسنون، وطريقة ممحصة، وغاية معينة، ولا ينبغي أن يتناولها غير الأفذاذ من فلاسفة الفكر..." "وأما من عداهم ممن يحترفون كتابة القصص فهم في الأدب رعاع وهمج كان من أثر قصصهم ما يتخبط فيه العالم اليوم من فوضى



الغرائز.." [٢] إذن.. فقد اختار الرافعي أسلوبه في كتابة القصة عن قناعة، وترك أساليب القصة المصطلح عليها رغبة عنها لا عجزاً في أن يأتي بمثلها، بل يمكنه أن يكتب أحسن مما كان يكتبه معاصروه.

وكان الرافعي يجهد في كتابة القصة بطريقته، لأنها تحتاج إلى الفكرة ، ثم تقمص هذه الفكرة ومعايشتها، ثم الخوض في أعماق هذه الفكرة، ثم النفاذ إلى ما خلف الفكرة حتى تتكون لديه أفكار متسلسلة ودوائر متداخلة فيخرج بالأعاجيب من اللطائف في التحليل والتصوير والعبارات..

ومن ذلك ما يحكي لنا في قصة " الله أكبر" [٣] عن طريقته في كتابة القصة ومعاناته في ذلك بما يمكن أن نسميه قصة كتابة القصة لدى الرافعي، يقول : " جلست وقد مضى هزيع من الليل أهيئ في نفسي بناء قصة أديرها على فتى كما أحب خبيث داعر، وفتاة كما أحبت.. عذراء متماجنة، كلاهما قد درس وتخرج في ثلاثة معاهد: المدرسة والروايات الغرامية والسيما، وهو مصري مسلم وهي مصرية مسيحية.." ثم يكمل تخيل مسار القصة قائلاً : "وتمضي قصتي في أساليب مختلفة تمتحن بها فنون هذه الفتاة وشهوات هذا الفتى فلا يزال يمشي من حيث لا يصل، ولا تزال تمنعه من حيث لا ترده..." ويتابع موضحاً " ولكن الميلاد في قصتي لا يكون لرذيلة الفتاة بل لفضيلتها..." وتمضي القصة في خيال الكاتب فيقول: " ففي قصتي تذعن الفتاة لصاحبها في يوم قد اعترتها فيه مخافة.." ويصور تخيل الفتاة نتيجة وقوعها في الرذيلة ونشوء الجنين في بطنها، فتتخيل طفلها المسكين يصرخ في أذنها صرخة قبل أن يولد ويلقى في الشارع (الله أكبر) وكان ذلك صوت المؤذن لصلاة الفجر، يقول الرافعي:" ويكرر المؤذن في ختام أذانه الله أكبر.. الله أكبر.. فإذا.." .

ويتابع قائلا : " وتبلد خاطري فوقفت بناء القصة عند هذا الحد ولم أدر كيف يكون جواب : إذا، فتركت فكري يعمل عمله كما تلهمه الواعية الباطنة ونمت" .

وهنا ينتقل من عالم اليقظة إلى عالم الحلم فيدخل المسجد لصلاة العيد، والمسجد يضج بالتكبير، ويحلق الرافعي بالقارئ في شرح معاني الصلاة والتكبيرات ليصل إلى جواب إذا، الذي توقف عنده في اليقظة، ويأتي بذلك على لسان مَلَك في المسجد"فإذا لطمتان على وجه الشيطان فولى مدبراً ولم يعقب، ووضعت الكلمة الإلهية معناها في موضعه من قلب الفتاة فلأيا بلأي ما نجت".

فهل هذه قصة قصيرة بمعناها الاصطلاحي أم هي قصة كتابة القصة عند الرافعي؟!

إن قصة " الله أكبر" هذه قد استكملت شروطها من: فكرة البداية، إلى تنامي الحدث،إلى العقدة، إلى لحظة التنوير، ولكنها بأسلوب الرافعي الخاص.

ونحن نجد عند الرافعي عدداً من العناوين تتضمن كلمة (القصة) مثل قصة زواج وفلسفة المهر، وذيل القصة وفلسفة المال، وفلسفة قصة، وقصة أب، وقصة الأيدي المتوضئة، والسطر الأخير من القصة. مما يدل على أن التوجه نحو القصة واضح لدى الرافعي .

قصص الرافعي بين التراث والمعاصرة

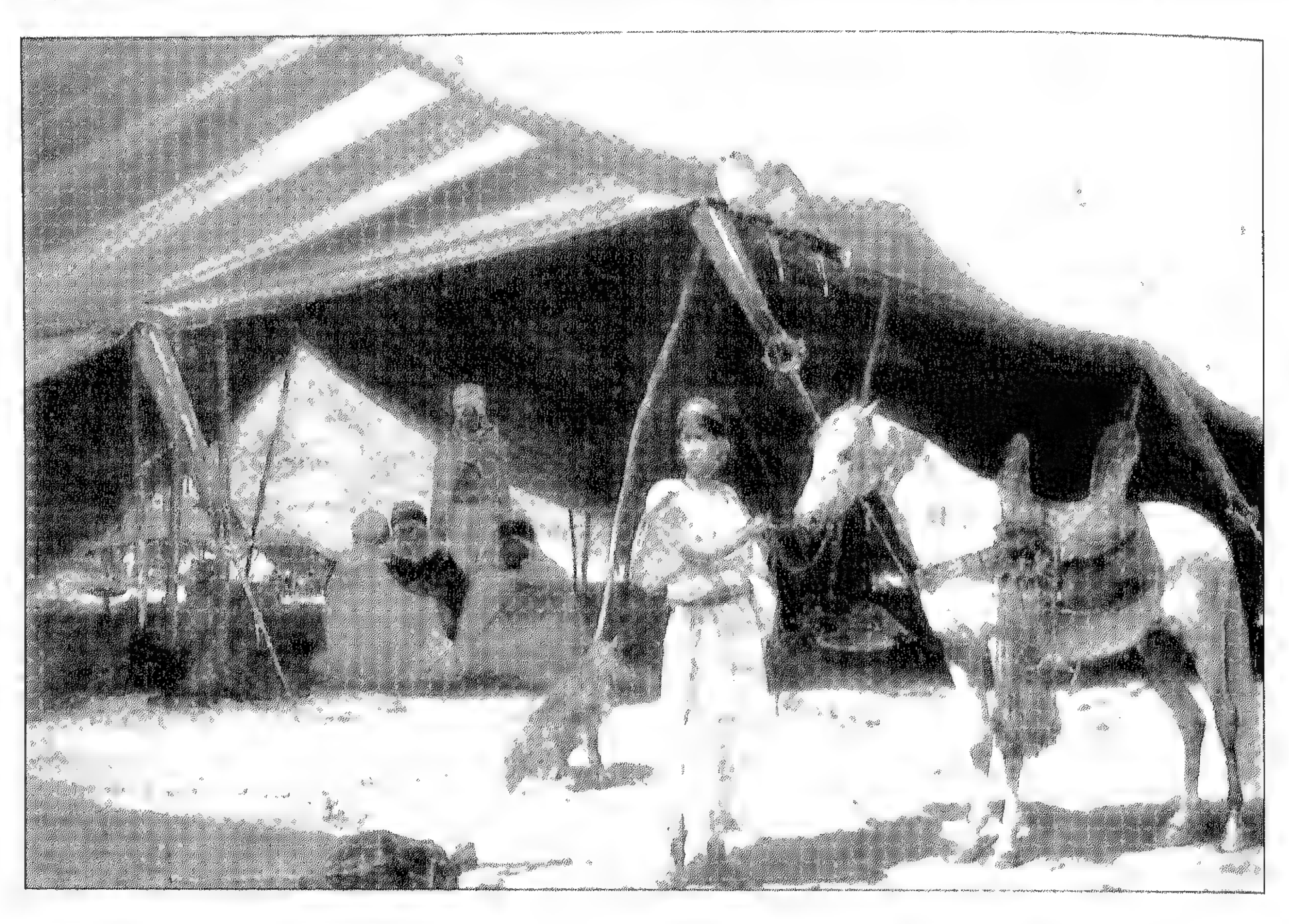
تنقسم قصص الرافعي في وحي القلم إلى نوعين:

١- قصص مستوحاة من التراث العربي الإسلامي.

٢- قصص مستوحاة من الواقع الاجتماعي المصري المعاصر.

وقد عددت في وحي القلم سبع عشرة قصة من التراث، وثلاثاً وعشرين قصة من الواقع المعاصر، ولم أحصها جميعا . وكل من قصصه التراثية والمعاصرة تنقسم إلى قصة مفردة من حلقة واحدة، وإلى قصة تتألف من حلقتين فأكثر حتى يصل بعضها إلى ثلاث عشرة حلقة، ويأتي في بعض الأحيان بما يسميه تكملة القصة أو ذيل القصة.





فمن القصص التراثية ذات الحلقة الواحدة قصة اليمامتان[٤]، وهي تحكي صورة من السماحة في الفتوحات الإسلامية عندما وصل عمرو بن العاص رضي الله عنه مصر وكانت (أرمانوس) ابنة المقوقس على أهبة الزفاف إلى قسطنطين بن هرقل قيصر الروم، فأكمل عمرو ابن العاص زواجها وزفها بحماية جيش المسلمين، وهي تعجب من هذا الحدث! غير أن عمراً لما أراد الرحيل وجد يمامتين بنتا عشاً على خيمته فترك الخيمة منصوبة حتى لا يفزع اليمامتين، وأمر ألا تطوى حتى تفرخ ويكبر الفراخ . وتتلاقى خيوط القصة في عالم الرحمة الإسلامية في لقاء أرمانوس وقسطنطين من جهة، وتفريخ اليمامتين من جهة أخرى في عش الزوجية معا!! رحمة شملت عالم الإنسان والحيوان .

ومثال القصة التراثية ذات الحلقات المتعددة قصة السمكة [٥] وهي من أربع حلقات، ويجعل لها تكملة بقصة أخرى بعنوان دعابة إبليس[٦].

ومن أمثلة قصصه من الواقع المعاصر ذات الحلقة الواحدة قصة الأجنبية[٧] ومثال القصة ذات الحلقات المتعددة قصة الجمال البائس[٨] وهي من خمس حلقات، ومن القصص التي يجعل لها تكملة قصة س . أ . ع [٩] وهي تعقيب على مقاله القصصي تربية لؤلئية، ويذيلها بقصة استنوق الجمل [١٠] ويستكملها هي الأخرى بقصة أرملة الحكومة [١١].

القصة الرمزية والعناوين المثناة عند الرافعي:

نجد عند الرافعي عدداً من القصص تميل إلى الرمزية، وذلك باتخاذها عناوين من شخصيات غير إنسانية من عالم الطيور والحيوانات والحشرات أحياناً، مثل قصة اليمامتان[١٢]، وحديث قطين[١٣]، وحوار بين خروفين في يوم العيد [١٤]، والسمكة، وكفر الذبابة [١٥]، والأخيرة على طريقة ابن المقفع في كليلة ودمنة بفكرتها وأسلوبها ويبدؤها قائلاً: " قال

كليلة وهو يعظ دمنة..."، ونضيف إلى ما مر من القصص ذات العناوين المثناة قصة العجوزان [١٦] والعناوين المثناة ذات دلالة واضحة على رغبة الرافعي في إدخال الحوار في قصصه .

شخصيات القصة

يختار الرافعي لقصصه شخصيات تناسب الزمان والمكان . فقصصه التاريخية يختار لها شخصيات حقيقية معروفة، وأخرى ربما صاغها على طريقة الأسماء القديمة مما لا نعرفها.

فلو أخذنا قصة زوجة إمام [١٧] لوجدنا فيها الشخصيات الآتية:

الإمام (أبو محمد سليمان الأعمش)، أبو معاوية الضرير، أبو عتاب منصور بن المعتمر، محمد بن جحادة، أبو جعفر الزاهد، الضحاك ابن مزاحم الهلالي، هشام بن عبد الملك، أبو حنيفة، زوجة الإمام، فهذه الأسماء وغيرها مما يوردها يجعل القارئ يعيش العصر وروحه ومعانيه.

أما شخصياته في قصصه غير التراثية فهي من العصر، ولكننا قد نجد فيها شيئاً من الرمز، ولعله لجأ إلى ذلك لأنه يحكي عن أشخاص وأحداث بعينها، فأراد أن يتجنب التصريح إلى الرمز، مثل قصة المجنون [١٨]، وشخصياتها تتألف من المجنون ويلقبه نابغة القرن العشرين، والكاتب، والمجنون الثاني الذى يلقبه نابغة القرن الحادي والعشرين، و(أ. ش) و (س . ع)، والدكتور محمد الرافعي وغيرهم . وكذلك قصته التي بعنوان: (س.أ.ع) ثلاثة رجال أدباء عزاب يناقشون مقالة تربية لؤلئية، وغيرها .

موضوعات القصص عند الرافعي:

من البداهة أن نقول. إن الرافعي يتحدث في موضوعات دينية، وذلك أنه ينظر في قصصه جميعاً إلى موضوعه بمنظار الإسلام، بل ذلك هدفه الأسمى الذي سخر له فكره وقلمه فيما كتبه من موضوعات، ولكننا نجد موضوعاته الاجتماعية تأخذ مساحة أكبر في قصصه بمحاورها في الحديث عن المرأة وما يخصها من الحجاب والسفور، والزواج والعزوبة، والزواج من الأجنبية وما ينتج عن مظاهر السفور والتبرج والعزوبة من الفساد، والتناقض بين الغنى والفقرفي طرفي الزواج وأثر ذلك سلبا في كثير من قضايا الزواج .

ومن القصص التي عالجت مثل هذه الموضوعات الجمال البائس، والمشكلة [١٩]، والأجنبية، والطائشة[٢٠]، و" س.أ.ع "، وبنت الباشا[٢١]، وهي قصص من واقع المجتمع المصري.

أما في قصصه التاريخية فنجد قصة قبح جميل[٢٢]، وسمو الحب [٢٣]، وزوجة إمام حيث يعرض لمعنى المرأة والزواج، وحل المشكلات الزوجية .

ويتناول الرافعي موضوعات ذات صبغة سياسية في بعض قصصه التاريخية مثل قصة الأسد في خبر الرجل الصالح العالم بنان مع أحمد بن طولون، وقصة أمراء للبيع التي يعرض فيها لخبر عز الدين بن عبد السلام مع أمراء المماليك . ومن قصصه المعاصرة مجموعة أحاديث الباشا [٢٤] الذي رمز له بـ(م) في ثلاث عشرة حلقة، ووضع لكل حلقة عنواناً مثل: الطماطم السياسي، البك والباشا،و الأخلاق المحاربة،


اليمامتان

جاء في تاريخ الواقدي «أن (المقوقس) ... (أرمانوسة) من (قسطنطين بن هرقل) وجهزها بأمو... بنتي[١] عليها في مدينة قيسارية[٢]؛ فخرجت إلى بلبيـ... عمرو بن العاص إلى بلبيس فحاصرها حصاراً شديداً ... زهاء ألف فارس، وأسرهم من بقي إلى المقوقس، وأخذ ... وأخذ كلُّ ما كان للقبط في بلبيس. فأحبّ عمرو ملاطفة ا... مكرَّمة في جميع مالها، (مع قيس بن أبي العاص السهمي)».

• • •

هذا ما أثبته الواقدي في روايته، ولم يكن معنيًا إلا بأخبار ... فكان يقتصر عليها في الرواية؛ أما ما أغفله فهو ما نقصُّه نحن.

كانت لأرمانوسة وصيفةٌ مولدةٌ تسمّى (مارية)، ذاتُ جمال يو... ومسحة بسحرها، قد جعلها على أن يكون مصريًّا، ونقص الحـ... يكونه؛ فهو أجملُ مبهماً، والمعنى طعمةٌ خاصةٌ في الحسن؛ فهي قد ... جمال نسائها أو تشتقُّ منه، وقد لا توفيه جهد محاسنها الرائعة؛ ولكـ... فيها جمالٌ ينزع إلى أصلٍ أجنبيٍّ أفرغتْ فيه سحرها إفراغًا، وأبتِ الا... الغالبة عليه، وجعلته أينما في المقابلة بينه في طابعه المصري، وبين طبيعةٍ أرضيه كائنة ما كانت؛ تمتاز على سحرها أن يكون إلا الأعلى.

وكانت ماريةُ هذه مسيحيةً قوية الدين والعقل، اتّخذها المقوقس كنيـ... لابنته، وهو كان واليًا وبطريركًا على مصر من قِبَل هرقل؛ وكان من عجائب ...

وخضع يخضع، والمعجم السياسي، وسر القبعة.. إلى آخر ذلك.

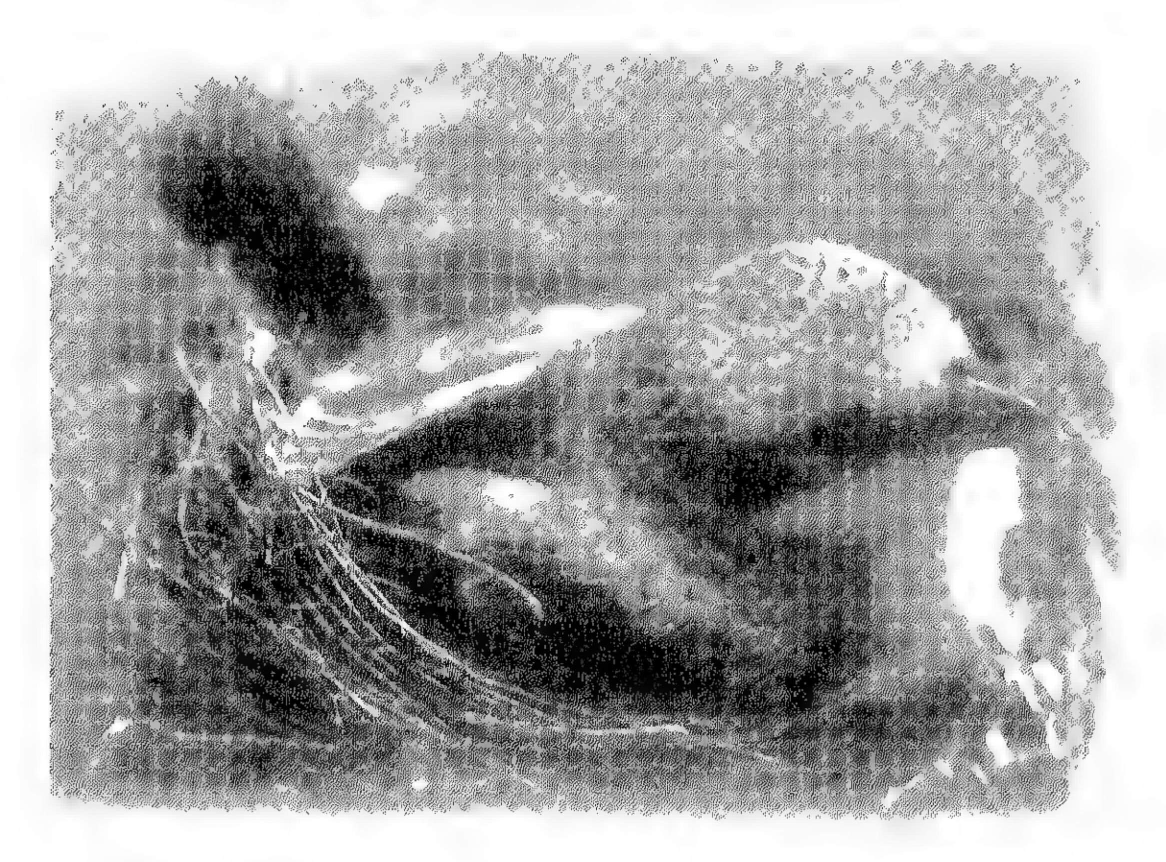
ووضع بعض قصصه لمعان دينية خاصة مثل قرآن الفجر[٢٥]، وقصة الأيدي المتوضئة [٢٦] ويعنى فيها بقضية صلاة الجمعة وخطبائها وعلاقتها بحياة الأمة، وفي فلسفة قصة [٢٧] يحكي ذهاب الرسول ﷺ إلى الطائف وما تعرض له من الأذى، وبعدها مباشرة قصة فوق الآدمية الإسراء والمعراج [٢٨] وهي متصلة بما قبلها .

وللرافعي قصص ذات مضمون أدبي فكاهي مثل قصة المجنون في سبع حلقات، وهما مجنونان يقيم الرافعي بينه وبينهما حوارات طويلة يضع فيها كثيراً من النوادر، ويوضح ذلك قائلاً : " ويا ربما جاء من النوادر في اجتماع مجنونين ما لا يأتي مثله من عقلين يجتمعان على ابتكاره، غير أني خشيت أن أكون أنا المجنون الثالث بينهما، ثم لا آمن أن يثب أحدهما بالآخر إذا خطرت به الخطرة من شيطانه، فرأيت أن يكون لي ظهير عليهما...، وكان إلى قريب مني الصديق - أ. ش - فأرسلت في طلبه"[٢٩].

قصص الرافعي وعالم الرؤى والأحلام

يعتمد الرافعي الرؤى والأحلام في عدد من قصصه التاريخية والمعاصرة مما يشكل ظاهرة أسلوبية في آلية الكتابة لديه . ويلجأ إلى هذا الأسلوب في سير الأحداث في القصة لتشكيل العقدة وحلها، فيعطي القارئ متعة المفاجأة لأنه يأتي بالغرائب في الأحلام والرؤى مما لا ينكره القارئ عقلاً، ولا الناقد منطقياً في تسلسل الأحداث، وخصوصاً عندما يريد أن يتحدث عن عالم الآخرة، وعن الشيطان، وعن الملك .

وقد شكلت كلمة الرؤيا أو الأحلام بعض عناوين قصصه في الجزء الأول مثل أحلام في الشارع، وأحلام في قصر، ورؤيا في السماء . ومن القصص التي تشكل الرؤيا جزءاً مهماً في تكوينها بنته الصغيرة [٣٠] وهي قصة توبة مالك بن دينار، وقصة



الله أكبر، وقصة الانتحار[٣١]، وقصة السمكة، وقصة الشيطان[٣٢]، وقصة تاريخ يتكلم [٣٣] والأخيرة تعتمد على آلية الرؤيا كليا، إذ يصرح في افتتاحيتها قائلاً : " أيعرف القراء أن في الأحلام أحلاماً هي قصص عقلية كاملة الأجزاء، محكمة الوضع، متسعة التركيب، بديعة التأليف، تجعل المرء حين ينام كأنه أسلم نفسه إلى (شركة من الملائكة) تسيح به في عالم عجيب كأنما سحر، فتتحول إلى قصة ؟. إن يكن في القراء من لا يعلم هذا فليعلمه مني، فإني كثيراً ما أقرأ وأكتب في النوم، وكثيراً ما يلقى علي من بارع الكلام، وكثيراً ما أرى ما لو دونته لعد من الخوارق والمعجزات.

وهذه القصة التي أرويها اليوم كانت المعجزة فيها أني مشيت في التاريخ كما أمشي في طريق ممتدة، فتقدمت إلى أهل سنة ٣٩٥ هجرية وما يليها، فعشت معهم، وتخبرت من أخبارهم، ثم رجعت إلى زمني لأقص ما رأيته على أهل ١٣٥٣ هجرية " . والقصة تعالج مشكلة (الحاكم بأمر الله) في مصر وما جرى على يديه من الظلم في وقته حتى ادعى الألوهية، وكان ولوعاً بالنساء ففكرت أخته (ست الملك) والأمير سيف الدين في قتله، ويكون الرافعي في مستشاريها، فيقول في خاتمة القصة وهي ما نسميها بلحظة التنوير: " ورأيت أني اجتمعت بهما

واطمأنا إلي فأخذنا ندير الرأي، قالت الأميرة لسيف الدين فيما قالته: والرأي عندي أن تتبعه غلماننا يقتلونه إذا خرج في غد إلى جبل المقطم، فإنه ينفرد بنفسه هناك.

فقلت أنا: ليس هذا بالرأي ولا بالتدبير!

قالت: فما الرأي والتدبير عندك؟

قلت: إن لنا علماً يسمونه علم النفس، لم يقع لعلمائكم، وقد صح عندي من هذا العلم أن الرجل طائش الغريزة مجنونها، وأن الأشعة اللطيفة الساحرة التي تنبعث من جسم المرأة هي التي تنفجر في مخه مرة بعد مرة، فإذا خبت هذه الأشعة وبطلت الغريزة بطلت دواعي أعماله الخبيثة كلها... فإذا...

قال الأمير: فإذا ماذا؟

قلت: فإذا خصي...

فضحكت ست الملك ضحكة رنت رنينا !!

قلت: نعم فإذا خصي هذا الحاكم...

فغلبها الضحك أكثر من الأول، ورمت بمنديل لطيف كان في يدها أصاب وجهي، فانتبهت وأنا أقول: نعم إذا خصي هذا الحاكم.." . ونجد مثل هذا في مواضع أخرى من قصصه .

شخصية الراوي في قصص الرافعي

يبدأ الرافعي معظم قصصه، أو يدخل فيها شخصية " الراوي" مثل قصة الطائشة التي تبدأ بـ " قال صاحبها وهو يحدثني بحديثها!"، وفي قصة الجمال البائس يستخدم عبارة " قال الراوي"، وفي قصة المشكلة يبدأ بـ " قالت لي صاحبة الجمال البائس فيما قالت: " وهذه قصص من الواقع المعاصر . أما قصصه التاريخية فإن من طبيعتها ترشحها لأن تبدأ بأسلوب قال، وحدث، مما يناسب أسلوب العصر الذي يسرد قصصه مثل قصة الانتحار في ست حلقات تبدأ بـ " حدث المسيب بن رافع الكوفي قال: " في الحلقة الأولى ثم تليها الحلقات الأخرى بـ " قال المسيب بن رافع ".

وفي قصة السمكة وما تتلوها من قصص الزاهدان[٣٤]، وإبليس يعلم[٣٥]، والدنيا والدرهم[٣٦]، ودعابة إبليس فهي مجموعة واحدة تبدأ جميعاً بـ"حدث أحمد بن مسكين الفقيه البغدادي" أو " قال أحمد بن مسكين "...

التعليق على القصص بعد لحظة التنوير:

.. وذلك أن القارئ يشعر بانتهاء القصة، لكن الكاتب لا يتركه، بل يذيل قصته بالتعليق على الفكرة التي يريد أن يوصلها إلى القارئ فيستمر في الحديث قليلاً أو كثيراً، وربما صرح بذلك بعبارات واضحة، وهي ظاهرة مقصودة هادفة ناشئة أساساً من عدم اقتناع الرافعي بأسلوب القصة الاصطلاحية كما ذكر في مقاله " لماذا لا أكتب القصة "، ومن اختيار طريقته الخاصة في بناء القصة وسردها المتأثر أساساً بالتراث القصصي العربي الإسلامي، وتجنبه أساليب الآداب الأوروبية المترجمة شكلاً ومضمونا، ولعله من هنا وقع هذا الانفصال بينه وبين نقاد القصة الذين لا يرون ما يكتبه الرافعي قصة فنية، ويصنفون كتاباته في وحي القلم جميعاً في المقالات . غير أن بعض هذه التذييلات أقرب إلى الدعابة وليس فيها ما يخص فكرة القصة نفسها. ومن أمثلة هذه النهايات:

في قصة الدرهم والدينار من أحاديث أحمد ابن مسكين تنتهي القصة بقول عمر رضي الله عنه حين سأل عن رجل: " قال عمر: أظنك رأيته قائماً بالمسجد يهمهم بالقرآن يخفض رأسه طوراً ويرفعه أخرى؟ قال: نعم. قال: اذهب فلست تعرفه ". فيتابع الكاتب التعليق على معنى التاجر والدرهم والدينار في أحد عشر سطراً آخرها قوله : " هذا هو الإسلام الذي غلب الأمم لأنه قبل ذلك غلب النفس والطبيعة[٣٧] . وهذه النهاية مما لها علاقة في تعزيز الفكرة والهدف من القصة.

ومن النهايات التي هي أقرب للدعابة قوله في نهاية أحاديث الباشا: " اعتذار: بهذا المقال انتهت



أحاديث الباشا، فقد أنبأنا صاحب السر أنه سيكتم السر.! " (٣٨).

وفي نهاية قصة المجنون يقول : " والرواية الآن؟ رواية عربة الإسعاف" (٣٩) . ولم أجد في وحي القلم عنواناً عن رواية عربة الإسعاف. ولكنه يذكر عربة الإسعاف في قصة أحلام في الشارع ، وربما كان ينوي كتابة قصة مستقلة عنها فلم يفعل!!

أما قصة صاحب القلب المسكين فقد ذيلها الرافعي بهذه الفقرة : " جائزة ! لمن يحكم كتابة الحكم في هذه القضية خمس نسخ من كتاب وحي القلم، وترسل المقالات باسمنا إلى طنطا، والموعد آخر شهر يناير هذا، والشرط رضا المحكمين ومنهم صاحب القلب المسكين وصاحبته "(٤٠).

العناية بالمعاني النفسية وإغفال الأوصاف الحسية.

من أبرز مظاهر كتابة القصة عند الرافعي عنايته بالمعاني النفسية، وتدقيقها ومتابعتها والاستطراد فيها، وهو مقابل ذلك يغفل العناية بالأوصاف الحسية لشخصيات قصصه، وخصوصاً تلك القصص الاجتماعية التي تكون فيها المرأة شخصية رئيسة، وكأنه قصد إلى ذلك قصداً ليعطي صورة مخالفة تماماً لظاهرة العناية بالوصف الحسي إلى درجة إثارة الغريزة الجنسية لدى القارئ مما هو معروف في القصة المعاصرة لدى معظم الكتاب، فإن قصصاً مثل أحلام في قصر، وبنت الباشا، والطائشة، والجمال البائس، والمشكلة، تعد المرأة الشابة الشخصية الرئيسة فيها، ومثل هذه القصص مرتع خصب للوصف الجسدي وإبراز المفاتن وإثارة الغرائز، لكن الرافعي يتجنب كل ذلك مركزاً على الهدف السامي من قصصه، وهو توجيه المجتمع إلى الخير وتجنيبه الرذائل .

ولا شك أنه يتخذ القصة القرآنية مثله الأعلى في هذا حتى إنه يشرح في قصة " سمو الحب " آية : ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ ... ﴿٢٣﴾ (سورة يوسف)، ويطيل الوقوف في معانيها وأسرارها. وتعد قصة في اللهب ولا تحترق(٤١) من المتناقضات التي يقدمها الرافعي في الحياة، وصورة من صراع الخير والشر في النفس الواحدة، إذ يحكي فيها قصة فتاة تعمل راقصة في الليل حتى إذا طلع الفجر وانصرف الناس عنها أقبلت تصلي؟! والرافعي نفسه يعجب مما يقدمه لنا، ويثير سؤال الاستغراب فينا، فيبدأ قصته بهذا السؤال: " أفي الممكن هذا ؟ " ويختم قصته قائلاً: " تختنق بالرقص وتنتعش بالصلاة، وفي كل يوم تختنق وتنتعش، ولكنني لا أزال أقول: أفي الممكن هذا؟ أفي المترادف شرعاً: رقصت وصلت.؟ " والشاهد في القصة هنا ليس هو هذا النزاع النفسي والصراع بين الخير والشر داخل الإنسان، إنما هو أسلوب الرافعي في عرض قصة هذه الفتاة التي تكون في مظهرها بين طرفي نقيضين حين ترقص وحين تصلي، فهولا يتجاوز كلمات قليلة في وصفها الحسي بعيداً عن الإثارة الجنسية الغريزية .

معركة الرافعي مع إبليس.

خاض الرافعي معارك متعددة في الأدب والفكر، كتب عنها الكثير، ولكن معركته مع إبليس لم يكتب عنها أحد . ويعطي الرافعي في قصصه مساحة



واسعة للمعركة مع إبليس أو الشيطان، وسمى عدداً من قصصه بهذا الاسم مباشرة مثل: إبليس يعلم، ودعابة إبليس، والشيطان، وشيطان وشيطانة[٤٢] بالإضافة إلى تعرضه لدور الشيطان في قصص عديدة خلال أحاديث النفس والوساوس . وفي مقابل ذلك يحاول إقامة ما يشبه معادلة في الصراع داخل النفس فيستعين بشخصية الملك في مواضع عدة ليقوي جانب الخير، ومن ذلك ما مر ذكره في قصة الله أكبر عندما أغلق عليه جواب (إذا) فاستكمله من الملك في المنام، إذ يقول له الملك: " فإذا لطمتان في وجه الشيطان فولى مدبراً ولم يعقب.." [٤٣]، وتعد قصة إبليس يعلم في الحلقة الثالثة من قصة السمكة التي يرويها أحمد بن مسكين إحدى أشد معاركه ضراوة مع إبليس وتأتي نهايتها كالآتي : " قال أحمد بن مسكين : وغضب الشيخ، فمد يده فأخذ فيها عنق إبليس، وقد رآه دقيقا، ثم عصره عصرا شديدا يريد خنقه، فقهقه الشيطان ساخرا منه . ويتنبه الشيخ، فإذا هو يشد بيده اليمنى على يده اليسرى".

إدخال العامية في بعض القصص

من المتفق عليه أن الرافعي كان المدافع الأول عن العربية الفصحى ضد دعاة العامية والتغريب، وقد تميز بأسلوبه العربي الأصيل، ومع ذلك نجده في كتابه وحي القلم يدخل العامية في قصتين من قصصه، مما يجعل القارئ يتساءل عن الدافع لذلك!

الأولى في قصة بنت الباشا، والتي فقدت سعادتها لأنها أجبرت على التخلي عن الشاب المتعلم الفقير الذي أحبته وأحبها، وأجبرت على الزواج من ابن أسرة غنية شقيت معه، وكان خلف قصرها منزل زبال راض بحياته، فإذا أوى إلى منزله ليلا رفع صوته بالغناء :

يا ليل يا ليل يا ليل ! ما تنجلي يا ليل
القلب أهو راضـي لك حمدي يا ربي
من الهموم فاضـي افرح لي يا قلبـي

ويمضي الرجل الفقير في غناء زجله بالعامية، فتزداد بنت الباشا الغنية شقاء على شقائها.

والقصة الأخرى هي بعنوان السطر الأخير من القصة [٤٤] وهي قصة طفل سرق علبة كبريت من دكان القرية، فقبض عليه وسلمته الشرطة إلى المحكمة، ومع أنهم استردوا علبة الكبريت، فقد حكم عليه القاضي بالسجن ستة أشهر يقضيها في إصلاحية الأحداث، ليخرج منها مجرما محترفا سيق إلى الإعدام بعد سنوات، لأن الإصلاحية لم تصلحه، بل أفسدته !، وفي المحكمة يجري الرافعي حوارا بالعامية بين القاضي والطفل المتهم .

فما الذي دفع الرافعي إلى إدخال العامية في هاتين القصتين ؟

قد يقول قائل : ما كان للرافعي إلا ان يقدم زجلا بالعامية على لسان الزبال، وحوارا بالعامية على لسان الطفل مراعاة للواقع . ولكن الرافعي يعرض في قصصه إلى حالات كثيرة مثل هذه ولا يلجأ إلى العامية، ويقدم حوارات بالفصحى بين الأطفال، ومع شخصيات مماثلة للزبال، ففي قصة الطفولتان، وفي قصة عربة اللقطاء [٤٥] ينشئ حوارات بين الأطفال تدور بالفصحى، وكذلك يتحاور الحوذي الذي يسوق العربة مع صديقه أبي هاشم ، ولم يحتج الرافعي إلى العامية لمجاراة الواقع، وهذا نموذج للحوار الفصيح بين طفل إلى جانب أمه مع آخر لقيط :

– أأنتم جميعا أولاد هاتين المرأتين أم إحداهما ؟

– قال اللقيط : هما المراقبتان، وأنت أفليست هذه التي معك مراقبة ؟

– قال الطفل : ما معنى مراقبة ؟! هذه ماما .

– قال اللقيط : فما معنى ماما ؟ هذه مراقبة !!

– قال الطفل : وكلكم أهل دار واحدة ؟

– قال اللقيط : نحن في الملجأ، ومتى كبرنا أخذونا إلى دورنا .

وهنا أتساءل : هل اصطنع الرافعي العامية في هاتين القصتين ليقول لكتاب القصة بالعامية : إن ما

يتباهون به من أساليب ليس بشيء، بل هي من أيسر ما يمكن الكتابة به، ولكن له طريقا آخر، وغاية أخرى يمشي فيها ليصل إليها !.

وبعد :

فإن موضوعات " وحي القلم " على خمسة أقسام، وهي :

١- قصص تتحقق فيها الشروط الفنية للقصة بمقاييسها الاصطلاحية المعاصرة، وهي قليلة لديه كما ذكر هو نفسه في مقاله : لماذا لا أكتب القصة ؟ .

٢- قصص من التراث، وهذه لا تلتزم بالمقاييس الفنية المعاصرة للقصة . وهي لاتقل جمالا عن القصة المعاصرة .

٣- قصص تظهر عليها طابع المقال .

٤- مقالات يدخل فيها بعض أساليب القصة .

٥- المقالات التي تتوافر فيها الشروط الفنية المعاصرة للمقالة، وهي مبثوثة في الجزأين الأول والثاني، وتغلب على الجزء الثالث من وحي القلم، وخصوصا النصف الثاني منه، في مقالاته الأدبية والنقدية في إسماعيل صبري، وحافظ إبراهيم وأحمد شوقي وعلي محمود طه .. وغير ذلك .

وآمل أن يقوم بعض الدارسين في تناول القصة عند الرافعي في رسالة جامعية لتسجيل ملامحها، ومضامينها، وأهدافها، وأن ينقدها ليس بميزان النقد الحديث فحسب، بل من خلال ما اختاره الرافعي لنفسه من رؤية خاصة في القصة أيضا . ■

الهوامش:

(١) وحي القلم ، مصطفى صادق الرافعي ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، بيروت ، طبعة جديدة ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ٢٤٣/٣ .
(٢) السابق ، ٢٤٤/٣ .
(٣) السابق ، ٣٠٠/١ .
(٤) السابق ، ١٢/١ .
(٥) السابق ، ١٥٢/٢
(٦) السابق ، ١٨٠/٢
(٧) السابق ، ٢٣٧/١
(٨) السابق ، ٢٥١/١
(٩) السابق ، ١٩١/١
(١٠) السابق ، ١٩٩/١
(١١) السابق ، ٢٠٦/١
(١٢) السابق ، ٦١/١
(١٣) السابق ، ٤٤/١
(١٤) السابق ، ٥١/١
(١٥) السابق ، ٢٠٧/٢
(١٦) السابق ، ٥٤/٣
(١٧) السابق ، ١٢٤/١
(١٨) السابق ، ٢٩٩/٢
(١٩) السابق ، ٣١٣/١
(٢٠) السابق ، ١٥١/١
(٢١) السابق ، ٨٢/١
(٢٢) السابق ، ١٤١/١
(٢٣) السابق ، ٩٣/١
(٢٤) السابق ، ٢٤٦/٢
(٢٥) السابق ، ٢٥/٣
(٢٦) السابق ، ٢٢٩/٢
(٢٧) السابق ، ٢٣/٣
(٢٨) السابق ، ٢٩/٢
(٢٩) السابق ، ٣٠٦/٢
(٣٠) السابق ، ٢٢١/١
(٣١) السابق ، ٨٢/١
(٣٢) السابق ، ١٨٧/٢
(٣٣) السابق ، ١٩٧/٢
(٣٤) السابق ، ١٦١/٢
(٣٥) السابق ، ١٦٧/٢
(٣٦) السابق ، ١٧٤/٢
(٣٧) السابق ، ١٧٩/٢
(٣٨) السابق ، ٢٩٨/٢
(٣٩) السابق ، ٣٤٧/٢
(٤٠) السابق ، ١٤٧/٣
(٤١) السابق ، ٣٠٧/١
(٤٢) السابق ، ١٥٦/٣
(٤٣) السابق ، ٣٠٥/١
(٤٤) السابق ، ٧٨/٣
(٤٥) السابق ، ٢٩٢/١

رب بالإسلام قد هديتني   رب من نورك قد آتيتني
فعلي العهد ما أحييتني   أحرس الكنز الذي وهبتني
أو أموت دونه موت البطل   ثابتا أحيا بقلب من جبل
نيرا أحيا بروح من شعل   جاهدا أحيا بجسم من عمل
ساعيا بالخير مضرب المثل

مصطفى صادق الرافعي



الشاعر والمتلقي في كتاب وحي القلم للرافعي



إننا عندما ننظر في الخطاب النقدي العربي منه والغربي نجد أن اهتمام النقاد انصب على مجموعة من العناصر ومنها: الشاعر والشعر والمتلقي. كما تحدث هؤلاء النقاد عن رسالة الشعر وعن الآثار التي يخلفها في الناس وغير ذلك مما يتصل بالعمل الإبداعي.

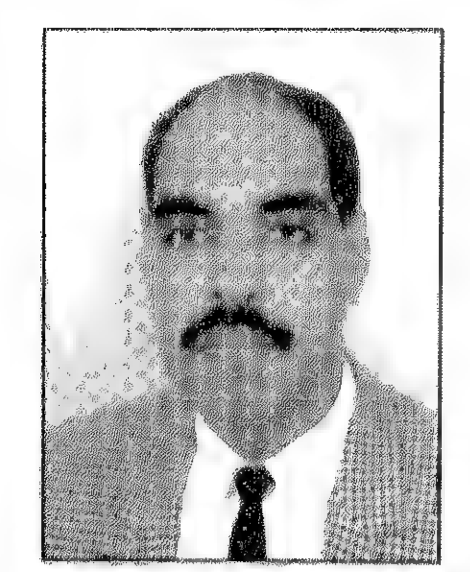
وما اختلاف النقاد والمناهج النقدية إلا باختلاف اعتماد كل واحد منها على عنصر دون الآخر. أو الجمع بين بعضها في بعض الأحيان.

ونريد في هذا البحث أن نتحدث عن الشاعر وجمال شعره وعن المتلقي كما يعالجها مصطفى صادق الرافعي في كتابه " وحي القلم ".

ونشير في البداية إلى أن هذه العناصر كلها استأثرت باهتمام هذا الناقد باعتبار أنه يرى أن جمال الشعر في آخر المطاف مبني على تلاحم هذه العناصر كلها دون إهمال عنصر منها. ولعل فشل بعض المناهج النقدية في الإلمام بكل عناصر العملية الإبداعية آت من تركيزها على عنصر واحد في نقد العمل الإبداعي وإهمال العناصر الأخرى.

ورحلتنا مع كتاب " وحي القلم " تبتدئ بالحديث عن الشاعر. فكيف نظر الرافعي إلى الشاعر في كتابه هذا؟





بقلم: د. إسماعيل علوي*
المغرب

إن الحديث عن الشاعر من الأمور الضرورية في النقد الأدبي لأن الشاعر هو منبع الشعر .ومن ثم كان الحديث عن حياته وظروفه وطبعه وأخلاقه وبيئته وغير ذلك.

وقد اهتم المنهج التاريخي بهذا المنحى واعتمده بعض الغربيين:"سانت بوف" و"هيبولي تين" و"لانسون" وإذا نظرنا إلى الأدب العربي نجد أن " المنهج التاريخي نما نموا عظيما،فهذه دراسات جورجي زيدان وأحمد الإسكندري والشيخ المهدي تبدأ الطريق ...فقد أخذت تدرس عصور الأدب ...وتدرس شيئا عن الشخصيات..أما أول مؤلف سلك هذا المنهج سلوكا حقيقيا فهو الدكتور طه حسين في كتابه الأول "ذكرى أبي العلاء ..."[١].

وإذا كان لهذا المنهج جوانبه القوية فإن له جوانب سلبية كذلك لإغفاله للنص ومتلقيه.وقد اهتم مصطفى صادق الرافعي بدوره بالشاعر في عدة مستويات تتناول مؤهلاته وما امتلكه من قدرات.

وقد عد هذا الناقدُ الشاعرَ ذلك الإنسان الذي يتوافر على مؤهلات ليست لغيره من الناس. فهو يرى الأشياء بطريقة مختلفة تمكنه من الغوص في أغوارها واكتناه أسرارها .وذلك لأنه:" يرى الطبيعة كلها بعينين لهما عشق خاص وفيهما غزل على حدة[٢].

ويحدثنا الرافعي كذلك عما يمتلكه الشاعر من مؤهلات في قوله:"والإنسان من الناس يعيش في عمر واحد،ولكن الشاعر يبدو كأنه في أعمار كثيرة من عواطفه،وكأنما ينطوي على نفوس مختلفة تجمع الإنسانية من أطرافها .وبذلك خُلق ليفيض من هذه الحياة على الدنيا،كأنما هو نبع إنساني للإحساس يغترف الناسُ منه[٣].

إن العاطفة من العناصر التي تدخل في قدرات الشاعر باعتبار أنها تكون لديه متأججة متحركة حية.وهو بذلك يجمع ما تفرق في نفوس أخرى ويضم كثيرا مما انطوت عليه أعمار آخرين.

ومن هنا حق له أن يكون نبعا إنسانيا يمد الناس بشعره المشتمل على هذه العواطف في كل أغراض الشعر ومواضيعه.وأشار الرافعي في هذا النص إلى عنصر آخر من أهم عناصر قوة الشاعر وهو الإحساس.ومما لاشك فيه أنه مرهف لدى الشاعر متميز برقته.وبذلك يكون بمثابة المرآة التي تعكس ما تكون عليه أحوال الناس في مجالات عدة.

ومن هنا يكون الناس في مسيس الحاجة إلى الشاعر لأنه يرشدهم بعاطفته وعشقه وإحساسه إلى ما لم يروه في الطبيعة وفي أنفسهم.ويعمل هذا الإحساس الرقيق لدى الشاعر المؤمن في مجالين:فهو بمثابة المنبه للناس إذا زاغوا عن الطريق أو أرادوا إفساد الجمال المبثوث فيهم وفيما حولهم.كما أنه يستشعر صور الجمال التي قدمها الناس في كل المجالات ويهيب بهم أن يحافظوا عليها ويستمروا في إبداعها.

ويعدد لنا مصطفى صادق الرافعي مؤهلات أخرى لدى الشاعر حيث يقول:"هناك قُوى روحية لإدراك الجمال وخلقه في الأشياء خلقا هو روح الشعر وروح فنه،وقوى أخرى لصلة العواطف بالفكر صلة هي سر الشعر وسر فنه، وقوىً غير هذه وتلك لتحويل ما يخالج النفس الشاعرة تحويل المبالغة التي هي قوة الشعر وقوة فنه؛ وبمجموع هذه القُوى كلها تمتاز روح الشاعر من غير الشاعر[٤].

---

* جامعة محمد الأول، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، وجدة.

فهناك مجموعة من القوى يمتاز بها الشاعر،وبها يُعرف.وفي كل هذه القوى بعد روحي يكون بمثابة الطاقة التي تجمع وتوحد بين الفكر والعاطفة وبين النفس والعقل فيكون الإبداع عبارة عن شحنة قذفت في كيان الشاعر فتولد الشعر.

وقد تحدث الرافعي في مقاله "سر النبوغ في الأدب" عن جهاز التوليد لدى العباقرة والمبدعين.وقوامه هو جماع ما ذكر من مؤهلات سابقة. ومن هنا يتبين لنا اهتمام هذا الناقد بالشاعر الذي يتأثر سلبا وإيجابا بمحيطه ولكنه يفوقهم بما حباه الله به من قدرات.

ومما ذُكر في سياق الحديث عن مؤهلات الشاعر قوله:"ولهذا تمتاز قريحة الشاعر بقدرتها على خلق الألوان النفسية التي تصبغ كل شيء وتلوّنه لإظهار حقائقه ودقائقه (٥).

إن القريحة من أهم ما يمتاز به الشاعر ويتفوق به عن غيره وذلك لأنها تخلق الألوان النفسية وهذا هو جوهر الشعر حيث إن الشاعر العظيم هو من يتمكن من خلق هذه الألوان.وخلقها يرتبط أيضا بما سبقت الإشارة إليه من إحساس وشعور متوقد عنده.

ويحدثنا الرافعي عن الشاعر بكونه ذلك الإنسان الذي يستطيع محاورة كل أشياء الطبيعة وتكليمها واستخراج جمالها .إذ يقول:"فكل شيء تعاوره الناس من أشياء هذه الدنيا فهو إنما يعطيهم مادته في هيئته الصامتة،حتى إذا انتهى إلى الشاعر أعطاه هذه المادة في صورتها المتكلمة(٦).

وإذا كان الشاعر يتوافر على هذه المكونات المتصلة بالقلب والإحساس والشعور فإنه كذلك "يفكر بعقله."(٧)وبهذا يكون شعوره وعواطفه موجهة توجيها لطيفا بالعقل حتى لا يزيغ إلى الأوهام والترهات.ولا يخفى علينا مدى اهتمام الرافعي بالعقل سواء في هذا المقام أم في غيره لأنه "اختط لنفسه طريق العقل."(٨) وبه تتهذب النفس وتستقيم وتهتدي إلى كل فن جميل وكيف لا " ونفس الشاعر العظيم تكاد تكون حاسة من حواس الكون(٩).

ولا شك في أن مصطفى صادق الرافعي بحديثه عن الشاعر وتعداد مؤهلاته يجعلنا ندرك مدى أهمية الاهتمام بهذا العنصر في العمل الإبداعي.

ومن جملة ما سطره هذا الناقد إزاء الشاعر حديثه عن موهبته فقال:"فأمثل الطرق في نقد موهبة الشاعر إدراكها بالروح الشعرية القوية من ناحية إحساسها والنفاذ إلى بصيرتها،واكتناه مقادير الإلهام فيها،وتأمل آثارها في الجمال،وتدبر طبيعتها الموسيقية في الحس والفهم والتعبير.(١٠).

ونرى كيف أن الموهبة من خلال ما اجتمع لها في هذا النص هي أساس العمل الشعري والمهماز الذي به نقيس قدرة الشاعر على الإبداع.ومدى استعداده لدخول عالم الشعر.

ومما يحسب للرافعي أنه لم يكتف بتناول الشاعر بذكر حياته وظروفه لأنه يدرك بأن "الشاعر لم يكن شاعرا بأنه رجل من الناس وحي من الأحياء وعمر من الحوادث المؤرخة ولكن بموضعه من أسرار الحياة وصلة نفسه بها وقدرة هذه النفس على أن تنفذ إلى حقائق الطبيعة في كائناتها عامة.(١١).

ولم يكن نقده مرتبطا بالشاعر فقط بل كان يعتمد طريقة تولي الاهتمام للشاعر وللشعر معا فقال:"وطريقتنا نحن في نقد الشعر تقوم على ركنين:البحث في موهبة الشاعر وهذا يتناول نفسه وإلهامه وحوادثه.والبحث في فنه البياني،وهو يتناول ألفاظه وسبكه وطريقته وسنقول فيهما معا .(١٢).

ويعد هذا النص مدخلا إلى الحديث عن العنصر الثاني في هذا البحث وهو الشعر.فماذا عن الشعر عند الرافعي؟

إذا كان الرافعي يقدم خطابا نقديا إزاء الشعر،فلأنه شاعر من الشعراء الذين دفعوا إلى مضايق الشعر ومارسوه.ولسنا هنا بصدد تقويم عمله الشعري ولكننا نود أن نشير إلى أن هذا الناقد يقول "لا ينبغي أن يعرض لنقد الشاعر والكلام عنه إلا شاعر يكون ذا طبيعة في النقد،أو كاتب عظيم يكون ذا طبيعة في الشعر.."(١٣).

● طريقنا في نقد الشعر يقوم على ركنين: البحث في موهبة الشاعر ثم في قلمه البياني.

وهذا النص بالذات يعطي المشروعية للرافعي لممارسة النقد الأدبي.فكيف تمت معالجته للشعر؟قبل أن نتحدث عن اهتمام الرافعي بالشعر نشير إلى أن هنالك مدارس نقدية اهتمت بالنص الشعري ونظرت فيه من داخله سواء عند العرب أم عند الغرب وما تقدمه البنيوية في هذا الصدد دليل على ذلك.ولا يسمح المقام هنا بالتفصيل في هذا المجال.

وإننا بالنظر إلى "وحي القلم " نجد أن هذا الناقد يهتم بالنص الشعري ويعالجه في مستويين الأول منهما خاص وهو ما يبدعه الشاعر من شعر وهذا ما أقره النص السابق من حيث تناول الفن البياني من ألفاظ وسبك وغير ذلك. وثانيهما عام وهو الذي ينظر فيه إلى الإبداع الشعري في مستوى آخر.وسنبتدئ بالحديث عن المستوى الأول:

المستوى الأول:

يعرف الرافعي أن الشعر يشتمل على جملة من المقومات الفنية والأبعاد المعنوية التي تجعل منه شعرا.فهنالك الصور الشعرية والأوزان وكل ما يكوّن الجانب الموسيقي بالإضافة إلى "جو اللغة البيانية،فالبيان إنما هو أشعة معاني القصيدة."(١٤). كما أشار إلى الخيال الذي يكون بمثابة "نحلة من النحل تلم بالأشياء لتبدع فيها المادة الحلوة للذوق والشعور."(١٥). كما أن الشعر عند هذا الرجل "فكر ينبض وعاطفة تختلج."(١٦).

ولا ننسى نصيب العقل في صنع الشعر كما سبقت الإشارة إلى ذلك في الحديث عن الشاعر.وبهذا ليست الأفكار و لا الحقائق هي الشعر عند صاحب وحي القلم وإنما الشعر هو ما يضفيه عليها من رونق وبهاء وجمال.

وهذه العناصر المذكورة هي المسؤولة عن جمال الشعر عند الرافعي.وهنالك أمور أخرى تصب في هذا المنحى وتكشف لنا عن فهم الرافعي للجمال إذ يقول: "يقف الشاعر بإزاء جمال الطبيعة، فلا يملك إلا أن يتدفق ويهتز ويطرب.لأن السر الذي انبثق هنا في الأرض، يريد أن ينبثق هناك في النفس .

والشاعر نبي هذه الديانة الرقيقة التي من شريعتها إصلاح الناس بالجمال والخير."(١٧) يتحدث هذا النص عن جمال الطبيعة وعن انفعال الشاعر بذلك وتدفقه بالشعر. وهذا أمر ضروري لكل شاعر وأمارة على الفعل الشعري عنده.وما الطرب والاهتزاز إلا بفعل ما حركته الطبيعة من تجليات الجمال.وبهذا تكون الطبيعة هي المحرك لقول الشعر الجميل بما بثه الله تعالى في الإنسان من قوى نفسية وعقلية تستلهم الجمال من الطبيعة،لأن الطبيعة "ليست جميلة إلا بالشعر."(١٨)

ويحدثنا الرافعي هنا عن وظيفة هامة لهذا الجمال المبثوث في الطبيعة وفي نفس الشاعر ألا وهي الإصلاح.فيكون الشعر بجماله وسيلة لفعل الخير وتثبيت الجمال.ومما يبين لنا اهتمام هذا الناقد بالجمال في الشعر أنه جعله مقياسا لنقد الشعر ونقد الأدب بصفة عامة في كتابه

قيد الدرس حيث إنه يقول عن الأديب إن "الأصل في عمله الفني ألا يبحث في الشيء نفسه،ولكن في البديع منه،وألا ينظر إلى وجوده،بل إلى سره،ولا يعنى بتركيبه،بل بالجمال في تركيبه."[١٩].

فهو يدعو إلى الاهتمام بالجمال ويرتكز عليه أثناء نقده للشعر.وعلى هذا الأساس يقول عن الشاعر عبد المجيد محمود أبو الوفا:"مذهبه الجمال في المعنى يبدعه كأنما يزهر به،والجمال في الصورة يخرجها من بيانه كما تخرج الغصون والأوراق من شجرتها."[٢٠].

وكان الرافعي ينبهر بالجمال الفني في كل تجلياته حيث إنه قال عن المتنبي "ولكن حكمته الإنسانية ودقة أوصافه وإقامته الفضائل والرذائل في كمالها الفني مقام تماثيل بارعة من الجمال،كل ذلك ترك شعره مستمرا باستمرار الحياة وباستمرار الإنسانية وباستمرار الذوق."[٢١].

المستوى الثاني:

هنالك مستوى آخر تحدث فيه الرافعي عن الشعر وفيه يقول على لسان شيطان طاغور:"الشاعر يبدع أمة كاملة وإن لم يخلقها فإنه يخلق أفكارها الجميلة وحكمتها الخالدة.وآدابها العالية وسياستها الموفقة."[٢٢] يحمل هذا النص اعتبارا للشاعر يجعله في مرتبة مهمة في المجتمع،وهذا التقدير آت من أدبه وحكمته في شعره.فمن خلال الشعر تخلق الأمة.

هناك إذن فراغ في هذه الحياة لا يقوم بملئه إلا الشاعر.كما أن هنالك نقصا عند الناس يجدون استكماله لديه بما أوتي من قوة.فكما أن الأمة في حاجة إلى الصانع والتاجر والسياسي والمهندس فإنها كذلك في أمس الحاجة إلى الشاعر باعتبار أنه يبدع الأمة من حيث الأفكار والحكم.وهذا المجال من أصعب المجالات التي تُبدع فيه الأمة.وعلى هذا الأساس كانت قيمة الشاعر مرتفعة.

وإلى جانب ما ذكر يشير الرافعي إلى أن الشعر في "أسرار الأشياء لا في الأشياء ذاتها."[٢٣] كما أنه "فكرة الوجود في الإنسان وفكرة الإنسان في الوجود"[٢٤]. وكل هذه الأمور تحيلنا إلى مفهوم الجمال في الشعر كما يراه الرافعي.

المستوى الثالث:

أضحى الاهتمام بالمتلقي بيّنا في الخطاب النقدي المعاصر،حيث إن هنالك إعادة الاعتبار إلى هذا العنصر الذي عانى من الإقصاء عند كثير من النقاد السابقين.ولهذا الاهتمام قيمته لأن المتلقي عنصر فاعل وضروري لحياة الشعر والأدب عامة.

ونجد أن مصطفى صادق الرافعي لم يقف عند تناول الشاعر والشعر فقط وإنما اهتم بالمتلقي كذلك.والعلاقة بين الشاعر - والأديب بصفة عامة - وبين المتلقي أمر آكد لأن الأديب "كأنه خلق ليتلقى الحقيقة ويعطيها للناس ويزيدهم فيها الشعور بجمالها الفني."[٢٥] فعن طريق الأديب يتم التعرف إلى الجمال الكامن في الكون.

والمتلقي عند ناقدنا إما أن يكون ناقدا للشعر عارفا بمكوناته الفنية وقيمه المعنوية وإما أن يكون من عامة الناس.يقول الرافعي عن المتلقي الناقد "والشاعر والناقد يلتقيان جميعا في القارئ فوجب من ثم أن يكون الناقد قوة تكشف قوة مثلها أو دونها ليُصحّح فنٌ فنا مثله أو يقره أو يزيد عليه فضل بيان ومزية فكر."[٢٦].

وهو إذ يتحدث عن المتلقي الناقد فإنه يشير إلى أنه"لا يراد من النقد أن يكون الشاعر وشعره مادة إنشاء،بل مادة حساب مقدر بحقائق معينة لا بد منها.فنقد الشعر هو في الحقيقة علم حساب الشعر."[٢٧] وقد انتقد الرافعي المتلقي الذي يقف

عمله على التعليق على كلام الشاعر أو ذلك الذي "يتناول الشاعر باعتباره رجلا له موضع من الناس ومنزلة من الحياة ثم لا يعدو ذلك."(٢٨).

إن الرافعي يطمح إلى أن يكون المتلقي الناقد في المستوى المطلوب الذي يتيح للقارئ أن يتعرف إلى عوالم الشعر ويستمتع بها.وأن يكون طريقا إلى تذوق الشعر وكشف أسراره.ونراه يقول عن الشعر العربي."ألا وإن شعرنا العربي الجميل قد أصبح اليوم في أشد الحاجة إلى من يعلم القارئ كيف يذوقه ويتبينه ويخلص إلى التأثير فيه،ويخرجه مخرجا سَريا في أنغامه وألحانه."(٢٩).

ولا يخفى على قارئ "وحي القلم " أن يلاحظ أنه يعير اهتماما خاصا للمتلقي بوصفه قارئا للإبداع يقول الرافعي:"ومن أثر ذلك ما تحسه أنت إذا قرأت للأديب البليغ التام صاحب الفكر والأسلوب والذهن الملهم؛فإنك تقف على المعنى من معانيه يملأ نفسك..."(٣٠).

ويقول كذلك:"فيأتون بنظم تقرؤه إذا قرأته وأنت تتلوى كأنما يقرع على قلبك بقبضة يد أو يدق عليه بحجر."(٣١) ومما يدل على احتفاء ناقدنا بالمتلقي أنه يقول:"على أن شوقي لم يكن ينقصه باعتبار زمانه إلا (الجمهور الشعري)،وكل بلاء الشعر العربي أنه لا يجد هذا الجمهور..."(٣٢).

إن الرافعي يضع يدنا هنا على داء صعب قد يعصف بما في الشعر من قيم وجمال وهو فقدان الجمهور إذ لا حياة للشعر بدون جمهور ولا وظيفة له بدون من يتلقاه.ولا يتم النجاح إلا بشاعر مقتدر وشعر جميل وجمهور متذوق.

وقد عمل الرافعي في كتابه هذا على تبيان أسباب عزوف الجمهور على متابعة الشعر ومن ذلك ما ينشر في الصحف من شعر رديء وما يقدم عليه بعض النقاد من ترويج لهذا الشعر أو قدح في الشعر الجيد أو غير ذلك .وهناك ما يتصل بالقارئ أيضا في تكاسله أو عدم تمييزه بين الجميل والقبيح.

وانطلاقا من هذه الجولة القصيرة مع "وحي القلم" يتبين لنا أن الرافعي رحمه الله قد عالج الشعر في علاقته بمؤلفه ومتلقيه.ولم يضيق على نفسه في تناول عنصر وإهمال آخر مما جعله يلم بالعمل الإبداعي في شموليته.

وقد أوصى بأن يكون الشاعر مقتدرا فاعلا في المجتمع وأن يكون الشعر ذا وظيفة سامية وهي الإصلاح بالجمال وفعل الخير.كما أكد على دور المتلقي الذي يجب أن يعرف قيمة الشعر ويفصل فيه بين النافع والضار.ولا سبيل إلى ذلك إلا بمعرفة مواطن الجمال فيه. ■

الهوامش:

(١) سيد قطب "النقد الأدبي أصوله ومناهجه." دار الشروق ط الرابعة.١٤٠٠ هـ ١٩٨٠م . ص ١٦٣
(٢) مصطفى صادق الرافعي " وحي القلم " دار الكتاب العربي . بيروت . لبنان.الجزء ٣ ، ص ٢٣٥
(٣) نفسه الصفحتان ٢٣٥-٢٣٦
(٤) نفسه ص ٢٤٥
(٥) نفسه ص ٢٣٥
(٦) نفسه ص ٢٣٥
(٧) نفسه ص ٢٣٦
(٨)أحمد بسام ساعي "دراسات في الأدب الإسلامي ونقده.الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد."دار المنارة للنشر السعودية .جدة. ط.١ ,١٩٨٥ ص ١٧٨
(٩) وحي القلم الجزء ,٣ ص ٢٣٦
(١٠) نفسه ص ٢٤٦
(١١) نفسه ص ٢٣٩
(١٢) نفسه ص ٢٤٢
(١٣) نفسه ص ٢٤٠
(١٤) نفسه ص ٢٤٣
(١٥) نفسه ص ٢٣٦
(١٦) نفسه ص ٣٢٣
(١٧) نفسه الجزء الأول ص ,٣٦
(١٨) وحي القلم الجزء ,٣ ص ٢٢٣
(١٩) نفسه ص ٢١٦
(٢٠) نفسه ص ٣٧٣
(٢١) نفسه ص ٢٧٣
(٢٢) نفسه ص ٢٥٣
(٢٣) نفسه ص ٢٣٥
(٢٤) نفسه ص ٢٥٣
(٢٥) نفسه ص ٢١٤
(٢٦) نفسه ص ٢٤٠
(٢٧) نفسه ص ٢٣٩
(٢٨) نفسه ص ٢٣٩
(٢٩) نفسه ص ٢٤٢
(٣٠) نفسه ص ٢٣٦
(٣١) نفسه ص ٢٤٣
(٣٢) نفسه ص ٣٠٠

طبيعة البيان عند الرافعي

إن غياب الدراسات الجادة التي تتناول قضية البيان العربي يجعل مهمتنا صعبة . فمعظم الدراسات التي رجعنا إليها تعرض القضية بشكل سطحي [١]، وأكثرها لا يخصص إلا صفحات قليلة يتحدث فيها عن مفهوم «البيان» أو «البلاغة» في الكتب القديمة التي اهتمت بالموضوع .

ويمكن الحديث عن هذا البيان بكلمات قليلة، كما يرى الدكتور حسين الصديق، بكونه :«يتمحور على اختيار الألفاظ والمعاني والصور، ويهتم بالجمل أو بالمقاطع القصيرة من الكلام، وهو ما يمكننا تسميته (بالوحدات التعبيرية) القادرة على حمل أكبر قدر من التوتر والانفعال الجمالي إلى المتلقي، وهذا ما يمثله مجموع الأدب الجاهلي، كالشعر، والأمثال، والخطب، والوصايا، التي جاء القرآن بآياته ووحداته التعبيرية ممثلا أعلى لها»[٢].



سوف نقصر دراستنا في هذه المقالة على مفهوم الرافعي للبيان، والتي يمكن أن نجد في أثناء الأبحاث التي قدمها محاولة تنظير لهذا، وبالتالي محاولة الكشف عن مفهوم البلاغة ووظيفتها الفكرية والأدبية التي هي من أسس النظرية الأدبية، ولعل مصطلح البيان يعادل مصطلح البلاغة في فكر الرافعي، بل إنه خرج بتعريف مبتكر للبلاغة .

عوامل نشأة البيان وتطوره

إن أهم عمل أدبي أثر في تكوين البيان العربي هو القرآن الكريم، والرافعي[٣] يعرض هذه القضية لبيان جمالية الأسلوب القرآني، وإعجازه البياني من جهة؛ ولبيان جمالية الأدب من جهة ثانية. ويحاول الرافعي[٤] نفي الرأي المشهور الذي يرى أن الجرجاني صاحب «دلائل الإعجاز» أول من صنف في الإعجاز البياني، ورأى الرافعي أن ذلك وهم، فأول من جود الكلام في هذا المذهب وصنف فيه محمد بن يزيد الواسطي(ت ٣٠٦ هـ)، ثم أبو عيسى الرماني (ت ٣٨٢ هـ)، ثم بعد ذلك جاء الجرجاني [٥].

وما يهمنا، هنا، ليس التطور التاريخي لكتب الإعجاز، وإنما



بيان أن القرآن الكريم وإعجازه دفع الباحثين إلى وضع علم البيان الذي حاولوا فيه إثبات الإعجاز البياني في القرآن، مما يؤكد أصالة فكر الرافعي، وأن هذا الكتاب أثر في تكوين البيان العربي، وفي صياغة قواعده ومقاييسه العامة، وقد نجح هذا الكتاب في إثارة الانبهار الجمالي اللغوي منذ أن لفظ محمد ﷺ آياته الأولى، أما الذين حاولوا تفسير هذا الانبهار بأنه نتيجة للسحر الشعري الذي تتضمنه تلك الآيات، فقد لقوا تحديا صريحا من تلك الأخيرة يدعوهم إلى أن يأتوا بمثلها. وقد استمر القرآن في ممارسة هذا التأثير، وفي توجيه البيان العربي حتى يومنا هذا، فقد ظل منذ أن اتخذ ترتيبه النهائي على يد الخليفة عثمان رضي الله عنه نموذجا أدبيا يحتذى[٦].



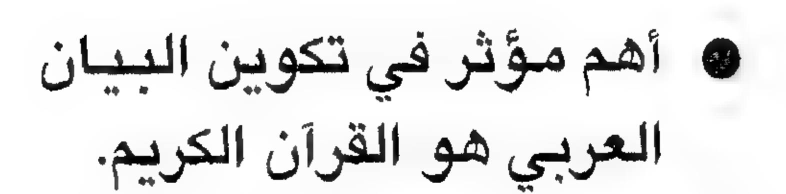
بقلم: ياسر عبدالرحيم*
سورية

وذهب الرافعي إلى أن الجرجاني في كتابيه «أسرار البلاغة» و«دلائل الإعجاز» لقي اهتماما بالغا من معاصريه ومن تبعهم، وأدخل علوم البلاغة في بيان خدمة الإعجاز القرآني، مما دفع الإمام الرازي (ت ٦٠٦ هـ) إلى تلخيصهما، واستخرج منهما كتابا في إعجاز القرآن، ثم جاء الأديب ابن أبي الأصبع (ت٦٥٤ هـ) فصنف كتاب «بدائع القرآن» أورد فيه نحو مئة نوع من معاني البلاغة وشروحها، واستخرج أمثلتها من القرآن وعلم البيان. ويرى الرافعي أن هذا الكتاب الأخير «في معناه بتلك الكتب كلها»[٧].

لقد استطاع القرآن الكريم بعد أن أثار انبهارا جماليا لدى معاصري الرسول الكريم ﷺ أن يهمش الشعر، بعد أن كان يمثل مركز الصدارة في الثقافة العربية الجاهلية، وتحول الشعر ليصبح مرجعا لتفسير القرآن، وفرعا من فروع المعرفة [٨]، ذلك أن القرآن جعل البلاغة الإسلامية أرقى من البلاغة الجاهلية، بتعبير الرافعي [٩]، والمهم ظهور علم البيان أو البلاغة، كما يرى الرافعي، فهو يعتبر «أن القرآن الكريم كان علم البلاغة عند العرب، ثم صار بعدهم بلاغة هذا العلم »[١٠] .

إذا، فقد عمل القرآن على ظهور تفكير بلاغي جديد اتصل بالإعجاز القرآني . وواضح من كلام الرافعي أن السبب الرئيس لظهور علم البيان أو البلاغة هو القرآن الكريم، ثم صار القرآن عاملا مهما في تكوين هذا البيان، فأصبح بلاغة هذا العلم . فمن الطبيعي أن مفهوم البيان لم يبق هو نفسه في القرون الأولى، فانطلاقا من ارتباط اللغة بالفكر والمجتمع والتاريخ، نستطيع القول : إن الأطر الاجتماعية والثقافية والسياسية التي ظهرت في تلك القرون مسؤولة عن تطور البيان العربي ونشأة علومه، ويمكن أن تحصر العوامل التي أثرت في تكوين البيان في خمس، هي : " القرآن الكريم، والشعر العربي، وتقعيد اللغة، والحاجة إلى التعلم والتعليم، والمؤثرات الأجنبية "[١١] .

ويزيد الرافعي الأمر وضوحا فيرى أن القرآن : " هو علم البلاغة عند أولئك العرب الذين كانت البلاغة



- **أهم مؤثر في تكوين البيان العربي هو القرآن الكريم.**
- **هاجم الرافعي الغموض، فرأى أن الاستغلاق في بلاغة الإنسان يعني أن الحياة لا تحتاج إليه.**

* محاضر بقسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة حلب.

فيهم إحساسا محضا، ثم صار من بعدهم بلاغة هذا العلم في المولدين، وهو على ذلك ما بقيت الأرض، فكان العرب يتلقون عنه البلاغة بوجدان الحاسة اللغوية وإحساس الفطرة، كما يتلقى أهل الفن الواحد قواعد النبوغ عن المثال الذي يخرجه لهم نابغة الفن »[١٢]، وإذا ما تذكرنا أن الانبهار الجمالي الذي أثاره القرآن الكريم لدى معاصري الرسولﷺكان يتعلق بالآيات القصيرة المتفرقة التي كانت توحى إلى النبيﷺ بحسب المناسبات والظروف، وليس بالسور القرآنية التي لم تتخذ شكلها النهائي إلا شيئا فشيئا، وانتهاء بوفاة الرسول ﷺ، فإننا نستطيع أن نتصور بسهولة الخطوط العامة للبيان الذي كان يسود بين العرب في حياة الرسولﷺ. ونستطيع أن نعتبر هذا البيان امتدادا لمفهومه عند العرب قبل ظهور الإسلام، إذ من المتوقع أن يخاطب القرآن بحسب البيان السائد عندهم [١٣] ، وهذا ما يؤكده الرافعي، وأن يتحداهم بما هو شائع بينهم .

وقد تكّون مفهوم البيان وازدهر في القرون الخمسة الأولى من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، وبلغ ذروته في نهاية القرن الخامس الهجري، ثم أصيب البيان بعد هذا القرن حتى عهد الرافعي، في رأيه، بالجمود والمرض، فأكد أن بعض الشعراء والكتاب كانوا آنئذ بلا شعر ولا كتابة، وأن التصور في الإنشاء قد مسخ، وشرد الخيال، فذهب كخيال المجانين [١٤] .

٢ - مفهوم البيان:

يرى الرافعي أن علم البلاغة لا فائدة منه، وكتبه تجمد العقل فيصبح البليغ " وكأنه غلاف لفظي نسجته القواعد والأمثال، فإلى أن يعقد الموت لسانه لا تكون قيمة عمره قد أربت في البلاغة على ثمن كتاب من كتب علوم البلاغة ..." [١٥] .

فهل يفهم من كلام الرافعي أن علم البلاغة شيء، والموهبة شيء آخر ؟ بمعنى أن تعلم علوم البلاغة لا تجعل من الإنسان بليغا إن لم يكن ملهما، ذلك أن أجمل البيان، كما يرى الرافعي، يسمى وحياً [١٦]، ربما يؤيد ذلك قول الرافعي : " إن البلاغة هي الإلهام، وهي أبلغ البلاغة [١٧] . وربما، ما ذهب إليه من أن "حديث القمر " وضع لطلبة الإنشاء المتطلعين إلى أمثلة من علم التصور الكتابي الذي توضع أمثلته ولا توضع قواعده، لأن هذه القواعد في جملتها " إلهام ينتهي إلى الإحساس، وإحساس ينتهي إلى الذوق، وذوق يفيض الإحساس والإلهام على الكتابة جميعا، فيترك فيها حياة كحياة الجمال ..." [١٨] .

وموقف الرافعي، هذا، ينسجم مع ما ذهب إليه سابقا في " ديوان النظرات"، إذ قرر أن على الشاعر المتأخر أن يعرف علوم البلاغة معرفة ممارس، لامعرفة مدارس [١٩] . وهذا الموقف الأخير سينقلب عليه الرافعي حين يأخذ على حافظ إبراهيم أنه لم يكن فيلسوف بلاغة، رغم بلاغته، مؤكداً أنه لو تمت له هذه الموهبة الفلسفية لما جاراه شاعر آخر [٢٠] . فلا يكفي الشاعر ممارسة البلاغة، بل عليه دراستها، وأن يدلي بدلوه فيها، ويكون له رأي يمثل فلسفته فيها، وهو ما حاوله الرافعي من تنظير للبلاغة أو البيان .

يرى الرافعي أن العلماء حاروا في تعريف البلاغة، لذلك يعرفها تعريفا مبتكرا يخرج به عما عرف قديما، فهي : " قوة التصور، والقوة على ضبط النسبة بين الخيال والحقيقة، وهما صفتان من قوى الخلق تقابلان الإبداع والنظام في الطبيعة، وبهما صار أفراد الشعراء والكتاب يخلقون الأمم التاريخية خلقا، ورب كلمة من أحدهم تلد تاريخ جيل "[٢١] والبلاغة في وصف شامل هي : " فن لغة بأكملها" [٢٢] .

هذا الأمر يؤكد أن الرافعي يريد وضع نظرية

- **عمل القرآن على ظهور تفكير بلاغي جديد اتصل بالإعجاز القرآني .**

جديدة في البلاغة، فهو يسعى إلى فلسفة البيان، فيرى أن " فلسفة البيان الفني أن تمتد الحياة من النفس إلى اللفظ، فتصنع فيها صنعها، فتفصل العبارة الفنية عن كاتبها أو قائلها، وهي قطعة من كلامه، لتستحيل عند قارئها أو سامعها قطعة من الحياة في صورة من صور الإدراك، فالبيان الفني هو الوسيلة لحمل الوجود وبعثرته في مواضع غير مواضعه، وخلقه خلقا آخر في النفس الإنسانية، وبذلك يؤول قوله ﷺ: " إن من البيان لسحرا" إذ جعل نوعا من البيان هو السحر، لا البيان كله، فالحديث كالنص على تسمية الفلسفة الأوربية اليوم «بالبيان الفني» كأنه قال : إن من البيان فنا هو سحر من عمل النفس في اللغة تغير به الأشياء، وله عجب السحر وتأثيره وتصرفه، وهذا معنى لم ينتبه إليه أحد، ولا يذكر معه كل ما قالوه في تفسير الحديث، وبذلك التأويل يكون هذا الحديث قد احتوى أسمى حقيقة فلسفية للفن » [٢٣] .

أيفهم من هذا الكلام أن هدف البيان هدف جمالي بحت ؟ بمعنى إثارة الانفعال الجمالي لدى المتلقي والتأثير فيه لا عن طريق الحجج التي تخاطب العقل مباشرة، وإنما عن طريق الصور التي تخاطب المشاعر، فتملكها بما تثيره من إيحاءات وردود فعل، وتوجهها على الرغم من إرادة صاحبها، تماما كما يفعل السحر [٢٤] . ربما، لكن لا ريب في أن هذا الرأي وذلك التأويل الذي أتى بهما الرافعي من أجمل ما عرض له الرافعي: بعثرة الوجود وإعادة خلقه وتغييره، فهذه نظرة متقدمة تجعل الأدب خلخلة للعالم، ثم خلقه خلقا جديدا، بمعنى تجديد رؤيته ومخالفته المعهود [٢٥] .

ويزيد الرافعي على ذلك : " أن الكلام في وصف الطبيعة والجمال والحب على طريقة الأساليب البيانية إنما هو من باب الأحلام، إذ لا بد فيه من عيني شاعر أو نظرة عاشق " [٢٦] ذلك أن الطبائع الملهمة لا بد لها من البيان ليتسع به التصرف، إذ الحقائق أسمى وأدق من أن تعرف بيقين الحاسة، أو تنحصر في إدراكها، فلو حدت الحقيقة لما بقيت حقيقة . ومن ثم

- **تعلم علوم البلاغة لا يجعل من الإنسان بليغا إن لم يكن ملهما.**

- **فلسفة البيان الفني أن تمتد الحياة من النفس إلى اللفظ.**

فكثرة الصور البيانية الجميلة للحقيقة الجميلة هي كل ما يمكن أن يتسنى من طريقة تعريفها للإنسانية، لذلك يعتقد الرافعي أن ": الحقائق الكبرى كالإيمان والجمال والحب والخير والحق ستبقى في كل عصر محتاجة إلى كتابة جديدة في أذهان جديدة"[٢٧].

وهو يذهب إلى أن البيان شرط الأدب [٢٨] لأنه دليل نضج المعنى وتمامه وصحته، وأن الأدب لا يتحقق إلا بالكتابة البيانية [٢٩]، لهذا كان الأصل في الأدب البيان والأسلوب في جميع لغات الفكر الإنساني، لأنه كذلك في طبيعة النفس الإنسانية "[٣٠] .

أما تفاصيل البلاغة فيرى الرافعي أن المجازات والاستعارات والكنايات ونحوها من أساليب البلاغة ما هي إلا أسلوب طبيعي لا مذهب عنه للنفس الفنية إذ هي بطبيعتها تريد دائما ما هو أعظم وأجمل وأدق، ويفهم من كلام الرافعي أن هناك نفسا موهوبة، وأخرى غير موهوبة، ترى الأخيرة في تلك الأساليب البلاغية «تكلفا وتعسفا ووضعا للأشياء في غير مواضعها » ويذهب إلى أن المحسنات البيانية ذات أثر في ألفاظ اللغة هو الاهتياج [٣١] .

ويفرق الرافعي بين أسلوب البحث العقلي وبين الفن البياني، ففي الأول يندر البيان، وغايته صحة الأداء، وسلامة النسق . ولكن الفن البياني غايته قوة الأداء مع الصحة، ورسم التعابير مع الدقة، وإبداع

الصورة زائدا جمال الصورة " ولو كتب الفريقان في معنى واحد لرأيت المنطق في أحد الأسلوبين وكأنه يقول: أنا هنا في معان وألفاظ، وترى الإلهام في الأسلوب الآخر، ويطالعك أنه في جلال الجمال وفي صور وألوان " [٣٢] .

وهذا ينسجم مع تعريف الرافعي للبليغ، فهو: "ذلك الذي لا يستطيع أن يؤتيك طبائع الأشياء التي تجهلها في غير صورها، ثم أنت لا تعرفها من كلامه إلا في صورها، فكأنه ناسب بين قوتها وضعفك بصناعته وسحره، إذ يمازجها بخيال قوي كالعقل، خيال يوازن ضعفك، ويمازجها أيضا بحقيقة ضعيفة كالقلب توازن " قوة الحقيقة " وهو لا يتسلط على طبيعتها إلا بتصوره، ولا يستهوي طبيعتك إلا بقدرته على ضبط النسبة بينك وبينها " وأهمية البلغاء تكمن في أنهم أرواح الأديان والشرائع والعادات، وهم ألسنة السماء والأرض، وإذا شهد عصر من العصور أمة ليس فيها بليغ فذلك هو العصر الذي يكون تاريخا لأضعف طبائع الأمم[٣٣] .

ويحصر الرافعي الفصاحة والبلاغة بآل بيت النبي محمدﷺ، فقد أورثهم ذلك " أفصح الخلق ولادة، وجاءت لهم طباعه الشريفة بهذه الإجادة " [٣٤] .

لقد حاول الرافعي أن ينظّر للبيان، وأورد تنظيره في مواطن متعددة من كتبه، وتجلى ذلك بصفة خاصة في مقالة عنوانها "البيان"، حيث صدر بها الجزء الأول من "وحي القلم"، وقد أورد مصطلحات عدة مبتكرة، كالفن البياني، ومثله مصطلحا الكاتب البياني والحس البياني، فضلا عن المقالة البيانية . أما مصطلح البيان الفني فكان نتيجة بروز التأثيرات الأجنبية، كما يصرح الرافعي [٣٥] ، بخلاف ما ذهب إليه الدكتور مصطفى الجوزو من أن هذا المصطلح من ابتكاره[٣٦] . والرافعي لم يأخذ من الترجمات إلا ما فهمه، وانسجم مع ثقافته العربية والإسلامية، وهذا ما يثبت أصالة التفكير عنده . والظاهر أنه أراد أن يستعيض بمثل هذه المصطلحات من مصطلح آخر، لعله كان مستخدما في أيامه هو مصطلح النثر الفني، أو لعل الحاجة هي التي بعثته على ابتكار مصطلحاته هذه، كما بعثت زكي مبارك على استنباط مصطلح النثر الفني، وذلك من أجل أن يجد تسمية لما يقع بين منزلتي النثر والشعر، أو لما يشمل كليهما في آن معا .

● الحقائق الكبرى كالإيمان والجمال والحب والخير والحق ستبقى في كل عصر محتاجة إلى كتابة جديدة في أذهان جديدة.

وقد هاجم الرافعي الغموض، فرأى أن الاستغلاق في بلاغة الإنسان يعني أن الحياة لا تحتاج إليه، وغموض بعض الفلاسفة الشعراء هو دليل الطبيعة على أنهم زائدون في الطبيعة، لأن من بين أساليبهم الفلسفية والشعرية ما يجعل معنى الكلمة أحيانا هو نقض معناها، إذ يتصنعون للفكر ويستجلبون له ويشققون فيه، كما يفعل أهل صناعة الألفاظ بالألفاظ " فها هنا البديع اللفظي، وهناك البديع الفكري، ولا طائل وراءهما إلا صناعة وبهرجة " [٣٧] .

هذا الموقف من أغرب مواقف الرافعي، الميال بطبيعته إلى الغموض، المتكلف للفلسفة، حتى مازج بينهما وبين الشعر، وهو يبدأ بتقعيد الفن الطبيعي لينتقل إلى التقعيد البياني، مقررا " أن الطريقة التي يكون بها الجمال جميلا هي بعينها التي يكون بها البيان بليغا، فالمرجع في اثنيهما إلى تأثيرهما في النفس "[٣٨] ولنذكر أن التعقيد

والتكلف والغموض من التهم الموجهة إلى أسلوب الرافعي، لا سيما اتهام طه حسين [٣٩]، ورد الرافعي [٤٠] . ولكن يبدو أن الرافعي يدافع عن نفسه بشكل غير مباشر، فإذا صح هذا الاستنتاج فإنه لا شك طريقة تنم عن ذكاء، لأنه نقل المعركة إلى ميدان آخر حين أعطى التعقيد والغموض معنى آخر، ولا ريب أن الذين رموا الرافعي بذلك كانوا يقصدون تكلفه وافتعاله ، لا الأسلوب الفني السهل"[٤١] . وهناك موقف دافع فيه الرافعي عن نفسه سرا، حينما صرح لصديقه محمود أبو رية بأن الذين لا معرفة لهم " بفنون المجاز أو لا ميل لهم إلى الشعر لا يميلون إلى كتابتي ولا يفهمونها حق الفهم، مع أن المجاز هو حلية كل لغة » [٤٢] .

باختصار: إن ما استقر في التفكير البلاغي عند الرافعي ارتباط علم البيان بالقرآن، وبهدف محدد هو فهم النص القرآني وبيان إعجازه من جهة، وبيان جمالية الأدب من جهة أخرى . ولا شك في أن ذلك يتوافق مع الموقف العام للحضارة العربية الإسلامية عامة [٤٣] .

لقد أدى ارتباط الدراسات اللغوية والبلاغية بالقرآن إلى صبغ مجمل مباحث الرافعي بصبغة دينية عقائدية، بحيث يصعب علينا أن نجردها من العقيدة أونفهمها بعيدا عنها . ■

الهوامش:

(١) لمزيد من التفصيل انظر :
- ضيف، د . شوقي، البلاغة تطور وتاريخ، مصر ١٩٦٥م .
- طبانة، بدوي، علم البيان، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨١م .
(٢) الصديق، د . حسين، مقدمة في نظرية الأدب العربي الإسلامي، جامعة حلب، كلية الآداب، ١٩٩٤م، (١٧٧-١٧٩) .
(٣) الرافعي، مصطفى صادق، الإعجاز القرآني والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٠م، (٢٥٤) .
(٤) الرافعي، مصطفى صادق، حديث القمر، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٢ م، (٧) .
(٥) الإعجاز القرآني، مصدر سابق، (١٤٨) .
(٦) مقدمة في نظرية الأدب العربي والإسلامي، مصدر سابق، (١٧٨) .
(٧) الإعجاز القرآني، مصدر سابق، (٢٥٧) .
(٨) مقدمة في نظرية الأدب العربي والإسلامي، مصدر سابق، (١٧٩) .
(٩) الإعجاز القرآني، مصدر سابق، (٢٥٣) الحاشية .
(١٠) المصدر نفسه، (٢٥٧) .
(١١) مقدمة في نظرية الأدب العربي والإسلامي، مصدر سابق، (١٧٩)وينظر : (١٨٠ - ١٨٢) .
(١٢) الإعجاز القرآني، مصدر سابق، (٢٥٣) .
(١٣) مقدمة في نظرية الأدب العربي والإسلامي، مصدر سابق، (١٧٨- ١٧٩).
(١٤) حديث القمر، مصدر سابق، (٧) . وينظر : المرجع السابق، (١٧٨) .
(١٥) المصدر نفسه، (٧-٨) .
(١٦) الرافعي، مصطفى صادق، ديوان الرافعي، (٥/٢) .
(١٧) الإعجاز القرآني، مصدر سابق، (٢٥٨) الحاشية .
(١٨) حديث القمر، مصدر سابق، (٦) .
(١٩) الرافعي، مصطفى صادق، ديوان النظرات، القاهرة، ١٩٠٨م، (١٣) نقلا عن الجوزو، د . مصطفى، مصطفى صادق الرافعي، دار الأندلس، بيروت ١٩٨٥م، (٢٤١) .
(٢٠) الرافعي، مصطفى صادق، وحي القلم، دار الكتاب العربي، بيروت، (د . ت) (٢٧٨/٣) .
(٢١) حديث القمر، مصدر سابق، (٧) .
(٢٢) وحي القلم، مصدر سابق، (٥/٢) .
(٢٣) المصدر نفسه، (١٨/٣ - ١٩) .
(٢٤) مقدمة في نظرية الأدب العربي والإسلامي، مصدر سابق، (١٧٩) .
(٢٥) الجوزو، د. مصطفى، مصطفى صادق الرافعي، مصدر سابق ، (١٩٠) .
(٢٦) وحي القلم، مصدر سابق، (٢٣/٣) .
(٢٧) المصدر نفسه، (١/١٦) .
(٢٨) المصدر نفسه، (٢١١/٣) .
(٢٩) المصدر نفسه، (١٧/١) .
(٣٠) المصدر نفسه، (٢١٢/٣) .
(٣١)المصدر نفسه، (١٨٢/٣) .
(٣٢) المصدر نفسه، (١٦/١) .
(٣٣) حديث القمر، مصدر سابق، (٨) .
(٣٤) الإعجاز القرآني، مصدر سابق ، (٣٤١) .
(٣٥) وحي القلم، مصدر سابق، (١٨/٣ - ١٩) .
(٣٦) الجوزو، د. مصطفى ، مصطفى صادق الرافعي، مصدر سابق ، (١٨٨) .
(٣٧) وحي القلم، مصدر سابق (٢٠/٣) .
(٣٨)المصدر نفسه، (١٧/١) .
(٣٩) ينظر، حسين، طه، حديث الأربعاء، دار المعارف بمصر، ١٩٥١ م، (٢٥٤/٢ - ٢٥٩) و (١٠/٣ - ١٣، ١٢٠ - ١٣٠) .
(٤٠) الرافعي، مصطفى صادق، تحت راية القرآن، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٤م، (١٠٩ - ١١٠) .
(٤١) الجوزو، د. مصطفى، مصطفى صادق الرافعي، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩م، (١٩٩) .
(٤٢) أبو رية، محمود، من رسائل الرافعي، (٦٢) .
(٤٣) مقدمة في نظرية الأدب العربي و الإسلامي، مصدر سابق (١٨٣) .



كتاب على السفود للرافعي



بقلم: أيمن ذو الغنى
سورية

لم يكن الرافعيُّ شهاباً لاحَ في سماء الأدب لم يلبثْ أن مضى وتلاشى، بل كان كوكباً مُتلألئاً مضيئاً، لم يبرحْ كبدَ السماء، ولم تزده الأيامُ إلا ألقاً وبريقاً.

ولا غروَ فقد تملَّك الرافعي ناصيةَ البيان، وتربَّع على عرش الأدب، وأُوتيَ من جمال التعبير وحسن الديباجة ما يأخذ بعقول قارئيه، صادراً في ذلك كلِّه عن ثقافة إسلاميةٍ أصيلة، ومعرفة لغويَّة عميقة، وإحاطة بالتُّراث العربي واستظهار له، مع نظرة فلسفيَّة متأمِّلة، وزاد معرفي جبَّار، حتى لتخالُه قد قُدَّ عودُه من العربيَّة بعبقريتها وروعتها وجلالها، ولقد صدقت فيه نبوءة الزعيم المصري الكبير مصطفى كامل، فيما كتب إليه مقرِّظاً ديوانه: «سيأتي يومٌ إذا ذُكر فيه الرافعيُّ قال الناس: هو الحكمةُ العاليةُ مصوغةً في أجملِ قالَبٍ من البيان».



تقلّبَ الرافعيُّ في عصرٍ فيه كلُّ ألوان الطَّيف، تراه زاهرًا في جوانبَ منه، مُضطَربًا مُتقَلقلاً في جوانبَ أخرى، ومن مظاهر ذلك الاضطراب: كثرةُ الصراعات الفكريَّة والأدبيَّة، وهو مظهَرٌ فيه ما لهُ وفيه ما عليه، ولعلَّ من أهمِّ ما يُحسَبُ له ما تمخَّضَت عنه تلكَ المعاركُ من نتاج فكريٍّ وثقافيٍّ وأدبيٍّ، أغنى الحياةَ الثقافيَّةَ في مصرَ والعالم العربيِّ، وما زالت آثارُه بيِّنةً جليَّةً في ثقافة أُدَبائنا وفكر مفكِّرينا في أيامنا هذه.

وقد عاشَ الرافعيُّ عصرَه كما هو، راكبًا فيه الصَّعبَ والذَّلول، لابسًا لكلِّ موقفٍ لَبوسَه، فارسًا من فُرسان المَيدان غيرَ مُدافَع.

ومن أشهر معاركه الأدبيَّة وصراعاته الفكريَّة التي حَميَ فيها الوَطيسُ واشتدَّ الأُوار، ما كان بينه وبينَ الأديب الكبير الأستاذ عباس محمود العقَّاد، فقد كتب الرافعيُّ في نقده مجموعةَ مقالات دامغة بعنوان: «على السَّفُّود»، أصلاه بها نارًا حامية، نائيًا فيها عن حُدود النقد الأدبيِّ، إلى التشهير والسُّخرية، وما لا يَليق.

بَدْءُ الخلاف بينَ الرافعيِّ والعقَّاد:

ذهب صديق الرافعيِّ الأستاذُ الأديبُ محمد سعيد العُريان في كتابه «حياة الرافعي»[1] إلى أن ابتداءَ الخصام بينَ الرافعيِّ والعقَّاد كان بسبب كتاب الرافعيِّ «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» الذي صَدرت طبعتُه الأولى سنة ١٩١٢ م[2]، ثم أمر الملك فؤاد بطبعه على نفقَته تقديرًا للكتاب ولصاحبه، وقد صدرت هذه الطبعة الملكيَّة سنة ١٩٢٨ م.

ويُضيف العُريان أنه لم يكن بينَ الرجُلَين قبل صدور الطبعة الملكيَّة من الكتاب إلا الصفاءُ والوُدُّ.

ولاقى «إعجاز القرآن» قَبولاً كبيرًا من الأدباء والنقاد، ونالَ به الرافعيُّ مكانةً ساميةً بينهم، حتى كَتبَ في تقريظه والثناء عليه زعيمُ مصرَ سعد زُغْلول كلمتَه الذائعةَ السيَّارة:

«وأيَّدَ (كتابُ الرافعيِّ)[بلاغةَ القُرآن وإعجازَه بأدلَّة مُشتقَّة من أسرارها، في بَيانٍ يَستمدُّ من رُوحها، بَيانٍ كأنه تنزيلٌ من التنزيل، أو قَبَسٌ من نُور الذِّكر الحَكيم».

ويلتقي الرافعيُّ العقَّادَ في مقرِّ مجلَّة المقتطَف، سنة ١٩٢٩ م، ويسألُه عن رأيه في كتابه، فيَفْجَؤُه العقَّادُ برأيٍ شديد، فيه قسوةٌ وغلظَةٌ، يسفِّه فيه كتابَه، ولم يكتَفِ بذلك حتى اتَّهَم الرافعيَّ بتزوير تقريظ سعد زغْلول- آنف الذِّكر- ونَحْله إياه؛ دعايةً للكتاب وترويجًا له[3].

غضبَ الرافعيُّ من افتراءات العقَّاد أشدَّ الغضَب، وحَنِقَ عليه كلَّ الحَنَق، وكتَمَ نفسَه على مثل البُركان يوشِكُ أن يَثور.

وما ذهبَ إليه العُريان من أن هذا اللقاءَ كان أوَّلَ الصراع بين الأديبَين فيه نظرٌ، فقد تقدَّم من العقَّاد نقدٌ للرافعيِّ فيه شدَّةٌ وسُخريةٌ وتَجَنٍّ[4].

ففي سنة ١٩١٤ م كتبَ العقَّاد مقالةً نشرها في صحيفة المؤيَّد بعنوان: (فائدةٌ من أُفْكوهَة) عقَّبَ فيها على قول للرافعيِّ في الجزء الأوَّل من كتابه «تاريخ آداب العرب»، وختَمَ مقالتَه بقوله: «فإن شاءَ عَدَدْنا كتابَه كتابَ أدب، ولكنَّا لا نَعدُّه كتابًا في تاريخ الأدب؛ لأن البحثَ في هذا الفنِّ متطَلِّبٌ من المنطِق والزَّكانَة ومعرفة النُّطق الباطنيِّ ما يتطَلَّبُه الرافعيُّ من نفسه ولا يَجدُه في استعداده».

وفي سنة ١٩٢٠ م نشرَ الرافعيُّ نقدًا لنشيد أمير الشُّعراء أحمد شوقي الذي مَطلَعُه:

بَني مِصْرٍ مكانُكُمُ تَهَيَّا
فَهَيَّا مَهِّدوا للمُلْكِ هيَّا

فتصدَّى له العقَّادُ سنة ١٩٢١ م بمقالةٍ نشرها في الجزء الثاني من «الديوان في الأدب والنقد» بعنوان: (ما هذا يا أبا عمرو ؟!)، اتَّهَمَه فيها بسرقةِ ما كتبَه في الجزء الأول من

«الديوان» في نقد نشيد شوقي آنف الذِّكر، وقد اتَّسمَت مقالةُ العقَّاد بالشدَّة والقَسوة، والسُّخرية اللاَّذعة، والهُجوم العَنيف على شخص الرافعيِّ.

وإذن لم يكُن ما جَرى بين الأديبَين الكبيرَين في لقاء دار المقتطَف أوَّلَ الخصومة بينهما.

العَفيفي (على السَّفُّود):

السَّفُّودُ في اللغة: هو الحديدَةُ يُشْوى بها اللَّحمُ، ويُسمِّيها العامَّةُ: (السِّيخ). ويُجمَع السَّفُّود على سَفافيد، ومن تَناوَلَه السَّفُّودُ يقال فيه: مُسَفَّد؛ لأن تَسْفيدَ اللحمِ نَظْمُه في تلك الحَديدَة للاشْتِواء.

ولم يكُن العقَّادُ أولَ من سفَّدَه الرافعيُّ، بل سفَّدَ قبله الشاعرَ عبد الله عَفيفي الذي كان يطمَحُ أن يكونَ شاعرَ الملك فؤاد بدلاً من الرافعيِّ[٥]، ونظَمَ في مدح الملك عددًا من القَصائد، وكان الرافعيُّ يراه لا يَرقى أن يكونَ ندًا له، بَلْهَ أن يحتلَّ مكانَه، فوَجَدَ عليه مَوجدَةً عظيمة، وقرَّر أن يكتبَ في نقده، وحقًّا انقَضَّ عليه بثلاث مقالات عَنيفة نشرها بمجلَّة العُصور لصاحبها إسماعيل مَظهَر، وجعلَ عنوانَ مقالاته: (على السَّفُّود)، وَصَمَ فيها عبد الله عَفيفي بالغَفلَة وضعف الرَّأي وقلَّة المعرفة وفساد الذَّوق، وقد اختارَ لمقالاته ذاك العُنوان؛ إشارةً إلى ما تضمَّنتهُ من نقد مؤلم لاذع، أشبه بنار متأجِّجة لا تذَرُ من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرَّميم.

ولكنَّ الرافعيَّ لم يكن موفَّقًا حين اختارَ- في مقالاته الثلاث- نقدَ ثلاثِ قصائدَ لخصمه في مَديح الملك؛ فقد جرَّ ذلك عليه غَضَبَ القصر الملكيِّ، ومن ثَمَّ قُطعت حبالُ الودِّ بينه وبين القصر، ليفوزَ العَفيفيُّ بمكانه شاعرًا للملك[٦].



عباس محمود العقاد

العقَّاد (على السَّفُّود):

عرضَ الأستاذُ إسماعيل مَظهَر على الرافعيِّ أن يكتبَ في نقد شعراءَ آخرين، فلاقى ذلك في نفسه هوًى، وأسرع إلى ذاكرته لقاؤُه بالعقَّاد في دار المقتطَف، ولم يكن ناسيًا مقالتَيه: (فائدةٌ من أُفكوهة)، و(ما هذا يا أبا عمرو ؟!)، فألفاها فرصةً سانحةً للانتقام من العقَّاد، وللثأر لكرامته، فافترسَهُ بسبع مقالات طاحنَة، نشرها تباعًا في مجلَّة العُصور، مُغْفَلَةَ النسبة، وجعلَ عنوانَها أيضًا: (على السَّفُّود)، نقد فيها ديوانَ العقَّاد، وحشدَ فيها من مُرِّ الهجاء، وقَوارص القَول، وصُنوف الذمِّ والقَدْح المُقْزِع، ما يمكن أن يُستخرَجَ منه معجمٌ لألفاظ الثَّلب والشَّتم.

وإليكم عناوينَ السَّفافيد السَّبعة، مع ذكر تواريخ نشرها:

السفود الأول: عباس محمود العقَّاد، نشر في عدد شهر تموز / يوليو، ١٩٢٩ م.

السفود الثاني: عَضَلات من شَراميط، نشر في عدد شهر آب / أغسطس، ١٩٢٩ م.

السفود الثالث: جبَّار الذِّهْن المُضْحك، نشر في عدد شهر أيلول / سبتمبر، ١٩٢٩ م.

السفود الرابع: مِفتاحُ نفسِه وقُفْلُ نفسِه، نشر في عدد شهر تشرين الأول / أكتوبر، ١٩٢٩ م.

السفود الخامس: العقَّادُ اللصُّ، نشر في عدد شهر تشرين الثاني / نوفمبر، ١٩٢٩ م.

السفود السادس: الفَيلَسوف، نشر في عدد شهر كانون الأول / ديسمبر، ١٩٢٩ م.

السفود السابع: ذُبابةٌ لكنْ من طِراز زِبْلِن، نشر في عدد شهر كانون الثاني / يناير، ١٩٣٠م.

وقدَّم الرافعيُّ بين يدَي كلِّ سفُّود من تلك السَّفافيد بيتَين من الشعر، ناطقَين بما تضمَّنته تلك المقالات من نقد فاتك مُحرِق، يقول فيهما:

وللسَّفُّودِ نارٌ لو تلَقَّتْ
بجاحِمِها حَديدًا ظَنَّ شَحْما

ويَشْوي الصَّخرَ يتركُه رَمادًا
فكيفَ وقد رميتُكَ فيه لَحْما؟!

الدَّافعُ إلى مَقالات (السَّفُّود):

يصرِّحُ الرافعيُّ بأن الدافعَ لكتابته هذه المقالات هو الغَيرةُ على القُرآن الكريم وإعجازه، يقول: هذا أسلوبٌ من الردِّ قصَدتُ به الكشفَ عن زَيْف هذا الأديب والزِّرايَة بأدبه، حتى إذا تقرَّرَت منزلتُه الحقيقيَّةُ في الأدب عندَ قرَّاء العربيَّة، لا تراهم يستمعونَ لرأيه عندما يَهُمُّ بالحديث عن إعجاز القُرآن، وهل يُحسِنُ الحديثَ عن إعجاز القُرآن من لا يستقيمُ منطقُ العربيَّة في فكره، ولا يستقيمُ بيانُها على لسانه[٧] ؟!

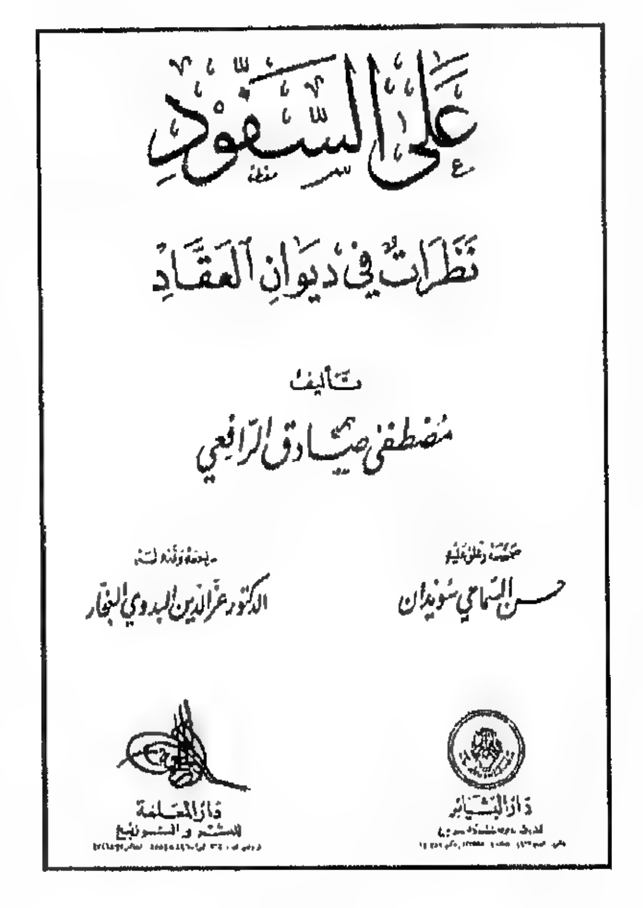
ويشكِّكُ العُريان في أن تكونَ مقالاتُ السفود غَضبةً خالصةً لله وللقُرآن؛ لأن هذه المقالات خلَت من أيِّ ذكر لقضيَّة إعجاز القُرآن، وليس فيها إلا نقدٌ ونقضٌ لديوان العقَّاد !

أما الدكتور علي عبد الحليم محمود فإنه يقطَعُ بنفي أن تكونَ هذه المقالاتُ كتبت انتصارًا لإعجاز القُرآن، ومن هنا يرفُضُ أن يَعُدَّ ما كتبَه الرافعيُّ فيها اتجاهًا إسلاميًا في أدبه[٨].

ومما يُرجِّح هذا الرأيَ أن الرافعيَّ لم يكُن ليُغفلَ في نقده للعقَّاد هذه القضيَّةَ بتَّةً، على خُطورتها، إذا ما كانت المحرِّضَ الرئيسَ على إنشاء تلك المقالات، وهو الذي أثارَ زوبعةً من الهُجوم الكاسح على طه حسين ردًا على آراءَ له في كتابه «الشعر الجاهلي» تُناقض القُرآن، وتشكِّك في بعض آياته، وكتبَ في ذلك كتابه القيِّم «تحت راية القُرآن»،لم يُدار فيه ولم يُجَمجِم.

بيدَ أن ذلكَ لا يمنعُ أن يكونَ موقف العقاد من تأليف الرافعي في الإعجاز أحدَ أسباب غَضبة الرافعيِّ الكبرى، بل هو كذلك، تنضَمُّ إلى أسباب أُخرى، مَدارُها على اختلاف وجهَة الرجُلَين في الفكر والنظَر، وأن لكلٍّ منهما في الأدب طريقًا ومذهبًا.

يقول محمد الكتَّاني[٩]: «ولو أخذنا بالخلاف بين الأديبَين في أية مناسَبة من مُناسَبات الخلاف بينهما، فإن هذا الخلافَ يرتَدُّ إلى ذلك التبايُن في النظرة إلى الأدب، ومنهَج الدرس، والموقِف النقدي، وكلِّ ما يتصلُ بعد ذلك بالكتابة الفنيَّة، والشعر، وفَهْم النصوص، ونوعيَّة القيم المنشُودَة فيها، ودراسة التُّراث الأدبيِّ، وكلِّ ما يتفرَّع عن هذه القَضايا من وسائلَ مختلفةٍ يُعنى بها النقَّاد».



أُسلوبُ مَقالات (السَّفُّود) ومَضمونُها:

لم تكُن الحدَّةُ والتجنِّي والشَّتم- التي تقدمت الإشارةُ إليها مرَّات- هي كلَّ ما في مقالات السَّفُّود، بل مادَّةُ تلك المقالات قبلَ ذلك نموذَجٌ فَذٌّ في النقد الأدبيِّ المحكَم، ونظراتٌ في نقد الشعر بصيرةٌ، وصُوَرٌ من عُمق التحليل بديعَة، وهو المتوقَّع والمَرْجُوُّ من نقد مُنشِئِه الرافعيِّ، وهو من عرفتَ علوَّ كعبٍ في الأدب والنقد وعلوم العربيَّة.

ويكاد يُجمِعُ محبُّو الرافعيِّ- وبعضُ شانئيه- أن هذه المقالات لو بَرِئَت مما شانَها من مُنكَر القول ومُرِّ الهجاء، لكانت آيةً من آيات الإبداع، ومثالاً يُحْتَذى في النقد الأدبيِّ.

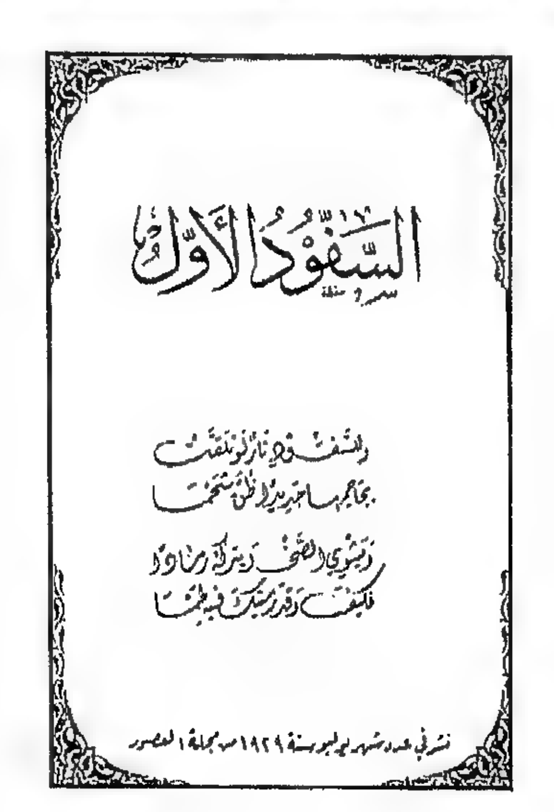
ويذهبُ العلاَّمة الدكتور عز الدين البدوي النجَّار[١٠] إلى أن الذي أخذَ فيه الرافعيُّ من نقد ديوان العقَّاد بابٌ من نقد الشعر هو أصعَبُ

أبوابه، وأبعَدُها متناولاً من طالبه، هو بابٌ ما في الفنِّ الواحد من دقائق الصَّنعة التي تكشفُ عن سرائره، وتنزيلُ هذه الدقائق في منازلها: من سموٍّ وارتفاع، أو توسُّط، أو غير ذلك، ومُقابلَة ذلك بما يكشفُه ويُؤكِّدُه من النماذج المعتَبَرة في ذلك الفنِّ.

ثم يقول: والذي قَدَرَ عليه الرافعيُّ في هذا الباب خاصَّة – في عامَّة ما تكلَّم عليه، في مقالات السفُّود وفي غيرها – لم يَقدِر عليه من أهل عَصره أحدٌ، ولا اقتربَ منه، إلا ما كانَ من العلاَّمة الكبير محمود محمد شاكر، وهو عَبقريَّةٌ فنيَّة أُخرى بالمعنى الكامل للكلمة.

ودونَكُم اقتباساتٍ من مقدِّمة الرافعيِّ لمقالاته، صريحةَ الدِّلالة على وجهته فيها:

«وأما بعدُ، فإنا نكشفُ في هذه المقالات عن غُرورٍ مُلَفَّف، ودَعوى مُغَطَّاة، وننتقدُ فيها الكاتبَ الشاعرَ الفيلسوف !! (عباس محمود العقاد)، وما إيَّاه أردنا، ولا بخاصَّته نعبَأُ به، ولكن لمن حولَه نكشفُه، ولفائدة هؤُلاء عرَضنا له... وقد يكونُ العقَّاد أستاذًا عظيمًا، ونابغةً عبقريًّا، وجبَّارَ ذهن كما يَصفون، ولكنا نحنُ لا نعرفُ فيه شيئًا من هذا، وما قُلنا في الرجُل إلا ما يقولُ فيه كلامُه، وإنما ترجَمنا حُكمَ هذا الكلام، ونقلْناه من لغة الأغلاط والسَّرقات والحَماقات إلى لغة النقد... في هذه المقالات مُثُلٌ وعَيِّنات تَؤولُ بك إلى حقيقة هذا الأديب من كلِّ نَواحيه، وفيها كافٍ، إذ لا يَلزَمُنا أن نأتيَ على كلِّ كلامه، إذا كان كلُّ كلامه سخيفًا... وسترى في أثناء ما تقرؤه ما يُثبت لك أن هذا الذي وصَفوه بأنه جبَّارُ الذهن، ليس في نار السفُّود إلا أديبًا من الرصاص المصهور المُذاب. ونرجو أن تكونَ هذه المقالاتُ قد وَجَّهَت النقدَ في الأدب العربيِّ إلى


السَّفُّودُ الأوَّل
نشر في عدد شهر يوليو سنة ١٩٢٩ من مجلة العصور

وجهه الصَّحيح، وأقامَته على الطَّريق المستويَة؛ فإن النقدَ الأدبيَّ في هذه الأيام ضَربٌ من الثَّرثَرة، وأكثرُ من يكتبون فيه يَنْحَون مَنحى العامَّة، فيجيئون بالصُّورة على جُملتها، ولا يكونُ لهم قولٌ على تفصيلها، وإنما الفنُّ كلُّه في تشريح التفاصيل، لا في وَصْف الجملة... هذا وقد كتبنا مقالات (السفُّود) كما نتحدَّث عادةً؛ لهوًا بالعقَّاد وأمثاله؛ إذ كانوا أهونَ علينا وعلى الحقيقة من أن نتعبَ فيهم تعبًا، أو نصنعَ فيهم بيانًا، فهم هلاهيلُ لا تَشدُّ أحدَهُم حتى يتهتَّكَ وينفتقَ وينفلق...».

وعبارةُ الرافعيِّ الأخيرةُ تلخِّصُ الجادَّةَ التي سلكَها في مقالاته، والأُسلوبَ الذي انتهَجَه فيها، وقد أفصَحَت عن ذلك إفصاحًا؛ فهو كتب مقالات السفُّود (من رأس القلم)، كأنه يمضي مع خِلٍّ له على سجيَّته في حديثٍ مرسَل، لا يتقصَّد تجويدًا، ولا يلتفتُ إلى صنعة، وما ذاك إلا استخفافًا بالعقَّاد ومن اقتفى أثرَه، فهؤلاء وأمثالُهم أهوَنُ على الرافعيِّ من أن يُنصِبَ نفسَه بسببهم، أو أن يُنشِئَ فيهم بيانًا عاليًا.

مُجمَل مآخذ الرافعيِّ على العقَّاد:

تقدَّم فيما اقتبسنا من مقدِّمة الرافعيِّ إشارةٌ إلى شيء من مآخذه على العقَّاد، ونذكُر هنا بإيجاز جملةً من ذلك:

من أوَّل مآخذه عليه: ما يراه فيه من ضَعف في اللغة والأُسلوب والصَّنعة البيانيَّة، وقد صرَّح بذلك في (السفُّود الأوَّل)[11] يقول: «ويدَّعي العقَّاد أنه إمامٌ في الأدب، فخُذ معَنا في تحليله؛ أما اللغةُ فهو من أجهَل الناس بها وبعُلومها، وقلَّما تَخلو مقالةٌ له من لحن، وأسلوبُه الكتابيُّ أحمقُ مثله، فهو مُضطَرِب مُختَل، لا بلاغةَ فيه، وليست له قيمة،

والعـقَّاد يقـرُّ بذلك، ولكنه يُعلِّلُه أنه لا يريدُ غـيـرَه، فنفهَمُ نحن أنه لا يُمكنُه غيرُه».

ويُلِحُّ الرافعيُّ على أن العقَّاد لا يَعدو أن يكونَ مترجمًا ناقلاً، وأحسنُ ما يكتبُه هو أحسنُ ما يَسرقُه؛ كأن اللغةَ الإنكليزيةَ عنده ليست لغةً، ولكنها مفاتيحُ كتب، وآلاتُ سرقة.

ويؤكِّد الرافعيُّ أن أكثرَ شعرِ العقَّاد قائمٌ على سرقةِ المعاني وانتحالها، من غَير أن يضعَ لها تعليلاً أو يزيدَ فيها زيادةً، أو يجعلَ لها سياقًا ومَعرضًا، أو نحو ذلك مما يسوِّغ أخذه إياها، وقد استشهَد الرافعيُّ لذلك بغير قليل من شعره، يُورد أبياتَه أوّلاً، ثم يُتبعُها بالشعر القديم الذي سَطا عليه العقَّاد، مبيِّنًا البَوْنَ البعيدَ ما بين الأصل الجيِّد والمسروق المزيَّف، في دقَّة المعاني ورُواء الأُسلوب.

ويرى الرافعيُّ أن للعقَّاد بضعةَ أبيات حسنة لا بأسَ بها، وألوفًا من الأبيات السَّخيفة المُخْزِيَة، التي لا قيمةَ لها في المعنى، ولا في الفنِّ، ولا في البيان؛ وذلك دليلٌ قاطعٌ لا شكَّ فيه أن الأبياتَ الحسنةَ مسروقةٌ، جادَت بها قريحةٌ أُخرى، هيهاتَ أن يكونَ عند العقَّاد قليلٌ منها. ولا يفوتُنا التنبيهُ على أن السفُّودَ الخامسَ عَنْوَنَه الرافعيُّ بـ: (العقَّاد اللصُّ).

ومما يُنكرُه عليه أيضًا: تكرارُه المعاني في الأبيات، وكثرةُ أخطائه في التشبيه وفي العَروض، وأنه لا يَفهَم ما يكتبُه، مما يجعل شعرَه ككلام الجرائد!

وأزرى به مُدَّعيًا جهله باستعمال الألفاظ: اختيارًا، ومَزجًا، وتَركيبًا، ومُلاءمةً بينها، وإخراجًا للألوان المعنويَّة من نظمها وتَركيبها.

كما نفى الرافعيُّ عن العقاد الخيالَ الشعريَّ، وذوقَ الشعر، والقُدرةَ على العبارة الصَّحيحة الشاعرَة عنه، فيكونُ العقَّاد بذلك شاعرًا بلا شاعريَّة!

ولعلَّ من نافلة القَول أن نذكِّرَ: أن الرافعيَّ لم يكُن محقًّا في كلِّ ما نبَزَ به العقَّاد، بل في مقالاته هذه غيرُ قليلٍ من التجنِّي والتهويل والمبالغَة!!

مقَالاتُ السفُّود في كتاب: طبعة دار العُصور:

تقدَّم أن مقالات (على السفُّود) نُشرت متتابعةً سنة ١٩٢٩ م، وفي العام التالي (١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠ م) أعاد نشرَها الأستاذُ إسماعيل مَظهَر مجموعةً في كتاب، صدر عن داره دار العُصور، ولم يصرِّح باسم مؤلِّفه - على ما كانت الحالُ في المقالات - وأثبتَ على غلافه: بقلم إمام من أئمَّة الأدب العربيِّ.

قدَّم الأستاذُ مَظهَر للكتاب بمقدِّمة بإمضائه بعُنوان: التعريف بالسفُّود، أفصَحَ فيها عما دفعَه إلى نشر الكتاب؛ وأن السببَ الأوَّلَ في ذلك هو إفساحُ المجال لعَلَم من أعلام الأدب، وحُجَّة ثَبْت من رجالات العَصر (يعني الرافعيَّ)؛ ليعبِّرَ عن رأيه في صَراحة وجَلاء، في أديبٍ امتازَ بين الأدباء بشيءٍ من الصَّلَف، والزَّهْو بالنفس، والإغْراب في تَقدير الذَّات، (وهو العقاد).



وثَمَّ سببٌ آخرُ لنشر مقالات السفُّود هو: وَضْعُ النقد في موضعه الصَّحيح، بعيدًا عن المَدْح لمجرَّد المدح، أو الذَّمِّ لمجرَّد النفْع الماديِّ، ولإعطاء الكُتَّاب الحريَّةَ التامَّةَ في التعبير عن آرائهم؛ لتحرير النقد من تقديس الأشخاص.

ويَختمُ مقدِّمتَه بقوله: «وعسى أن يكونَ (السفُّود) مدرسةَ تهذيبٍ لمن أخذَتهُم كبرياءُ الوَهم، ومثالاً يَحتَذيه

الذين يُريدون أن يحرِّروا بالنقد عُقولَهم من عبادة الأشخاص، ووثنيَّة الصِّحافَة في عَهدها البائد».

ويتعَقَّبُه العُريان في «حياة الرافعي»[١٣] قائلاً: أما أن تكونَ هذه المقالاتُ مدرسةً للتهذيب، ومثالاً يَحتَذيه النَّقَدَة، فلا... فليس بنا من حاجَة إلى أن يَحتَذيَ النقَدَةُ هذا المثالَ في أسلوب النقد والجَدَل، فيَزيدوا عيبًا فاحشًا إلى عُيوب النقد في العربيَّة. إننا لنريدُ للناقدينَ في العربيَّة أن يكونوا أصحَّ أدبًا، وأعفَّ لسانًا من ذاك.

الطبعةُ الدمشقيَّة:

غَبَرَت سنواتٌ طويلةٌ على طبعة دار العُصور، حتى باتَت أعزَّ من بَيْض الأَنُوق قلَّةً ونُدرَةً، فنهضَ الأستاذُ الدمشقيُّ حسن السَّماحي سُوَيدان بالعناية بالكتاب تصحيحًا وتعليقًا، وأخرجَه في طبعة جَديدة بحلَّة قَشيبَة وإخراج حَسَن، صَدَرَت طبعتُه عن دار البشائر بدمشق، لصاحبها الأُستاذ عادل عسَّاف، سنة ١٤٢١ هـ- ٢٠٠٠ م، واشتركَت في توزيعها دار المعلِّمَة بالرياض.

ولولا هَناتٌ هيِّنَة يَسيرَة فيها لجازَ لنا أن نقولَ: لقد بلغَت هذه الطبعةُ الكمالَ أو كادَت.

تميَّزت الطبعةُ الدمشقيَّةُ ببعض المزايا، زادَت من أهميَّتها، وأَثْرَت الفائدةَ فيها، منها:

أ - التصديرُ البديعُ الذي كتبه العلاَّمة الدكتور عز الدين البدوي النجَّار عضوُ مجمَع اللغة العربية بدمشق، وهو أحدُ عُمُد المدرسة الرافعيَّة الأصيلَة، ومن أصفياء شيخ العربيَّة محمود محمد شاكر والآخذين عنه، وقد بلغَ تصديرُه خمسًا وخمسين صفحةً، صاغَها بقلم مِفَنٍّ صَناع، وبنمَطٍ رافعيٍّ أسلوبًا ومَضْمونًا، كشفَ فيها كشفًا دقيقًا عن مُلابسات الصراع الأدبيِّ بين الرافعيِّ



د . عزالدين البدوي النجار عضو مجمع اللغة العربية مع كاتب المقال

والعقَّاد، واضعًا ذلك في سياقه التاريخيِّ الصحيح، نافذًا إلى أعماق الرجُلَين، مُحلِّلاً لنفس كلٍّ منهما ولانتحاءات فكره التي أدَّت إلى ما عَرَفنا من خصام شديد بينهما، وانتهى الدكتور إلى أن كلاً من الرجُلَين عبقريَّةٌ عظيمةٌ في تاريخ أدبنا العربيِّ، لها سَماؤُها وأُفُقُها العالي، وأن كتابَ (السفُّود) فصلٌ من فُصول الأدب والنقد الحديث، لا بُدَّ للدارس والمؤرِّخ منه، وقد رَجَعَ بعد تناسُخ الأيام من دونه كتابًا للتاريخ وحدَه، يحكُم له أو عليه، وما كان كذلك لم يكُن لغير الفنِّ الخالص، أو العلم الخالص، حظٌّ يَخلُدُ به أو يَبيدُ.

ب- تقديمُ الأستاذ سُوَيدان للكتاب في خمس صفحات، عرَضَ فيه لقِدَم المعارك الأدبيَّة في تارخ الأدب العربيِّ، وذكر مُسَوِّغات إعادة نشر الكتاب في طبعة جديدة، ثم عرَضَ لصنعَته في الكتاب، وما بذل من جهد في خدمته.

ج- ترجمةٌ للرافعيِّ اختصرَها الأستاذ سُوَيدان


الأستاذ حسن السماحي سويدان مع كاتب المقال

من كتاب «حياة الرافعي» للعُريان، بلغت تسعَ صفحات.

د- ما أُثبت بين يدَي الكتاب: (مقدِّمة في الشِّعر)، وهي المقدِّمة التي كان كتبَها الرافعيُّ لديوانه الأوَّل الذي نشره سنة ١٩٠٣ م، وقد رأى الأستاذ سُوَيدان ضمَّها إلى الكتاب؛ لما اشتملَت عليه من فَوائد، لعلَّ أهمها تقديمُ صورة جليَّة عن نظرة الرافعيِّ المتغلغِلَة في الشعر، ورؤيته النقديَّة لمذاهب شُعَراء العربيَّة.

هـ- مُلحَقاتُ الكتاب، وهي:

- سَفُّودٌ صغيرٌ، ضمَّنه قطعةً من مَقال العقَّاد: (أُدَباؤنا على المِشرَحَة)، الذي كان نُشر في مجلَّة (الاثنين والدنيا) في ٢٦ إبريل ١٩٤٣م، وهذه القطعةُ في ذَمِّ الأديب الشاعر الدكتور زكي مُبارك، وأُثبت بعدَها ردُّ الدكتور مُبارك بعنوان: (ماذا يريد العقاد ؟!)، نُشر في المجلَّة نفسها والتاريخ نفسه ! ومقالةٌ أُخرى للدكتور زكي مُبارك بعنوان: (جنايةُ العقَّاد على العقَّاد)، نشرها في مجلة (الصباح) في ٦ مايو ١٩٤٣م.

- قصيدةٌ للشاعر الضَّرير المُرهَف أحمد الزَّين: (شُعَراء العَصْر في مِصْر) فيها بيانُ منزلة خمسةٍ وعشرينَ شاعرًا من شُعَراء مصرَ المحدَثين، وفيها يقولُ في العقَّاد:

ألا أبْلِغا العقَّادَ تعقيدَ لَفظِهِ
ومَعْناهُ مثلُ النَّبْتِ ذاوٍ ومُثْمِرُ
يُحاولُ شعرَ الغَربِ لكنْ يَفوتُهُ
ويَبْغي قَريضَ العُرْبِ لكنْ يُقصِّرُ

ويقولُ في الرافعيِّ:

تَضيعُ مَعاني الرافعيِّ بلَفظِهِ
فلا نُبصِرُ المعنى وهَيهاتَ نُبصِرُ
مَعانيهِ كالحَسْناءِ تأبى تبَذُّلاً
لِذاكَ تَراها بالحِجابِ تَخَدَّرُ

- سَفُّودٌ من نوعٍ آخرَ، وهو قصَّة عَبَثِ الدكتور طه حسين بالعقَّاد حينَ بايعَه بإمارة الشِّعر، وصَدى هذه البيعة، ومن ذلك ما قالَه الأستاذُ الشاعر محمد حسن النَّجْمي ساخرًا متهكِّمًا:

خَدَعَ الأعْمى البَصيرْ
إنَّهُ لَهْوٌ كَبيرْ
أضْحَكَ الأطفالَ منهُ
إذْ دَعاهُ بالأميرْ
أصبَحَ الشِّعرُ شَعيرًا
فاطْرَحوهُ للحَميرْ

- وزُيِّنَت الطبعةُ ببعض الصُّوَر المتَّصلة بالكتاب، هي: صورةٌ للرافعيِّ، صورةُ غلاف طبعة دار العُصور الأولى، صورةُ غلاف ديوان العقَّاد، صورةُ غلاف الطبعة الملكيَّة لكتاب الرافعيِّ «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية»، صورةٌ مزدَوجَة للرافعيِّ والعقَّاد، صورةُ خطِّ دُعاء الشيخ محمد عبده للرافعيِّ وثنائه على أدبه.

- وذُيِّلَت الطبعةُ بثمانية فهارسَ عامَّةٍ كاشفةٍ، هي فهارسُ: الآيات، الأحاديث، الأمثال،

الشعر، الأعلام، الأماكن، الكتب والمجلات، الموضوعات.

وتميَّز فهرسُ الموضوعات بتلخيص رؤوس موضوعات المسائل الدائرة في الكتاب، وما في ثناياهُ من فوائد.

الخاتمة:

وبعدُ، فقد بلَغْنا الغايةَ من الحديث عن المعركةِ بين الرافعيِّ والعقَّاد التي أثمرَت كتاب (السفُّود)، و لقد «تنفَّسَ العُمُر بالعقَّاد دَهرًا بعد الرافعيِّ، وخرجَ من كثير مما كان يَشغَلُه في معترَك الحياة العامَّة ومطالبها ونَكَدها أحيانًا، وفرَغَ لجُملَة من مَباحث الفكر والأدب العربيَّين، اقتربَ فيها أشواطًا كثيرة مما كانَ الرافعيُّ أخلصَ له نفسَه، إلا أنه صنعَ ذلك بأُسلوبه، وبانتحاءات فكره، وطَريقَته التي يُقبِلُ بها على الأشياء.

والرافعيُّ والعقَّاد كلٌّ منهما عبقريَّةٌ على حِدَة، وكلاهُما بحرٌ زاخرٌ، وأُفُقٌ من الفكر والأدب عظيمٌ، وقد رَجَعَ الرجُلانِ كلاهما تُراثًا من تُراث الفكر والأدب العربيَّين، يَعتَدُّ به المعاصِرُ، ويَشُدُّ به يدَه، ويَحرِصُ عليه»[13]. ■

الهوامش :

(١) انظر ص ١٨٥ منه .

(٢) وهو الجزء الثاني من كتابه: «تاريخ آداب العرب»، الذي صدر جزؤه الأول سنة ١٩١١ م، وقد طَبعَ الرافعيُّ الجزء الثاني مفردًا بعنوان: «إعجاز القرآن» .

(٣) حياة الرافعي لمحمد سعيد العريان ، القاهرة ، ١٩٣٩ ، ط٣ ، ص١٨٧ .

(٤) انظر «مصطفى صادق الرافعي الناقد والموقف» لإبراهيم الكوفحي ص ١٨٥ – ١٩٠ . دار البشير / عمان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م، سلسلة أعلام المسلمين في العصر الحديث.

(٥) استمرَّ الرافعيُّ شاعرًا للملك فؤاد من نحو سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٢٩ م .

(٦) انظر تفاصيلَ الخصومة بين الرافعيِّ والعَفيفي في : «حياة الرافعي» ص ١٦٨ – ١٨١ ، مصدر سابق.

(٧) حياة الرافعي ص ١٩١، مصدر سابق .

(٨) انظر كتابه: «مصطفى صادق الرافعي والاتجاهات الإسلامية في أدبه» ص ١٨٣، شركة مكتبات عكاظ، السعودية، ط٢، ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م .

(٩) في كتابه: «الصراع بين القديم والجديد»، نقلا عن كتاب الأستاذ إبراهيم الكوفحي «مصطفى صادق الرافعي الناقد والموقف» ص ١٩٣، مصدر سابق .

(١٠) في تصديره للطبعة الدمشقية ص ٥٨ – ٥٩، تصحيح وتعليق حسن السماحي سويدان، دار البشائر، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م .

(١١) ص ٦٦ من الطبعة الدمشقية، مصدر سابق .

(١٢) ص ١٩١، مصدر سابق .

(١٣) من تصدير الدكتور عز الدين البدوي النجار للطبعة الدمشقية، مصدر سابق .

يـــــارب

يا رب قد صار بحر الدهر مضطربا	لا تستقر سفينتي عند ساحله
وقد غمرت بموج من حوادثه	وإن أدعه فما جسمي بحامله
وإن أمدَّ بباعي أبتغي فرجا	فما سوى الريح شيء في أنامله
فخذ بيميني إلى علياء تعصمني	من جاهل الشر في الدنيا وعاقله

مصطفى صادق الرافعي



مصطفى صادق الرافعي في وجدان محبيه

أتمنى وكــــيف لا أتمنى	أن لي في الحيـاة خلا وفيا
وفـؤادا مطهـرا يلمح الدهـــ	ـــر وأهليـه راضيا مرضيا
ذلك المجد خافقا بعد موتي	ونعيم الحيـاة ما دمت حيا

مصطفى صادق الرافعي



مصطفى صادق الرافعي

ماذا أريد أن يقال عني بعد الموت*

سأله محرر الدنيا منذ شهرين هذا السؤال فكتب إليه هذا المقال:

ما هي الكلمات التي تقال عن الحي بعد موته إلا ترجمة أعماله في كلمات ؟ فمن عرف حقيقة الحياة عرف أنه فيها ليهيء لنفسه ما يحسن أن يأخذه، ويعد للناس ما يحسن أن يتركه، فإن الأعمال أشياء حقيقية لها صورها الموجودة وإن كانت لا ترى .

وبعد الموت يقول الناس أقوال ضمائرهم لا أقوال ألسنتهم إذ تنقطع مادة العداوة بذهاب من كان عدوا، وتخلص معاني الصداقة بفقد الصديق، ويرتفع الحسد بموت المحسود، وتبطل المجاملة باختفاء من يجاملونه، وتبقى الأعمال تنبه إلى قيمة عاملها .

ومن هنا كان الموت أصدق وأتم ما يعرف الناس بالناس، وكانت الكلمة بعده عن الميت خالصة مصفاة لا يشوبها كذب الدنيا على إنسانها، ولا كذب الإنسان على دنياه، وهي الكلمة التي لا تقال إلا في النهاية، ومن أجل ذلك تجيء وفيها نهاية ما تضمرالنفس للنفس .

وماذا يقولون اليوم عن هذا الضعيف ؟ وماذا تكتب الصحف.

هذه كلمات من أقوالهم: حجة العرب، مؤيد الدين، حارس لغة القرآن، صدر البيان العربي، الأديب الإمام، معجزة الأدب، إلى أخر ما يطرد في هذا النسق،وينطوي في هذه الجملة . فسيقال هذا كله ولكن باللهفة لا بالإعجاب، وللتاريخ لا للتقريظ، ولمنفعة الأدب لا لمنفعة الأديب . ثم لا يكون كلاما كالذي يقال على الأرض يتغير ويتبدل، بل كلاما ختم عليه بالخاتم الأبدي، وكأنما مات قائلوه كما مات الذي قيل فيه .

أما أنا فماذا ترى روحي وهي في الغمام وقد أصبح الشيء عندها لا يسمى شيئا ؟ إنها سترى هذه الأقوال كلها فارغة من المعنى اللغوي الذي تدل عليه لا تفهم منها شيئا إلا معنى واحدا هو حركة نفس القائل، وخفقة ضميره، فشعور القلب المتأثر هو وحده اللغة المفهومة بين الحي والميت .

سترى روحي أن هؤلاء الناس جميعا كالأشجار المنبعثة من التراب عالية فوقه وثابتة فيه، وستبحث منهم لا عن الجذوع والأغصان والأوراق والظاهر والباطن بل عن شيء واحد هو هذه الثمرة السماوية المسماة القلب . وكل كلمة دعاء وكلمة ترحم وكلمة خير . ذلك هو ما تذوقه الروح من حلاوة هذه الثمرة .

* مجلة الرسالة ، العدد ٢٠٣ ، السنة الخامسة ، ٢٤ مايو ١٩٣٧م.

إلى صاحب القلم المتوضئ .. مصطفى صادق الرافعي

قلم توضأ ثم صلى ركعتينْ
ماذا عساه يخط في ألق اللُّجينْ
بعد انبثاق النور في كلماته
أضحى شهابا نيرا في الخافقينْ
برداً سلاماً في قلوب من اهتدوا
ناراً تحرِّق من هوى بالأصغرينْ
من فيض نبع الطهر صار مداده
يهدي الحيارى في ربوع المشرقينْ
هو شاعر، هو ناثر، هو مبدع
هو مؤمن بالحق يمحو كل شينْ
لا ينحني للريح مهما زمجرت
فلكل باغ إن عتا سيحين حينْ
الحق أبلج ساطع في عينه
لا شيءَ يُدْعى، ربما، لا ، بينَ بينْ
قلم سما بحياتنا، لا ريب أنَّ
مالَه ظَفَرُ بإحدى الحسنيينْ

شعر : زينهم البدوي- مصر



رثاء مجلة الفتح

مصطفى صادق الرافعي*

محب الدين الخطيب

من خمسمائة سنة وأكثر لم يحمل هذا القلم كاتب أمتن في العربية قولا، وأبلغ معنى، وأغزر حكمة، وأوجز في التعبير عن دقائق الخواطر، من فقيد الأدب العربي مصطفى صادق الرافعي.

لما وقع نظري في مساء الاثنين من هذا الأسبوع على خبر وفاته لم أصدق نظري فيما يرى، ولم يصدق نظري ما رأى، لعقيدة رسخت في نفسي بأن مصطفى صادق الرافعي لا يموت، وكيف يموت من أراه حيا في كل صفحة من مؤلفاته ، وفي كل سطر من كل صفحة، وإن مافي كتاب واحد له من بليغ الحكمة ونوابغ الكلم لو أنه جرد مستقلا في كراسة، ولم يكن لمصطفى صادق الرافعي ما يدل على أدبه غيرها، لكان بذلك في الطبقة الممتازة من حكماء الناس وأدبائهم .

لما كنت في دراستي الابتدائية كنت أحفظ قول حافظ إبراهيم فيه:

وأوتيت النبوءة في المعاني
وما جاوزت حد الأربعينا

ولو أن مصطفى صادق الرافعي أباد من الوجود كل ما استحق به هذه الشهادة من حافظ، لكان بعض ما زين به عقول الناس وألسنتهم بعد ذلك من بارع قوله كافيا لأن يكون من الخالدين .

من الأدباء والمثقفين من يساوي في أدبه وثقافته مقدارا كوفئ عليه بأضعاف أضعافه، لأنه خراج ولاج، يحسن المتاجرة بالأدب، ويعرف كيف يحمل من بأيديهم الثمن على أدائه له مضافا إليه الربا وربا الربا ، وإن من الأدباء رجالا يرون أدبهم أكرم عليهم من أن يتاجروا به ، فيعيشون لأجيال أخرى تصغي إلى عبقريتهم في هدأة من ضجيج الأغراض والمطامع ، وفي سكينة النفس الشاعرة المنصفة ، وها قد فارقنا منهم الكاتب الأعظم مصطفى صادق الرافعي بعد أن عاش ما عاش بيننا كما لو كان من أهل الفهاهة والعيّ ، ولو أنه صرف مواهبه في الاتجار بما يحتاج إليه الناس في بطونهم وشهواتهم لارتفعت به هذه المواهب إلى قمة الثروة وسعة الغنى . لكنه آثر أن يعيش منشدا:

في ضميري دائما صوت النبي
آمرا: جاهد، وكابد، واتعب!
صائحا: غالب، وطالب، وادأب
صارخا: كن دائما حراً أبي
كن سواء ما اختفى وما علن
كن قويا بالضمير والبدن
كن عزيزا بالعشير والوطن
كن عظيما في الشعوب والزمن
العلا، إن العلا
واجبات المسلم

* مجلة الفتح ،العدد ٥٤٩ ، العام الحادي عشر ، ٢ ربيع الأول ١٣٥٦هـ .

خـــيــــر عـــالـم خـــلا
كـــان فـــيـنا ينتـــمـي

عاش مصطفى صادق الرافعي مكافحا في سبيل إسعاد أسرته وبنيه، لأن بيئته لم تساعده على ذلك، بالمقدار الذي يناسب نبوغه وفضله . وعاش مكافحا في سبيل الأدب نفسه، فكان مؤلفا عالما، وكان شاعرا من طبقة عالية، وكان بعد ذلك أكتب كتاب العربية، لا يعلو على نثره نثر، ولا يبلغ أحد شأوه في دقة التعبير وابتكار جليل المعاني من أتفه الأشياء وأبسطها .

ومصطفى صادق الرافعي هو صاحب كل قول يقوله، وإن شانئيه من أدعياء التجديد - الذين يسطون على معاني أدباء الإفرنج فيمسخونها بأساليبهم العامية الضعيفة - لو أن الله سلط عليهم من يرد كل معنى في نثرهم وشعرهم إلى أصحابه من فرنسيس وإنكليز، لانطلقت معانيهم كلها إلى أوكارها البعيدة ، ولبقيت أساليبهم العامية الضعيفة خلوا من كل شيء. والذي سينتفع به مصطفى صادق الرافعي في موقفه غدا بين يدي ربه المعارك التي خاضها تحت راية القرآن دفاعا عن البنيان المحمدي الخالد وتنكيلا بالذين حدثتهم أنفسهم أن يعملوا على هدمه . وجهاد الرافعي في هذا الميدان كان جديرا بسليل بيت الفاروق . وأحب بهذه المناسبة أن أذكر له مزية عرفتها فيه غير مرة، وهي عزوفه عن الاعتزاز بالنسب وحرصه على أن يعرفه الناس جنديا من جنود الإسلام وأن يقدروه بما يرونه من قيمة جهاده .

إن الدفاع عن الفضائل، وعن الحرية، وعن حقائق الإسلام، كان سليقة في الرافعي يجري بذلك قلمه بغير تعمل ولا قصد، فكان هو بذلك شجى في حلاقيم مبغضي محمد ﷺ، وقد حاولوا كثيرا أن يضعوا من شأنه، وأن يحطوا من قدر أدبه، فلم يزيدوه إلا حرمة في نفوس الناس وإجلالا . وقلما حظي نثر معاصر باستظهار الناس له، وحفظهم بدائعه، كما رأينا المتذوقين حلاوة البيان العربي يحفظون آيات هذا النابغة وشواهد عبقريته ونبوغه.

رحمه الله رحمة واسعة، وأكثر في الأمة من خلفائه.

ذكرى الرافعي*

لم ألق في الأدباء مثلك مصطفى
تحكي براعتُه الحسام المرهفا

تحمي حمى أم اللغات بحده
وتذود عنها من بغا وتعسفا

قول كآيات الكتاب تنزلت
قد جل حسن بيانه أن يوصفا

كالصبح نورا والنسائم رقة
والدّرِ نظما والربيعِ مفَوفا

ألقى البيان قياده لك تنتقي
منه - كما شئت - الأرقَّ الألطفا

* * *

يا ناصر الفصحى بقولك لم تكن
متصنعا فيه ولا متكلفا

أعليت بالأدب الرفيع لواءها
فهفا على العرب الكرام ورفرفا

وأعدته شعبا قويا بعدما
قد كان أوهى ما يكون وأضعفا

فلتبقَ ذكراك الكريمة بيننا
فهي الأحق بيومها أن يحتفى

شعر: عبدالرحمن نجا

* مجلة الأزهر ، العدد الأول ، يونيو ، ١٩٦٣م.



مات الرافعي ولكنه سيعيش في قلب كل مسلم



بقلم: محمد سعيد العريان

لقد عاش الرافعي في هذه الأمة وكأنه ليس منها، فما أدت له في حياته واجبا ولا اعترفت له بحق، ولا أقامت معه على رأي، وكأنما اجتمع له هو وحده تراث الأجيال من هذه الأمة العربية المسلمة، فعاش ما عاش ينبهها إلى حقائق وجودها ومقومات قوميتها، على حين كانت تعيش في ضلال التقليد وأوهام التجديد . ورضي هو مقامه منها غريبا معتزلا عن الناس، لا يعرفه أحد إلا من خلال ما يؤلف من الكتب وينشر في الصحف، أو خلال ما يكتب عنه خصومه الأكثرون، وهو ماض على سنته سائر على نهجه، لا يبالي أن يكون منزله بين الناس في موضع الرضا أو موضع السخط والغضب، ولا ينظر لغير الهدف الذي جعله لنفسه منذ يومه الأول، وهو أن يكون من هذه الأمة لسانها العربي في هذه العجمة المستعربة، وأن يكون لهذا الدين حارسه وحاميه، يدفع عنه أسباب الزيغ والفتنة والضلال، وما كان - رحمه الله - يرى في ذلك إلا أن الله قد وضعه في هذا الموضع ليكون عليه وحده حياطة الدين والعربية، لا ينال منها نائل إلا انبرى له، ولا يتقحم عليها متقحم إلا وقف في وجهه، كأن ذلك «فرض عين» عليه وهو على المسلمين «فرض كفاية» .

لقد عرف الرافعي من يومئذ أن عليه رسالة يؤديها بين أدباء الجيل، وأن له غاية أخرى هو عليها أقدر وبها أجدر، فجعل الهدف الذي يسعى إليه أن يكون لهذا الدين حارسه وحاميه، يدفع عنه أسباب الزيغ والفتنة والضلال، وأن ينفخ في هذه اللغة روحا من روحه يردها إلى مكانها ويرد عنها، فلا يجترئ عليها مجترئ ولا ينال منها نائل ولا يتندر بها ساخر، إلا انبرى له يبدد أوهامه ويكشف عن دخيلته.

لقد عاش الرافعي حياته يجاهد لأمته ما لم يجاهد أديب في العربية منذ قرون، وقضى حياته يلقى من العقوق ونكران الجميل ما لم يلق أديب في العربية منذ كانت العربية، ومات فما كان حظه منا في أخراه أحسن منه في دنياه.

لقد حاول كثير من مؤرخي الأدب أن يتحدثوا عن الرافعي في حياته، فقالوا شاعر، وقالوا كاتب، وقالوا عالم، وقالوا مؤرخ، ولكنهم لم يقولوا الكلمة التي كان ينبغي أن تقال . لقد كان شاعرا، وكاتبا وأديبا، وعالما، ومؤرخا، ولكنه بكل أولئك، وبغير أولئك، كان شيئا غير الشاعر والكاتب والأديب، وغير العالم والمؤرخ، كان هبة الله إلى الأمة العربية المسلمة في هذا الزمان، لينبهها إلى حقائق وجودها، وليردها إلى مقوماتها، وليشخص لها شخصيتها التي تعيش باسمها ولا تعيش فيها، والتي تعتز بها، ولا تعمل لها .

يرحمه الله! لقد عاش في خدمة العربية سبعا وثلاثين سنة من عمره القصير، وصل بها حاضرها الماثل بماضيها البعيد، فهي على حساب الزمن سبع وثلاثون ولكنها على الحقيقة عصر بتمامه من عصور الأدب، وفصل بعنوانه في مجد الإسلام!

لقد عاش غريبا ومات غريبا، فكأنما كان رجلا من التاريخ بعث في غير زمانه ليكون تاريخا حيا ينطق بالعبرة ويجمع تجاريب الأجيال، يذكر الأمة العربية الإسلامية بماضيها المجيد، ثم عاد إلى التاريخ بعد ما بلغ رسالته .

لقد خفت الصوت، ولكنه خلف صداه في أذن كل عربي وفي قلب كل مسلم، يدعو إلى الجهاد لمجد العرب ولعز الإسلام .

لقد مات الرافعي،ولكن اسمه سيبقى ما بقيت العربية، وليس بعيدا ذلك اليوم الذي يتداعى فيه أدباء العربية من كافة أقطارها ليجعلوا ذكرى الرافعي موسما من مواسم الأدب وحلبة يتسابق فيها أهل البيان .

رثاء مجلة الرسالة

مصطفى صادق الرافعي*



بقلم: احمد حسن الزيات

شديد على الرسالة أن تنعي الرافعي إلى ديار الحنيفة وأقطار العروبة بدل أن تزف إليها كعادتها درة من غوص فكره وآية من وحي قلمه! وعزيز على هذا القلم أن يتقطر سواده على الرافعي وهو نوره في مداده ،وسنده في جهاده، وصديقه في شدته! وعظيم على العالم الأدبي أن يرزأ في الرافعي وهو الطريقة المثلى لغاية الناشئ، والمثل الأسمى لطموح الأديب، والحجة العليا على قصور القاصر!

يالله!! أفي لحظة عابرة من صباح يوم الاثنين الماضي يلفظ الرافعي نفسه في طوايا الغيب كومضة البرق لفها الليل، وقطرة الندى شربتها الشمس، وورقة الشجر أطاحها الخريف، ثم لا يبقى من هذا القلب الجياش، وهذا الشعور المرهف، وذلك الذهن الولود، إلا كما يبقى من النور في العين، ومن السرور في الحس، ومن الحلم في الذاكرة!!

كان الرافعي يكره موت العافية فمات به: أرسل إلي قبل موته الفاجئ بساعات كتابه الأخير يشكو فيه بعض الوهن في أعصابه، وأثر الركود في قريحته، ويقترح عليّ نظاما جديدا للعمل يجد فيه الراحة حتى يخرج إلى المعاش فيقصر جهده على الأدب، ثم يسرد إيجاز عزائمه ونواياه، ويعد المستقبل البعيد بالإنتاج الخصب والثمر المختلف، ويقول: « **إن بنيتي الوثيقة وقلبي القوي ستغلبان على هذا الضعف الطارئ، فأصمد إلى حملة التطهير التي أريدها ....**».

كتب الرافعي إليّ هذا الكتاب صباح الأحد، وتولى القدر عني الجواب صباح الاثنين: قضى الصديق العامل الآمل الليلة الفاصلة بين ذينك اليومين على خير ما يقضيها الرخيّ الآمن على صحته وغبطته: صلى العشاء في عيادة ولده الدكتور محمد، ثم أقبل على بعض أصحابه هناك فجلا عنهم صدأ الفتور بحديثه الفكه ومزحه المهذب، ثم خرج فقضى واجب العزاء لبعض الجيرة، ثم ذهب وحده إلى منتزه المدينة فاستراض فيه طويلا بالمشي والتأمل، ثم رجع بعد موهن من الليل إلى داره فأكل بعض الأكل ثم آوى إلى مضجعه.

* مجلة الرسالة ، العدد ٢٠٢ ، ٧ ربيع الأول ، ١٣٥٦هـ، السنة الخامسة.



وفي الساعة الخامسة استيقظ فصلى الفجر وهو يجد في جوفه حزة كانت تعتاده من حموضة الطعام. فلما فرغ دخل على ولده الطبيب فسقاه دواء . ثم عاد فنام . وهب من نومه في منتصف الساعة السابعة، وخرج يريد الحمام فسقط – واحسرتاه – من دونه سقطة همد فيها جسده، فلا صوت ولا حركة! وذهب الرافعي ذو اللسان الجبار والذكر الدوار والأثر المنتشر، ذهاب الحباب كأنه لم يملأ مسامع الدهر، ولم يشغل مدارك الناس زهاء أربعين سنة!

كان آباء الرافعي شيوخ الحنفية في مصر، تولوا قضاءها وإفتاءها وإقراءها حقبة طويلة من الدهر، فدرج هذا الناشئ الصالح في حجور أربعين قاضيا من قضاة الشريعة كانوا من أهل بيته، وقد نوه بهم اللورد كرومر في بعض تقاريره، وكان أبوه الشيخ عبدالرازق الرافعي قد جرى على أعراق هذه الأسرة الكريمة من ورع القلب وصحة الدين وسلامة الضمير، ثم تميز في قضائه بمرارة الحق وصلابة الرأي وثبات العقيدة، فجاء مصطفى في كل ذلك صورة أسرته وسر أبيه .

لم يذهب الرافعي إلى الأزهر، فقد كان في أزهر من قومه، وإنما نشأ في مغداه ومراحه بين طلخا والمنصورة أفنديا يتلقى معارفه الأولى بمدرسة الفرير، ويتخرج في علوم اللسان والشريعة على أبيه، حتى حذق العربية وفقه الدين وثقف الأدب وأصبح فارسا في الحلبتين ولما يعد العشرين، فلما بلغ ربيع العمر ختم الله على سمعه بالصمم الشديد، فكان منذ شبابه الأول بنجوة من لغو الناس ولغط المجتمع، فسلم عقله من السخف، وبرئ ذوقه من التبذل، وعاش في عالم الخيال ودنيا الكتب، فاتسع أفق تفكيره، وارتفع مقياس فنه . وظلت طبيعته البشرية على الكهولة نقية حرة كطبيعة الفتى الشابل، فيها الغضب الحاد، والرضى الهش، والدلال المتعظم، والهوى الجموح، والفتوة الأبية، فهو يخلص في الحب ويصدق في البغض، فلا يداور ولا يداري، ولا يحقد ولا يحسد .

عملت في الرافعي عوامل الوراثة والبيئة والدراسة والعاهة، واتفق له من كل أولئك ما لم يتفق لغيره، فكان أفقه العلماء في دينه، وأعلم الأدباء بلغته، وواحد الآحاد في فنه . والدين واللغة والأدب هي عناصر شخصيته وروافد عقليته وطوابع وجوده . لذلك كان يقظ الرأي شاهد الحس لما يعلق بثلاثتها من أباطيل وشبه . وعبقريات المصطفى إنما كانت تتنزل على قلبه المرسل حين تمتد الأفيكة إلى كتاب الله أو إلى لغة العرب أو إلى أدب الرافعي.

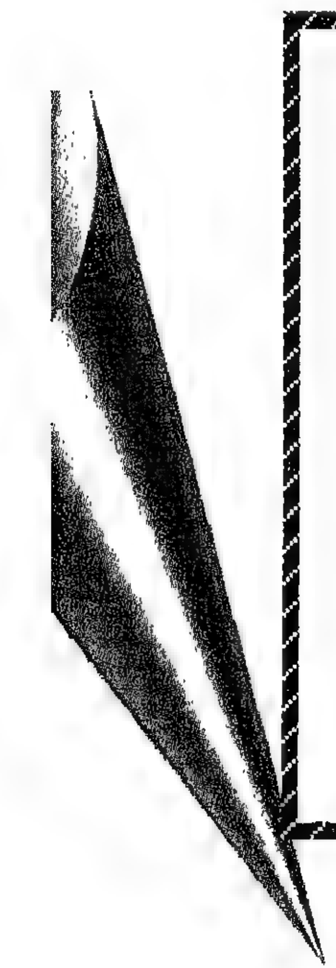
الرافعي أمة وحده، لها وجودها المستقل وعالمها المنفرد ومزاجها الخاص، وأكثر الذين كرهوه هم الذين جهلوه: كرهه الأدباء لأنه أصحر لهم بالخصومة فانفرجت الحال بينهم وبينه . وكرهه المتأدبون لأنه رفع مقياس الأدب فوسمهم بالعجز عنه . وأنكره العامة لأن الأمر بينهم وبينه كالأمر بين العمى والنور! إنما يحب الرافعي ويبكيه من عرف وحي الله في قرآنه، وفهم إعجاز الفن في بيانه، وأدرك سر العقيدة في إيمانه.

ذلك بعض الرافعي الإنسان، أما الرافعي الفنان فموعدك به خمود الحزن وانكسار المصيبة.

أكره ذنوبي

قيل للرافعي: هل تكره الموت؟ فقال: لا بل أكره ذنوبي، أما الموت فهو اكتشاف العالم الأكبر، نسأل الله حسن الخاتمة.

وقيل له: ما هي وصيتك إذا حضرتك الوفاة ؟ فقال: هي تكرار المبدأ الذي وضعته لأولادي: النجاح لا ينفعنا بل ينفعنا الامتياز في النجاح.



لم يطب للنبوغ فيك مقام*



شعر : محمود حسن إسماعيل
مصر

لحن حزين هزته ذكرى الأديب العربي الخالد مصطفى صادق الرافعي.

لم يطب للنبوغ فيكِ مقام   لا عليكِ – الغداة – مني سلامُ
المنارات تنطفي بين كفيـ   ـكِ ! ويزهو بشاطئيكِ الظلامُ
والصدى من مناقر البوم يحيا   ويموت النشيد والإلهامُ
قد حبوتِ النعيب ظلّكِ لكن   أين قرت بشطك الأنغامُ
في هجير الأيام تمضي أغانيـ   ـك حيارى ، يؤج فيها الضرامُ
عبرت مسبح الجداول ، والنهـ   ـر ، وغابت كأنها أوهامُ
تسكب السحر من شفاهٍ عليها   مصرع السحر : لهفة ! وأوامُ
تسكب العطر والخمائل صفر   مات في الأيكِ نورها البسامُ
تسكب البرء من جراح عليها   ترعش العمر شكوة وسقامُ
أنتِ (يا مصر) : واصفحي إن تعتَّبْـ   ـت وأشجاكِ من نشيدي الملامُ..
قد رعيتِ الجميل في كل شيء   غير ما أحسنتْ به الأقلامُ
من روابيكِ خف للخلد روح   قد نعاه لعصرك الإسلامُ
لبست بعده العروبة ثوبا   صبغ أستاره أسى وقتامُ
لم تُفِقْ من شجونها فيه (بغدا   د) ولا صابرت أساها (الشامُ)
وعلى (بلدة المعز) دموع   خلّدت ذكره بها الأهرامُ
صاحب المعجزات أعيت حجا الدنـ   ـيا ، وعيَّتْ عن كشفها الأفهامُ

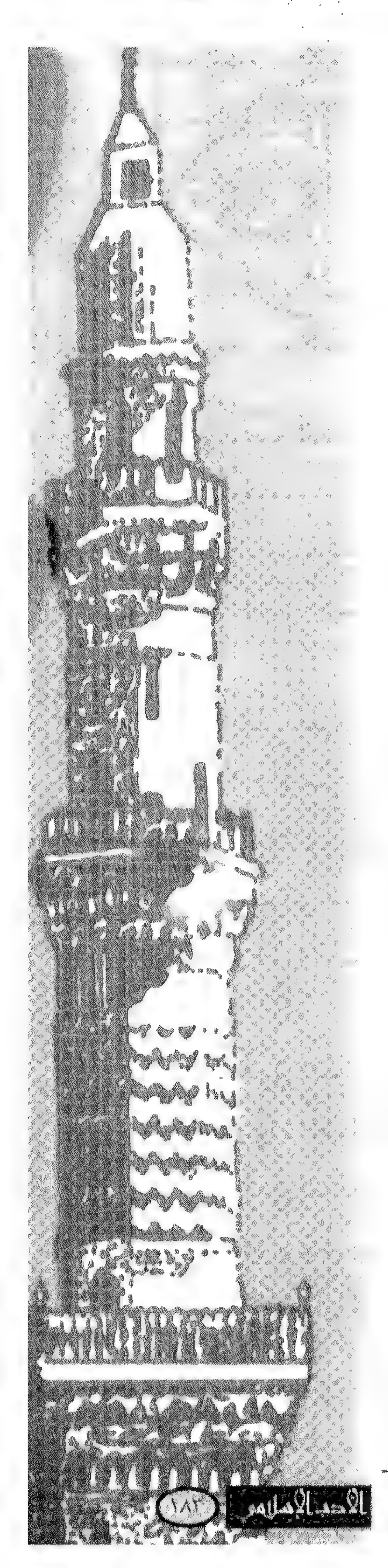
* * *



يَخْبأ الحكمة الخفية في الوحـ   ـي كما تخبأ الشذى الأنسامُ
ويزف البيانَ كالسلسل المسـ   ـكوب تهفو بشطّه الأحلامُ
فإذا رق خلته قُبَلَ الفجـ   ـر على نارها يلذ المنامُ
أو حديثَ النسيم للزهرة السكـ   ـرى ، من الطل كأسُها والمدامُ
أو حفيفَ السنابل الخضر .. رفت   في رباها قنابر ويمامُ
أو دعاءَ النُّساك .. أبلت صداهم   في حمى الله سَكْرة وهيامُ
وإذا ثار خلته شُهُبَ الليـ   ـل أطارت لهيبَها الأجرامُ

* مجلة الرسالة ، العدد ٢٥٥ ٢٣ أيار / مايو ، ١٩٣٨م.





أو شواظا مسطَّرا ... قذفته ... من لظى العقل هَيْجة وعُرامُ

أتعب الجاهدين خلف مراميـ ... ـيه بقصد مناله لا يرامُ

أصْيَدُ الفكر واليراعة والوحـ ... ـي .. على كبره يُفل الحسامُ

حيَّر النقد أن تروع المعاني ... عن مريديه ، أو تنِدَّ السهامُ

فانزوى الحاسدون ... إلا فضولا ... لا يداريه عائب شتامُ

قد سقاهم من سنه مصرع الرو ... ح وإن لم تلاقه الأجسامُ

فَلْتقمْ بعد موته ثورة الشا ... ني فقد فارق الوغى الصمصامُ

وله الشأن .. عزةٌ وخلودٌ ... ولهم شأنهم صدًى وكلامُ

* * *

إيه يا ساقي «المساكين» كأسا ... لم تسلسلْ رحيقَها الأيامُ

قد جعلت الآلام «وحيك» حتى ... فجَّرت نبعَها لك الآلامُ

ما الذي كان في «سحابتك الحمـ ... ـراء» إلا الشجونُ والأسقامُ

كنت في عزلة مع الوحي تشكو ... ولشكواك كاد يبكي الغمامُ

تمسح الدمع من عيون اليتامى ... وببلواك ينشجُ الأيتامُ

صنت عهد البيان لم ترخصِ القو ... ل، ولا شاب سحرَك الإعجامُ

وتفردت بالصياغة ... حتى ... قيل في عالم البيان : إمامُ

ووهبت (الفرقان) قلبك .. حتى ... فاض من قدسه لك الإلهامُ

فبعثت «الإعجاز» كالشمس منه ... يتهدى على سناه الأنامُ

* * *

فقم اليوم ! وانظر الشرق . ضاعت ... من يديه مواثقٌ وذمامُ

مزقت قلبه الذئاب من الفتـ ... ـك .. ونام الرعاة والأغنامُ

في (فلسطين) لو علمت جراح ... ما لها في يد الطغاة التئامُ

وطن الوحي ، والنبوات والإلـ ... ـهام ... أودى ! فعاث فيه الطَّغامُ

جذوة في جوانح الشرق تغلي ... فيروع السماء منها اضطرامُ

يُذْبح القومُ في المجازر - فرط الظـ ... ـظلم فيها - كأنهم أنعامُ

ويهان (المسيحُ) في موطن القد ... س ، ويشقى بأرضه الإسلامُ

وحماة البيان خُرْس .. كأن الذ ... ود عن كعبة الجدود حرامُ

إيه يا «مصطفى» وفي القلب أشجا ... ن ! وفي الصدر حُرْقة وضِرامُ

ليت لي سمعك الذي كرم اللـ ... ـه صداه ! فمات فيه الكلامُ



إشراقة حلم

تحية مصطفى صادق الرافعي

شعر: د. عبده بدوي
مصر

فرحة النور، والمنى، والطلاقة ... في جبين لأمة خلاقة

والسماء* التي تموج صلاة ... والقصيد الذي يرف أنقة

كل هذا أسوقه في انبهار ... نغما رائقا، وفجرا، وباقة

للأديب الذي أحال الليالي ... عُشَّ حب، وجنة من صداقة

* * *

هاهنا قد خطا يشق طريقا ... بين نور مصافح أعماقهْ

وتهادى وسورة الفجر يتلو ... ها إلى قوله تعالى «وثاقهْ(1)»

هاهنا عانق الوجود بحب ... ومشى واستدار في استغراقهْ

فإذا ما رأى على البعد همسا ... وعطورا، وساحة مغداقهْ

فإذا الله قاب قوس وأدنى ... وإذا القلب فرحةٌ والعناقهْ

* * *

يا صديق الحياة .. يامن تغنى ... للمساكين في طريق الفاقهْ

يا حبيب الفقير مسحت عنه ... بعد أن عاد مُجْهَدا .. إرهاقهْ

يا شقيق العشاق كتبك كانت ... خلف مارف من عفة وعلاقهْ

يا سمير القرآن طرزت منه ... جنة في أهدابنا المشتاقهْ

.. أنت رضوان عالم من ضياء ... فاكشف السر قد بلغنا رواقهْ!

* * *



لست أنسى .. وكيف أنسى وخطوي ... كان من روضك النضير انطلاقهْ

لست أنسى - ولم أزل بعدُ طفلا- ... كيف حاولت في ذراك الطلاقهْ

كنت بحرا فما رددت حروفي ... - وهي خضر - عن المنى الدفاقهْ

كنت أفقا جمعتُ منه نجوما ... فإذا الليل غنوة رقراقهْ

لم يزل بين خاطري كلُّ ما قلـ ... ـتَ .. فما قلْتَه من الورد طاقهْ

كم ليال قضيتَها في صراع ... لترى الحق راية سباقهْ

لم تكن ضَيِّقا بكل جديد ... لم تثِرْ خلفه جواد «سُراقهْ»

لم تقاتل عن القبيح .. وتمشي ... أَحْول الحقد ، مومس الإطراقهْ

لم تُعِبْ قومك الذين تولوا ... لم تقلْ: إنهم عبيدُ الناقهْ

لم تقل: إنهم خيام وسيف ... ورمال ممتدة أفَّاقهْ

لم تقل: إنهم جناية وأد ... وهم العقم فاغرٌ أشداقهْ

قلتَ : قد أسهموا بكل جديد ... قلت : قد فجروا هناك الطاقهْ

.. يا صديقي ما إن سقطنا لأنا ... عرب .. بل لِهُجْنة في العراقهْ

أيها الشيخ لن تموت فإني ... أبصر الوجه بسمة وائتلاقهْ

أنت حرَّضتنا على الفرس والرو ... م .. وقد كنتَ للسنا أبواقهْ

أنت غنيتَ فوق فسطاط «عمرو» ... فإذا الجند لا تحل وثاقهْ

أنت شاهدت «عقبة» وهو يبكي ... حينما أوقف المحيط سباقهْ

أنت أبصرت «طارقا» وهو يعدو ... للربى الخضر والمنى الدفاقهْ

أنت قد كنت «بيرقاً نبوياً» ... يترامى بأنجم خفاقهْ

أنت أذَّنْت بالحروف فصلى ... خلفك الكونُ ساحباً أشواقهْ

أنت ما زلتَ مرسلا بغناء ... وبحب لأمة عمالقه

كل حرف زرعته صار يُعطي ... أملا في النفوس أو إشراقه!

---

(١) « ولا يوثق وثاقه أحد » سورة الفجر ، الآية ٢٦ .

في ذكرى الرافعي*

(ألقيت في الحفل الذي أقيم بجمعية الشبان المسلمين بالقاهرة يوم ٤ نوفمبر/ تشرين الثاني سنة ١٩٥٧م ، وكان الشاعر في هذا الحفل على موعد مع أول خطاه في سبيل نباهة الذكر، والالتفات إلى فنه، ورعاية مواهبه . . .)

شعر : هاشم الرفاعي
مصر

من جانب الخلد في ظل النبيينا ... روح أطلت على أرجاء نادينا
تصغي إلى كلمة التاريخ منصفة ... جرت بها اليوم أقلام الوفيينا
وتجتلي صفحة التقدير ناصعة ... من بعد أن طويت بين الورى حينا
قد فات صاحبها التكريم عن حسد ... حيا. فسقناه بعد الموت تأبينا
الحق كالشمس لا تخفي أشعتها ... إلا لتغمر عند الصبح وادينا
وإن أمال موازين الرجال هوى ... عن الصواب فقد ساءت موازينا
كالوا له التهم النكراء قاتلة ... وأرهفوا حوله الأحقاد سكينا
فأغلق السمع دون القوم ثم مضى ... في جانب الحق لا يبدي لهم لينا

* * *

إني لأعجب من شاد به صمم ... قد أسمع الكون تغريدا أفانينا
كانت أناشيده أنغام عزتنا ... ولم تزل معربات عن أمانينا
فهل ترون إذا أصغت لنا أذن ... في أي هاوية باتت أغانينا
مشت إلى الفتنة الرعناء توقظها ... وبالخلاعة تغري النشء تلقينا
من همسة الجنس قد صيغت مراهقة ... ضج المجون بها معنى وتلحينا
يامبدعا لمعاني الخير..مشرقة ... قد مات لكنه أحيا الملايينا
كم بيننا اليوم من حي كتابته ... تميت كل شعور صالح فينا
قد جاء ماقلته في الحب مكرمة ... وهالة من سنى تكسو المحبينا
ولم يكن كتفاهات تسير بنا ... إلى انحلال غوي كاد يطوينا

* الديوان ، ط١ ، مكتبة الحرمين ، الرياض ، ١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠م، تحقيق محمد حسن بريغش .



وليس من خط أفكارا تصـــيـدها | من الفـراش، كـمن خط المساكـينا
تلك الروائع قـد خلفـتـهـا قـمـمـا | من الفنون جلت أمـجـاد مـاضـينا
تألقت في ربا الإسـلام مـعـرفـة | وأشـرقت في فم الدنيـا عناوينا
للدين والضاد قد سطرتها عـمـدا | لما عـرفـتـهـمـا أقوى صـيـاصـينا
هذا من الذل والأغـلال يعـصـمنا | وتلك تحـفظنا روحـا وتكوينا
فهل أتاك حديث القوم حين مضوا | في مصر يستنكرون الضاد والدينا
ضـحـالة من ثقـافـات مـرددة | في الغرب يمشي بهـا الإلحاد تنينا
وأنفس مـرضت، لم يشف علتـهـا | هدى السـمـاء ولا نصح المداوينا
تبيت يقـتلهـا من جـهلهـا ظمـأ | والماء يجـري زلالاً بين أيـديـنا
ونظرة في كـتـاب الله واحـدة | يُسقى بهـا من معين الحق صادينا
ومـحنة الضـاد مـازالت تطالعنا | بهـا الصحـافـة أو تزجى دواوينا
شـعـر إذا مـا حـجـبنا منه قـائله | فـبـالجـمـود أو الإغـلاق يرمـينا
لا تسـتـبين سنا الإلهـام فـيـه ولا | يرضي العرائس أويرضي الشـيـاطينا
لما بدا قلق الأوزان مـضـطربا | فـرت على خـجل منه قـوافـينا

* * *

إن اكـتـفـينا بما سقناه تكرمـة | للرافـعي فـقـد قلّتْ جـوازينا
فكرمـوه بأن تحـيـا له مُـثُل | عليـا إذا هي حـيَّت سوف تحـيـينا

للرافعي أنتسب

يُنْسى كـثـيـرا في الأدب | أوراق ورد والـرسـ
إيمانه هو السـبـب | ـائل التي هي العجب
كـتـابه وحي القلم | كـلاهمـا قـد أبرزا
ذخـيـرة بين الكتب | الرافـعـيُّ إذ أحب
كـذاك فـيـمـا قـد روى | فـالرافـعي كـاتب
تاريخ آداب العـرب | مـفكر فـيـمـا كـتب
فـإن أردتم شـاهـدا | للرافـعـيّ أنتـمـي
على الجـوى الذي كـتب | للرافـعي أنتـسب

شعر : فاروق باسلامة – السعودية



بيانك باقٍ بقاء الزمان ... يوشّيه من كل فن بنانْ

إذا أنت أدمنته تستزيد ... ويزداد حسنا ولا تسأمانْ

فتغدو نضارته كالصباح ... وتغدو وسامته كالجِنانْ

سيبقى بقاء السما والسنا ... وما امتدت الضاد عبر المكانْ

وما طاب في الأيك نفح الشذا ... وما طاب للعربي البيانْ

* * *

بيانك وهو السريّ الوضي ... هزار يغني وأنشودتانْ[1]

وأفراح روض سقاه الحيا ... وعينان بالشهد نضاختانْ

يجدده روحك العبقري ... وأنك والمشتري توأمانْ

وأن البلاغة آلت إليك ... فكنت بها درة المهرجانْ

ولِمْ لا وأنت الذكي الذي ... رأى في التراث الغوالي الهِجانْ

سهرت عليه وأدمنته ... فأهداك منها الوضاء الحسانْ

وجئت الكتاب فأسكنته ... حناياك تتلوه في كل آنْ

وتنسج من آيه الباهرات ... برودا كحسن الصبايا لِدانْ

كأن عليها رواء الكتاب ... وأقباسه وامتداد الأذانْ[2]

* * *



سيبقى بيانك ملء الزمان ... وملء الجَنان وملء المكانْ

عليه الجلال وفيه الجمال ... ربيعاً محاسنه أُضْحيانْ

يحدث عن حسنه المشرقان ... ويروي جلالته المغربانْ

ويفنى البيان الدعيُّ الدخيل ... كما فني الآل في الصحصحانْ

ويدفن في ثوبه المستعار ... وأكفانه شؤمه واللِّعانْ

سلاحك في الغاشيات الثبات ... وعزم تطاول - كالسنديانْ

وأنك آليت ألا تهي ... وألا تخاف الخطوب العَوانْ

وأنك من فاز لما اشترى ... فغنّى: ربحتُ ونلت الأمانْ

وأشواقك الأمنيات الوضاء ... وعيناك من فرحة تهميانْ

وأوقدت من أصغريك الشموع ... لتهدي البلاد وتحمي الكيانْ

وأحكمت من كل سطر قناة ... وأسرجت من كل حرف حصانْ

تنام ولكن كحسو القطا ... وقلبك في يقظة الديدبانْ

دؤوبا كجدك في كده ... وأنت المعين وأنت المعانْ[3]

ومنه استقيت نبيل الخصال ... إذا اشتد في أمره أو ألانْ

* * *

نجيَّ الدراري وتربَ الخلود ... لقد كنت حسّان هذا الزمانْ[4]

ستبقى لأمتنا مشعلا ... وتبقى لها في الغواشي كنانْ

وتبقى بأعراسها فرحة ... وفيها البشائر جذلى حوانْ

وتبقى لها بسمة في الثغور ... وضَوْعة مسك ورجع أغانْ

ومهرا قوائمه في السحاب ... تأبّى على كبوة أو حرانْ

مداه الرياح بكل المظان ... ويعدو ليبلغ أقصى المظانْ

* * *

وأشهد كنت الجريء الجسور ... ويشهد لي النجم والعاقبانْ

تقاتل عن حرمة المسلمين ... وعيناك في غضبةٍ جمرتانْ[5]

وكفاك في صولة تفريان ... ولا تهدآن وسيفك قانْ

تقول أصاول عن أمتي ... وفي خلدي تسكن الحسنيانْ

وعن لغة الضاد وهي المدى | وعن مجد أهلي وهو الرعانْ
وعن طيبة مأزر المؤمنين | ومكة وهي الهدى منذ كانْ
وعما بنى الفاتحون العظام | وشاد الخلائفُ عبر الزمانْ
وتحرس دينك من جاهل | وآخر مانَ، وآخر خانْ
ومستشرق مغرق في العداء | ومستغربٍ واغلٍ أو جبانْ
ومن منكر الشمس في رأدها | ويزعم أن سناها دخانْ
ومن بائع للعدا قومه | وسيف أبيه الصؤول اليمانْ

* * *

أصم وتسمع كيد الحواة | وما قال في الخلوة الألعبانْ(٦)
وما أحكموه من الشائنات | وما بهرجوا وهو سامٌ ورانْ
فتفجؤهم فاضحا كيدهم | فتغدو سخائمهم في العِلانْ
فإن سألوا: كيف صار الأصم | عليما وأذناه لاتسمعانْ
تقول لهم: إن سمعي الرؤى | وعقلي وقلبيَ لا يكذبانْ
وفي البصيرة مثل الضحى | سمعت بها والليالي دِجانْ

* * *

سألتُ العروبة في خلوتي | من الرافعيُّ وأنت الرزانْ
وأنت الفضائل والمكرمات | وأنت الذكاء وأنت الحصانْ
وأنت مهاد البيان الأصيل | وأنت له منذ كان الخُوانْ؟!
فقالت : هو الألمعي الذي | أجاد وساد ونال الرهانْ
وإني له ظئره واللِّبان | وإني له خمره والدنانْ
فقلت: صدقتِ، وأمجاده | لها حيث تسري جمال وشانْ
ويشهد لي الضاد والمبدعون | سرياً كما كنتِ والفرقدانْ

الهوامش :

(١) هما الشعر والنثر.

(٢) وصف سعد زغلول بيان الرافعي بأنه : « بيان كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم».

(٣) ينتهي نسب الرافعي إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٤) وظف الرافعي بيانه للدفاع عن الإسلام كما فعل حسان بن ثابت رضي الله عنه.

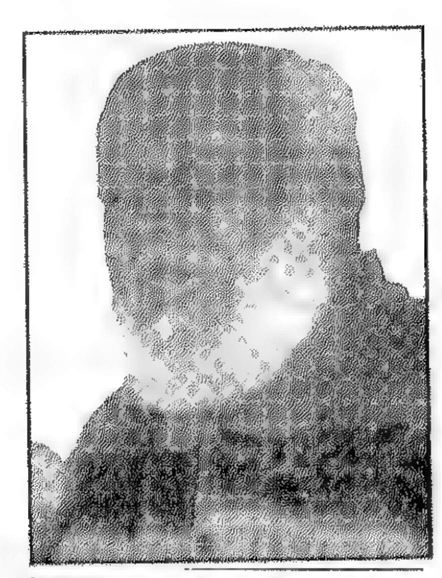
(٥) عاش الرافعي وهو يشعر أنه أحد المطالبين دائما بحراسة الدين والأمة واللغة.

(٦) ضعف سمع الرافعي حتى انتهى إلى الصمم التام.





عاشق الضاد
مصطفى صادق الرافعي



شعر: محجوب موسى
مصر

أحبَّ الضاد حتى كاد يُخْلي ... حروف القول إلا من سناها

وأعطاها لباب العمر صرفا ... ولم يعشق من الدنيا سواها

فأعطته الذي لم يعط قسٌ ... وسحبان الفصاحة من جناها

وكانت معبرا للذود عنها ... عن الإسلام يعبره فتاها

فأسلحة الكلام أشد فتكا ... من النيران في أعتى لظاها

إذا كان الكلام من الحنايا ... وإن مس اللهاة أو الشفاها

وكان وراءه قلب مليء ... بحب الله والمبعوث طاها

هنا لا يقدر الإلحاد يبدي ... حقارته ولا يبدي السفاها

فقول الحق يلجمه فيمسي ... ذليلا ليس يرفعها جباها

وتنهزم الحقود ومن حواها ... وتنتحر الشكوك ومن طواها

ومن كالرافعي فتى صدوقا ... إذا ما هم بالفصحى عِداها

وإن مس الحنيفة ظل شر ... فداها وهو يقسم ما فداها

فكل فدى ولو من غير حد ... قليلٌ ضل من البذل تاها

هو الإسلام لا يعلى عليه ... ولا الجنات في أسمى ذراها

فلولاه لما كانت حياة ... ولو كانت لهامت في عماها

وكان الرافعيُّ يموت ألفا ... لملته ويبعث في هواها

ويخجل أن يقول فعلت شيئا ... ولو باع المصاعب واشتراها

وهذا سر رفعته وهذا ... سبيل الصادقين بهم تباهى

معاركه لأجل الدين تترى ... وللفصحى سمت مجدا وجاها

ويا ذل الذي يبغي أذاها ... وياويل الذي يصلى لظاها

فحرف من بلاغته سهام ... وطوبى للسهام ومن رماها

فلم تك للمغانم والسبايا ... وما كانت لدنيا أو غناها

ولكن للحنيفة دون منٍّ ... وللفصحى تنافح عن حماها

بظل الراية العصماء جلَّتْ ... فذكر الله لحمتها .. سداها

فياربَّ البيانِ الصدقِ ماتت ... نفوس لم تزل تسعى خطاها

وذكرك لم يمت .. ما ماتَ مرء ... إذا ما ذلة عنَّتْ أباها



يراعك سيف الحق أيان تضرب ... وكفك أعلى منبر حين تكتبُ

تلم شتات الكون في در أحرف ... تضيء شعاب الكون لا تتغربُ

وتعصرها من سلسبيل معتق ... تروِّي بها هذي القلوبَ فتشربُ

هي الكلمات البيض أنت أب لها ... إذا لم يكن للحرف أم ولا أبُ

كفاك بها في سفر عمرك صفحة ... على أفقها تزهو النجوم وتعجبُ

وأكرم بها من فاتنات تحجبت ... عن الناس طرا .. لا عليك تحجبُ!

سليلة كف (الرافعيِّ) وحسبها ... فخارا وتيها أنها لك تنسبُ

* * *

أميرَ البيان الحر ها أنت راحل ... وصوتك فواح ، وذكرك طيبُ

تغيب وما زال الزمان مرددا ... ثناء على هذا اليراع ويطنبُ

ومن عجب تمضي الحياة بركبها ... ويأتي ويمضي موكب ثم موكبُ

وتمتلئ الدنيا وتفرغ منهم ... ولا من مقر .. والزمان يقلبُ

كثيرون ولَّوا .. راحلا إثر راحل ... ويأفل منهم كوكب ثم كوكبُ

* باحثة وشاعرة شاركت في عدد من المؤتمرات الأدبية الإقليمية في مصر.



وأنت على درب الحياة منارة ... تمر بك الأجيال ليس تغيَّبُ

وتحتشد الدنيا لصوتك كلما ... مضى زمن يتلوه آخر يرقبُ

بلى .. كل عصر بالرجال متوج ... ولكن عصرا لَسْتَ فيه معيَّبُ

* * *

فيا حارس الفصحى أبث شكاية ... ينوء بها هذا القصيد المعذَّبُ

أبثك أنا في زمان عماية ... به الناس فوضى ، والحقائق تغلبُ

تهاوت مفاهيم .. وحالت طبائع ... ولاحت أعاجيب من الدهر أعجبُ

وبدلت الأخلاق .. لا الصدق في الورى ... ولا الحق .. بل غش يُدان ويُكذبُ

وما الناس إلا هيئة في ثيابهم ... تلوح شخوصا وهي في الحق أذؤبُ

شباب - كما كنتم - ولكن بلا هدى ... وأعجب من شابٍ تحيَّر .. أشيبُ

فإن كنت فيهم بيننا قلتَ منشدا ... على ثقة: (أيُّ الرجالِ المهذبُ)

وأي فتى كالرافعي إذا زها ... على يده وشي البيان المذهَّبُ

رأى اللغة الفصحى يراد بها الأذى ... فجرد سيف الحق .. والحق يغضبُ

أيهدم ركن الدين .. كلا وربِّه ... وفي صدره الإيمان لا يتذبذبُ

وفي كفه هذا اليراع الذي به ... تلقَّف ما خطت يداه المخيَّبُ

فأين الذي صاغوه من كذب .. مضى ... جفاء به الأيام تلهو وتلعبُ

وظل الذي في الأرض ينفع أهلها ... مع النور يبقى .. أو مع الحق يصحبُ

* * *

سلاماً أميرَ القول من قلم عدا ... عليه زمان ليس للشعر ينسبُ

أقلد جيد الدهر كل يتيمة ... تحاسدُني فيها النجومُ فتغربُ

وليس زماني بالذي هو منصفي ... وليس حياتي بالتي هي تُرغبُ

ومن عجب والشعر ليس بنافعي ... تراني الليالي عن دراريه أنقبُ

وإن لاح طيف منك راحت أناملي ... بقافية من يأسها تتلهبُ

(تغالب فيك الشعر ، والطبع أغلب ... وتعجب من حزني .. وباسمك أُطرِبُ)



صوني ودادك يا أمينة أو دعي ... وصلي حبالك كيف شئت أو اقطعي

من كل ألوان الدلال تدللي ... إني ادخرت هواك داخل أضلعي

أمضي فلا أرضى بغيرك كلما ... رحل الفؤاد رأيت ظلك موضعي

سارعت نحو الملتقى متلهفا ... فإذا خيالك بين أوراقي معي

حيّ اليراعة في بنان الرافعي ... ربِّ اليراعة والبيان اللوذعي

وانثر على الذكرى نتائج طيبه ... يا شادي الألحان شنف مسمعي

واهتف به فوق السحاب مكانه ... يا شمسُ ظلي في مدارك واسطعي

قم مصطفى واشهد فرايتك التي ... من تحتها صاولت كل مزعزعِ

قبس من الذكر الحكيم ونفحة ... فيها من الأدب الرفيع الممتعِ

واليوم في آفاقنا خفاقة ... رغم افتراءات السفيه المنزعِ

تشوي على السفود كل مكابد ... لولا هنات عُد أطيب مرجعِ

وحي من القلم الذي استلهمته ... من كل بحر للبديع مرصعِ

إن المساكين الذين عرفتهم ... ليسوا بذي الثوب الرقيق مرقعِ

يضوون جوعا والبطون لواهب ... وينوء واحدهم بفقر مدقعِ

يتكففون الناس كسرة خبزة ... إما رأيتُهم تسربُ أدمعي

لا ، إنما المسكين من يأوي إلى ... ركن على غير الهدى متصدعِ

ناديت بالأدب الأصيل مجددا ... فرماك حساد بسهم موجعِ

أشكو إليك لعل يهدأ خاطري ... كيدَ الحداثة بالسوء المطلعِ

قوم على السفود أوقد ناره ... كيد العداة المفسدين فمن يعي

تستصرخ الفصحى وتهتف من لها ... «جيش الأعادي جاء يبغي مصرعي»

قم يا فتاها احمل عليهم جرأة ... واجتث ناصية المعاند واسفعِ

فالله حافظها بكل منافح ... عنها ومرهوب الجناب مدرعِ

بالآي بالقرآن بالنشء الذي ... أقلامه في الحرب أقوى مدفعِ

بالشعر والإسلام شذب دفقه ... وبكل راوية وكل سميدعِ

من كل شيطان رجيم ملحد ... من كل مقطوع اللهى متنطعِ

تمضي السنون وأنت أنت الرافعي ... والآخرون إلى حفير بلقعِ



الرافعي سيرته وآثاره

بقلم: محمد حيان الحفاظ
سورية

ينتسب مصطفى صادق الرافعي إلى دوحة الرافعيين الذين استوطنوا بلاد الشام واتخذوا من طرابلس – لبنان، منبتا وسكنا . وإلى هذه الدوحة ينتسب عدد كبير من رجالات العلم والأدب والسياسة والقضاء.

وهو مصطفى صادق بن عبدالرازق (وفي بعض كتب التراجم : عبدالرزاق) بن محمد بن سعيد بن أحمد بن عبدالقادر الرافعي، المولود في بهتيم، إحدى قرى محافظة القليوبية، في كانون الثاني/يناير من عام ١٨٨٠ م، الموافق ١٢٩٨هـ، وتلقى دروسه الابتدائية في مدرسة دمنهور الابتدائية، ثم في المنصورة، ونال الشهادة الابتدائية. عين على أثرها كاتبا في محكمة طنطا الأهلية . لكنه لم يشغل القضاء على الرغم من أسرته التي ضمت ما يزيد على الأربعين قاضيا في مصر، بينهم والده عبدالرازق، وأحد جدوده : محمد طاهر الرافعي، ولم يلبث أن مرض، فلزم الفراش أسابيع طويلة، ولم يعرف نوع مرضه، ويرجح أنه مرض عصبي أصاب رأسه وصحته بالكثير من الفتور والانحلال . ثم تطور المرض ليصيب أذنه فازدادت آلامه، وتضاعفت معوقاته، ولا سيما أن المرض قد كف سمعه فصم، ولم يعد في وسع الناس مخاطبته إلا بالكتابة إليه، وكان ذلك بين الثلاثين والخامسة والثلاثين من عمره . وتفيدنا كتب التراجم وبعض من أرخوا لسيرته، أنه ظل في محكمة طنطا حتى نهاية حياته، منكبا على مكتبة أبيه الحافلة بكتب الفقه والدين واللغة والآداب، وبخاصة التراثية والشعرية، الأمر الذي زوده بثقافة متنوعة الموارد والطعوم، فكان يكتب المقالة، والرسالة، والقصيدة، والدراسة النقدية، والمقالة الصحفية، ويؤرخ لآداب العرب وتراثهم، وغير ذلك من فروع المعرفة التي تضمنتها آثاره النفيسة المتعددة المذاقات والاتجاهات، وكانت وفاته في طنطا، التاسع والعشرين من صفر ١٣٥٦هـ / نيسان ١٩٣٧م .

* مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية - الرياض

آثـــاره :

ترك مصطفى صادق الرافعي آثارا جلى في فنون الآداب، نثرا وشعرا، خواطر وتأملات، ورسائل متنوعة، ومقالات نقدية، فضلا عن الشعر بمختلف أبوابه وأغراضه، وفصول الدراسة الأدبية التاريخية .. فإذا نحن أمام حصاد ثر، وقطوف شهية ترضي الأذواق، وتغني النفوس وتزرع فيها نوازع البحث عن حقائق الحياة ودقائق العصر، وتوقظ فيها الحنين إلى معانقة الشرفات المطلة على سفوح المعرفة المترامية الأطراف، المتناهية الألق.

وتقع آثار الرافعي ضمن دوائر ثلاث، متداخلة متكاملة في جوهر الصنعة الأدبية، مختلفة متباعدة من حيث الاتجاه والينبوع.

*** الدائرة الأولى وتضم كلا من :**

١ – تاريخ آداب العرب

جعله المؤلف في ثلاثة أجزاء اشتمل كل جزء على بضعة أبواب، وهي مجتمعة، اثنا عشر بابا .

حوى الجزء الأول : على البابين الأول والثاني، وهما في :

- تاريخ اللغة : ونشأتها وما يتصل بذلك .
- تاريخ الرواية ومشاهير الرواة، وما تقلب من ذلك على الشعر واللغة .

٢ – وحوى الجزء الثاني الباب الثالث وهو في منزلة القرآن الكريم من اللغة وإعجازه وتاريخه، وقد سماه المؤلف : **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**



وحوى الجزء الثالث والأخير، الأبواب الباقية فيما عدا أربعة منها هي: الرابع، والثامن، والتاسع والثاني عشر . أي أن هذا الجزء تضمن الكلام في :

- تاريخ الشعر العربي ومذاهبه وفنونه المستحدثة.
- حقيقة القصائد المعلقات ودرس شعرائها.
- أطوار الأدب وتقلب العصور، وتاريخ أدب الأندلس إلى سقوطها.
- التأليف وتاريخه عند العرب، ونوادر الكتب العربية.
- الصناعات اللفظية التي أولع بها المتأخرون في النظم والنثر.

أما الأبواب الأخرى الغائبة، فيرجح أن المؤلف قد نوى بحثها والكتابة فيها فلم يفعل.

صدر الجزء الأول في القاهرة عام ١٩١٨، ويقع في ٤٤٣ صفحة.

وصدر الجزء الثاني في مطبعة الأخبار بمصر عام ١٩٢٢ ، ويقع في ٣٦٦ صفحة .

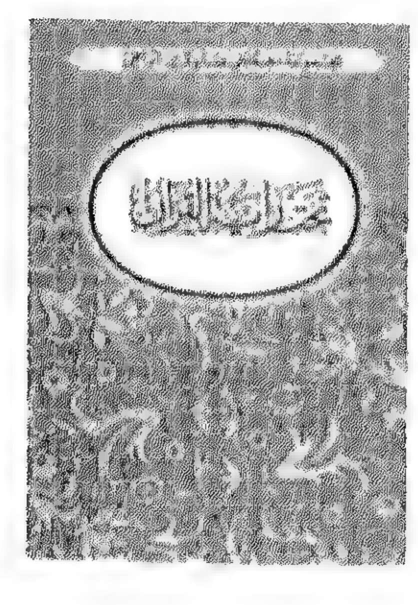
ثم في طبعة رابعة بتحقيق وتصحيح محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، مصر عام ١٩٤٠، ويقع في ٤٥٢ صفحة.

وصدر الجزء الثالث، في مطبعة الاستقامة عام ١٩٤٠ ، ويقع في ٤٥١ صفحة بإشراف وعناية محمد سعيد العريان..

بقي أن أقول: إن الأبواب التي غابت عن البحث ولم ترد في الكتاب، هي :

- تاريخ الخطابة والأمثال في الجاهلية والإسلام.
- تاريخ الكتابة وفنونها وأساليبها ورؤساء الكتاب فيها.
- حركة العقل العربي وتاريخ العلوم.
- الطبقات وشيء من الموازنات .

٣– تحت راية القرآن، أو المعركة بين القديم والجديد.

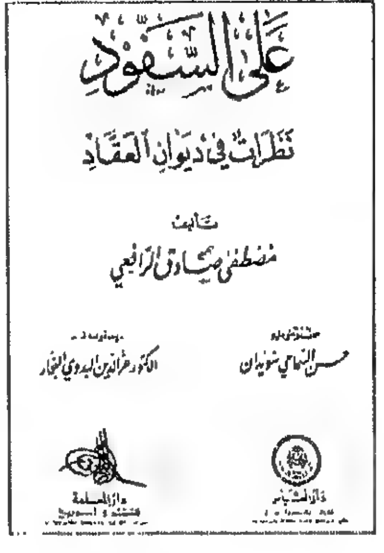


طبع في المطبعة الرحمانية عام ١٩٢٦، ويقع في ٤٣٧ صفحة.

أصل هذا الكتاب، مقالات كتبها الرافعي في الأدب العربي، والرد على كتاب الدكتور طه

حسين «الشعر الجاهلي»، كان قد نشرها تباعا في مجلة «كوكب الشرق» ومجلة «الزهراء» ثم «البيان» وغيرها.

٤ – على السفود



وهو مجموعة مقالات نقدية جارحة في عدد غير يسير من كتاب عصره، بينهم طه حسين، وعباس محمود العقاد، وزكي مبارك، وفيه غير سفود في شاعر معاصر له شغل مهنة التحرير في ديوان الملك فؤاد، وهو عبدالله عفيفي الذي كان يلقبه الرافعي بالمغرور . صدر الكتاب في منتصف عام ١٩٣٠ .

و«السفود » في اللغة : حديدة ذات شعب معقفة، يشوى به اللحم، وجمعه سفافيد.

**** الدائرة الثانية**

وتضم الغالبية من كتب الرافعي التي تنتسب في نسيجها ومنطلقها، إلى الأدب الإنشائي، من خواطر، وتأملات، وقصص، ورسائل، على جانب كبير من جودة التعبير وجمال التأثير ... وهي على التوالي:

١– حديث القمر

مجموعة فصول من الأدب التأملي، اتخذ من القمر ضمير خطاب ومناجاة وصاغ فصول الكتاب بلغة قريبة من الشعر، جمع فيها بين الحكمة، والحوار والتحليل، والمعالجة الهادئة.

والجدير ذكره أن فصول الكتاب العشرة بما في ذلك، القصيدة الشعرية، كتبها المؤلف في غضون شهر ونيف، وصدر في طبعته الأولى ١٩١٢ .

٢ – رسائل الأحزان في فلسفة الجمال والحب:

كناية عن أربع عشرة رسالة، في ١٨٤ صفحة، كتبها الرافعي في سنة إصدارها ونشرها في القاهرة ١٩٢٤، ضمنها خواطر فلسفية في الحياة والقدر، والعقل، والقارئ.

٣ – السحاب الأحمر

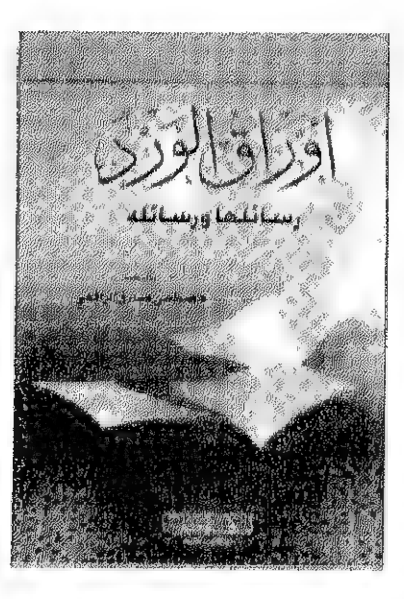
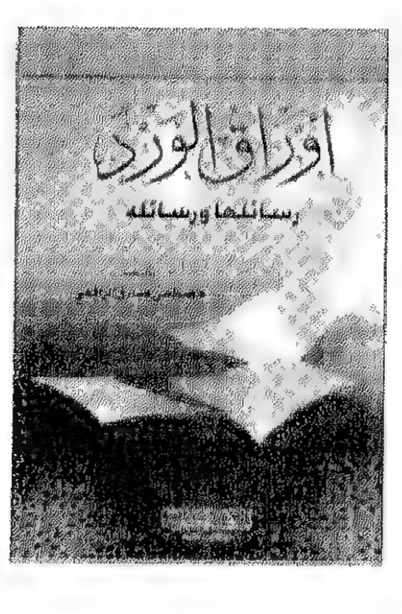
عده بعضهم، تكملة لكتاب : « رسائل الأحزان»، بينما رأى فيه بعضهم « كتابا مختلفا لا يكمل الأول» .

– صدرت الطبعة الأولى في المطبعة السلفية بمصر عام ١٩٢٤، في ١٨٠ صفحة .

– وصدرت الطبعة الثانية في مطبعة الاستقامة بمصر عام ١٩٤٢ في ١٦٠ صفحة .

والكتاب بمضمونه العام مجموعة مقالات في المرأة، وحبها وبغضها، ولؤمها، ولكن بعض هذه المقالات اتخذ صفة الحكاية القصصية، وبعضها تأملات وخواطر في الحب والمرأة وشجون العلاقة معها . وبلغت فصوله في ذلك كله تسعة.

٤ – أوراق الورد

صدر أول مرة في المطبعة السلفية بمصر، سنة ١٩٣١ في ٢٩٩ صفحة . وكان قد بدأ بكتابته قبل ذلك بست سنوات، وقيل ثماني سنوات .

وهو عبارة عن « طائفة من الخواطر في فلسفة الجمال والحب، أنشأها الرافعي ليصف بعض أحواله في سني عمره».

٥ - كتاب المساكين

صدر الكتاب في طبعته الأولى عام ١٩١٧، ثم صدر بعد ذلك ١٩٢٨، مضافا إليه فصول جديدة، فبلغ ٢٨٧ صفحة.

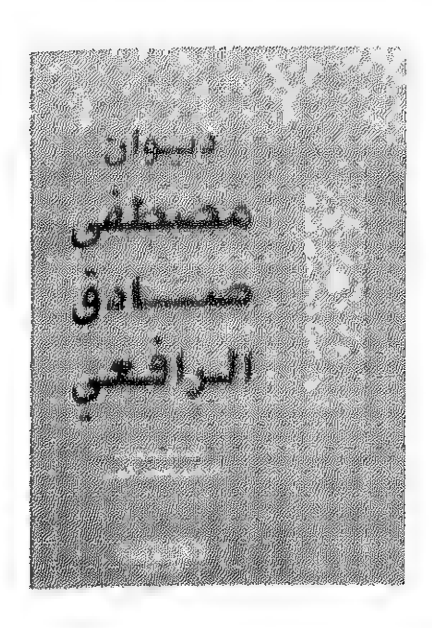
وهو مجموعة من المقالات المتنوعة الغرض والأسلوب، شأنه شأن الكتب الثلاثة السابقة، فيما عدا الصبغة التراسلية التي سادت بعض فصولها .

وتتلخص موضوعات الكتاب «بالدين، والعلم، والإيمان، والقدر، والفقر، والحظ، والحب، والجمال، والحرب، والشك، والخير، والنظام الاجتماعي ».

٦ - وحي القلم

يتألف الكتاب من ثلاثة أجزاء، ويضم بين دفاته، في طبعته الأخيرة التي أصدرتها دار الكتاب العربي في بيروت، من غير تأريخ : ألفا ومئة وأربعين صفحة، من القطع الكبير ... وكان صدوره، في جزأيه الأول والثاني، عن لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٦ . وأما الجزء الثالث فقد صدر بعد وفاته، وقام بجمع فصوله محمد سعيد العريان الذي قدم له بمقدمة من أربع صفحات .

وهناك عدد غير يسير من المقالات والأحاديث المخطوطة والمسجلة، لا تزال تنتظر من يجمعها ويؤلف بينها ليخرجها إلى النور .



***** الدائرة الثالثة، الخاصة بالنتاج الشعري..**

لم يترك مصطفى صادق الرافعي من الشعر ما تركه من النثر ... لا بل إن الشعر لا يكاد يمثل إلا جزءا يسيرا من نتاجه الأدبي العام.

- قدم الرافعي لكل جزء من الأجزاء الثلاثة لديوانه بمقدمة يحمل موقفه وآراءه في الشعر وقضاياه غابراً وحاضرا .

وجاء الجزء الأول في سبعة أبواب ، والجزء الثاني في ستة أبواب ، والجزء الثالث في ثمانية أبواب . وتتشابه الأغراض في الأجزاء الثلاثة وتدور حول : التهذيب والمديح والوصف والغزل والنسيب ، والحكمة ، والأغراض الوطنية والمقاطيع والتقاريظ .

والجزء الأول من ديوانه النظرات، صدر عام ١٩٠٨ بمقدمة عن حقيقة الشعر ، وتضمنت القصائد أغراضا في الوطنيات والطبيعة والذكريات، ويمكن اعتبار ديوانه ذي الثلاثة أجزاء، والجزء الأول من ديوان النظرات الآثار الشعرية الوحيدة التي تخضع للدرس والتقويم.

كتب أخرى:

- الإسلام انطلاق لا جمود ، مصطفى صادق الرافعي ، حسن تميم مشارك ومراجع ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، د.ت، ١٩٩ صفحة.



- كلمة وكليمة ، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ،

١٤٢٢ ،٢٠٠٢ ، ط١ . جمع مقالاته السبع بسام عبدالوهاب الجابي ، وهي عبارة عن فقرات ومقطعات حكمية تعبر عن نظرات الرافعي وآرائه في مختلف شؤون الحياة . أضاف إليها جامعها مقالات عدد من الكتاب عن الرافعي.

- قصص من التاريخ للرافعي، اختيار وتعليق حسن السماحي سويدان، دار ابن كثير، دمشق، بيروت .
- حقق الرافعي كتاب شرح أدب الكاتب ، موهوب ابن أحمد بن محمد ، الجواليقي، بيروت ، دار الكتاب العربي ، (د.ت)، ٣٢٢ صفحة.
- كما كتب مقدمة كتاب أمير الشعراء في العصر القديم ، تأليف محمد صالح سمك، ٣٠١ صفحة.

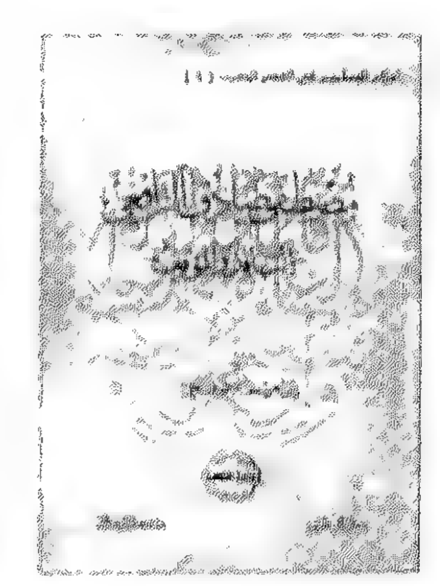
يضاف إلى ما ذكر، مجموعة دواوين، أميط اللثام عن أسمائها، ولكنها لم تر النور، وهي :

- «أغاريد الرافعي» ذي المجموعات الثلاث، وقصائدها تدور حول ترقيص الأطفال، والأناشيد الوطنية، وبعض قصائد الموحشات.
- «أغاني الشعب» في الأناشيد والموشحات.
- «الفؤاديات » قصائد مدح في الملك فؤاد.

كتب مؤلفة عن الرافعي

- الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، أنيس المقدسي، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٤، ٦٦٠ صفحة ، ط٤.
- الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد، أحمد بسام ساعي، جدة، دار المنارة، ١٤٠٥ / ١٩٨٥، ١٩٨ صفحة.
- مصطفى صادق الرافعي : كاتبا عربيا ومفكرا إسلاميا، مصطفى الشكعة، بيروت، عالم الكتب، ١٩٧٨، ٢١٨ صفحة، ط٢.
- مصطفى صادق الرافعي، كمال نشأت، القاهرة، دار الكاتب العربي، ١٩٦٨، ١٥٢ صفحة.
- في موكب الخالدين، عبدالسميع المصري، القاهرة، الشركة العربية للطباعة، ١٣٧٩ / ١٩٦٠، ١٩٦ صفحة .
- رسائل الرافعي، محمود أبو رية، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٦٩ / ١٩٥٠، ٣٠٠ صفحة .
- الفلسفة الإسلامية في العصر الحديث، حامد طاهر، (د.م)، (د.ن)، (د.ت)، الصفحات ١٥٦- ١٨٨.
- معارك العقاد الأدبية، عامر العقاد، بيروت، دار الجيل، ١٤٠٢ / ١٩٨٢، ٢٤٣ صفحة.
- قراءات في المكتبة العربية، نصر محمد عباس، فاطمة الزهراء، عبدالغفار الموافي، دبي، دار القلم، ١٤٠٩ / ١٩٨٩/، ٢٣٢ صفحة .
- أشهر المعوقين في العالم، زهير عبدالرحمن عبدالحميد جمجوم، بيروت، دار ابن حزم، ١٤١٠ / ١٩٩٠، ٢٢٨ صفحة .
- بلاغة القرآن في أدب الرافعي، فتحي عبدالقادر فريد، القاهرة، دار المنار، ١٩٨٥، ٣١٠ صفحات .
- أسرار النظام اللغوي عند مصطفى صادق الرافعي، حامد محمد أمين شعبان، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٧٩، ٢٢٠ صفحة .
- مفهوم الإعجاز القرآني حتى نهاية القرن السادس الهجري، أحمد جمال العمري، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٤، ٣٧٧ صفحة .
- من أدب الرافعي ومعاركه، عباس بيومي عجلان، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩، ١٥٢ صفحة .
- المقتبس من وحي القلم، دراسة ومختارات، خليل هنداوي، عمر الدقاق، بيروت، دار الشرق، ١٥٨ صفحة.

- الرافعي والانتصار للعربية، محمد أبو المكارم قنديل، طنطا، دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية، ١٤١٠ / ١٩٩٠، ٤٧ صفحة .
- الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد، مصطفى نعمان البدري، بيروت، دار الجيل ، ١٤١١ / ١٩٩١، ٥٩٠ صفحة .
- خاطرات مسلم، محمد دياب، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٣٨٩ / ١٩٦٩، ١٢٥ صفحة .
- دراسة في أدب الرافعي، نعمات أحمد فؤاد، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٦٣، ١٣٩ صفحة، ط٢.
- مصطفى صادق الرافعي رائد الرمزية العربية المطلة على السوريالية، مصطفى الجوزو، بيروت، دار الأندلس، ١٤٠٥ / ١٩٨٥، ٣٧٩ صفحة .
- الإعجاز القرآني وجوهه وأسراره، عبدالغني محمد سعد بركة، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٤٠٩ / ١٩٨٩، ٣١٥ صفحة .
- في تأريخ الأدب : مفاهيم ومناهج، حسين الواد، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٣، ٣٤٤ صفحة ، ط٢.
- الجانب الاجتماعي في أدب المفكر الإسلامي مصطفى صادق الرافعي، عبدالستار علي السطوحي، الخفجي، دار القافلة، ٢٣٩ صفحة .
- الأدب الحديث : تاريخ ودراسات، محمد بن سعد بن حسين، الرياض، المؤلف، ١٤١١ / ١٩٩١، ٢٧٣ صفحة.
- الأسس النظرية في مناهج البحث الأدبي الحديث، عبدالسلام الشاذلي، بيروت، دار الحداثة، ١٩٨٩، ٤٢٣ صفحة ، ط٥ .
- الأدب والصراع الحضاري، شلتاغ عبود شراء، دمشق، دار المعرفة، ١٤١٦ / ١٩٩٥، ٢٢٠ صفحة .
- نحو أدب إسلامي معاصر : مصطفى صادق الرافعي والاتجاهات الإسلامية في أدبه، علي عبد الحليم محمود، مشاركة د . عبدالله بن عبد المحسن التركي، مقدم، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، البحوث والدراسات، (د.ت)، ٣٢٠ صفحة .
- الجانب الإسلامي في أدب مصطفى صادق الرافعي، عبدالستار علي السطوحي، الدوحة، مكتبة الثقافة، ١٣٩١ / ١٩٧١، ٢٢٤ صفحة .
- فصول عن الدعوة الإسلامية في أدب شوقي ومحرم والرافعي وباكثير، محمد بن سعد بن حسين، نشر المؤلف نفسه، الرياض، ١٤٠٨ .
- مصطفى صادق الرافعي .. فارس القلم تحت راية القرآن، محمد رجب البيومي، دار القلم، دمشق، ١٤١٧ / ١٩٩٧ ، ط١.
- حياة الرافعي، محمد سعيد العريان، القاهرة، ١٩٣٩ .
- الإمام مصطفى صادق الرافعي، مصطفى نعمان البدري، دار البصري، بغداد ١٣٨٧ / ١٩٦٨ ، ط١.
- مصطفى صادق الرافعي حياته وأدبه، حسنين حسن مخلوف، كتاب الهلال (٢٠)، دار الهلال، مصر، ١٣٩٦ .



- مصطفى صادق الرافعي الناقد والموقف، إبراهيم الكوفحي، دار البشير، عمان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٨ / ١٩٩٧، سلسلة أعلام المسلمين في العصر الحديث.
- نثر الرافعي، محمد الأخضر بن مسعود، المكتبة الشرقية، الجزائر، ١٣٨٧ / ١٩٦٨ .

- مع الرافعي الكاتب، عمر الدسوقي، مطبعة جامعة القاهرة، ١٣٨٨ / ١٩٦٩ .
- شعر مصطفى صادق الرافعي بين التقليد والتجديد، محمد بن علي الهرفي، دار المعالم الثقافية، ١٩٩٨ .
- مصطفى صادق الرافعي في رسائل الأحزان والسحاب الأحمر وأوراق الورد، عبدالقادر القط، الشركة العالمية للنشرت (لونجمان)، ١٩٤٤ .
- مصطفى صادق الرافعي .. قصائد في رثاء الرافعي للشاعر محمود الطاهر الصافي ، علّق عليها جمال محمود الطاهر، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٤م.
- الرافعي وطه حسين، محمد عبدالقادر العمادي، دار الفكر الحديث، ١٩٥٨ .
- الرافعي ومي، عبدالسلام هاشم حافظ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، الدار القومية، القاهرة، ١٣٨٣ / ١٩٦٤ .

مقدمات كتبه :

- مقدمة د. ياسين الأيوبي لتحقيقه لديوان الرافعي، بعنوان مصطفى صادق الرافعي (في سيرته وأحواله وآثاره)، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٣ / ٢٠٠٣ .
- مقدمة د . عزالدين البدوي النجار لكتاب الرافعي: «على السفود»، تصحيح وتعليق : حسن السماحي سويدان، دار البشائر، دمشق، ١٤٢١ / ٢٠٠٠ .

رسائل جامعية عن الرافعي:

- المرأة في أدب الرافعي، مها عبدالستار السطوحي، (رسالة ماجستير، كلية الألسن، جامعة عين شمس، ١٩٩٢) .
- مصطفى صادق الرافعي : حياته وأدبه، فهد بن عبدالله الأطرم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، رسالة دكتوراه، ١٤٠٧هـ .
- نثر مصطفى صادق الرافعي، ابن سعد المبروك ابن مسعود، جامعة القاهرة، رسالة ماجستير، ١٩٦٣ م .
- مصطفى صادق الرافعي ومكانته في الأدب العربي في القرن العشرين، أرول أي يلديز، جامعة مرمرة، تركيا، رسالة دكتوراه، ١٩٧٧م.
- بناء الجملة عند مصطفى صادق الرافعي من خلال كتابه أوراق الورد، عادل أحمد باناعمة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، رسالة ماجستير.
- مصطفى صادق الرافعي الشاعر، مصطفى نعمان البدري، جامعة القاهرة، دار العلوم ، رسالة ماجستير، ١٩٦٧م .
- الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد، مصطفى نعمان البدري، جامعة القاهرة، دار العلوم، رسالة دكتوراه، ١٩٧٤ م .
- مصطفى صادق الرافعي واللغة، صلاح الدين عبدالرحمن سلطان، جامعة الأزهر، بحث .
- الجانب الديني في نثر الرافعي، سعاد صالح عبدالمطلب، جامعة عين شمس، رسالة ماجستير، ١٩٩٣م .
- مصطفى صادق الرافعي الناقد الأديب، طه عبدالرحيم عبدالبر، جامعة الأزهر، بحث .
- مدرسة الرافعي في الأدب الحديث، محمود محمد محمد لبدة، جامعة الأزهر، رسالة دكتوراه، ١٩٧٨ م .
- مصطفى صادق الرافعي ، شاعرا، محمد إسماعيل عبدالحميد إسماعيل، جامعة الأزهر، رسالة ماجستير، ١٩٨٤ م .
- النقد الأدبي عند مصطفى صادق الرافعي، أحمد الحميد، جامعة دمشق، بحث، .
- أثر القرآن في أدب الرافعي، حسن عبدالقادر عبدالدائم، القاهرة، رسالة ماجستير، ١٩٦٩م .
- معارك مصطفى صادق الرافعي التعليمية وأثرها في الأدب والشعر، محمد عزت عبدالقادر أحمد ، جامعة الأزهر، أسيوط ، رسالة دكتوراه، ١٩٨٣ م .

حفل افتتاح جمعية رابطة الأدب الإسلامي بالقاهرة

شهدت القاهرة احتفالا خاصا لافتتاح مكتب (جمعية رابطة الأدب الإسلامي)، وذلك يوم الأربعاء في السابع والعشرين من شهر ذي الحجة لعام ١٤٢٤هـ الموافق للخامس عشر من شهر شباط / فبراير لعام ٢٠٠٤م .




د. عبدالقدوس و د. الشميري يفتتحان مكتب الجمعية

القاهرة – محيي الدين صالح

وقد حضر الحفل كل من د.عبدالقدوس أبو صالح (رئيس الرابطة)، و د . حسن الأمراني (أمين عام مجلس أمناء الرابطة ورئيس المكتب الإقليمي في المغرب)، وسعادة السفير د.عبدالولي الشميري (مندوب اليمن في جامعة الدول العربية، راعي منتدى المثقف العربي بالقاهرة) . وبمشاركة عدد من رجال الفكر والأدب والإعلام بالقاهرة وحضور عدد كبير من أعضاء الرابطة في مصر .

وقد ألقى سعادة رئيس الرابطة د. عبدالقدوس أبو صالح الكلمة الآتية :

« ... فما أسرع ما يمضي الزمان، وتنطوي السنون !! فقد شهدت منذ ثلاثة عشر عاما ذلك الاحتفال الذي أعلن فيه مشروع التعاون بين رابطة الأدب الإسلامي العالمية وبين المركز العام للشبان المسلمين في القاهرة، حيث قلت في ذلك الحفل: « إن إقامة هذا المشروع تأكيد لدور مصر الكبير في قيام أي حركة ثقافية أو أدبية يراد لها أن تنطلق في العالم العربي والإسلامي » . وقلت بعد نحو عامين في مؤتمر الأدب الإسلامي الذي عقد في رحاب جامعة عين شمس بالتعاون مع رابطة الجامعات الإسلامية ورابطة الأدب الإسلامي العالمية .. قلت في حفل افتتاح هذا المؤتمر العالمي : « فماذا على مصر وهي كنانة الله في الأرض أن تعتد بالأدب الإسلامي سهما من سهام كنانتها ليكون من أشدها عودا، وأصلبها مكسرا؟! وماذا على مصر العروبة والإسلام وهي التي قادت النهضة الأدبية المعاصرة أن تحمل راية الأدب الإسلامي، وهو الأدب الذي يستضيء بمشكاة الوحي وهدي النبوة؟!.

وأشهد أن مصر وفت بما عهد فيها، إذ فتحت قلبها الكبير للأدب الإسلامي، فكانت أكثر مؤتمرات هذا الأدب وندواته تعقد في أرض الكنانة، وكان أكثر عدد من الأدباء والشعراء الإسلاميين في العالم العربي والإسلامي من أرض الكنانة، وها نحن أولاء نحتفل اليوم بافتتاح مكتب الرابطة في أرض الكنانة، ليكون هذا الافتتاح تتويجا للجهود الطيبة والمساعي الحميدة التي قامت بها فئة كريمة من أولي الفضل والعزم الجديرين بالثواب عند الله إن شاء الله، والجديرين بحمد




د. عبد القدوس يلقي كلمته وإلى جانبه د. عبدالمنعم يونس

د. عبد القدوس يتوسط د. التسميري و د. الامراني

الناس ما دام الناس يحمدون على جلائل الأعمال وكريم الفعال.

وما من شك في أن أول من يوجه إليه الشكر هو معالي الدكتور حسن عباس زكي الذي بادر بعفوية مشهودة وأريحية بالغة إلى رعاية الأدب الإسلامي ودعاته في القاهرة حين فتح لهم مركز جمعية الشبان المسلمين، ثم انتقلت راية الفضل إلى معالي الأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم الذي تابع المسيرة، حتى كانت معظم ندوات الأدب الإسلامي في القاهرة تعقد تحت رعايته الكريمة، ومن هنا يأتي قرار مكتب الرابطة في القاهرة بتكريم هذين العلمين الفاضلين في مساء هذا اليوم أقل ما يقدم إليهما من آيات الشكر والوفاء التي أرجو أن


مجموعة من أعضاء الرابطة في حفل الافتتاح

أضيف إليها باسمي واسم رابطة الأدب الإسلامي العالمية باقة من الحمد والثناء الذي أزجي مثله إلى كل من سعادة الأخوين الفاضلين الأستاذ الدكتور عبدالحليم عويس والدكتور عبده زايد اللذين رافقا بدء الدعوة إلى الأدب الإسلامي في مصر، وأسهما فيها بجهود طيبة ومثابرة مثمرة . والحمد والثناء موصولان بعد ذلك إلى الأخ الدكتور عبدالمنعم يونس رئيس الجمعية الذي أمكن بدأبه وصبره ورصانته وتعاونه مع العاملين المخلصين من أمثاله أن يتحقق للأدب الإسلامي ما نشهد آثاره ماثلة أمام أعين الجميع .

والحمدلله على ما أنعم على عباده الصالحين .

الرافعي« في الملتقى الأدبي الأول» لجمعية الأدب الإسلامي بالقاهرة

أقيمت مساء يوم الأربعاء نفسه ، بقاعة المؤتمرات بمركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي بجامعة الأزهر ندوة عن الأديب الإسلامي الكبير مصطفى صادق الرافعي، حيث بدأت الجلسة الافتتاحية بكلمة الدكتور عبدالمنعم يونس رئيس جمعية رابطة الأدب الإسلامي بالقاهرة، الذي رحب


د. عبدالمنعم يونس

بالحضور وأشاد بالدور العالمي للرابطة في نشر الأدب الإسلامي والذود عنه، وأشار إلى نشاط مكتب الرابطة بالقاهرة، وتأسيس جمعية رابطة الأدب الإسلامي والتصديق من قبل جهات الاختصاص في مصر على اتفاق التعاون بين رابطة الأدب الإسلامي العالمية وجمعية الأدب الإسلامي، ونوه

كذلك بالجهود المبذولة للنهوض برسالة الأدب الإسلامي كما وضح سبب اختيار (مصطفى صادق الرافعي) شخصية للملتقى الأدبي الأول.

وتحدث د . عبدالقدوس أبو صالح - رئيس الرابطة- مبينا أهمية إلقاء الضوء الكافي على الشخصيات والرموز التي أصلت للأدب الإسلامي ودافعت عن الهوية الإسلامية، وتحدثت د . زينب الرافعي (ابنة الأديب مصطفى صادق الرافعي) وقدمت الشكر لرابطة الأدب الإسلامي التي تولت إزالة غبار التجاهل عن والدها، وتطرقت لبعض جوانب حياة والدها، وكيف أن مرضه لم يؤثر في نشاطه الفكري والأدبي والاجتماعي . وتحدث في اللقاء د . حسن الأمراني و د . عبدالحليم عويس والمستشار محمد التهامي و د . أحمد عمر هاشم الذي تم تكريمه في نهاية الأمسية مع معالي الأستاذ حسن عباس زكي وانتهت جلسة الافتتاح بإلقاء عدد من القصائد لشعراء الرابطة .

وفي صباح اليوم التالي (الخميس ٢٨ من ذي الحجة) بدأت جلسات الملتقى الأدبي لمناقشة البحوث المقدمة من الأعضاء، **فكان محور الجلسة الأولى (رؤية الرافعي لكتابة التاريخ الإسلامي والعوامل المؤثرة في حياته)** برئاسة الدكتور عبدالقدوس أبو صالح لمناقشة أربعة أبحاث:

١ - رؤية الرافعي لكتابة التاريخ الإسلامي، للدكتور عبدالحليم عويس .

٢ - الرافعي وقضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، للدكتور صلاح الدين عبد التواب.

٣ - تأثير الجانب الخلقي في حياة الرافعي، للدكتورة نادية حسن الجندي.

٤ - إطلالة وتعريف بأدب الرافعي، للشاعر عبدالمنعم عواد يوسف.

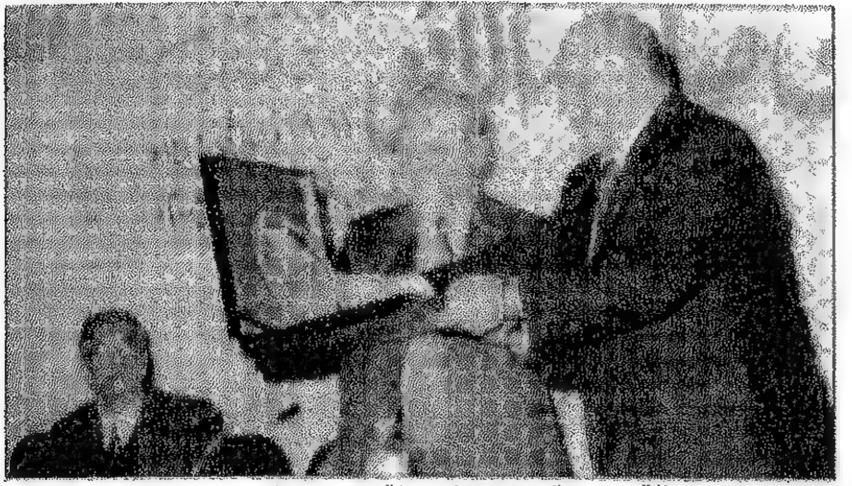
ركز د . عبدالحليم عويس على اهتمام الرافعي بإعادة صياغة الوقائع بطريقة بيانية تربوية تترك تأثيرها في القلب والعقل معا، ودفاعه عن التراث العربي الأصيل، ورصده النهضة العلمية في التاريخ الإسلامي ومعالجته لأسلوب القصص القرآني، وأشار إلى أن الرافعي لا يخالف الجاحظ فيما قرره من وجود التكرار في الآيات التي خوطب بها بنو إسرائيل ولكنه يخالفه في التعليل لذلك .

وتناول د. صلاح الدين عبدالتواب قضية الإعجاز في القرآن الكريم عند الرافعي، وكيف أنه تصدى لهذا المجال العميق والدقيق من مجالات الدراسات الأدبية والنقدية التي دارت حول البيان القرآني، ويرى أن تناول الرافعي لفكرة النظم كان تناولا مرتبا وموضوعيا ومنطقيا ممزوجا بدراسة تطبيقية على نماذج متنوعة من التعبير البياني في القرآن الكريم.

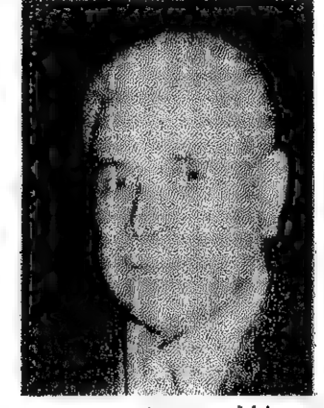
وتناولت د . نادية حسن الجندي تأثيرالجانب الخلقي في حياة الرافعي موضحة كيف جاء الرافعي في زمن كثرت مغرياته وزادت انحرافات أدباء كثيرين



حفل افتتاح الملتقى



د. عبد القدوس يقدم درع الرابطة للدكتور احمد عمر هاشم



عبدالمنعم عواد يوسف

استهواهم الالتحاق بركب الثقافة الغربية الداعية إلى النيل من تراث الأمة ودينها ولغتها وتاريخها، وتحدثت باستفاضة عن مكونات الأخلاق عند الرافعي والمؤثرات المضيئة.

أما الشاعر عبدالمنعم عواد يوسف فقد قدم إطلالة وتعريفا بأدب الرافعي وخصائصه، وكيف أنه كتب الشعر وكتب في تاريخ الأدب العربي والإسلامي كما مارس فنون النقد الأدبي، ودبج يراعه المتمكن المقالة الأدبية في شتى أغراضها، ولم تمنعه الإعاقة السمعية عن شيء من ذلك .

وكانت الجلسة الثانية عن « معارك الرافعي الأدبية والفكرية » برئاسة الدكتور حسن الأمراني، وقدمت فيها أربعة أبحاث:

١ – الرافعي وموقفه من دعاة العامية، للدكتور زهران محمد جبر.

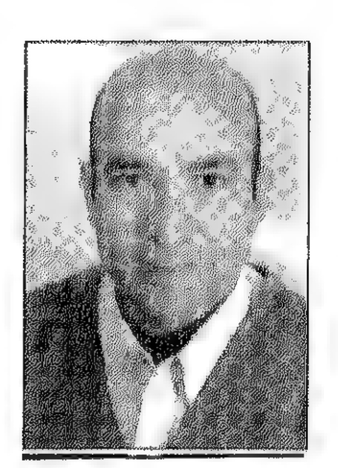
٢ – رؤية حول معارك الرافعي، للدكتور صابر عبدالدايم.

٣ – معارك الرافعي الأدبية . للأستاذ سيد سليم سلمى.

٤ – الرافعي وربع قرن من المعارك الأدبية. للأستاذ محمد عبدالشافي القوصي.

قدم د . زهران محمد جبر بحثه قائلا : «لا يمكن بحال من الأحوال أن نفصل الصراع بين العامية والفصحى وننأى به عن مجال الصراع الثقافي الأعم» ، وأشار إلى أن الصراع بين المحافظين وأنصار الأصالة وبين دعاة التجديد والعصرنة والتطور اتخذ من أشكال الجدال في قضايا الأدب ستارا لم يخف ما وراءه من النيات الخبيثة حيال الإسلام من دعاة التجديد .

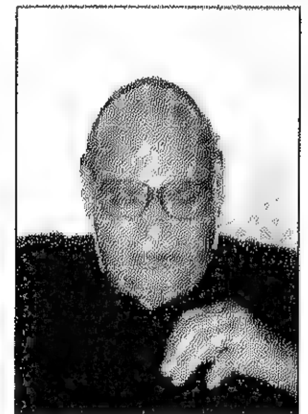
وعرض د . صابر عبدالدايم لمعارك الرافعي من خلال كتابه (تحت راية القرآن) حيث يعده ميدان المعركة التي دارت رحاها بين قطبين رائدين هما : (الرافعي) مدافعا عن تراث العربية وعن كثير من الثوابت الإسلامية ضد آراء جريئة أثارها (طه حسين) في كتابه «الشعر الجاهلي»، وعرض لجذور المعركة وبواعثها .



سيد سلمى

وقدم الأستاذ سيد سليم سلمى بحثه مستعرضا أقوال أعلام الفكر العربي المعاصرين له واللاحقين وآراءهم، في مواقفه الصلبة وهو يدافع عن الأصالة ضد دعاة العامية والتجديد .

ولم يتم مناقشة البحث الرابع لتغيب مقدمه .



محمد بدر معبدي

وكان محور الجلسة الثالثة هو (إبداعات الرافعي : شعر – نثر – أغاريد) برئاسة د.عبدالمنعم يونس، وكانت الأبحاث المقدمة هي :

١ – الرافعي شاعرا، للدكتور محمد بدر معبدي.

٢ – التصوير الفني في أسلوب الرافعي، للدكتور علي علي صبح.

٣ – شاعرية الرافعي، للأستاذ إبراهيم سعفان.

٤ – الرافعي والأغاريد، للأستاذ أحمد فضل شبلول.

٥ – الرافعي وإبداعاته في الشعر، للأستاذ فوزي تاج الدين.





علي علي صبح

تناول د . محمد بدر معبدي الأغراض الشعرية التي صاغ الرافعي من خلالها إبداعاته، وكيف أن التوجه الإسلامي غلب على انتاجه الشعري سواء وهو يمدح رموز الإسلام أو لغة الإسلام، وسرد نماذج عديدة من شعره في باب المدح والوصف والرثاء.

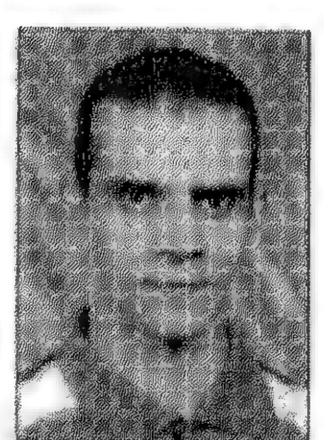
ووضح د . علي علي صبح، الخصائص الفنية لأسلوب الرافعي من خلال الأصالة في اللغة العربية ومشتقاتها ثم المصطلحات

اللغوية والنحوية في التصوير الفني ثم انتقاء الألفاظ والتجديد ثم الاستقصاء في التصوير، والعمق في الأفكار والموسيقى والاقتباس والتضمين .

وقدم الناقد الأدبي إبراهيم سعفان دراسة تحليلية عن الرافعي شاعرا وأشار إلى حملات الحاقدين والحاسدين التي انهالت على الرافعي بسبب صراحته وبعض أبيات شعره، وقدم نماذج من شعره في الإيمان بالله والتخلص من اليأس والاعتماد على النفس والاهتمام بالعلم . وحلل بعض القصائد تحليلا علميا ليصل إلى سمات شعر الرافعي.


فوزي تاج الدين

أما الأستاذ أحمد فضل شبلول فقد تناول الأغاريد عند الرافعي مرتكزا على ديوان (أغاريد الرافعي) الصادر عن وزارة الثقافة والإعلام بالعراق ١٩٧٩م . واستعرض أبواب الديوان وانتهى إلى أن نصيب القصائد المكتوبة للصغار قليلة نسبيا، وأشار إلى أن الرافعي لم يقل صراحة أنه كتب قصائده للأطفال، ولكن تم تصنيف بعض شعره كذلك .


متولي عطية

وقدم الأستاذ فوزي تاج الدين بحثه مركزا على كثرة التشابيه، وعرض بعض النماذج، وأوضح أن أهم ملامح شعر الرافعي هو تأثره الشديد بأقوال رسول الله ﷺ، ثم بأقوال الصحابة، وكذلك معالجته للقضايا الاجتماعية من خلال الشعر .

وكانت الجلسة الأخيرة برئاسة د .عبدالحليم عويس حول محور (المقالة في أدب الرافعي)
قدمت فيها خمسة أبحاث :

١– معركة الرافعي ضد دعاة العامية، للأستاذ د.عبدالمنعم يونس .

٢ – دراسة حول (وحي القلم)، للدكتورة مكارم الديري.

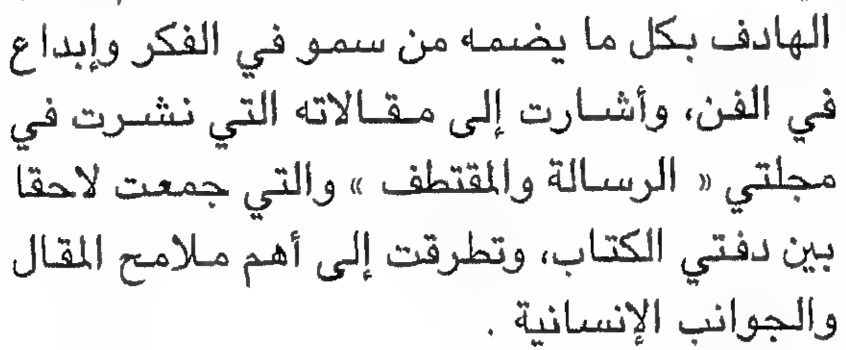
٣ – قضية الفقر، كيف تناولها الرافعي، للأستاذ وليد كساب .

٤ – المقالة عند الرافعي، للأستاذ متولي عطية.

٥ – نثر الرافعي ليس «قصيدة نثر»، للأستاذ صلاح رشيد.

قدم د. عبدالمنعم يونس رؤيته في المقالة عند الرافعي من خلال مقالاته التي تصدى بها لدعاة العامية واللغات الأجنبية مقتحما بها معارك كثيرة للذود عن حياض الإسلام ولغته وثقافته ضد الاستعمار وأعوانه وأذياله، وأشار إلى أذناب الاستعمار الذين يحاولون هدم اللغة العربية وتقويض أركانها وإحداث هوة سحيقة بين الأمة العربية والقرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي مبين، وأوضح كيف أن الرافعي لم يأل جهدا في بيان ما تنطوي عليه نوايا هؤلاء الأعداء.

وقدمت د . مكارم الديري دراسة نقدية في (من وحي القلم) على اعتبار أن هذا الكتاب « كلمات صدق موقعها القلب والعقل معا، لأنها تقدم الأدب الهادف بكل ما يضمه من سمو في الفكر وإبداع في الفن، وأشارت إلى مقالاته التي نشرت في مجلتي « الرسالة والمقتطف » والتي جمعت لاحقا بين دفتي الكتاب، وتطرقت إلى أهم ملامح المقال والجوانب الإنسانية .



وتناول الأستاذ وليد كساب في بحثه أسلوب المقالات عند الرافعي مشيرا إلى كتاب «المساكين» الذي صاغه لأسباب عديدة « لا لمحو الفقر ولكن للصبر عليه، وليس من أجل البحث فيه ولكن للعزاء عنه . ثم كتب عن الغنى وما إليه لا رغبة في إفساده على أهله ولكن لإصلاح ما يفهم منه غير أهله » .

وتناول الأستاذ متولي حسن عطية في بحثه أسس بناء المنهج عند الرافعي وتعرض للقضايا التي تناولها في العلاقة بين الرجل والمرأة، وقضية العامية والفصحى وقضية التجديد والتحديث وقضية الإبداع الفني في الكتابة نثرا وشعرا، ثم

تناول أهداف الكتابة بشيء من التفصيل .

ولم يتم مناقشة البحث الخامس لتغيب الأستاذ صلاح رشيد مقدم البحث .

هذا .. وقد قدم د . حسن الأمراني ورقة إلى المؤتمر عن أصالة التجديد وتجديد الأصالة عند الرافعي ذكر فيه كيف كان من عظماء الأمة وعباقرتها الذين وقعت حولهم الخصومة، ولم تنطفئ، وأنه أصابه من الظلم والعنت الكثير . وأشار إلى موقف بعض معاصريه مثل طه حسين وغيره من إبداعاته الكثيرة . ثم تناول التجديد عند الرافعي ووضح أنه ليس كل قديم جديرا بالتمجيد، فكل إنسان يؤخذ منه ويرد، كما أنه ليس كل جديد مرفوضا .

وفي نهاية الجلسة أقيمت أمسية شعرية امتدت إلى منتصف الليل، وقد أدارها الدكتور علي علي صبح. واختتمت الندوة بقراءة التوصيات

التوصيات

يوصي الملتقون في ندوة (مصطفى صادق الرافعي) التي أقيمت بمركز صالح كامل بجامعة الأزهر ضمن فعاليات جمعية رابطة الأدب الإسلامي والمنعقد يومي الأربعاء والخميس (٢٧ – ٢٨ من ذي الحجة ١٤٢٤هـ / الموافق ١٨ – ١٩ شباط / فبراير ٢٠٠٤م) بما يأتي:

أولا : إن نتاج الرافعي متعدد الأغراض متشعب الطرائق وكله يمثل شخصية الرافعي ومنهجه في الكتابة والتأليف، ولقد قامت بعض دور النشر في القرن الماضي بطباعة أشهر مؤلفاته أو ما شاع منها ولكنها في الوقت نفسه لم تهتم بكثير من هذا النتاج، وينبغي أن تعمل الأوساط الأدبية والمجامع العلمية على طبع ما لم يطبع منه مثل : (أسرار الإعجاز) وغير ذلك من الأغاريد التي تمثل جانبا أصيلا من روحه .

ثانيا : إن ديوان الرافعي لم يطبع بالصورة المطلوبة، وينبغي أن يعلق عليه وأن يطبع طباعة جيدة مع الإفادة من الطبعات التي ظهرت .

ثالثا : هناك قصص الرافعي التي تشكل ركيزة قوية في أدبه، وينبغي طبعها طباعة حديثة حتى يطلع عليها الشباب الذين لم يعرفوا عن قصص الرافعي إلا قليلا.

رابعا: هناك قضية في غاية الأهمية وهي العمل على تقديم الرافعي تقديما يتفق وما قدمه من خدمة جليلة للأدب والفكر وللقرآن الكريم، ويتفق وحاجة أمتنا إليه في هذه الفترة الحرجة من تاريخها .

خامسا: إن هناك بعض أفراد أسرته ما زالوا على قيد الحياة، فينبغي الرجوع إليهم وتسجيل أحاديثهم عن أبيهم وبخاصة بناته اللائي رأينه عن كثب وتعاملن معه : كيف كانت معاملته لهن ؟ وبماذا كان يتعامل مع غيره من الناس وبخاصة زواره الذين كانوا يقدمون إلى بيته .

سادسا : يقترح المشاركون في الملتقى أن تكون هناك جائزة دورية تسمى باسم الرافعي تدور محاورها حول دراسة نتاج الرافعي إن في شعره، وإن في القصة عنده، وإن في الدراسات القرآنية والبيانية، وإن في أهازيجه، ويقوم بذلك المحبون للرافعي ونتاجه العظيم.

سابعا : جمع ونشر ما لم ينشر من شعره الذي نشرته الصحف والمجلات خدمة لتراث الرافعي وكذلك جمع ما لدى الأسرة من مقالات لم تنشر بعد .

ثامنا : نشر بحوث المؤتمر في عدد خاص من مجلة الأدب الأسلامي.

تاسعا: التوصية بإدخال بعض أشعاره وأغاريده في مناهج التدريس في مراحل التعليم المختلفة.

عاشرا : يشكر الملتقون جامعة الأزهر ومركز صالح كامل واللجنة التنظيمية وكل من أسهم في هذا الملتقى بالكتابة أو الحضور .

من أنشطة جمعية رابطة الأدب الإسلامي بالقاهرة

في فترة شهري (أيلول وتشرين الأول ٢٠٠٤).

* في الأسبوع الأول من أيلول / سبتمبر ٢٠٠٤ م، استضافت الجمعية الناقد الإسلامي الدكتور حسن الهويمل، أستاذ الأدب والنقد غير المتفرغ بجامعة القصيم ورئيس نادي القصيم الأدبي ورئيس المكتب الإقليمي لرابطة الأدب الإسلامي العالمية في المملكة العربية السعودية. وذلك في ندوة مفتوحة تناولت قضايا الأدب الإسلامي والنقد ومختلف القضايا الأدبية المعاصرة واختتمت بأمسية شعرية شارك فيها شعراء الرابطة والضيوف.

* وفي الأسبوع الثاني استضافت الجمعية الأديب عبداللطيف الجوهري، في ندوة حول إبداعاته في الأدب الإسلامي، واستعرضت بعض الجوانب الفنية في شعره حيث رحب د . عبدالمنعم يونس (رئيس الجمعية) بالضيف . وقامت الشاعرة نوال مهنى بتقديم الضيف، وتحدث الأستاذ إبراهيم سعفان عن أسلوب الجوهري في معالجة المسائل الفكرية بأسلوب أدبي . ثم تحدث الضيف وألقى الضوء على إبداعاته وظروف الكتابة، ووجه الشكر لرابطة الأدب الإسلامي العالمية، وقدم بعض قصائده.

* وفي الأسبوع الأول من تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠٤م تمت مناقشة رواية « أطياف الماسة الزرقاء» للأديب أحمد بسيوني، وهي رواية من الخيال العلمي برؤية إسلامية، في بداية الندوة قدم المؤلف نبذة عن فكرة الرواية وظروف كتابتها والهدف منها. وشارك في الحديث والمناقشة كل من : د . عبدالمنعم يونس، والأستاذ حسني سيد لبيب، ود . عاطف عامر.

وفي نهاية الأمسية تحدث أ . إبراهيم سعفان (الذي أدار الندوة) وقال إن الكتاب مشحون بمعلومات كثيرة ، وأبدى عددا من الملحوظات النقدية .

* وفي الأسبوع الثاني من تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠٤ م عقد لقاء مع د . عبدالعزيز عوض، أستاذ الأدب التركي ورئيس القسم بكلية الدراسات الإنسانية بجامعة الأزهر .

وأدار الندوة د . عبدالمنعم يونس، وأعطى نبذة عن دور رابطة الأدب الإسلامي العالمية في تقريب المسافات بين آداب الشعوب الإسلامية .

ثم تحدث د . عبدالعزيز عوض الله باستفاضة عن الأدب الإسلامي التركي ودوره في تثبيت الهوية الإسلامية، وقدم نموذجا عن الشاعر التركي «توفيق فكرت» الذي اعتبره د . عبدالعزيز من شعراء الفكر في المقام الأول . وأوضح أن «فكرت» استخدم العروض العربية في كل أشعاره تقريبا مما يدل على تأثره بالأدب العربي.

وشارك بالمداخلة كل من الأستاذ إبراهيم سعفان والأستاذ عبدالمنعم عواد يوسف، والشاعرة نوال مهنى .

* وفي ندوة الاثنين الموافق ٢٥ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠٤م أقيمت ندوة موسعة، شارك فيها النادي النوبي الثقافي ونادي دار العلوم بالقاهرة، بحضور عدد كبير من أعضاء الرابطة والضيوف، احتفلت الجمعية بذكرى انتصارات رمضان بدءا من ذكرى غزوة بدر الكبرى وانتهاء بانتصارات العاشر من رمضان ١٣٩٣هـ.



أحمد بسيوني



عاطف عامر

وتحدث في الندوة د . صلاح الدين عبد التواب، كما تحدث د . عبدالمنعم يونس «الذي أدار الندوة » عن دور الشعراء الإسلاميين في التأريخ لهذه الأحداث العظيمة .

وفي نهاية الندوة، ألقيت مجموعة من القصائد التي تناولت هذه الانتصارات الرمضانية، شارك فيها من الشعراء : « عبد الفتاح الخطيب – عبدالرزاق الغول – وحيد الدهشان – أحمد عبدالهادي – » ومن الشاعرات : « نوال مهنى – ناهد إسماعيل الديب– محبوبة هارون – والشاعرة اليمنية جميلة الرجوي» .

الجدير بالذكر أن جمعية رابطة الأدب الإسلامي بالقاهرة تقيم ندوة أدبية أسبوعية كل يوم اثنين مساء .

الأدب الإسلامي في صنعاء

عاصمة الثقافة العربية لسنة ٢٠٠٤م

صنعاء – د . سعد أبو الرضا

في يوم من أيام الأدب الإسلامي المشرقة، تجلت صنعاء العاصمة اليمنية في أبهى حللها الثقافية ..، في يوم الأربعاء التاسع من شهر رجب سنة ١٤٢٥هـ، الموافق ٢٥ اب / أغسطس ٢٠٠٤م إذ احتضنت أول ندوة للأدب الإسلامي تعقد في رحابها العامرة، برعاية رابطة الأدب الإسلامي العالمية وحضور جمع كبير من المخلصين في هذا البلد الكريم الذي قال فيه الشاعر القديم :



من اليمين: د . الهويمل ، د . عبدالقدوس، د . بدر ، د. أبو الرضا في الندوة

لا بد من صنعا وإن طال السفر

وكان مقر الندوة في مركز البحوث والدراسات الذي يشرف عليه المستشار الثقافي لرئيس الجمهورية اليمنية د . عبدالعزيز المقالح الذي رحب بعقد هذه الندوة في هذا المكان الذي يعد من أهم معالم صنعاء.

وكان هذا الملتقى حول الأدب الإسلامي نتيجة اتصالات لعدة شهور بين كل من د . عبدالقدوس أبو صالح رئيس الرابطة، وبين د . عبدالولي الشميري مندوب اليمن الدائم بالجامعة العربية ورئيس منتدى المثقف العربي بالقاهرة، كما أنه مؤسس ورئيس مؤسسة الإبداع للثقافة والفنون والآداب بصنعاء، وهو بعد ذلك عضو عامل في المكتب الإقليمي للرابطة في اليمن بل هو الراعي الأول لهذا المكتب .

وقد تعمد رئيس الرابطة والدكتور الشميري اختيار موعد الملتقى وإقامة فعالياته بمناسبة اختيار صنعاء عاصمة للثقافة العربية لسنة ٢٠٠٤م .

الإيمان يمان

وقد افتتحت هذه الندوة بالقرآن الكريم، ثم أدارها د . عبدالقدوس أبو صالح رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية الذي أبرز حب الناس لليمن فقد قال الرسول ﷺ «الإيمان يمان»، كما بين أن الأدب الإسلامي مشروع حضاري لتغيير واقع الأمة وإنقاذ الإنسانية، وقد أبرز أهمية الأدب الإسلامي في مجال الدعوات والمذاهب المختلفة لأن الأدب يخاطب العقل والقلب معا، من ثم فإن الأدب الإسلامي يقوم بذلك في موازنة سوية، وهو دعوة إلى أدب ملتزم بالإسلام، هادف إلى تعزيز قيم العدل والخير والحرية والمساواة، وعدم الإفساد في الأرض، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد ختم تقديمه بتوجيه الشكر الجزيل إلى حكومة جمهورية اليمن وفخامة رئيسها علي عبدالله صالح، وإلى معالي وزير الثقافة الأستاذ خالد الرويشان، وإلى سعادة المستشار الثقافي لرئيس الجمهورية د. عبدالعزيز المقالح، وإلى سعاد د. عبدالولي الشميري وأعضاء مكتب رابطة الأدب الإسلامي العالمية هناك.

الأدب الإسلامي ومفهومه المتميز

ثم تحدث د . حسن الهويمل – رئيس المكتب الإقليمي للرابطة في المملكة العربية السعودية – عن المحور الأول للندوة وهو : تعريف الأدب الإسلامي

ومفهومه المتميز »، فأشار إلى أنه « التعبير الجميل عن التصور الإسلامي للإنسان والكون والحياة »، ثم فصل حدود هذا التعريف وأبعاد مفهومه، كما أكد على أن الحوار الهادئ لا المصادرة هي سبيل التفاهم مع أصحاب المذاهب والدعوات الأخرى، دون انعزال أو تقوقع .

الدعوة إلى الأدب الإسلامي

وبعد ذلك تحدث د.سعد أبو الرضا - نائب رئيس مكتب البلاد العربية في الرابطة ونائب رئيس تحرير مجلة الأدب الإسلامي - في المحور الثاني وهو « مسوغات الدعوة إلى الأدب الإسلامي وأثره في المجتمع»، فأشار إلى وجوب أن يكون للمسلمين أدبهم الذي يعبر عن أشواقهم وهمومهم وأخلاقهم في مقابل ما نراه من أدب مسيحي وأدب يهودي، ولنرد به دعاوي المستشرقين، ومن يحاولون تشويه صورة الإسلام والمسلمين، وللحفاظ على اللغة العربية لغة القرآن الكريم، والتراث العربي، وللإسهام في ترشيد الأمة وشبابها بتقديم الكلمة الطيبة النقية في وسائل الإعلام المختلفة، كما أشار إلى أهمية أدب الأطفال الإسلامي في تنشئة أجيال صالحة تخدم دينها وأمتها .

مسيرة الأدب الإسلامي

وأما المحور الثالث وهو « رابطة الأدب الإسلامي سيرة ومسيرة » فقد تناوله د . عبدالباسط بدر - نائب رئيس الرابطة ورئيس مكتب البلاد العربية - متتبعا الظروف والملابسات التي نشأت فيها الرابطة حتى استوت على ساقها، كما أبرز دور سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي الرئيس السابق للرابطة في هذا المجال، وكذلك أشار إلى جهود د.عبدالقدوس أبو صالح الرئيس الحالي، خاصة وقد تعددت مكاتب الرابطة كما تعددت مجالاتها، واتسع نشاطها حتى شمل كثيرا من الدول العربية والإسلامية في العالم، كما أشار إلى بعض أهداف الرابطة الدعوية والإنسانية.

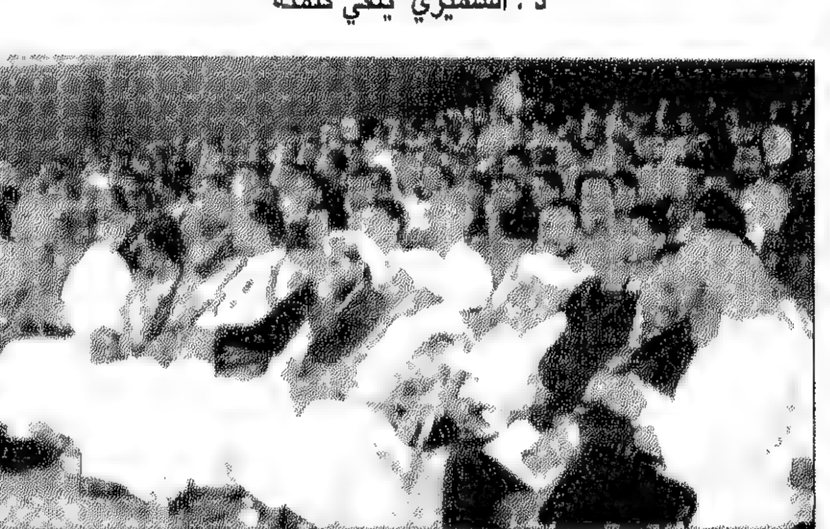
تلا ذلك مناقشات كشف خلالها المتحدثون عن بعض جوانب فكرة الأدب الإسلامي وأبعادها الحضارية والتراثية، وأهمية هذا المذهب الأدبي في عالم يموج بالمتغيرات، وتحاول العولمة الهيمنة عليه بطغيانها وانحرافاتها.



د . الشميري يلقي كلمته

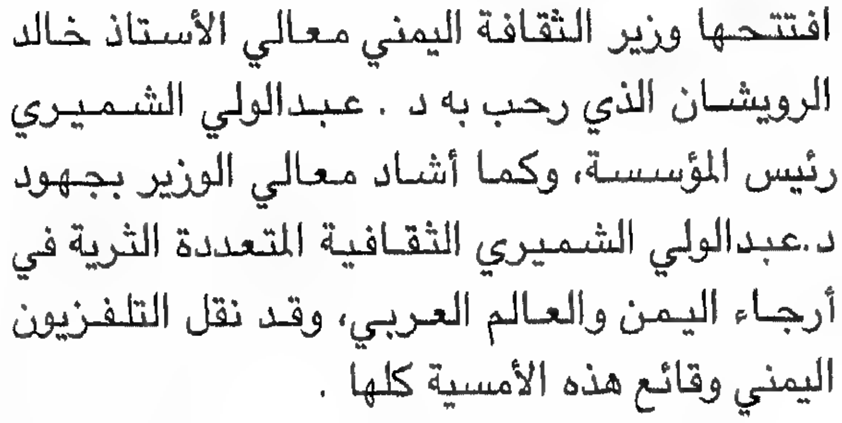


الفعاليات الثقافية المصاحبة للندوة:

جانب من الحضور

وقد صاحب هذه الندوة العديد من الفعاليات الثقافية، فقد عقدت أمسيتان شعريتان إحداهما في مقر مؤسسة الإبداع والفنون والآداب، وذلك مساء الأربعاء الذي أقيمت الندوة في صبيحته، وقد افتتحها وزير الثقافة اليمني معالي الأستاذ خالد الرويشان الذي رحب به د . عبدالولي الشميري رئيس المؤسسة، وكما أشاد معالي الوزير بجهود د.عبدالولي الشميري الثقافية المتعددة الثرية في أرجاء اليمن والعالم العربي، وقد نقل التلفزيون اليمني وقائع هذه الأمسية كلها .



أما الأمسية الثانية فقد عقدت بمركز البحوث الجامعية الذي أقيمت به ندوة الأدب الإسلامي، وذلك مساء الخميس ١٠ / ٧ / ١٤٢٥هـ ، وقد قدم هذه الأمسية وأدارها الأستاذ مفضل إسماعيل عضو رابطة الأدب الإسلامي وعضو مجلس النواب اليمني الذي كان يقدم الشعراء ببعض الأبيات الشعرية التي يرتجلها.

وقد شارك في الأمسيتين الشعريتين شعراء من اليمن وليبيا وسوريا وفلسطين والعراق، وكثير من ضيوف صنعاء .

الندوة في وسائل الإعلام اليمنية

أما الصحف والمجلات اليمنية التي صدرت في وقت الندوة فقد حيت وفد رابطة الأدب الإسلامي العالمية الذين قدموا إلى اليمن، كما أشادت بالدعوة إلى الأدب الإسلامي، ورحبت بإقامة المكتب الإقليمي للرابطة في صنعاء .

وقد كتب في صحيفة «الصحوة» الأستاذ عبدالغني المقرمي مقالة ضافية بعنوان : « رابطة الأدب الإسلامي .. فكرة تطوف العالم » أشار فيها إلى مكانة الرابطة المتميزة بين المؤسسات الأدبية العالمية، كما رصد عدة تحديات تقف أمام مسيرتها المباركة منها : تغليب الخطاب الوعظي على الأدبي في مختلف نتاجاتها الأدبية، وتفرد أدوات الأدب، وأن ما صدر عن الرابطة من كتب نقدية لا تقدم رؤية واضحة لكثير من الميادين التي تدعو إليها الرابطة، وغلبة الجانب التنظيري على الجانب التطبيقي، ويستشهد على ذلك بالعدد الخاص بنجيب الكيلاني من مجلة الأدب الإسلامي، وإن الأدب الإسلامي بحاجة إلى المثاقفة والانفتاح على الآخر، وحاجة الرابطة إلى قنوات اتصال غير تقليدية كالمحطات الفضائية والأفلام التسجيلية .

وقد تمت عدة لقاءات إذاعية وصحفية مع رئيس الرابطة د . عبدالقدوس أبو صالح، ود . عبدالباسط بدر، و د . حسن الهويمل، و د . سعد أبو الرضا، شملت الحديث عن فكرة الأدب الإسلامي في الماضي والحاضر والمستقبل .. وعوامل نموها .

في ضيافة وزير الثقافة اليمني

ومن الجدير بالذكر أن وزير الثقافة اليمني الدكتور خالد الرويشان دعا وفد الرابطة مع عدد من الشعراء الضيوف إلى مأدبة عشاء يمني، دارت فيه أحاديث أدبية ماتعة، وتحدث خلاله رئيس الرابطة عن تعريف الأدب الإسلامي وعن منهج الرابطة في الاعتدال والبعد عن التطرف والالتزام بالابتعاد عن الصراعات السياسية والحزبية مع الحرص على مناصحة الحكام .

افتتاح المكتب الإقليمي في اليمن

هذا وقد انتهت هذه الفعاليات بافتتاح المكتب الإقليمي لرابطة الأدب الإسلامي باليمن في العاصمة صنعاء حيث تم انتخاب د . محمد العبيدي رئيسا له . و د . طه السروري نائبا للرئيس، وعضوية كل من الأساتذة حميد المسوري، وأحمد قايد الأسودي، وأحمد هادي جمال الدين .



الندوة في وسائل الإعلام اليمنية

كلمة رئيس الرابطة في ندوة اليمن

وقد ألقى الدكتور عبدالقدوس أبو صالح رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية الكلمة الآتية في ندوة اليمن:

أيها الحفل الكريم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فإني أحمد الله تعالى أن قيض لي زيارة هذا البلد الكريم للمرة الثانية، ومن لا تسره زيارة اليمن، ومن لا يحب اليمن وشعب اليمن ؟!..

من لا يحب اليمن المؤمن، والرسول الصادق المصدوق ﷺ قال : « الإيمان يمان » ؟!.. ومن لا يحب شعب اليمن وهم أحفاد أولئك الأبطال الميامين الذين انطلقت كتائبهم تحمل رسالة الإسلام لتركز راياته في كثير من أصقاع الأرض، وانطلق أهل اليمن ليفتحوا كثيرا من البلاد بأخلاقهم الإسلامية ومعاملتهم الإنسانية !..

ولا عجب أن نجد اليمن المؤمن يفتح قلبه للأدب الإسلامي ورسالته العالمية التي تحتاجها الإنسانية لإنقاذها من الأخطار التي تتهددها

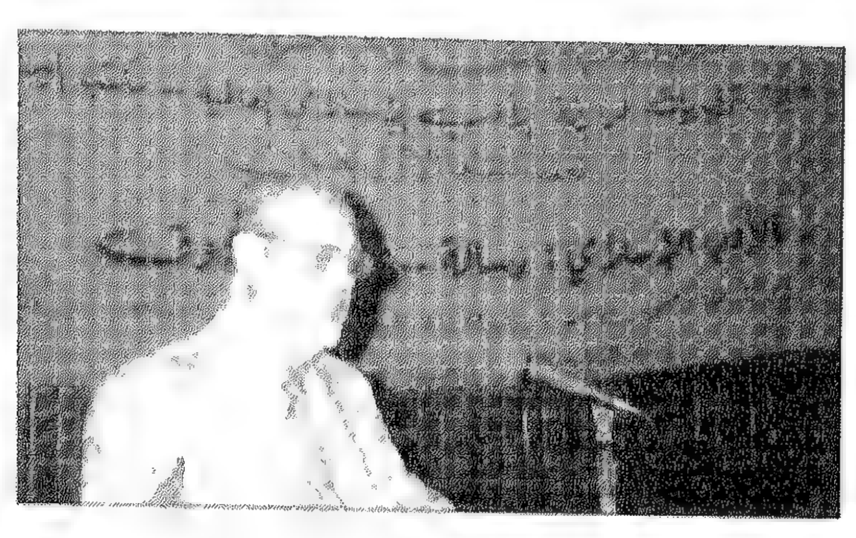
والمصير المظلم الذي تنحدر إليه .

فما أشبه الإنسانية اليوم بجواد جموح، انطلق من عقاله لا يلوي على شيء، حتى أوشك أن يتردى في هوة الدمار والفناء . وهذه مآسي العالم ونزاعاته ومحنه في كل مكان، وهذا طغيان الإنسان على أخيه الإنسان ... كل ذلك شاهد على أن الإنسانية فقدت عقلها حين مضت تحفر قبرها بيدها، وتحجر قلبها حين لم تعد تصغي إلى آهات البؤساء وبكاء الأطفال الأبرياء، ونواح الثكالى والمغتصبات، وأنين الجرحى وحشرجات القتلى في مجازر الطغيان .

وإذا كان الشعور بالمسؤولية يدعونا إلى العمل على تغيير واقع الأمة الإسلامية، والعمل على إنقاذ الإنسانية في مشروع حضاري إيجابي متكامل، وحوار إيماني هادف، وبناء يبتعد عن التعصب والتطرف، ويتسم بالاعتدال والانفتاح .. فإن هذا المشروع لا ينبغي له أن يقتصر على مسارات الفكر والسياسة والاقتصاد فحسب .. بل لا بد له أن يلتفت إلى مجال الأدب، ويدرك دوره الفعال وأهميته البالغة .

وإذا كانت الدعوات الفكرية والسياسية والاقتصادية تخاطب العقل، فإن الأدب يخاطب العقل والقلب معا .. ولا بد من الموازنة بين هذين الجناحين، إذ لا يمكن التحليق بواحد منهما دون الآخر، ولو كان الإنسان عقلا محضا لأصبح إنسانا آليا ولأصبحت الحياة صحراء قاحلة مجدبة، ولو كان الإنسان قلبا محضا لطغت أهواؤه على عقله، وغطت على بصيرته .

وليس هنالك من مذهب فكري أو سياسي أو اقتصادي إلا توسل بالأدب لدعم دعوته، أو لنشر آرائه، أو كسب أتباعه وأنصاره .. وحتى الإعلام الذي أصبح في هذا العصر من أخطر الأسلحة وأمضاها .. لا بد له أن يعتمد على الأدب مضمونا أو أسلوبا حتى يكون إعلاما فعالا ناجحا .



د. عبدالقدوس يلقي كلمته

ولقد قامت الدعوة إلى الأدب الإسلامي مذهبا أدبيا أو نظرية متكاملة، لأنه في مفهومه ومميزاته يمثل طوق النجاة أمام فوضى المذاهب الفكرية والأدبية وكثرتها وماديتها وعجزها .

وإن عدم الانسجام بين الأديب غير المسلم وبين العالم جعله - كما يقول الناقد الإسلامي د . عبدالباسط بدر - يبحث عن الحلول في متاهات وسراديب معتمة، كالجنس لدى ألبرتو مورافيا وأمثاله، أو في الصراع الطبقي لدى مكسيم غوركي وأتباع الواقعية الاشتراكية، أو في التمرد على كل شيء لدى سارتر والوجوديين، أو الانقطاع المعرفي لدى دعاة الحداثة الشاملة .

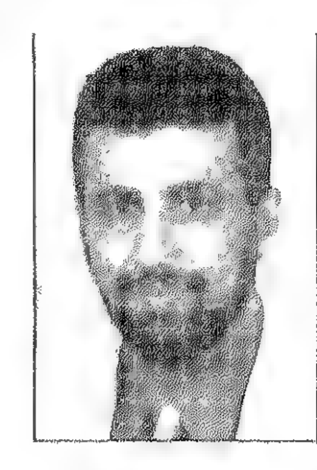
وكل ذلك جعل الآداب العالمية تحفل بمظاهر الضياع والقلق والتمرد والعبث، وتغرق في حمأة الجنس والانحلال، وتهدف إلى الإفساد العقائدي والخلقي، ثم ينعكس ذلك كله على الفن السينمائي، وينتقل إلى أشرطة الفيديو وأجهزة التلفاز عن طريق القنوات الفضائية ليغزو كل بيت في العالم، وليسهم في دفع الإنسانية إلى مهاوي الضياع .

ومن هنا جاءت الدعوة إلى الأدب الإسلامي أدبا إيمانيا ملتزما بالإسلام، هادفا إلى تعزيز قيم الخير والعدل والحرية والمساواة، وإلى دعوة البشرية إلى عدم الإفساد في الأرض وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وجاء الأدب الإسلامي ليكون وسيلة مهمة من وسائل بناء الإنسان الصالح والمجتمع الصالح، مع حرصه على إعطاء المرأة دورها في بناء الأسرة والمجتمع، فهو يهتم بأدب المرأة، ويشجعها على الإبداع الأدبي. وهاهي ذي الجائزة الأولى في مسابقة الرواية التي أقامتها رابطة الأدب الإسلامي العالمية تأتي من نصيب أديبة متفوقة.

والأدب الإسلامي يعمل على رد تلك الهجمة الشرسة على الإسلام والتي تعمل على تصوير الإنسان المسلم في صورة «الرجل الكريه»، وتتناسى

أويتناسى من يقودون تلك الهجمة ماذا قدم المسلمون للعالم وللحضارة البشرية. والأدب الإسلامي الذي يدعو إلى نبذ الانغلاق على الذات أدب ينفتح على المذاهب الأدبية العالمية، يفيد من إيجابيتها، ويبتعد عن سلبيتها، لأن «الحكمة ضالة المؤمن، وحيثما وجدها فهو أحق بها».. والأدباء الإسلاميون في كل مكان يؤمنون بالحوار الموضوعي البناء عملاً بقوله تعالى:«وجادلهم بالتي هي أحسن».


د. ابو بكر البابكري

وهاهي ذي ندوتنا اليوم، وهي بعنوان«الأدب الإسلامي: تعريفه ومضمونه المتميز ورابطته العالمية» تهدف إلى تقديم الأدب الإسلامي بصورته الناصعة وتميزه الفريد ومنهجه الأصيل الذي يقوم على الاعتدال والبعد عن الغلو والتطرف، وعلى مناصحة الحكام، وعلى الالتزام بالبعد عن الصراعات السياسية والحزبية، وهو ما نصت عليه المادة الأولى من نظام الرابطة.

وأخيرا فإن الواجب يدعوني إلى أن أتقدم باسم رابطة الأدب الإسلامي العالمية بالشكر الجزيل إلى حكومة جمهورية اليمن ورئيسها الجليل علي عبدالله صالح، وإلى معالي وزير الثقافة الأستاذ خالد الرويشان، وإلى سعادة المستشار الثقافي لرئيس الجمهورية الدكتور عبدالعزيز المقالح .. ثم إلى سعادة الأخ الكريم الدكتور عبدالولي الشميري رئيس مؤسسة الإبداع للثقافة والفنون والآداب لاستضافته هذه الندوة ورعايته لها .

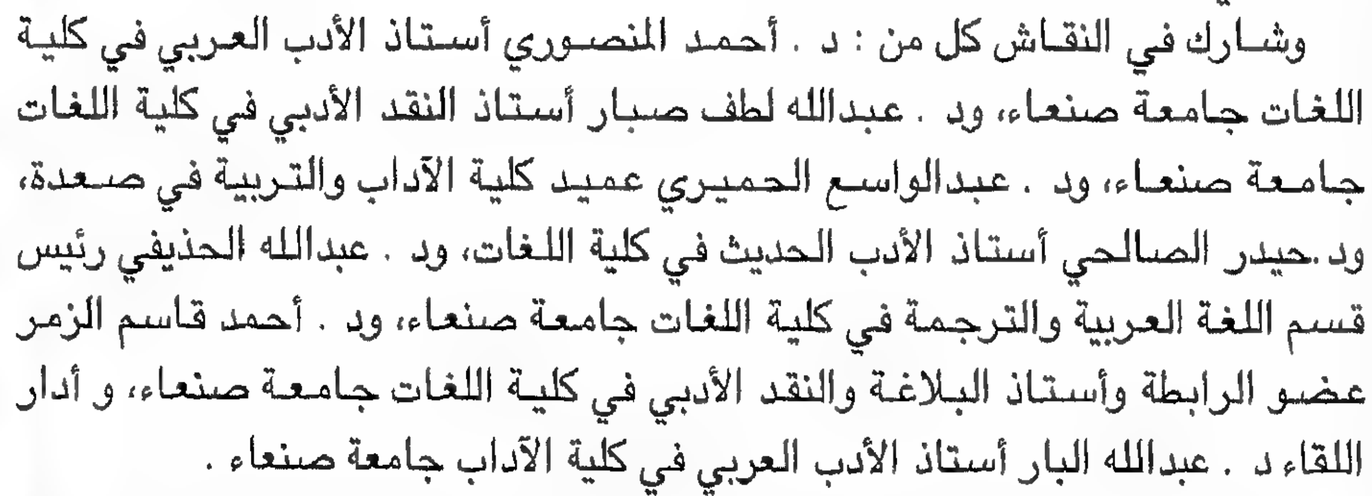
ولن أنسى واجب الشكر والتقدير للدكتور طه غانم السروري أول رئيس لفرع الرابطة في اليمن ولخلفه الدكتور أبي بكر البابكري، لما بذلاه في سبيل تعزيز الأدب الإسلامي في ربوع اليمن السعيد كما أشكر السادة الحضور الذين أكرمونا بحضور هذه الندوة المباركة إن شاء الله تعالى.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

من أخبار المكتب الإقليمي للرابطة في اليمن


د . محمد العبيدي

شارك الدكتور محمد عبدالله العبيدي رئيس المكتب الإقليمي للرابطة في اليمن في الملتقى نصف الشهري الذي يقيمه مجموعة من أساتذة اللغة العربية في جامعة صنعاء، وخصص الملتقى الذي عقد يوم الخميس ١٦ شعبان ١٤٢٥هـ الموافق ٣٠ / ٩ / ٢٠٠٤م لقضية الأدب الإسلامي، وقد بدأ بورقة قدمها د . محمد العبيدي بعنوان : الأدب الإسلامي : مفهومه، وأهميته، وخصائصه .



وشارك في النقاش كل من : د . أحمد المنصوري أستاذ الأدب العربي في كلية اللغات جامعة صنعاء، ود . عبدالله لطف صبار أستاذ النقد الأدبي في كلية اللغات جامعة صنعاء، ود . عبدالواسع الحميري عميد كلية الآداب والتربية في صعدة، ود.حيدر الصالحي أستاذ الأدب الحديث في كلية اللغات، ود . عبدالله الحذيفي رئيس قسم اللغة العربية والترجمة في كلية اللغات جامعة صنعاء، ود . أحمد قاسم الزمر عضو الرابطة وأستاذ البلاغة والنقد الأدبي في كلية اللغات جامعة صنعاء، و أدار اللقاء د . عبدالله البار أستاذ الأدب العربي في كلية الآداب جامعة صنعاء .


أحمد قاسم الزمر

وختم اللقاء بتعليق قدمه الدكتور محمد العبيدي رئيس المكتب الإقليمي للرابطة في اليمن رد فيه على بعض التساؤلات، ووضح فيه بعض القضايا الشائكة.

حوار مفتوح حول الأدب الإسلامي

مكتب الرياض: محمد شلال الحناحنة

افتتح المكتب الإقليمي لرابطة الأدب الإسلامي العالمية في الرياض موسمه الثقافي لهذا العام بندوة عنوانها : «حوار مفتوح حول الأدب الإسلامي» وقد أدار الندوة د. عبدالقدوس أبو صالح رئيس الرابطة والذي بدأها بالحديث عن بعض أهداف الرابطة ومبادئها الأساسية .

ثم طرحت عدة قضايا بدأها الدكتور سعد أبو الرضا نائب رئيس تحرير مجلة الأدب الإسلامي بحديثه عن موقف الرابطة من الآخر، ثم سرد بعض الأمثلة على موقف الأدب الإسلامي من بعض مخالفيه .

من اليمين: د . وليد ، د. ناصر ، د . عبدالقدوس ، د . سعد

وتحدث د . سعد عن المناهج النقدية الحديثة: «البنيوية والتفكيكية» وبين أثرها على الأدب العربي، كما دحض مقولة «موت المؤلف».

بعد ذلك طرح د . ناصر الخنين نائب رئيس المكتب الإقليمي للرابطة في الرياض قضية أخرى وهي : «أصول الالتزام بالأدب الإسلامي» ورد على من يرى أن الالتزام قيد للمبدع بالإشارة إلى قوله تعالى: ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ .

ثم طرح د . وليد قصاب، أستاذ النقد بجامعة الإمام قضية ثالثة وهي قضية (الغموض) حيث بدأ حديثه ببعض الشواهد الشعرية لذوي الاتجاهات الحداثية التي ترى في الغموض منهجا متبعا .

وذكر د . وليد أن الأدب الإسلامي أدب الوضوح لأنه ذو غاية وصاحب رسالة .

وفي نهاية الندوة تمت الإجابة عن استفسارات الحاضرين، ثم ألقى بعض الشعراء قصائد من إبداعاتهم.

* واستضاف المكتب مساء يوم الأربعاء ٢٩ شعبان ١٤٢٥هـ الدكتور الشاعر أحمد بن عبدالله السالم، رئيس قسم النحو والصرف وفقه اللغة في كلية اللغة العربية بجامعة الإمام بالرياض، حيث تحدث عن تجربته الشعرية، وقرأ مجموعة من أشعاره المختارة من دواوينه الشعرية، وقد لقيت القراءات الشعرية استحسان الحضور . كما قدم عدد من الشعراء مشاركات شعرية متنوعة في ختام الملتقى.

وقد أدار الملتقى الدكتور ناصر بن عبدالرحمن الخنين نائب رئيس المكتب الإقليمي.

* كما عقد المكتب الإقليمي ثلاثة ملتقيات أدبية لإبداع الشباب خلال الفترة من رجب إلى رمضان لعام ١٤٢٥هـ، والذي يتم اللقاء فيه مساء الأربعاء الثاني من كل شهر هجري . ويعقد الملتقى الأدبي العام مساء الأربعاء الأخير من كل شهر .

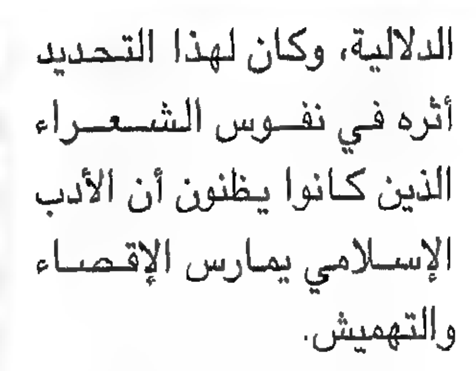
* اجتمع د . وليد قصاب ، عضو الهيئة الإدارية لمكتب البلاد العربية ، بأعضاء رابطة الأدب الإسلامي في دولة الإمارات العربية المتحدة خلال زيارته لها في فترة إجازة عيد الفطر المبارك.

وقد حث د . وليد الأعضاء على القيام بواجبات العضوية بنشر الدعوة إلى الأدب الإسلامي والتواصل الثقافي بين الأعضاء بعضهم ببعض وبين الرابطة ومجلة الأدب الإسلامي.

لقاءات أدبية للدكتور الهويمل

بالإضافة إلى مشاركة د حسن بن فهد الهويمل رئيس المكتب الإقليمي للرابطة بالمملكة في ندوة الأدب الإسلامي باليمن، وحضوره حفلا تكريميا بجمعية الأدب الإسلامي بالقاهرة، فقد حضر حفل تكريم المبدعات العربيات اللاتي تم إكرامهن من قبل (منتدى المثقف العربي) في القاهرة .

كما حضر د . الهويمل الأمسية الشعرية في (متحف أحمد شوقي) وكان المتحدث الرئيسي فيها . وقد أثنى على تعدد المناشط وتنوعها في القاهرة ودعم الدولة لذلك، وأوضح د . الهويمل موقف الناقد الإسلامي من الإبداع من خلال أبعاده الفنية والشكلية والموضوعية، وأكد أن الناقد الإسلامي لا يبخس الشعراء أشياءهم، وأنه يشيد بالإمكانيات الفنية والإبداعية وإن تحفظ على بعض التجاوزات الدلالية، وكان لهذا التحديد أثره في نفوس الشعراء الذين كانوا يظنون أن الأدب الإسلامي يمارس الإقصاء والتهميش.


د . حسن الهويمل

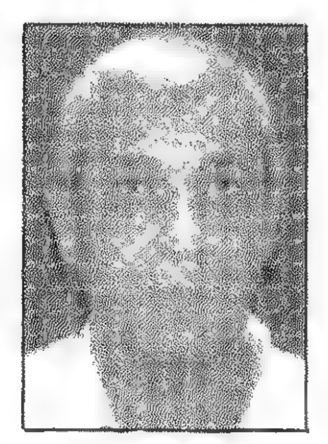
وفي نقابة الصحفيين حضر د . الهويمل أمسية شعرية ثالثة بمشاركة لفيف من الشعراء المنتمين للرابطة وآخرين ممن يحملون الهم الإسلامي من غير أعضاء الرابطة. وكان تعليق الهويمل على الإبداعات مثار تقدير الجميع حيث أشاد بالحس الإسلامي في الأعمال الإبداعية .

وقد تمت تغطية تلك الفعاليات في سائر الصحف المصرية وبخاصة جريدة الأهرام التي لخصت كلمة الدكتور الهويمل في حفل مكتب الرابطة في القاهرة.

مكتب الأردن - عمان - عماد الرفاتي:

أقام المكتب الإقليمي للرابطة في الأردن عددا من الأنشطة الثقافية في الفترة من ١٣ جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ / الموافق ١ / ٨ / ٢٠٠٤ م إلى ٩ رمضان ١٤٢٥هـ، الموافق ٢٣ / ١٠ / ٢٠٠٤ م .

* محاضرة للدكتورة زينب محمد بيره جكلي بعنوان «مفهوم عصر الدول المتتابعة» قدمها فيها الدكتور عثمان قدري مكانسي.
* أمسية شعرية للأستاذ عبدالله عيسى سلامة، قدمه فيها الأستاذ محمد الحسناوي.
* محاضرة للدكتور عبدالقادر الشيخلي بعنوان : « ثقافة الحوار في الإسلام » وأدار المحاضرة الأستاذ محمد شلال الحناحنة.
* محاضرة للدكتور عثمان قدري مكانسي بعنوان : « تأملات تربوية في سورة طه » وأدار المحاضرة الدكتور عماد الخطيب.
* أقام المكتب حفل توقيع كتابي الدكتور عودة الله القيسي «الإعجاز في آيات الصيام »، والدكتور عمر الساريسي « في أدب العصر العباسي»، وقدم كل منهما موجزا عن كتابه،وقدمهما الأستاذ صالح البوريني.


محمد ضمرة

* محاضرة للأستاذ حسام العفوري في العروض بعنوان « الزحافات والعلل بين دوائر الخليل والمعنى» قدمه فيها الدكتور عماد الخطيب.
* محاضرة للدكتور عودة أبو عودة بعنوان «البيان في الحديث النبوي» قدمه فيها الأستاذ صالح البوريني.
* أمسية شعرية للأستاذ محمد ضمرة قدمه فيها الأستاذ ماجد المجالي.
* محاضرة للدكتور إسماعيل العمايرة بعنوان « مشروعات ملحة لخدمة اللغة العربية» قدمه فيها الدكتور ياسين عايش.


إسماعيل العمايرة

* ندوة رمضانية للدكتور عودة أبو عودة بعنوان «نظرات بيانية في آيات الصيام» وأدار الندوة الأستاذ صالح البوريني.

مكتب بنغلاديش - داكا - جسيم الدين الندوي

الرسول الأعظم ﷺ في الشعر البنغالي



جانب من الندوة

عقد مكتب بنغلاديش الإقليمي لرابطة الأدب الإسلامي العالمية في العاصمة دكا في الثالث من شهر حزيران / يونيو عام ٢٠٠٤ م مساء يوم الخميس ندوة أدبية حول « الرسول الأعظمﷺفي الشعر البنغالي» في قاعة المؤسسة الإسلامية (بيت المكرم) بداكا، حضرها نخبة من الأدباء والكتاب والشعراء وأساتذة الجامعات والمعاهد التعليمية وطلبة العلم. وكانت القاعة مكتظة بالحاضرين.

بدأت فعاليات الندوة بتلاوة آي من الذكر الحكيم وقصيدة مديح في الرسولﷺ. ثم قام رئيس المكتب الإقليمي الشيخ محمد سلطان ذوق الندوي بإلقاء كلمة افتتاحية . ثم قدم الدكتور س . م . لطف الرحمن رئيس قسم اللغة البنغالية في جامعة داكا كلمة قيمة حول الموضوع المذكور، وتحدث فضيلة الشيخ محيي الدين خان رئيس تحرير مجلة «المدينة» ، عن إبداع الشعراء البنغاليين في مدح الرسولﷺ ، وشارك بمداخلات قيمة كل من: الشاعر روح الأمين خان المدير التنفيذي لجريدة «انقلاب» اليومية والأستاذ فريد الدين مسعود رئيس البحوث الإسلامية ببنغلاديش والدكتور عبدالرحمن أنوري الأستاذ المساعد في الجامعة الإسلامية كوشتيا، والأستاذ عبيد الرحمن خان الندوي المدير المساعد لجريدة «إنقلاب» .

وقد حضر الندوة معالي الدكتور مستفيض الرحمن نائب رئيس الجامعة الإسلامية كوشتيا سابقا ضيف شرف، وكان رئيس الندوة معالي الدكتور الأديب الناقد قاضي دين محمد رئيس قسم الأدب البنغالي في جامعة داكا سابقا .

وأفاد الشيخ محمد سلطان ذوق في كلمته الافتتاحية عن مدح الرسولﷺ في مختلف اللغات والأدوار، وقال إن مدح الرسولﷺ لا يرفع منزلة الرسولﷺ بل ترتفع به مكانة الشاعر واعتز به الشعراء في كل عصر ومصر كما قال أحد الشعراء:

ما إن مدحت محمدا بمقالتي

لكن مدحت مقالتي بمحمد

وكثير من الشعراء قرضوا في مدح الرسول ص، والأدب الأردي حافل بأشعار أنشدت في مدح الرسولﷺ. ومن الحقيقة الناصعة أن إبداعات الشعراء البنغاليين في مدح النبيﷺ لا يستهان بها . فلو استعرضنا ما قدموا في هذا المجال لعرف الناس مقدار إسهامهم في خدمة الإسلام واستخدامهم اللغة البنغالية في مدح الرسول ﷺ، ولتحقيق هذا الغرض تم عقد هذه الندوة .

وأضاف الشيخ قائلا : هذه الندوة تستهدف التعريف بأهم أنشطة الرابطة وأغراضها، إذ نلاحظ قلة الاعتناء بأنشطة الرابطة من المعنيين بالأدب الإسلامي في بلادنا، رغم أن المكتب الإقليمي لا يزال يعمل جاهدا منذ نشأته .

وتحدث فضيلة الدكتور لطف الرحمن في كلمته عن شعراء بنغاليين وإبداعاتهم حول الرسولﷺ منذ نشأة اللغة البنغالية وتطورها، ولكنه لم يتطرق إلى الحديث عن شعراء معاصرين وإسهاماتهم في المدح كثيرا .

وفي الختام ألقى معالي الدكتور قاضي دين محمد كلمته ودعا الكتاب والباحثين إلى الاهتمام بأنشطة رابطة الأدب الإسلامي .

نشاطات أخرى

* ألقى الأستاذ محمد سلطان ذوق في مقر المكتب محاضرة بعنوان : « الأدب الإسلامي مفهومه وضرورته » حضرها جمع كبير من الأدباء وأساتذة المعاهد العلمية والجامعات، ودارت مناقشات مهمة حول الموضوع في نهاية المحاضرة .

* عقد المكتب الإقليمي في بنغلاديش مسابقة في ترجمة النصوص الأدبية من اللغة البنغالية إلى اللغة العربية، شارك فيها عدد من المهتمين بالأدب العربي والذين يجيدون اللغة العربية .

الإسلام والمسلمون في القرن الحادي والعشرين

عقد في مدينة عمان المؤتمر الدولي الثالث بعنوان :«الإسلام والمسلمون في القرن الحادي والعشرين » بالتعاون بين وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية الأردنية وجامعة اليرموك، وذلك في الفترة من ١٤ إلى ١٦ شوال ١٤٢٥هـ/ الموافق ٢٧ إلى ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٤م.

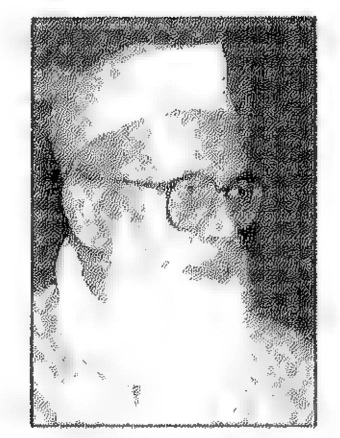
وحضر هذا المؤتمر د . عبدالقدوس أبو صالح رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية ، وقدم بحثا بعنوان: « المسلمون والتحدي الفني» . وكان من جملة التوصيات المهمة للمؤتمر **دعم الأدب الإسلامي والدعوة إلى تقريره مادة دراسية في الجامعات ، والعناية به في وسائل الإعلام المختلفة.**

مكتب الهند – الرائد – إقبال أحمد الندوي

ندوة علمية حول السلطان تيبو الشهيد

عقد فرع مكتب رابطة الأدب الإسلامي العالمية بكرناتكا ندوة علمية حول شخصية وخدمات البطل الجليل والمجاهد الكبير ورمز الحرية والاستقلال في الهند السلطان الشهيد أبي الفتح فتح علي المعروف بتيبو، وذلك في ٢٧ من يونيو ٢٠٠٤م بتعاون دار العلوم سبيل الرشاد بنجلور في قاعة محاضراتها الجديدة المدعوة «إيوان حضرة أبي السعود»، وقد تم افتتاحها كذلك بهذه الندوة.

ورأس الندوة رئيس مكتب رابطة الأدب الإسلامي العالمية لشبه القارة الهندية فضيلة الشيخ محمد الرابع الندوي، وأدار الجلسة فضيلة المفتي في بكرناتكا الشيخ محمد أشرف علي الباقوري رئيس جامعة سبيل الرشاد، وشارك فيها فضيلة الشيخ محمد واضح رشيد الندوي الأمين المساعد لمجلس أمناء الرابطة بصفته ضيف الشرف، كما حضرها عدد كبير من المسؤولين والأساتذة والطلبة .



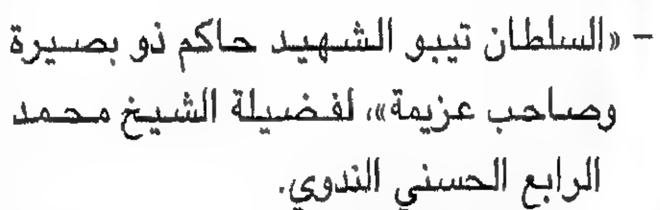
محمد الرابع الندوي

وتناولت البحوث والمقالات جوانب عديدة من حياة السلطان الشهيد تيبو شرحا وإيضاحا، دراسة ونقدا . وكانت الندوة ناجحة موفقة.

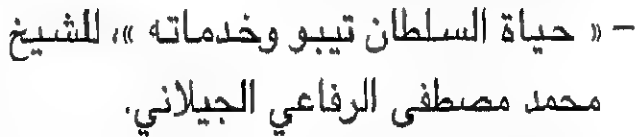
وقدم الشيخ محمد مصطفى الرفاعي الجيلاني الندوي كلمته الترحيبية، ثم ألقى الشيخ محمد الرابع الندوي كلمته، وقال فضيلته وهو يلقي الضوء على الأدب الإسلامي وغرضه، ويربط بين شخصية وخدمات السلطان تيبو والأدب : إن موضوع الأدب لا يمكن تحديده في دائرة المتعة الأدبية فحسب، ولأجل ذلك فإن الشخصيات التاريخية التي ليست بشخصيات أدبية، لكنها تسقي الأذهان و العقول في الحقل الأدبي بفكرتها وتوجيهها لتكون حقلا كبيرا للعاملين في المجال الأدبي، فهذه الندوة عن شخصية السلطان وخدماته جاءت في أوانها ومكانها .

البحوث والمقالات

ومن البحوث والمقالات التي قدمت في الندوة :



- «السلطان تيبو الشهيد حاكم ذو بصيرة وصاحب عزيمة»، لفضيلة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي.
- « حياة السلطان تيبو وخدماته »، للشيخ محمد مصطفى الرفاعي الجيلاني.



- « خطابات السلطان تيبو الشهيد » للمحامي عبدالرحيم القريشي.
- « أسد الهند تيبو السلطان في ضوء الشعر والأدب»، للدكتور محسن العثماني الندوي.
- « خدمات السلطان الشهيد العلمية والأدبية »، للدكتور قدرة الله الباقوي.
- « حضرة السلطان تيبو الشهيد »(شعر)، للشيخ منير أحمد الجامي.
- «دراسة المزدوج في مدح السلطان تيبو الشهيد »، للدكتور ظهير أحمد راهي فدائي.

وبحوث أخرى تناولت الجوانب الدعوية والسيرة الذاتية.

أستاذي مصطفى صادق الرافعي



د . حسين مجيب المصري

من الأسئلة التي عهدنا طرحها في اتصال ودوام، هي أي شخصية كان لها الأثر في حياتك ؟

ونقصد بالحياة هنا .. الحياة الأدبية على الأخص . أقول .. والحق أقول .. إن حرفة الأدب أدركتني ولما أبلغ الرابعة عشرة، وأذكر أني قرأت واطلعت في هذه السن المبكرة على كتاب للرافعي تحت عنوان « رسائل الأحزان»، وكنت وأنا في ذلك الوقت .. أقرأ غيره من أمثال : جبران خليل جبران وكتبا أخرى قديمة وحديثة، وأحفظ من الأشعار العربية القديمة والحديثة جمهرة كبيرة .

غير أني تأثرت وأعجبت بالرافعي، وذلك لوجهين، أما أولهما : فعربيته المتينة الرصينة، والثاني : خياله الذي أعجبت به الإعجاب كله .

قرأت كتابه مرارا، وحفظت منه، وامتدت بي الأيام، فواظبت على قراءة معظم مؤلفاته، وحفظت الكثير والكثير من أشعاره . وبذلك تأثرت به، ووجدت نفسي أميل إلى متانة العبارة، وجزالتها ورصانتها والتفنن في التخيل والتمثيل، ولازمني الإعجاب بالرافعي، ومتابعة كتبه ومقالاته في الرسالة .. على الدوام .

ومعلوم أن الفتى في مثل سني لا بد أن يتأثر بما يقرأ، ويبقى هذا التأثر في عقله الباطن ووجدانه، ويلازمه في مقبل الأيام، ويشكل نوعية مواجهته للأدب .

وعلى الجملة .. يشكل شخصيته وحرفته الأدبية . فأنا مدين لأدب الرافعي في تشكيل نوعية اتجاهي في القراءة والكتابة منذ بدايته الأولى . وبقي أثر الرافعي ملازما، لا ينفك عني، في مراحل حياتي . ولقد اشتغلت بالقراءة والكتابة منذئذ إلى يومي الحاضر، وقد تجاوزت الثامنة والثمانين .

وإن كان ذلك لا يعني أنني لم أتأثر بغيره، ولكن بما أن تأثيره فيّ كان أسبق من تأثير سواه من الأدباء والمبدعين . أقول إني أرد النتيجة إلى مقدمتها الأولى، وأبين كيف أن أدب الرافعي أثر فيّ، وقد زودني بذخر لغوي وأدبي وخيالي ما زلت منه على ذكر .

ومرت الأيام وقرأت لمعاصري الرافعي من أمثال : طه حسين والعقاد وأحمد أمين والزيات وزكي مبارك، ولكني وجدت نفسي أتلو تلو الرافعي، وأضرب على قالبه فيما جرى به قلمه من نثر، وفاضت به قريحته من شعر، دون وعي مني، لأنه شكل شخصيتي الأدبية، وأرسى منها أساسا انبنى وقام عليه من بعد صرح شارك غيره في إقامته .

إنني في أول أمري شغلت بكتب الرافعي عن كتب من سواه ممن ذكرناهم سلفا، ولذلك انجذبت إليه انجذابا نفسيا، ولقد لاحظت أن لدى الرافعي نزعة فلسفية، فتحت عنوان كتابه « أوراق الورد» في فلسفة الجمال والحب نلحظ هذه النزعة الفكرية، تلك النزعة التي وجهت تفكيري هذه الوجهة الناقدة الفاحصة المقارنة . ولم أجد غيره من الكتاب من كانت له هذه الوجهة . لقد كنت أحفظ عن ظهر قلب جملا وعبارات وأشعارا للرافعي، تتضمن نزعة فلسفية، فتأثرت بها في ريّق شبابي، وكانت ملمحا من ملامح شخصيتي الأدبية من بعد.

إن المتعلم أو المريد لا ينسى معلمه أو شيخه على حال من الأحوال، ولله در من قال : « إن التعلم في الصغر كالنقش في الحجر » . وبعد أن اشتغلت بالتدريس في الجامعات خمسة وخمسين عاما .. كنت دائما أذكر تلاميذي بهذه الحقيقة .

وشاء الله أن أجد من تلاميذي من تركت في نفوسهم أثرا أطيب من ريح المسك، فكانوا يذكرونني بالخير على الدوام، وأسوق لذلك مثلا : أن أحدهم، وقد أحيل إلى المعاش، بعد أن شغل منصبا كبيرا في مصر، يطرق بابي، دون إخبار منه بذلك، ويقول إنه تلميذي، وإني درست له منذ خمسين عاما، وعانقني في شوق ومحبة، وعبر لي عن حبه وتوقيره الدائم لشخصي .

كما كنت مرة ألقي بحثا عن محمد إقبال، وبعد أن فرغت، وجدت من جاء يعانقني، وقال لي: إنه فلان الذي يدرس العربية في مدينة ساون باولو بالبرازيل، وإنه يذكرني بالحسنى، حيث علمته في مصر، وإني كنت على الدوام حاضرا في فكره .

وهكذا مثلما أنا معترف بفضل الرافعي عليّ . يعاملني تلاميذي ومريدي بنفس الحب والمودة والعرفان .

وهكذا أقيم بالدليل الحي الملموس الواقعي .. على حب التلميذ لمعلمه الأول . وهذا المعلم قد لا يكون مع تلميذه في مجلس الدرس، بل قد يكون بكتبه، وهذا ما يطابق صلتي بالرافعي !! .

كشاف مجلة الأدب الإسلامي

فهرس الموضوعات - المجلد الحادي عشر - الأعداد ٤١ - ٤٤

تابع فهرس الموضوعات - المجلد الحادي عشر

تابع فهرس الموضوعات - المجلد الحادي عشر

تابع فهرس الموضوعات - المجلد الحادي عشر

كشاف مجلة الأدب الإسلامي

فهرس الكتاب المجلد الحادي عشر - الأعداد ٤١ - ٤٤

تابع فهرس الكتاب - المجلد الحادي عشر

كشاف أخبار الأدب الإسلامي

أخي القارئ

في مجلة الأدب الإسلامي:
- الإبداع والنقد.
- الأصالة والتجديد.
- منبر الأدباء الإسلاميين.
- مكتبة الأدب الإسلامي.
- رسائل جامعية في الأدب الإسلامي.
- الأقلام الواعدة.
- مسيرة الأدب الإسلامي ورابطته العالمية.
- اشتراكك في المجلة دعم للأدب الإسلامي ورابطته العالمية.

أخي القارئ

- إهداء المجلة إلى صديق لك يجعله من أنصار الأدب الإسلامي.
- إهداء المجلة إلى أحد المراكز الإسلامية يتيح لعدد كبير من القراء أن يطلعوا على الأدب الإسلامي ومسيرة رابطته العالمية.
- إهداء مجلة الأدب الإسلامي من العلم الذي ينتفع به.

قسيمة اشتراك

سعادة رئيس تحرير مجلة الأدب الإسلامي

أرجو تسجيل اشتراكنا في مجلة الأدب الإسلامي لمدة ....

ومرفق طيه شيك باسم رابطة الأدب الإسلامي العالمية – حساب المجلة

بمبلغ ....

بيانات المشترك

الاسم: ....

الجنسية: ....

الوظيفة أو العمل: ....

العنوان: ....

هاتف المنزل: .... هاتف العمل: ....

ملاحظات أخرى: ....

قيمة الاشتراك السنوي

للأفراد: في البلاد العربية ما يعادل (١٥) دولاراً – خارج البلاد العربية ما يعادل (٢٥) دولاراً.

للهيئات والمؤسسات: ما يعادل (٣٠) دولاراً.

ترسل قيمة الاشتراك بشيك مصرفي معتمد. أو تودع حوالة باسم د. عبدالقدوس محمد ناجي أبو صالح رئيس تحرير مجلة الأدب الإسلامي ، الحساب رقم (١٥١٥/٤) في شركة الراجحي المصرفية للاستثمار فرع العليا العام (١٦٦) بالرياض.

وللتحويل من الحساب الشخصي إلى حساب المجلة على رقم الحساب (١٦٦٠٠١٥١٥/٤)

وترسل صورة الحوالة أو إشعار التحويل مع قسيمة الاشتراك على عنوان المجلة:

السعودية – الرياض ١١٥٣٤ – ص.ب ٥٥٤٤٦ هاتف ٤٦٢٧٤٨٢ – ٤٦٣٤٣٨٨ فاكس ٤٦٤٩٧٠٦ جوال ٠٥٣٤٧٧٠٩٤

قسيمة اشتراك (هدية - تبرع)

سعادة رئيس تحرير مجلة الأدب الإسلامي:

أرجو تسجيل اشتراكنا في مجلة الأدب الإسلامي لمدة .... يرسل هدية إلى:

الاسم: ....

العنوان: ....

ومرفق طيه شيك باسم رابطة الأدب الإسلامي العالمية – حساب المجلة

بمبلغ: ....

بيانات طالب الاشتراك

الاسم: ....

الجنسية: ....

الوظيفة أو العمل: ....

العنوان: ....

هاتف المنزل: .... هاتف العمل: ....

عدد النسخ المطلوب الاشتراك فيها: ....

المبلغ المدفوع: ....

قيمة الاشتراك السنوي

للأفراد: في البلاد العربية ما يعادل (١٥) دولاراً – خارج البلاد العربية ما يعادل (٢٥) دولاراً.

للهيئات والمؤسسات: ما يعادل (٣٠) دولاراً.

ترسل قيمة الاشتراك بشيك مصرفي معتمد. أو تودع حوالة باسم د. عبدالقدوس محمد ناجي أبو صالح رئيس تحرير مجلة الأدب الإسلامي ، الحساب رقم (١٥١٥/٤) في شركة الراجحي المصرفية للاستثمار فرع العليا العام (١٦٦) بالرياض.

وللتحويل من الحساب الشخصي إلى حساب المجلة على رقم الحساب (١٦٦٠٠١٥١٥/٤)

وترسل صورة الحوالة أو إشعار التحويل مع قسيمة الاشتراك على عنوان المجلة:

السعودية – الرياض ١١٥٣٤ – ص.ب ٥٥٤٤٦ هاتف ٤٦٢٧٤٨٢ – ٤٦٣٤٣٨٨ فاكس ٤٦٤٩٧٠٦ جوال ٠٥٣٤٧٧٠٩٤